الفكر والثقافة المعاصرة

في شمال أفريقيا

الفكر والثقافة المعاصرة

في شمال أفريقيا

المكتبة العربية

تصدرها

الثقافة والإرشاد القومي

يشترك فيها

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر

الدار القومية للطباعة والنشر — الدار المصرية للتأليف والترجمة



الجمهورية العربية المتحدة
الثقافة والارشاد القومى

هـذا الكتاب
سلسلة اشرف عليها الدكتور
رمزي زكي بطرس

الفكر والثقافة المعاصرة
في شمال أفريقيا

تأليف
أنور الجندي

الناشر الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة
١٣٨٥ ــ ١٩٦٥

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

عنينا بدراسة الفكر والثقافة المعاصرة فى المغرب العربى رسم صورة واضحة وموجزة فى نفس الوقت للحياة العقلية فى خلال هذه المرحلة التى بدأت باليقظة قبيل الاحتلال اللاتينى للشمال الإفريقى بأقطاره الأربعة ، تصلح لأن تكون مفتاحاً لدراسة واسعة ، وقاعدة أساسية لبحوث مستفيضة عن حركات النهضة واليقظة فى مجالها الدينى والسياسى ، وقضايا الوطنية والعروبة والإسلام ومايتصل بهذا من مختلف شئون التعليم والثقافة والصحافة والأدب والتاريخ فى مرحلة ممتدة من ١٨٣٠ إلى ١٩٥٤ ، وهو موعد استقلال تونس والمغرب واندلاع الثورة الجزائرية مؤذنة بالحرية للمنطقة كلها .

وعندى أنه قد تحقق بهذه الدراسة خلق الإطار الذى يصلح لكتابة موسوعة كاملة عن الفكر والثقافة المعاصرة فى المغرب العربى وهو المجال الذى لم يطرقه باحث بصفة مستوعبة متكاملة فى الأقطار والزمان الذى شمله هذا البحث .

والذلك فهو كتاب جديد حقاً فى موضوعه . حتى ليمكن القول بأنه أول كتاب يصدر فى المشرق العربى . وهو غير مسبوق بأى بحث على هذا النحو من الشمول حتى فى المغرب نفسه ، فإن جميع البحوث التى صدرت فى المغرب العربى كانت فى الأغلب مرتبطة بأقطارها ومختلف الكتب التى تناولت الحياة الثقافية فى المغرب اقتصر بعضها على الأدب وحده ، وبعضها الآخر اهتم بالأدب القديم . أما هذه المرحلة بالذات التى نطلق عليها (مرحلة اليقظة) على أساس أنها سبقت فى الشرق بالدعوة الوهابية التى دقت ناقوس الخطر ، وأيقظت العالم الإسلامى من سباته ، فلم تكتب عنها دراسة شاملة مستوعبة قوامها أن للمغرب طابعاً فكرياً واضحاً وأكيداً وإن امتزج بالفكر العربى الإسلامى مع المشرق ككل .

ولقد كنت أعتقد — منذ زمن طويل — أن علينا ديناً كبيراً للمغرب العربى حين قصرنا عن تقديم دراسة شاملة لآثاره ، وأعلامه وكفاحه الفكرى والثقافى . وحين حالت الظروف والأحداث دون التقاء جناحى الأمة العربية زمناً ، وقد انتهت هذه المرحلة منذ أشرقت شمس الحرية على ليبيا ، وتونس ، ومراكش ، والجزائر ، ولم يعد هناك عذر فى هذا القصور والتقصير .

وقد أولينا أنفسنا شرف الريادة فى هذا المجال على الأقل بالنسبة للعصر الحديث . وإننى لأرجو أن أكون بذلك قد استجبت لتلك الروح الصادقة المحبة التى ربطت المغاربة بالمشرق ، وجعلت عيونهم دائماً علينا ، حتى ما فتئت ألسنتهم وأقلامهم وصحفهم تذكر مشرقنا بكثير من الحب والإعجاب وتعتب علينا تقصيرنا فى مجازاة تقديرهم وإعجابهم ككتابنا ببعض رد الجميل ، وكثيراً ما طالعت هذا العتب فى صفحات متصلة ومتعددة ؛ وكان أغلبه عن كتب الباحثين فى تاريخ الأدب العربى ممن تجاوزوا المغرب فى فصولهم فلم يذكروه

وكثيراً ما قرأت مثل هذه العبارة :

« مما يؤسف له أن كثيراً من إخواننا المفكرين بالشرق يجهلون كل شىء عن المغرب . وأن عدداً لا يستهان به منهم معلوماتهم عن بلادنا ناقصة أو مشوهة » .

« أو هذه العبارة » عندما كنت فى باريس اجتمعت بكثير من المشارقة يسألون عن تونس . فإذا حدثتهم عجبوا ، وقالوا : ماكنا نظن أن البلاد التونسية على ما وصفت.

والتقيت برجل من العراق تظاهر بأنه مثقف فلما علم أننى من تونس قال لى : هل هناك من يتكلم اللغة العربية فى تونس فتعجبت من سؤاله وقلت له إن البلاد التونسية تعد فى العصر الحاضر من أشد الأقطار الإسلامية اهتماماً باللغة العربية واعتزازاً بالإسلام .

وفى تونس الجامعة الزيتونية ليس لها من عمل إلا خدمة اللغة العربية والشئون الإسلامية. قلت وآسفاه على الرابطة الشرقية كيف انحلت حتى صار المسلمون يجهلون بعضهم إلى هذا الحد ! . »

---

(١) محمد داود — مجلة الاسلام « اكتوبر ١٩٣٣ » .

(٢) محمد المختار بن محمود — مجلة الزيتونة « ١٩٥٦ » .

ويذكر آخر كيف أن الصحف المصرية والعربية لا تقابل كفاح الشمال الإفريقي بما يليق به من « التأييد والتشجيع » وأنه لا يوجد « في دوائر الطبقات الحرة المفكرة منها أدنى اهتمام والتفات لما يجري من القمع والإرهاب والزجر والعقاب والظلم والاغتصاب في كل أقطار الشمال الإفريقي . »

يحدث هذا بينما الشمال الإفريقي يحب البلاد الشرقية ويعمل على توطيد وتحقيق الرابطة الشرقية. «فما من حادثة تقع في الشرق، وما من مصاب يناله وما من مؤامرات تدخل عليه إلا وتجد لها الصدى والاهتمام في تونس مما لا تجده في كثير من الأحيان بالنسبة لحوادثها الخاصة وكوارثها العامة وللتونسيين من الإخلاص في حب الشرق والتهافت على استطلاع أخباره والتنقيب عن آثاره الشيء العجيب ؛ فالتونسي يعرف عن الحجاز والشام ، ومصر ، والعراق ، وإيران ، والأفغان ، وبعض ممالك الشرق تفاصيل تدهشك بدقتها وأصالتها .. . هذا هو موقف تونس من الشرق ، فهل للشرق نحو تونس مثل هذه العاطفة » وهل يعرف الشرق عن أحوال تونس ورجالها مثلما تعرفه تونس عنه ؟ وإنك إن تفتح ما شئت من كتب المشرقين وجرائدهم ومجلاتهم فلن تجد من يعرف عن تونس قليلاً أو كثيراً ، ولا تجد فيها تعرضاً لتونس وأخبارها ، فإذا فرضنا أنك تعثر على حديث عن تونس فإنك تجده مملوءاً بالأغلاط والحقائق المقلوبة ، والأستاذ الزيات قد ألف تاريخ الأدب العربي ، تعرض للأدب في مختلف أطواره وبلدانه ، ثم انتقل من المشرق إلى أقصى المغرب ماراً إلى بلاد الأندلس من غير أن يقف ولو قليلاً ، ولا يمكن لإخواننا الشرقيين أن يعترضوا علينا بأننا لم نظهر أنفسنا لهم ، ولم نطلعهم على ما عندنا من الآثار وعلى ما نحن عليه من القيمة الأدبية والعلمية ؛ وذلك لأنهم هم المطالبون بالبحث والتعرف علينا كما تعرفنا عليهم . (١)

هذا نموذج من عشرات النماذج من الجزائر وليبيا والمغرب ، تحمل العتاب وتشير إلى ما يكتبه أدباء المشرق عامة ، ومصر خاصة دون أن يذكر المغرب ، ولعل هذا كان في عصر مضى ، حيث كان الاستعمار البريطاني في مصر ، والفرنسي في المغرب يقطع الأواصر ، ويقيم السدود ؛ ويحاول أن يمزق أديم وحدة الفكر في الأمة العربية جميعها ؛ ولذلك كان لابد اليوم من أن يقدم مثل هذا العمل ، ليحقق الترابط والتجاوب ؛ وليكشف عن

---

(١) محمد المختار بن محمود ــ مجلة الزيتونة « ١٩٣٦ » .

عوامل الوحدة الفكرية فى الأمة العربية كلها ، فما من عمل فى المشرق إلا وله صداه فى المغرب ، وما من حدث فى المغرب إلا وله صداه فى المشرق ، وتيار الفكر العربى الإسلامى يجرى كالجدول من منبعه إلى مصبه ومعاهد العلم تتلاقى فى مناهجها لا فرق بين الأزهر والزيتونة ، ولا بين مدارس مكة والنجف ودمشق وبين معاهد فاس والجزائر وقسنطينة وبرقة .



وليس فى بحثى هذا صفة للإقليمية بحال من الأحوال ، ولا هو تشيع لهدف معين أو دعوة معينة ؛ فالفكر المغربى فى كتابى هذا جزء من الفكر العربى الإسلامى الممتد فى العالم الإسلامى والعربى جميعاً . ربما تميز بطابع معين فى خلال هذه الفترة هو طابع المقاومة . ولكنه متصل باللغة العربية والإسلام والتاريخ على نحو متكامل موحد لا انفصال فيه . ومن خلال هذه الدراسة يبدو مدى ارتباط المغرب كله كمقدمة للانصهار فى بوتقة الوحدة العربية الكاملة ، وارتباط الحركات الفكرية فى المشرق والمغرب ارتباطاً كاملاً فيه التجاوب ورجع الصدى ، وفيه التأثير والتأثر .

فالتيارات تبدأ هنا أو هناك ثم تتسع حتى تشمل ما بين المشرق والمغرب . وقضايانا جميعاً – مشارقة ومغاربة – متصلة متشابهة . واستجابتنا للأحداث واحدة . وكل صوت ارتفع فى المشرق أو المغرب تلاقى مع الآخر فى امتزاج وحنان . وقضايا فلسطين والجزائر – وهى كبرى قضايانا فى هذه الفترة – كانت تلقى أعمق المشاعر وتمتد إلى الشعر والقصة والصحافة والتأليف . وعلى الرغم من كل السدود والقيود التى حالت بين الجناحين فترة فإنهما لم ينفصلا أبداً ، كانت عين المغرب على المشرق دائماً . وكانت صحف المشرق تنبض بالأحاسيس المغربية وأقلام رجاله تكتب وألسنتهم تخطب . وما مرت فترة على المشرق دون أن يرده سفير من سفراء الوطنية والفكر . والشناقطة والثعالبى والفاسى وبورقيبة وأطفيش والخضر أسماء مغربية غالية لم تنقطع عن مشرقنا لحظة .

وإذا كان لى أن أقول : إن هذا الجناح الأيسر من الأمة العربية كان موضع بالنا فى المشرق منذ تكشفت أمامنا حقائق الأمور . وتلاقت أفكارنا مع هؤلاء الأبرار الذين قدموا يحملون لنا قصة كفاح مجيدة . فلما أتيح لدعوة الوحدة العربية أن يعلو صوتها ويمتد أمرها ، كان لابد أن تتناول الدراسات – فى مجال الفكر والثقافة والأدب – الأمة

العربية كلها ، وبدا مدى القصور لدينا فى مراجع المغرب العربى ودراساته ، وأعلامه ، هنالك كان لابد من تخصيص جهد وافر لعمل يكمل هذه الحلقة المفقودة ، وقد أتاح لنا إخواننا فى ليبيا وتونس والجزائر ومراكش على إثر الاتصال بهم فرصة كبرى لا طلاعنا على إنتاجهم وآثارهم ، كما وجدنا فى دار الكتب المصرية ، ومعهد الدراسات العربية عديداً من المراجع والدوريات ، ولقينا من إخواننا الذين راسلونا. أمثال : عبد الله كنون ، وعبد الكريم غلاب ، وعلى مصطفى المصراتى ، ومحمد على دبوز ، وأبو القاسم كرو ، والدكتور عزيز الحبابى ، وعلال الفاسى ، ومحمد الصباغ ، وأحمد السطاتى ، وعبد القادر الصحراوى معونة كبرى فى الحصول على عديد من المراجع والدوريات ، أمدتنا حقيقة بما كشف لنا آفاق البحث وأتاح لنا الفرصة لاستجلاء الغامض وكشف الحقيقة . وكان لمجلة (دعوة الحق) المغربية فضل لا ينسى ، فقد أمدتنى مجموعتها بفيض كبير من النصوص والدراسات ، ولقد كان يمكن أن يكون هذا الأثر أكبر مما هو فى الواقع لو تفضـــل إخواننا الذين وجهنا إليهم رسائلنا الخاصة والمفتوحة على صفحات الجرائد بمراسلتنا .

ويمكن القول بأننا استطعنا بهذا العمل أن نقدم إطاراً لعمل كبير فى مجال خصب ، وكل أملى أن يكون هذا العمل قد وضع لبنة فى بناء الفكر العربى المعاصر ، وسد فراغا فى مجال من مجالات الدراسة الأدبية يمكن أن يكون نقطة البدء لعمل أكبر .

والله الموفق .

(القاهرة : الهرم) سبتمبر — ١٩٦٤

أنور الجندى

تمهيد

لكي ندرس الفكر والثقافة المعاصرة فى المغرب العربى بأقطاره الأربعة ، أو المغرب العربى الكبير ، كما يطلقون عليه أخيراً ، لابد من نظرة سريعة إلى حياة هذا الجناح الأيسر من الأمة العربية الذى يعيش على أرض إفريقيا ، والذى يطلق عليه الشمال الإفريقى باعتباره يحتل منطقة متصلة على شاطىء البحر المتوسط : تبدأ من حدود السلوم وتضم ليبيا وكان يطلق عليها من قبل : طرابلس وبرقة ، ثم تونس والجزائر وكان يطلق عليها جزائر الغرب ، والمغرب وكان يطلق عليها مراكش أو المغرب الأقصى ولا يزال اسم المغرب قائماً حتى الآن فى مجال الحديث للتفرقة بين الإقليم وبين التعبير عن المنطقة ككل تحت اسم المغرب العربى .

وقد مر الشمال الإفريقى منذ بدء التاريخ بمراحل تاريخية ست هى : البربر ، والفينيقيون ، والرومان ، والوندال ، والروم ، والبيزنطيون ، والعرب . كما يمثل المغرب العربى بأقطاره الأربعة وحدة طبيعية متماسكة ، ورقعة جغرافية متشابهة الخصائص والمناخ ، ووحدة تاريخية فى مقاومة الغزو وإنشاء الحضارة وطابع الفكر الذى أصبح منذ بزوغ الإسلام مزيجاً عربياً إسلامياً قوامه سكانه البربر الأصليون ، والعرب المسلمون الذين دخلوا البلاد وامتزجوا بالسكان فى وحدة تبلورت على مدى الزمن .

ومنذ بزوغ الإسلام امتدت هذه الوحدة الجغرافية والتاريخية إلى المنطقة العربية كلها حيث تمثل المغرب العربى فى صورة جناح أيسر للأمة العربية والعالم الإسلامى جميعاً وزادت وحدة جديدة هى وحدة الفكر والثقافة التى أصبح قوامها الفكر العربى الإسلامى الذى أنشأته الحضارة الإسلامية فى خلال توسعها وامتدادها حتى وصلت إلى الأندلس ، وجنوب فرنسا .

ومنذ ذلك الوقت التقى المغرب مع الشرق فى وحدة فكر وثقافة وسياسة ، ولم تعد هناك حدود بين أجزاء العالم الإسلامى الذى سار فيه العلماء والفقهاء والأدباء مشرقين أو مغربين ؛ كابن بطوطة ، وابن خلدون ، وعشرات من الأعلام الذين وردوا مكة والأزهر وتلقوا العلم بهما وحملوا معهم أثارة من هذا العلم وبعض مخطوطاته .

وكذلك فعل المشارقة الذين ذهبوا إلى أقصى المغرب وإلى الأندلس ، وبدت وحدة الفكر واحدة فى إنتاج المشارقة والمغاربة ، حيث جمعتهم طوابع الثقافة العربية الإسلامية وأساسها القرآن ، والحديث . والفقه ، واللغة العربية ، وجمعهم التاريخ بأحداثه ووقائعه وبطولاته .

* * *

وإذا كان العرب قد عـبروا (١) من المشرق إلى المغرب بعد الفتح الإسلامى فإن الأصول الأولى لسكان الشمال الإفريقى هى أصلاً من الموجات التى قذفت بها جزيرة العرب إلى إفريقيا، وهما البربر واللوبيون وهناك من يرى أن البربر واللوبيين جنس واحد . أما البربر فقد قدموا من الشرق على فترات ما قبل التاريخ فى الأغلب على ما نحو ما تكشف عنه الدراسة فى أطوانها . وأما اللوبيون فهم بالحق عرب كنعانيون قدموا الشمال الإفريقى حوالى ١٣٠٠ فاندمجوا بأبناء عمومتهم البربر وأصبحوا أمة واحدة . أما الفينيقيون الذين وردوا المغرب فى عام ٨١٤ قبل الميلاد . وأسسوا قرطاجنة فهم من أصل سامى كنعانى موطنهم الأصلى جزر البحرين ، ثم لبنان وقسم من سوريا . وهم أصحاب الحروب الثلاثة البونيقية مع روما حيث احتلت قرطاجنة فى عام ١٤٦ ق.م. والرومان هم أول من قسم الشمال الإفريقى الموحد إلى ثلاث مقاطعات ليسهل عليهم استعماره . وقد واجههم المغرب بمقاومة جبارة ممتدة حتى سقط الاستعمار الرومانى فى عام ٤٣٩ م. حيث احتل الوندال الشمال الإفريقى من عام ٤٣١ إلى عام ٥٣٤ م. وخلفهم الروم البيزنطيون من عام ٥٣٤ إلى عام ٦٤٢ م. . وكان استعمارهم مريراً . واجهه الأهالى بالثورات والحروب والمقاومة . وأشرق نور الإسلام وامتد إلى مصر منذ سنة ٢٧ هجرية وإلى الشمال الإفريقى ٤٩ هـ وبرزت أسماء معاوية بن حديج وعقبة وحسان وموسى بن نصير وطارق .

ومنذ ذلك التاريخ تحول المغرب العربى تحولاً حديداً . وبدأت صفحة إسلامية لاتزال تمتد إلى اليوم بمقوماتها وقيمها وثقافتها وفكرها .

وكان للمغرب دوره الضخم فى مجال العلم والثقافة والفكر ، وأمانته لذلك واضحة فى دور جامعتيه الزيتونة (تونس) والقروين (فاس) ثم امتداده الثقافى إلى الأندلس

---

(١) ك وحدة المغرب العربى ، عبد العزيز بن عبد الله ١٩٥٦ م ١ ، مجلة المجـــلة مارس ١٩٦٤ ومجلة دعوة الحق ابريل ٦٢ ويولية ٦٢ ويونية سنة ٥٨ ، محمد زنيبـــر وعبد الوهاب بن منصور ،

وجامعاتها فى قرطبة وأشبيلية ... ومنذ عام ٦٥٦ ميلادية حتى ١٨٣٠ م وهو تاريخ الغزو الأوربى للجزائر كان للمغرب دوره الضخم فى عالم الثقافة واللغة والفكر والتاريخ والحضارة . حيث ظهرت دول الأغالبة والفاطميين والصنهاجيين والمرابطين والموحدين والحفصيين ، وبرز أمثال أسد بن الفرات وسحنون وابن هانى وابن رشيق والمعتمد ابن عباد وعبد المؤمن بن على وابن رشد وابن عرفه وابن خلدون . وعشرات لا يحصيهم العد فى مجال ضخم يمثل قطاعاً حياً كبيراً من الحضارة الإسلامية والثقافة العربية .

وقد جاء الاستيلاء العثمانى حوالى ١٥٧٣ م على ليبيا وتونس فالجزائر . أما المغرب الأقصى فقد تعذر على القوات الفاتحة وظل محتفظاً باستقلاله ، ولم يكن العهد العثمانى إلا امتداداً طبيعيا فى العالم الإسلامى كله للإمبراطورية الإسلامية .

★ ★ ★

وكانت الحروب الصليبية فى المشرق إرهاصاً لاتجاه أوربا الناهضة إلى السيطرة على العالم الإسلامى والتحكم فيه . ثم كان غزو نابليون لمصر فى عام ١٧٩٨ وبريطانيا فى عام ١٨٠٧ تمهيداً لغزو فرنسا للشمال الإفريقى القريب منها ، والذى كان له دوره الضخم فى غزو أوربا وفتح الأندلس من قبل . وقد بدأ غزو الجزائر فى عام ١٨٣٠ حيث بدأت المقاومة الحربية بقيادة الأمير عبد القادر الجزائرى ، امتدت خمسة عشر عاماً حتى عام ١٨٤٧ . وكانت مقدمة لأمرين :

الأول : غزو تونس وليبيا ، والمغرب بعد ذلك بسنوات وهو مايعنينا فى هذه الدراسة ، وهو يقظة الفكر العربى الإسلامى وتفتحه بالمقاومة والتحدى للنفوذ الغربى الذى تمثل فى ميدانين : ميدان السياسة الوطنية ، وميدان الفكر ، ومن ثم بدأت اليقظة ممثلة فى حركات ذات طابع إسلامى واع قوامها العودة بالإسلام إلى منابعه ، وفتح باب الاجتهاد ، وتحرير النصوص من التقاليد ، وفتح الباب أمام المغرب العربى للانتفاع بحضارة الغرب وثقافته على النحو الذى يمنحها القوة ، ويدفعها إلى الأمام ويمكنها من مقاومة السيطرة والنفوذ الغربى العنيف .

والحق أنها كانت معركة ضخمة أشد قوة وأعنف تحدياً من معارك الحرب والقتال ؛ فقد كان على الفكر الغربى بقيمه أن يغزو الفكر العربى الإسلامى المغربى ، وأن يحطم قيمه الأساسية ويسيطر عليه ويحوله إلى تبعية خالصة ، وكانت وسائله إلى ذلك عنيفة مريرة فى مجال التعليم والصحافة وفى مجال الإسلام واللغة العربية والتاريخ

العربى . وقد استعان على ذلك كله بنظريات ودعاوى ومؤلفات وجامعات وبعثات كالآباء البيض والمبشرين ، وحمل فى سبيل ذلك لواء دعوات قوامها التجنيس والتغريب والفرنسة والإدماج ، وجرت محاولاته فى التفرقة بين عنصرى الأمة بالقانون والمدرسة والمحكمة واللغة . ومضت محاولاته للقضاء على اللغة العربية وجعلها غربية فى المدرسة والبنك والمحكمة .

وامتدت المحاولة عنيفة مريرة ، ولكن الفكر العربى الإسلامى المغربى عاش معركة مقاومة طويلة امتدت من عام ١٨٣٠ إلى عام ١٩٦١ تحررت خلالها ليبيا وتونس والمغرب ثم الجزائر وبدأت صفحة جديدة من الاستقلال .

ونحن فى هذه الدراسة نحاول أن نرسم صورة للفكر والثقافة المعاصرة فى المغرب العربى كله خلال هذه الفترة الدقيقة من حياة المغرب العربى . وهى فترة الاحتلال والنفوذ الأجنبى ونصور إلى أى حد كان نفوذ التغريب ، وإلى أى مدى بلغت المقاومة قمة التحدى حيث كان السلاح الوحيد البتار فى هذه المعركة هو «سلاح الكلمة» .

والحق أن المغرب أثبت مقدرة خارقة فى هذه المعركة وصمد صموداً جباراً ، وواجه الأمور بيقظة وحنكة وسلامة أعصاب لاحد لها ، واستطاع بذلك أن يكسب أغلب الأرض التى كانت فى يد النفوذ الأجنبى ، وأن يفرض على الاحتلال الفرنسى والإيطالى والأسبانى قوة شخصيته التى لاتزول ولا تمحى .

القسم الأول

حركات اليقظة والنهضة

السنوسية ـ السلفية ـ الإصلاحية

جمعية العلماء ـ الطرق الصوفية

مدخـــل

حمل المغرب الكبير – منذ قَبِلَ الدعوة الإسلامية واعتنقها – لواء الفكر الإسلامي وأسهم فيه بجهود ضخمة ، وأبرز أعلاماً وكتاباً وفقهاء وفلاسفة ، كما أسهم فى الحركة الثقافية مرتبطاً مع المشرق بالرحلات وتبادل الآثار . وكان لمنارتيه الكبيرتين : الزيتونة والقرويين أثر لا حد له فى بعث الفكر العربى الإسلامى وحمايته وتطويره . فإذا جاء النفوذ الأجنبي ينشر ظلامه على هذه المنطقة ، ومن بعدها الاحتلال الفرنسى للجزائر فى عام ١٨٣٠ مرهصاً باحتلال تونس وليبية والمغرب الأقصى ، كانت مقاومة الغزو الحربى والعسكرى والثقافى الغربى مصدر يقظة للفكر العربى الإسلامى على قاعدة التحدى ورد الفعل .

هنالك بدأت حركة اليقظة والبعث والإحياء فى ميادين ثلاثة :

١ – التجديد فى مجال الدين وتحريره من الجمود وفتح باب الاجتهاد.

٢ – العمل الوطنى والسياسى ، وظهور أدب المقاومة والصحافة .

٣ – التطور الثقافى والفكرى فى ميدان التعليم والثقافة وكتابة التاريخ .

وقد جرى التجديد الدينى فى مجال بعث مفاهيم الإسلام الأولى ، والعودة إلى المنابع الأساسية والتحرر من الوثنيات والخرافات ، وأطلق على هذا العمل اسم «السلفية الجديدة» .

أما العمل الوطنى فقد قام فى سبيل المطالبة بالحرية والاستقلال ومقاومة الحماية والاحتلال والدعوة إلى وحدتين :

١ – الوحدة المغربية بين الأقطار الأربعة .

٢ – والوحدة العربية الكبرى وفى ظل هذا العمل ظهر أدب المقاومة والتجمع . وقامت الصحافة بدورها الكبير فى مقاومة حركة الإدماج والفرنسة .

وفى المجال الثقافى بدأت حركة التطور الثقافى والفكرى من أجل: حماية اللغة العربية ، ومقاومة التغريب ، وبعث التاريخ وتجديده ، وتجديد المفاهيم العربية الإسلامية ، وإبراز القيم الأساسية إزاء الغزو الفكرى الغربى .

برزت معالم النهضة واليقظة فى المغرب العربى مبكرة ، واتخذت صورة الحركات الجماعية ذات الطابع الإسلامى قبل أن تطأ قوات الاحتلال الفرنسى للجزائر أرض هذا الجناح من الوطن العربى . وقد تمثلت هذه المعالم فى دعوات مختلفة لى العودة لمنابع الإسلام الأولى ، والتحرر من الجمود الذى ران على المجتمع الإسلامى نتيجة إغلاق باب الاجتهاد ، والتحجر عند المظاهر الزائفة التى غلبت على صورة الإسلام النقية فى فترات الضعف الطويلة التى مرت بالعالم الإسلامى ، بعد أن تدهورت الإمبراطورية العثمانية ودخلت فى مرحلة الانهيار .

وما كادت أقدام الاحتلال تطأ أرض الجزائر فى عام ١٨٣٠ حتى بدأت حركات المقاومة الفكرية تسير بخطوات واسعة بجوار المقاومة العسكرية ممثلة فى الحركة السنوسية التى قادها رجل من الجزائر هو محمد على السنوسى الذى هزه حادث الاحتلال الفرنسى للأرض المغربية ، ودفعه إلى العمل السريع من أجل المقاومة على أساس حركة تجميع شاملة تعم العالم الإسلامى كله ، وتحاصر الاستعمار وتحاول أن تقضى عليه .

وقد بدأت الحركة السنوسية فى برقة ، ولكنها مدت نفوذها إلى المغرب كله وإلى إفريقيا فى الجنوب . ولم تلبث الحركة السلفية أن ظهرت فى (المغرب الأقصى) واتسع نطاقها ثم ظهرت الحركة الإصلاحية فى تونس ، وكانت بذور اليقظة تنمو فى الجزائر على أيدى الأبرار حتى تبلورت بعد سنوات فى جمعية العلماء .

وهكذا توزعت حركات النهضـــة الشمال الإفريقى كله وتلاقت على اختلاف مظاهرها وأساليبها ، فلم تكن السنوسية فى (برقة) ، وهى حركة صوفية فى مظهرها أقل نفوذاً وإيجابية من حركات السلفية (فى فاس) ، أو الحركة الإصلاحية فى (تونس) ، أو جمعية العلماء فى (قسنطينة) فهى تتلاقى جميعها فى هدفها الأساسى وهو مقاومة الاستعمار الغربى بكل الوسائل ، وتنقية الإسلام من الزيوف التى حولت المسلمين إلى الجمود ، وفتح باب الاجتهاد والكشف عن جوهر الإسلام الحى ، وبث الثقافة الإسلامية ، ونشر مفاهيم الإسلام فى العلم والجهاد ، ومقاومة العدو الغاصب وحماية الثغور ، والدفاع عن الحمى وإبراز ملامح الشخصية العربية الإسلامية بمقوماتها وتاريخها الملىء الحافل بالبطولات والأمجاد ، ولم تتوقف هذه الحركات عند هذا الحد بل ذهب بعضها إلى إعلان ضرورة الأخذ من الحضارة الغربية ما يزيد الأمة العربية والمسلمين قوة على مقاومة النفوذ الأجنبى والسير مع موكب النهضة العالمية .

والحق أن الدور الذى قامت به هذه الحركات كان بعيد المدى وقوى الأثر فى إيقاظ المغرب ودفعه إلى الحركة والحياة والمقاومة . ولم ننس دور الطرق الصوفية فى إذاعة الإسلام والتبشير به ، مع الكشف عن أخطائها والتماس بعض فرقها الاتصال بالنفوذ الأجنبى ، مما دفع حركات السلفية إلى مقاومتها مقاومة عنيفة . وبالجملة : فإن حركات اليقظة والنهضة ذات الطابع الإسلامى كانت مقدمة لحركات العمل الوطنى والسياسي التى ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى وقد تبلورت بعض هذه الحركات فى نطاق الكفاح الوطنى من بعد .

كما كانت زيارة الشيخ محمد عبده لتونس والجزائر ذات أثر بعيد المدى فى تأكيد هذا الاتجاه السلفى الواضح الدلالة فى العمل الفكرى والوطنى جميعاً، وعاملاً من عوامل الربط بين الحركات الفكرية والوطنية بين المشرق والمغرب .

ولاشك فى أن هذه الحركات كانت تمثل المقاومة الفكرية والوطنية للاستعمار والاحتلال والنفوذ الأجنبى الذى بدأ يتغلغل فى الشمال الإفريقى باحتلال الجزائر ، فتونس ، فليبيا ، فالمغرب فى خلال المرحلة السابقة على الحرب العالمية الأولى . ودور السنوسية مع الاحتلال الإيطالى يمثل ذروة العمل العسكرى والسياسى لهذه الحركات التى امتدت من بعد ، وتبلور بعضها فى المنظمات الوطنية لحركة السلفية المغربية . وظهر بعضها الآخر كجمعية العلماء الجزائريين ليحمل لواء المقاومة فى مجال اللغة العربية والإسلام على تغطية الميادين الفكرية والثقافية التى قصرت عنها المنظمات السياسية .

أولاً — الحركة السنوسية

بدأت الحركة السنوسية فى صورتها العملية فى عام ١٨٤٠ م ، عندما عاد من مكة « محمد على السنوسى » إلى برقة ، وعندما بنى الزاوية البيضاء بالجبل الأخضر فى عام ١٨٤٢ م ، وقد امتدت دعوته منذ ذلك الوقت ، مؤثرة أبعد الأثر فى الشمال الإفريقى كله ، ناشرة للإسلام فى أواسط إفريقيا حتى بحيرة تشاد .

وقد رعاها مؤسسها الأول حتى توفى فى عام ١٨٥٩ ، منافحاً عن دعوته ، يعمق مجراها ويركز دعائمها ، ويوسع من آفاقها .

ولم يكن (محمد على السنوسى) فى حياته الخصبة وقبل إعلان دعوته إلا عاملاً فى سبيل اليقظة والحرية منذ مطالع حياته .

وإذا كانت الحركة السنوسية قد بدأت خطواتها فى (برقة) فإنها قد بدأت فعلاً من الجزائر ، ولم يتوقف امتدادها منذ ظهورها حتى شملت المغرب العربى كله ، وتخطته إلى الجزيرة العربية وغيرها .

ذلك أن (محمد على السنوسى) كان جزائرياً فى الأصل ، ولد فى عام ١٧٨٧ م فى (مستغانم) ، وكان قد تخطى الأربعين عندما احتل الفرنسيون بلاده ، وكان هذا الحادث هو نقطة البدء فى عمله الضخم من أجل مقاومة النفوذ الغربى .

فقد هزه الحادث هزاً عنيفاً ودفعه إلى الخروج من الجزائر فى سبيل العمل من أجل الحرية للوطن الإسلامى كله ، تحريراً قائماً على أساس مفاهيم الإسلام ، كان احتلال الجزائر هو أول حادث للغزو الغربى المسلح للعالم العربى ، وهو الذى لفت نظره إلى العمل .

وكان سبيله إلى العمل ، هو رحلة طويلة إلى المغرب ، حيث أمضى سبع سنوات من سنة ١٨٢٢ — ١٨٢٩ م بين جامع القروين فى فاس ، ودراسة القادرية والشاذلية والدرقاوية والناصرية وغيرها من الطرق الصوفية . وزيارة الزوايا على طول المنطقة ، حتى وصل (خطه توات) من مفاتيح الصحراء .

ثم بدأ رحلته الأخرى إلى المشرق لاستكمال دراسته وبحثه ، فاتجه إلى القاهرة ، واتصل بالأزهر وعلمائه ، وأعلن آراءه ، محاولاً إيجاد بيئة صالحة لدعوته، غير أن علماء الأزهر ، الذين كانوا إذ ذاك غارقين فى مغلق التقليد عارضوه وقاوموه ، وقد عجب محمد على السنوسى من قبول العلماء لحكم محمد على والى مصر واستبداده وظلمه واستسلامهم له دون مقاومة أو معارضة ، ثم ولى وجهه نحو الجزيرة العربية ، فقصد مكة حيث اتصل بالوهابيين ، والتقى معهم فى مفاهيم تحرير العقيدة وتطهيرها .

وفى مكة عرف أحوال المسلمين وأخلاقهم ، واستطاع أن يتصل بالكثيرين من القادمين من مختلف أنحاء العالم الإسلامى — فى مواسم الحج — وأن يخالطهم دارساً باحثاً مع مفكريهم ...

وفى مكة التقى بالسيد أحمد بن أدريس الفاسى ، مؤسس الطريقة الإدريسية وأقاما معا حتى توفى ابن ادريس فى عام ١٨٣٥م وأقام هو زاوية جبل أبى قبيس ، ومنها قصد إلى اليمن لمتابعة جولته ودراسته .

ومن ثم أحس أنه قد استكمل بحثه عن الدولة العثمانية وممالكها ، وحال المسلمين فى مختلف أقطارهم ..

هناك صح عزمه على العمل ... بعد أن تبين له أنه لا يوجد بالعالم الإسلامى مرشد أو مصلح ، وكان قد قضى على الحركة الوهابية ، وبدأ ضعف الدولة العثمانية التى عجزت عن حماية الجزائر ، أو الدفاع عنها إزاء الغزو الفرنسى وقد صور مشاعره إذ ذاك بقوله : « أفكر فى العالم الإسلامى ، فبالرغم من سلاطينه وأمرائه ورؤسائه وعلمائه ، فهم لايزيدون على أن يكونوا كقطيع من الغنم الذى لا راعى له . بكل محل من محلات الإسلام تجد المسلمين وعلماء الدين ، ولكنك لا تجد فى العالم الإسلامى « مرشداً » حقيقياً تكون غايته سوق الجميع إلى هدف واحد ، إن ديننا الحنيف دين توحيد أسس على الاتحاد ، ولكن الخلاف والتفريق قد سادا جميع النواحى ، لأن العلماء والمشايخ ليست لهم غيرة دينية حتى ينشروا العلوم والمعارف ، انظروا إلى أحوال السودان والصحراء تجدوا أفواجاً من الشعوب يعبدون الأوثان ، ويوجد فى كل مسجد من مساجد المعمورة جماعة من العلماء غير العاملين ، لا هم لهم غير راحة أجسادهم ، حريصين على لذاتهم ، غير قائمين بواجباتهم ، لا ضمائر لهم تؤنبهم على إهمالهم إرشاد هؤلاء المساكين ، وقد اتصل بنا خبر أحوال العالم الإسلامى

من القوافل التي ترد إلى بلادنا ، إننا مغلوبون فى كل محل ، وإن المقاطعات والخطط المعمورة تذهب من أيدى المسلمين فى كل وقت وبسرعة البرق ، فالإسلام فى حالة من التدهور المخيف وهو ما فكرت فيه .. »

فى ظل هذه المشاعر والمفاهيم عمل (محمد على السنوسى) على بناء قوة عربية إسلامية فى صحراء ليبيا ، تقوم دعامتها على أساس الزوايا المتناثرة ، وتمتد لتطوق العالم الإسلامى كله . إلى السودان ، إلى غرب وأواسط أفريقيا ، إلى صحراء ليبيا ، إلى مصر ، إلى مكة .. على نحو يحمل صورة الطرق الصوفية ، ولكنه يعتمد أساساً على المفاهيم السلفية المتحررة :

(١) عودة الإسلام إلى منابعه الأولى .

(٢) تطهير العقيدة من أدران البدع والخرافات .

(٣) توحيد المذاهب ، وجمع العالم الإسلامى على وحدة حقيقية .

(٤) فتح باب الاجتهاد .

(٥) نشر الإسلام فى البلاد التي لم ينتشر فيها .

(٦) مقاومة النفوذ الأجنبي .

وقد استطاعت الدعوة السنوسية أن تحقق فى هذا المجال كله عملاً ضخماً ، امتد منذ عام ١٨٤٠ أكثر من قرن كامل حتى تحررت ليبيا من النفوذ الاستعمارى .

وكان موقفهم الواضح الضخم الذى كشف عن أصالة الدعوة وقوتها ، هو مقاومة الغزو الإيطالى فى عام ١٩١١ ، وكيف كبدوا القوات الإيطالية الضحايا ، وصمدوا فى المقاومة سنوات طويلة ، امتدت خلال الحربين العالميتين .

وفى مجال نشر الإسلام فى القارة الإفريقية كان عملهم بالغ الأهمية والقوة ؛ فقد استطاعوا تخليص الأطفال الأرقاء وعتقهم بشرائهم من القوافل التي كانت تتجر بالرقيق القادمة من السودان، والقيام على تربيتهم فى جغبوب وغدامس وغيرهما حتى يبلغوا أشدهم وفق منهج معد من التربية والتعليم ، ثم يسرحوهم إلى أطراف السودان حتى بحيرة تشاد يدعون قومهم وبنى جلدتهم إلى الإسلام ، وهكذا كانوا يقدمون فى كل عام مئات من مبشرى السنوسية ينبثون فى مختلف أنحاء القارة يبشرون بالإسلام ، وقد بلغوا سواحل الصومال شرقاً إلى السنغال غرباً .

وقد استطاع هؤلاء مع عديد من التجار المسلمين الذين بثتهم السنوسية أن ينفذوا إلى قلب القارة وأطرافها لدعوة الأقوام « الفيتشيين » ، وبناء زوايا جديدة فى الأقطار الواسعة ، بل إنهم استطاعوا أن يؤسسوا ممالك مثل سلطنة رابح وأحمد وساموری .

وهكذا قامت السنوسية بوظيفة الجهاد والتبشير ، ومقاومة الاستعمار والنفوذ الأجنبي ، حتى كانت فرنسا تعتبر السنوسية العدو الأول فى إفريقيا ، وتحرض عليها الخلافة العثمانية ، حتى تقضى عليها ، كما قضت على الوهابية فى الحجاز . وكثيراً ما ادّعت أوربا أن الحركة السنوسية تهدد السلطنة العثمانية فى ممتلكاتها قبل أن تهدد أوربا .

وقد عدها كتابهم ، وفى مقدمتهم (دوفرير) ، المسئولة عن جميع أعمال المقاومة التى وقعت ضد فرنسا فى الجزائر ، والمدبرة لجميع نكباتها فى الشمال الإفريقى وفى السنغال ، وإلى السنوسية نسبت ثورة محمد عبد الله فى تلمسان وصحراء الجزائر فى عام ١٨٤٨ ، ١٨٦١ ، وثورة الصادق بجبال أوراس ١٨٧٩ ، وثورات أولاد سيدى الشيخ فى عام ١٨٧٩ — ١٨٨١ ، والحركات المعادية لفرنسا فى عام ١٨٨٢ ، وحوادث طرابلس ضد فرنسا فى عام ١٨٧٩ — ١٨٨٣ .

وعندهم أن السنوسية هى أخطر أعداء النفوذ الفرنسى فى شمال إفريقيا والسنغال ، وأنها العقبة الكبرى فى سبيل توسعهم الاقتصادى والسياسى داخل إفريقيا ، كما أنها العائق الأول فى طريق أهدافهم فى القارة الواقعة شمالى خط الاستواء .

وقد ظل هذا الخوف الدائم من السنوسية معلناً فى الصحف الأوروبية منذ بدأت هذه الحركة ، وقبل أن تدخل فى معارك حقيقية مع الاستعمار الإيطالى (خلال الفترة من عام ١٨٤٠ — ١٩١١ م) . وظل كتاب أوربا الاستعماريون يحذرون من ظهور زعيم إسلامى عظيم فى شمال إفريقية ، كما كتب (الكابتن دارى) من رجال الجيش البريطانى يحذر من قيام زعيم إسلامى تتوحد تحت لوائه قبائل الطوارق وعشائر العرب والبربر ، وتنبأ بأنه إذا استفحل أمره وعززت نجد قواته ، فإن العالم الإسلامى كله يصبح يداً واحدة ، ويستطيع أن يزحف على أوربا فيكتسحها ، وتستطيع جيوش المسلمين إذ ذاك محاصرة باريس وتدميرها .

وتقول صحيفة السعادة الفرنسية العربية (١) التى كانت تصدرها الحماية فى مراكش إنك أينما طفت فى مدن ليبيا من برديه حتى العقيلة وطرابلس وقراها ودساكرها وواحاتها ومضارب البدو ، وجدت اسم السنوسى محفوراً على الصخور ، أو مكتوباً على الجدران ...

والحق أن السنوسية استطاعت أن تصارع النفوذ التبشيرى المسيحى العميق الجذور المؤيد بنفوذ الدول الغربية فى أواسط أفريقيا وشرقها وغربها ، وأن تسيطر عليه حين حولت بحيرة تشاد مركزاً للدعوة فى أواسط إفريقيا ونشرت الإسلام فى واداى الباقرمى — والبوركوه وتبو ونهر بينوى إلى أن بلغوا النيجر الأدنى .

ولقد كانت حصافة مؤسس الدعوة « محمد على السنوسى » ويقظته هى العامل الأول فى نجاح هذه الدعوة وامتدادها ، بينما سقطت دعوتان معاصرتان له هما : الوهابية فى قلب الجزيرة العربية ، والمهدية فى السودان ، وذلك لحياديته العجيبة ، وطبيعة « عدم التدخل » التى اتخذها بالنسبة لكل ماحوله من مضطرب الأحداث ، فهو لم يجابه خطر الجزائر إلا مرة واحدة عندما قصد إلى قابس محاولاً دخولها ، وكان الفرنسيون قد أحيطوا علماً بذلك ، فحشدوا قواتهم على الحدود التونسية الليبية ، والحدود الجزائرية الليبية ، للقبض عليه ؛ هنالك عاد من قابس بعد أن أنفذ إليها الأسلحة التى كانت معه مع بعض أتباعه المتنكرين ، وعاد إلى طرابلس حيث أمضى بها بعض الوقت ، ثم واصل سفره إلى برقة حيث التقت رغبات أهالى القبائل على مبايعته للعمل ، فأنشأ (الزاوية البيضاء) أول زاوية له فى صحراء إفريقيا ، وكانت زاويته الأولى فى الجزيرة العربية فى جبل أبى قبيس .

وهولم يتدخل فى عديد من الدعوات التى وجهت إليه ، ورفضها جميعاً . وكان أبرز معالم حياديته موقفه من دولة الخلافة التى قضت على الدعوة الوهابية بنفوذ وقوات محمد على فى مصر ، وكان فى الإمكان أن توجه إليه مثل هذه الحملة .

ورفض دعوة من ألمانيا لمساعدتها ضد فرنسا فى إفريقيا فى عام ١٨٧٢

ورفض دعوة من تركيا لمساعدتها ضد روسيا فى عام ١٨٧٦

ورفض دعوة إيطاليا لمساعدتها ضد تقدم فرنسا فى تونس فى عام ١٨٨١

---

(١) عدد ٩ اكتوبر ١٩٠٧ لكاتب انجليزى

فعل ذلك على الرغم من خصومته (١) العنيفة لفرنسا ، وعدائه العنيف لها لأنه كان حريصاً على ألا يحل النفوذ الإيطالى محل النفوذ الفرنسى .

ورفض دعوة عرابى فى عام ١٨٨٢ م والمهدى السودانى من بعد فى طلب الالتجاء إلى الأراضى الليبية .

ولعل هذا الموقف الصلب القائم على تخطيط دقيق قوامه الحيدة التامة هو الذى مكن السنوسية من الحياة والبقاء والامتداد خلال الثمانين عاماً ، حتى دخلت معركتها الأولى مع الاحتلال الإيطالى .

ولا شك أن « الزاوية السنوسية » كانت عملاً رائعاً فى مجال الدعوة التى نبتت فى الصحراء ، عند التقاء طرق القوافل ، حيث تبدو الزاوية كالواحة التى تجذب إليها السارين فى الرمال ... وحيث تقوم الزاوية بجوار الآبار ، أو على الأطلال التى خلفها الرومان فى الصحراء ، أو فى مواضع الزراعة ، أو فى المواقع الاستراتيجية ، أو على حدود مصر أو تونس أو الجزائر أو السودان .

وتضم الزاوية مسجداً ومدرسة لتحفيظ القرآن ، ومعهداً لتدريس العلوم الإسلامية ومساكن للطلاب الغرباء ، ومكتبة علمية ، وفى زاوية جغبوب مكتبة تحوى ثمانية آلاف مجلد فى الفقه الإسلامى والتاريخ وتفسير القرآن الكريم والأدب وعلم الفلك (ضاعت هذه المكتبة بعد احتلال الإيطاليين لواحة جغبوب عام ١٩٢٥) .

وكانت فكرة (محمد على السنوسى) إحاطة العالم الإسلامى كله بحزام من الزوايا ، تكون فيه ليبيا قاعدة الانبعاث والانتشار ، وجغبوب المركز السياسى الأول ؛ ولم تكن الزوايا مؤسسات علمية فحسب ، ولكنها كانت مراكز عمل ودعوة وجهاد . مراكز اقتصادية وثقافية ومعسكرات حرب ، وكانت إلى ذلك معاهد لزراعة الأشجار والرى ، ومصانع لصناعة الأسلحة ، وفى زاوية جغبوب (جار أبواب) لأول مرة فى العالم الإسلامى فى العصر الحديث أنشئت أولى مصانع الأسلحة والذخائر الحديثة ، ومخازن الأدوات الحربية ، وكانت الأسلحة ترد إليه من موانى مجهولة .

وقد تحولت هذه الزوايا جميعها عندما بدأ الغزو الإيطالى عام ١٩١١ إلى مراكز حربية للمقاومة استمرت إلى عام ١٩٣١ عندما استشهد عمر المختار .

---

(١) المجلة المصرية م ١ ص ٣٠٩ . مجلة المجتمع العربى م ١٩٤٧ .
علال الفاسى : الحركات الاستقلالية . روم لاندو : ازمة المغرب العربى .

امتدت الدعوة السنوسية فى خلفاء (محمد ع السنوسى) وكان دورها الكبير فى عام ١٨٩٥–١٩٠٢ فى ابنه محمد المهدى الذى بلغت الزوايا فى عهده ٣٠٠ زاوية ، وأصبحت السنوسية قوة روحية كبرى امتدت إلى إفريقيا . وقام أحمد الشريف السنوسى بدور كبير فى معارك مقاومة الاحتلال الإيطالى فى عام (١٩٠٢–١٩١١) حيث اعتزل وترك ميدان المعركة للأمير إدريس السنوسى ، وفى هذا المجال ظهر كثيرون من المجاهدين السياسيين والمحاربين أمثال سليمان البارونى ، وعمر المختار ، وبشير السعداوى .

وقد استطاعت السنوسية إنشاء الحكومة الصالحة . فحكم السنوسيون فى بلادهم وقامت إمارتهم واعترفت الدولة العثمانية بهم ، ورفعوا راية الجهاد المقدس حينما أغار الطليان على ليبيا ١٩١١ .

ولم يقف ذلك من نشاط الدعوة ولا أهدافها فى اليقظة والتوسع والامتداد فى قلب إفريقيا ومجاهلها ...

وشاركها فى ذلك عدد من الطرق الصوفية التى وسعت مجال الإسلام كالتيجانية (من السودان العربى « تمبكتو » إلى شواطىء الأندلس) والشاذلية التى قاومت الفتح الفرنسى فى المغرب ، والقادرية (عبد القادر الجيلانى) ، وقد قاموا بنشر الإسلام من السنغال إلى الغرب من مصب النيجر ، يفتحون الكتاتيب والزوايا ، ويلقنون صغار الزنوج الإسلام ، ويرسلون النجباء منهم إلى طرابلس والقيروان والأزهر ، غير أن الدعوة السنوسية ظلت مع ذلك كله (حركة) وليست طريقة صوفية بحتة ، واختلفت اختلافاً واضحاً عن الطرق التى آزرت الاستعمار الفرنسى وعاونته خانت المقاومة العنيفة التى قادها الأمير عبد القادر الجزائرى ، بل كانت السنوسية – كما أوردنا – الخنجر المصلت على الاستعمار الفرنسى والإيطالى من بعد ، وعلى كل نفوذ أجنبى .

وبالجملة فإن الدعوة السنوسية كانت أول عوامل المقاومة إزاء :

١ – النفوذ الفرنسى فى إفريقيا .

٢ – التبشير المسيحى فى السودان وإفريقيا .

٣ – العدوان الإيطالى على طرابلس وبرقة .

وهى دعوة لم تستند إلى القوة فى نشر مفاهيمها . بل اعتمدت على الإقناع والفكر والتربية ، وبث التعليم والثقافة ، وجمعت بين أساليب السلفيين فى تصحيح العقائد وتحرير الأفكار ، وأساليب الصوفية فى إصلاح النفس والتربية والرياضة الروحية .

وقد سبقت السنوسية دعوات اليقظة فى الشرق ، وعاصرت الوهابية أولى هذه الدعوات ، واستعارت منها كل الحركات التى تلتها ، وأهمها حركة جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده .

وقد مكنتها الحيطة واليقظة من الامتداد والاستمرار ، بينما سقطت الدعوات الأخرى ، ومن ثم استطاعت أن تعمل عملاً ضخماً بعيد المدى فى تحرير العالم الإسلامى وتوحيده ، والدعوة إلى الإسلام فى صحراء إفريقيا .

ثانيا الحركة الســلفية

لم تكن يقظة العالم الإسلامى – والمغرب العربى جزء منه – إلا منبعثة من أعماقه ، ظهرت الوهابية قبل الحملة الفرنسية على مصر وظهرت السنوسية فى قلب المغرب العربى إبان احتلال فرنسا للجزائر وامتدت وتعمقت ، وارتبطت فى مفاهيمها بالوهابية . وامتدت دعوات الإصلاح والبعث فى الشرق والمغرب لم تتوقف ،فى صور متعددة، وظهرت فى فى تركيا حركة الاتحاديين بزعامة مدحت ، وظهر جمال الدين الأفغانى فى مصر والهند ، وخلفه محمد عبده على اختلاف فى الأهداف والوسائل

وكما أثار احتلال الجزائر روح العمل للإحياء والبعث الإسلامى ممثلاً فى السنوسية يحمل لواءها رجل من الجزائر فى أرض برقة . بدأت الحركة السلفية فى تونس بقيادة الشيخ المكى بن عزوز ، من شيوخ الزيتونة السلفيين ، بعد الاحتلال بسنوات . وقد كون الشيخ ثلة من المتنورين ، وحارب العلماء الذين قاوموا دعوة خير الدين ، وكان من أهم هؤلاء المتنورين الشيخ الثعالبى .

وزار الشيخ محمد عبده تونس فى عام ١٨٨٣ وهو فى طريقه إلى أوربا عقب الثورة العرابية فعقد الروابط مع جماعة « العروة الوثقى » السرية التى أنشأها مع جمال الدين الأفغانى والتى ارتبط بها المسلمون فى المشارق والمغارب جميعاً . وكانت « العروة الوثقى » بعيدة الأثر فى المغرب ؛ فعلى نمطها صدرت صحافة تؤمن بالإصلاح ، ثم كانت المنار من بعد ١٨٨٩ بعيدة الأثر فى المغرب كله وكان للزيتونة أثرها الواضح فى اليقظة والتعليم ، وأتيح لخير الدين – وهو فى منصب الحاكم – أن يجدد مناهجها . وينشئ المدرسة الخلدونية . التى تحمل طابع الجمع بين الدراسات العربية الإسلامية البحتة والدراسات الغربية واللغة الفرنسية ..

وفى الجزائر ظهرت الحركة السلفية متأخرة قليلاً ، غير أن ممن شاع ذكرهم فى هذه الفترة محمد بن يوسف أطفيش من وادى ميزاب ، والذى عد من مجددى القرن الرابع عشر ، وتجاوزت مؤلفاته ثلثمائة مصنف ، ولد ١٢٦٣ هـ .

★ ★ ★

وفى (المغرب الأقصى — مراكش) امتدت اليقظة وأخذت طابعاً واضحاً يختلف عن الطابع السنوسى فى برقة والطابع السياسى العصرى فى تونس ، ذلك هو الطابع السلفى الذى كان أشد تأثراً بالعروة الوثقى والمنار وأفكار الشيخ محمد عبده ، الذى زار تونس مرتين ، والجزائر مرة ، ولم تتح له زيارة المغرب الأقصى .

وكان محمد بن كنون (المتوفى ١٣٠٢ هـ — ١٨٨٤ م) على كثير من الأقوال ، مجدد القرن الثالث عشر — فهو أول من دعا إلى تحرير العقيدة فى المغرب ، وعرف باستيفاء شروط « العلامة المجتهد » إلى إقدام وهمة وجرأة فى الحق . لا يخاف لوماً ، ويحضر مجلسه الولاة والأمراء ، وهو يصرح بإنكار أحوالهم وما هم عليه ، وقد كان شديداً على انحرافات الصوفية والطرق ، منددا بالبدع المستحدثة التى شوهت الإسلام ، مهيباً لا يستطيع أحد معارضته فى الحق (١) . وقد اضطهد وسجن من أجل دعوته ، غير أن أنصاره قاموا فأطلقوا سبيله ، وظل يقوم بالنهى عن المنكر والأمر بالمعروف طيلة حياته ...

ولا شك أن محمد بن كنون سبق دعوة محمد عبده وتأثر المغرب كله به ؛ فقد بدأ دعوته على الأقل قبل عشرين عاماً من وفاته أى ما يقرب من ١٨٦٢ م .

ثم جاء من بعده المولى سليمان وعبد الله السنوسى وأبو سيف الدكالى ، ثم كان بروزها الأوضح حينما حمل لواءها « محمد بن العربى العلوى » .

وأعتقد أن الدعوة السلفية فى المغرب كانت تمثل تياراً عميقاً من تيارات اليقظة الثلاثة : التيار الذى تحمله السنوسية ، وتيار الإصلاح المدنى الذى دعا إليه خير الدين فى تونس ، والتيار السلفى المرتبط بالدعوة الوهابية ، والذى يقاوم الطرق الصوفية .

والحق أننا لا نستطيع أن ننسى أثر هذه الطرق فى العمل من أجل اتساع رقعة الإسلام على الرغم من انحراف بعضها فى مفاهيمه ، وقيام بعضها الآخر بدور الخيانة لدعوة الحرية ومعاضدته للاستعمار المحتل .

* * *

وإذا كان محمد بن كنون وعبد الله السنوسى (الذى تعلم فى المشرق) قد سبقا صيحة محمد عبده ، فإن محمد عبده بعد زيارته لتونس فى عام ١٨٨٣ قد أخذ يوثق

---

(١) كتاب «الفكر السامى فى تاريخ الفقه الإسلامى» محمد الحجوى

صلاته بالمغرب حتى زاره مرة أخرى بعد عشرين عاماً وكان له اتصال بنخبة من المثقفين بالمغرب الأقصى ، ووقعت بينه وبين العلماء مناقشات فى مسألة التوسل ، وأيده « المهدى الوزانى » فى قصة الفتوى الترنسفالية ، كما جرت بينه وبين الشيخ إدريس بن عبد الهادى مراسلة بشأن بعض الكتب السلفية ، ومن أبرز من حمل لواء هذه الدعوة ، رجل وصفه العلامة عبد الله كنون بأنه (عبده المغرب) « ذلك هو الشيخ شعيب الدكالى الذى زار المشرق وعاد منه إلى المغرب الأقصى ١٣٢٥ هـ ، فالتف حوله جماعة من الشباب ، وكان قد رأى الحركات المتفشية فى المشرق من سياسية واجتماعية ودينية ، فلما رجع رفع عقيرته بدعوة إصلاحية كان قوامها إيقاظ الأمة من غفلتها إلى واجباتها الدينية والدنيوية . وقد تعرف العلماء فى دعوته روح شيخهم كنون ومنزعه الذى ما حادوا عنه إلا لقصور الباع وضعف فى الطباع ... (١) »

وكانت « المنار » تصل إلى كل مكان فى العالم الإسلامى وقد تأثر بها المغرب كله وتكونت لها جماعات فى الجزائر ووادى ميزاب ومراكش والسوس الأدنى والأعلى ..

ثم حمل لواء الدعوة « محمد بن العربى العلوى » الذى وصفه تلميذه علال الفاسى بأنه كان صاحب الفضل الأول فى تكييف الدعوة السلفية التى بدأها من قبله السنوسى والدكالى .

وكان يدعو إلى التجديد الإسلامى الذى يرمى إلى بعث الإسلام الصحيح وتطهيره من خرافات الأدعياء الذين ألصقوا بالدين ما هو منه براء ، وكانت صيحته أن الإسلام دين تقدمى صالح لكل زمان ومكان ، وأنه يزود صاحبه بكل عناصر المعرفة .

وتناول بحثه تطوير أحكام الشرع التى تختلف أشكالها باختلاف العصور . وإن بقيت مقاصدها وروحها دائمة الوحدة كاملة الانسجام . وقد لقيت الدعوة السلفية من الجامدين مقاومة كبرى ، غير أنها استطاعت أن تعمق مجراها وتنتصر ؛ فقد كانت تجمع ثلة من الشباب حول ابن العربى . وفى الرباط مثلها حول أبى شعيب الدكالى . وغمرت صحف الجزائر وتونس والمغرب بالبحوث والدراسات فضلاً عن المحاضرات والخطب . وانضم السلطان إلى الحركة فأصبح من دعاتها .

وكان هدف « السلفية » : تطهير العقيدة وتربية الشخصية الإسلامية والعودة إلى

---

(١) كتاب « التعاشيب » لعبد الله كنون

ووح السنة وفتح الذهن البشرى لقبول كل جديد ، وإعلان حرية العقيدة وحرية الفكر ، وقد رفضت السلفية فكرة (لادينية الدولة) وعملت على تجديد أساليب التعلم بالمدارس القرآنية ، وتجديد أساليب الدراسة فى جامعة القرويين ، وأنشأت فرعاً نسائياً مستقلاً ...

وقد أعطى هذه الحركة قوتها ومداها عامل التحدى ، عندما استعان الاستعمار برجال الطرق والزوايا ، واتسع اتجاه الفرنسيين فى المغرب كله إلى مقاومة الإسلام واللغة العربية ووضع المناهج الرسمية « لفرنسة المغرب عن طريق تمسيحه (١) » وصدر الظهير البربرى فى (١٦ مايو ١٩٣٠) كخطوة فى هذا الاتجاه .

وساعد على نجاح الدعوة مقاومة الفرنسيين لها ، فكان لها رد فعل فى تحطم نفوذ أنصار الاستعمار من رجال الطرق أمثال : عبد الحى الكتانى وعبد الرحمن الدرقاوى .

ويسجل الحسن السائح رأى المفكرين الغربيين فى أن الحركة السلفية هى الحركة الكبرى التى رجعت إلى الدعوة الإسلامية ، وحطمت مزاعم الاستعماريين الغربيين ، وعنده أنه لولا هذه الحركة لهان على الغرب أن يستعبد الشرق روحياً وفكرياً إلى أمد بعيد .

وهذا الرأى جدير بالاعتبار ، فقد اعتمد الاستعمار على تصوير الإسلام بصورة المسلمين الذين كانوا يعيشون فى العالم الإسلامى إبان احتلاله ، ووجد من بعض أصحاب الطرق عوناً له ، لذلك كانت حركة السلفية التى برزت فى الحجاز ومصر وامتدت إلى المغرب الأقصى بالذات عاملاً من عوامل الدفاع عن حقيقة الإسلام وجوهره ، وكان تطهير الفكر الإسلامى وتنقيته بالعودة به إلى منابعه الأولى عاملاً من عوامل مقاومة النفوذ الفرنسى فى المغرب كله ، وكان لها رد فعل واضح عندما أعلنت فرنسا الظهير البربرى ١٩٣٠ الذى كان نقطة تحول فى اليقظة الفكرية والحركة السياسية الوطنية ، فقد أولت السلفية البربر يقظة فوتت على الاستعمار دعوته إياهم ، فكشفوا خدعته وتدافعوا مع مختلف عناصرهم للدفاع عن كيانهم كمسلمين تربطهم عقيدة وثقافة واحدة .

وقد امتدت الحركة السلفية من المغرب الأقصى إلى الجزائر ، وتمثلت فى الحركة التى قادها ابن باديس فى الثلاثينات ، ويرجع علال الفاسى أول ظهور للحركة السلفية بالمغرب يقول : « عندما تجاوب سليمان العلوى سلطان المغرب مع زعماء الوهابية فى نجد ، وقال : إن أول شخص تصدى فى قومنا لنشر دعوة كاملة للسلفية فى هذا العهد هو الشيخ عبد الله السنوسى أحد علماء القرويين الذين سافروا إلى المشرق ، واتصل بأقطاب الدعوة فى

---

(١) عبارة علال الفاسى

مصر ، والحجاز ، وقد دعا دعوته داخل جامع القرويين وتجمع حوله ثلة من الطلبة وألب عليه جماعة من العلماء ، ومن الذين تتلمذوا على الشيخ السنوسى أستاذنا الكبير محمد ابن العربى ، ومن تلاميذه فى مصر « الشيخ أحمد محمد شاكر » وعنده أن ابن العربى هو إمام السلفية فى مراكش ، وخير مرجع للوطنيين فى آرائه وأفكاره ، قال عنه (وكان فى حدود السبعين «عام(١) ١٩٥٥ ») أنه درس فى القرويين وتخرج على شيوخها ، وكان من مريدى الطريقة التيجانية . اشترى بندقية فى أول الجهاد مع فرنسا وتوجه مع المجاهدين لمقاومة المهاجمين ، وعاد للتدريس فى جامعة القرويين ، وتولى مناصب آخرها وزارة العدل ، ودروسه عامرة بالدعوة للإصلاح وهو قوى الحافظة عظيم الحجة شديد الجرأة فى الحق ، له مواقف فى القرويين فى الدعوة إلى إصلاح الجامعة وإدخال الأنظمة الجديدة لها ، نفى إلى الصحراء عام ١٩٤٥ ورفض مبايعة لصبيق العرش بعد محمد الخامس ، وأفتى بضرورة تأييد الفدائيين ، فنفى مرة أخرى ، وصور علال الفاسى تطور الدعوة السلفية بعد « بزوغ نجم جمال الدين » حيث أخذت صيغة جديدة تتسم بطابع الشمول لكل جوانب الفكر والروح والعمل ، وتبلورت فى دعوة قوامها التجديد المطلق لكل مظاهر الحياة الإسلامية . وقد تخرج على يد جمال الدين علماء أعلام . برز منهم الشيخ محمد عبده .

وعنده أن الجانب السياسى قد طغى على المدرسة السلفية فى مصر والمشرق العربى . وأن الجانب الاجتماعى والعقلى طغى على المدرسة السلفية فى الهند . أما المغرب فقد تأثر بكلتا المدرستين واحتلت العروة الوثقى وكتب جمال وعبده وآثار المصلحين السلفيين مكاناً من الهند إلى مراكش » وأصبح الكل يشعر بهبة جديدة ترد من الشرق وتتفاعل مع حاجاته التى يحسها

يقول : « وأنه ، وإن لم يتيسر للشيخ محمد عبده أن يصل إلى المغرب الأقصى بعد أن زار تونس والجزائر ، وألقى فيها دروسه التى لا يزال صداها يرن فى مساجد القطرين ، إلا أن المراسلة قد تمت بين المصلح المصرى وبين علماء البلاد ، فقد كتب الشيخ محمد عبده إلى الملك عبد العزيز والشريف مولاى إدريس عبد الهادى ، صاحب أكبر مكتبة خاصة يطلب إرشاده لبعض أمهات الكتب الفقهية .

---

(١) توفى محمد بن العربى عام ١٩٦٤ .

« وعندما قامت الضجة على الشيخ محمد عبده فى قضية الفتوى الترنسفالية بذبائح أهل الكتاب ، تصدى مفتى فاس الشيخ المهدى الوزانى لذلك الأمر فألف رسالة يؤيد فيها وجهة نظر مفتى القاهرة . »

وقال علال : إن الهجوم الفرنسي فى عام (١٩١٢) عرّض هذه الحركة لعنف شديد ، فقد استعان الاستعمار برجال الطرق والزوايا ، وأن فرنسا عمدت إلى مقاومة الإسلام بعد الحرب الريفية (بقيادة عبد الكريم الخطابى) حيث صدر الظهير البربرى (١٦ مايو ١٩٣٠) « فتقدمنا نحن جنود السلفية للقيام برد الفعل العظيم ، فأصبحت الحركة (سلفية وطنية) » ويحدد علال الفاسى أهداف الحركة السلفية فى ثلاث : تطهير العقيدة ، وتجديد أساليب التعلم ، والدفاع عن الدين .

ثالثا ــ الحركة الإصلاحية

كان أبرز التيارات الداعية إلى اليقظة والبعث فى تونس هى الحركة الإصلاحية التى امتدت منذ حمل لواءها « خير الدين التونسى » حتى الحرب العالمية الأولى . فتونس التى جاورت الحركة السنوسية فى طرابلس، والحركة السلفية فى مراكش ، اختارت تياراً جديداً هو الإصلاح العصرى الذى يحاول الجمع بين الدين والسياسة ويزواج بين الحضارة والإسلام ، ويفتح الطريق أمام العالم الإسلامى ، ليأخذ بأسباب القوة التى اصطنعها الغرب كوسيلة لمقاومته بها ، ويرد على التساؤلات والاستفهامات الكثيرة حول المزج بين المدنية والروحية ، وثقافة الشرق ، وحضارة الغرب .

هذا التيار الذى رسم طريقه خير الدين التونسى فى مقدمة كتابه « أقوم المسالك فى فى معرفة أحوال الممالك » إنما استعلن لأول مرة فى حركة الاتحاد والترقى التى قادها « مدحت » ودعا فيها إلى تحديد سلطات الحكام والأمراء والولاة بإصدار دستور وإنشاء حكم نيابى مقتبس من الأنظمة الغربية . وكان ذلك ثمرة من ثمار الاتصال بالثقافة الأوربية الحديثة وأفكار الثورة الفرنسية ، وقد درس خير الدين حركات تركيا فى محاولة العمل على إيجاد دستور عثمانى . ورأى تردد المسلمين والخلافة العثمانية أزاء الحضارة الغربية والفكر الغربى . وكان من رأيه أنها السبيل الضرورى لمواجهة أوربا والغرب ، والوسيلة المثلى لمواجهة التطور العالمى ، إيماناً منه بأن من يقف إزاء هذا الزحف فإنه سيطويه ويذهب به . ومن الخير للمسلمين أن يفتحوا الأبواب أمام هذه الأنظمة ، وأن يأخذوا منها ما يصلحهم ، وأنه لابد لهم من اتخاذ نظام الشورى الذى يقيد الحاكم ، ونعى على المسلمين ضعفهم ، وأرجع مصدره إلى ترك السلطات كلها فى أيدى حكامها المستبدين ، وإنه لا يمكن منازلة أوربا والوقوف أمامها إلا بمثل سلاحها ، وهو العلم وأسباب العمران . وقال : إن الذين لا يستحسنون ما تأتى به المدنية الغربية إنما ينكرون أنظمتها وعلومها بينما يتنافسون فى أزياء حضارتها من الملابس والأثاث وأدوات الترف .

وقال : إن معنى ذلك هو فتح الباب للأخذ عنهم فيما لا ينفع وغلقه فيما ينفع ، وتساءل كيف نصد عن الأخذ عنهم . ونتركهم يستغلون خيراتنا ومواردنا وينعمون بها

ثم نكتفي نحن بفتات موائدهم ، إنهم ما وصلوا إلى استغلالنا إلا بمعارفهم ، وإن معارفهم لم ترق إلا بالعدل والحرية .

وأعلن خطأ الذين يقولون بأن المدنية الغربية لا تناسب الأمم الإسلامية ، لموقفها الاجتماعى ، وقال : إن أوربا عندما بدأت نهضتها كانت أسوأ حالاً منا ، وأن الأمة الإسلامية – كما يشهد المنصفون – لها من عقليتها واستعدادها وسابقة مدنيتها ما يمكنها من السير فى هذا المجال إذا أذكت حريتها الكامنة ، فالحرية والطموح غريزتان فى المسلمين تأصلتا فيهم بتعاليم دينهم ، وقال : إن التمسك بالدين لا يمنع من النظر فيما لدى الأمم الأخرى ، والأخذ بأحسنه ، خاصة فيما يتعلق بالمصالح الدينوية ، فليس بالناس يعرف الحق ، ولكن بالحق يعرف الناس ... وإن الجهل هو الذى يدفع المسلمين إلى التمسك بنظمهم المعيبة ، وإن هناك قوماً يعرفون مزايا الإصلاح ، ولكنهم يقاومونه ، لأنه يسلبهم منافعهم الذاتية ، ومطامعهم الشخصية ، فيحاربونه تحت ستار ما يزعمون من أضرار ، وما يختلقون من أسباب .

ومن دعوته الأخذ بالنظام الديمقراطى الذى يقيد الحاكم ، والمجالس النيابية التى يكون الوزراء مسئولين أمامها .

وقال : إن المسلمين ليسوا متأخرين جداً ، فهناك فى أوربا من هم أكثر تأخراً ، ونعى على ما يقوم به الغربيون من وضع العراقيل فى سبيل تنظيم الممالك الإسلامية لشئونها ، وإدخال وسائل الإصلاح التى تراها .

وقال : إن القادة فى العالم الإسلامى هم رجال الدين ورجال السياسة ، وإنهم منقسمون غير متعاونين ولا متلاقين فى وجهات النظر ، وإن رجال الدين يعلمون الشريعة ولا يعلمون الدنيا ، ويريدون أن يطبقوا أحكام الدين على النحو التقليدى بصرف النظر عما جد واستحدث ، أما رجال السياسة فهم يعرفون الدنيا ولا يعرفون الدين ، ويريدون أن يطبقوا النظم الأوربية بحذافيرها ، وكلا الأمرين خطأ ، ولا بد من التقاء الفكرتين وامتزاجهما ، وعلى العلماء الاتصال بأمور الدنيا ومجاراتها بالاجتهاد ووضع الحلول المناسبة لكل ظرف ولكل موقف ، وعلى رجال السياسة تفهم أصول الدين واعتباره أساساً من أسس بناء المجتمع والأمة .

وقال : إن أنظمة الدين الأساسية يجب أن تراعى ، أما الأمور التى لم ينص عليها وتقتضيها مصالح الأمة فيجب أن تقاس بمقياس المنفعة والمضرة ويعمل فيها العقل .

وجملة رأيه أنه يمكن اقتباس الصالح من المدنية الحديثة ونشره فى المملكة الإسلامية وفى مقدمته : الحرية بنوعيها : الشخصية والسياسية ، ثم تأسيس القوانين ومسئولية الوزراء أمام مجلس شورى .

ولا شك أن دعوة الإصلاح التى حمل لواءها « خير الدين التونسى » وأعلنها فى تونس ، وحاول تطبيقها عند ما تولى الحكم خلال سبع سنوات أتيح له خلالها أن يصدر أول دستور فى العالم الإسلامى كله ، وهو قانون عقد الأمان فى عام ١٨٥٧ ، وقد صدر قبل الدستور العثمانى فى تركيا — هذه الدعوة أمر جدير بالتقدير بالنسبة للفكر العربى الإسلامى فى المغرب ، ومن أجل هذا اتصل هذا التيار وعمق ، والتقى بمثله فى المشرق .

بل إن خير الدين نفسه قد اضطر تحت ضغط النفوذ الغربى أن يهجر تونس ويتولى الصدارة العظمى فى الإمبراطورية العثمانية فى أوائل حكم السلطان عبد الحميد ، وأن يطبق دستور مدحت لولا أنه اصطدم بجمود العثمانيين فى فهم الفقه الإسلامى ، وتذبذب عبد الحميد على حد تعبير علال الفاسى ....

ودعوة خير الدين قد تضمنها كتابه « أقوم المسالك » الذى طبع فى تونس عام ١٨٦٧ ، فأصبح بذلك علامة على هذه الحركة وذلك التيار الذى تطور من بعد وتحول واضطرب وانحرف ، ولكنه فى الصورة التى عرفها خير الدين كان معتدلاً لا يبرز فيه عنصرا الصدق والإيمان بمستقبل العالم الإسلامى .

وقد تأثر خير الدين فى دعوته هذه بعامل هام جداً وبعيد المدى ، وهو احتلال الفرنسيين للجزائر عام ١٨٣٠ فى مطالع شبابه وقد أتيح له أن يجمع الثقافات الإسلامية الثلاث : بدراسة العلوم الشرعية واللغوية والتاريخ ، والثقافة العصرية بدراسة اللغة الفرنسية والتركية ، والثقافة العسكرية بدراسة الحروب والوقائع ومؤامرات الدول الاستعمارية وخططها . وقد أتيح له فى مطالع حياته أن يترجم عدداً من هذه الكتب العسكرية من التركية والفرنسية .

ثم كان له من بعد أن يعمل فى ميدان السياسة ، وشهد كيف بدأت فرنسا ، من اليوم الأول لاحتلالها الجزائر ، تبسط نفوذها فى تونس وتسيطر على وسائطها الاقتصادية ، وتحول دون تنفيذ الإصطلاحات التى تحقق لها الحرية والتقدم . كما عايش تجربة الحكام المستبدين فى ظل الاحتكارات وامتصاص دماء الشعب ، والتسلط ونهب أموال المواطنين

وإرهاقهم والاستبداد بهم ، وتهريب هذه الأموال إلى خارج البلاد ، وكيف اضطربت مالية البلاد وانتابتها الأخطار .

ثم أتيح له بعد صدور الدستور فى عام ١٨٥٧ أن يعمل على عقد المجلس التشريعى الذى تأخر تكوينه إلى عام ١٨٦٠ ، إيماناً منه بأنه سيكون وسيلة لحماية البلاد من الاستبداد والتسلط ، وقد رأس هذا المجلس فترة قلما اصطدم بالعقبات والمناورات ودسائس القناصل ، انصرف عن العمل إلى عزلته محاولاً أن يرسم أفكاره فى صورة « دعوة » تلك التى انبعثت عنها مقدمة كتابه « أقوم المسالك » وقد أتاحت له هذه التجربة رحلاته فى أوربا وزياراته المتعددة لأقطارها وجولاته فى تركيا ، واتصالاته برجال الاتحاد والترقى ومدحت . وقد أثارت أراؤه اهتماماً كبيراً فى الدوائر الأوربية وترجم كتابه إلى الفرنسية بعد أقل من عام من صدوره ، فى وقت كانت تتحفز فرنسا لاحتلال تونس

وقد قرر أن الباعث له على إعلان هذه الآراء أمران :

١- إغراء ذوى الغيرة والحزم من رجال السياسة والعلم بالتماس ما يمكنهم من الوسائل الموصلة إلى تحسين حال الأمة الإسلامية ، وتنمية أسباب تمدنها بمثل توسيع دوائر العلوم والعرفان ، وتمهيد طرق الثروة من الزراعة والتجارة وسائر الصناعات ، وأساس جميع ذلك حسن الإدارة المتولد من الأمن المتولد منه الأمل ، المتوالد منه إتقان العمل ، المشاهد فى الممالك الأورباوية .

٢ - تحذير ذوى الغفلات من عوام المسلمين من تماديهم فى الإعراض عما يحمد من سيرة الغير الموافقة لشرعنا ، لما انتقش فى عقولهم من أن جميع ما عليه غير المسلم من السير والتراتيب ينبغى أن يهجر حتى يشددون النكير على من يستحسن شيئاً منها .

وهذا الإنكار على إطلاقه خطأ محض ؛ فإن الأمر إذا كان صادراً من غيرنا وكان صواباً ، فلا وجه لإنكاره وإهماله ، بل الواجب الحرص على استعماله ، وكل متمسك بدينه ، وإن كان يرى غيره ضالاً فى ديانته – فذلك لا يمنعه من الاقتداء به فيما يستحسن من نفسه من أعماله المتعلقة بالمصالح الدنياوية ، والحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها » .

* * *

ولا شك أن صيحة « خير الدين » كانت إرهاصاً بالتطورات التي واجهها الفكر العربي الإسلامي والثقافة العربية تحت تأثير النفوذ الأجنبي ، وإحساساً بالخطر الذي كان يطوق تونس والمغرب كله ، بل والمشرق العربي أيضاً ، في فترة لا تزيد على أربعة عشر عاماً ، عندما احتلت تونس وفرضت عليها معاهدة الحماية في عام ١٨٨١ .

غير أنه لابد من الإشارة إلى أن « خير الدين التونسي » قد التقى في مطالع حياته بعالم من الزيتونة هو (محمود قبادو) الذي عمل معه في مكتب العلوم الحربية ، والذي كان بطبيعته صوفياً من أصحاب المجاهدة، وقد استطاع قبادو نتيجة اتصاله بأعمال تحرير الدراسات الأوربية في الفنون الحربية مع المستشرق كاليقاريس وخير الدين أن يؤكد استجابة الإسلام للنهضات والعلوم باعتباره مدار التفوق والحضارة ، وأن يقنعهم بأن العلوم كانت مزدهرة عند المسلمين إبان نهضة دولتهم ، ثم تأخروا حينما تخلوا عنها واستسلموا إلى التقليد والضعف ، واقتبست أوربا هذه العلوم عن المسلمين وسارت بها على النحو الذي كون نهضتها ، فلاسبيل للمسلمين إلا أن ينهضوا مرة أخرى ويستعيدوا بالاقتباس ما فاتهم من أمر العلوم ، وتطور الفنون الحربية والهندسية والكيميائية . ومن هنا وجد خير الدين التونسي الإجابة عن التساؤل الحائر الذي كان يعم العالم الإسلامي إذ ذاك وهو : هل من حق المسلمين اقتباس هذه الحضارة ، وهل يتعارض ذلك مع الإسلام ؟

ومن هنا انفتح الطريق أمام علماء الزيتونة إلى الاجتهاد والفكر السلفي . ولكن الدعوة الإصلاحية كانت أقوى نفوذاً وأبعد أثراً فبرزت بصورة أشد قوة .

وقد اجتذبت الدعوة الإصلاحية مختلف الطوائف المثقفة ، وسار معها من الزيتونيين الشيخ سالم أبو حاجب ومحمد بيرم . .

ومضت الدعوة إلى وجوب اللحاق بالمدنية الغربية والأخذ منها على النحو الذي دعا إليه في مصر رفاعة الطهطاوي ، وفي الهند أحمد خان ، وفي تركيا مدحت .

وأتيح في هذه المرحلة لخير الدين أن يتولى الصدارة العظمى سنوات قليلة ، وأن يغادر تونس قبل الاحتلال الفرنسي ...

وبذلك انطوى هذا الطور من الدعوة الإصلاحية .

ثم تجدد بعد الاحتلال بصورة أخرى ، غير أن قيادة خير الدين — تلميذ ابن خلدون — الفكرية ظلت حية قوية ، فقد كان أثره في إنشاء المدرسة الصادقية التي تجمع بين علوم

الإسلام والعلوم الحديثة ، وإصلاح التعليم فى الزيتونة، وإنشاء المكتبة والمطبعة والصحيفة الأولى « الرائد التونسى » عملاً كبيراً بعيد المدى، مما انبثق عنه من بعد حركة خريجى الصادقية ؛ مزدوجى الثقافة إسلامية وغربية المسماة (الخلدونية) وعلى رأسهم « البشير صفر الموصوف بأبى النهضة الثقافية التونسية ، وقد عمق هذا الاتجاه أمور.

(أولها) : قيام جمعية العروة الوثقى التى أنشأها جمال الدين الأفغانى فى الهند عام ١٨٨٢ بعد احتلال تونس ومصر ، واشترك فيها من المغرب العربى عبد القادر الجزائرى قائد الثورة الجزائرية ومحمد بيرم تلميذ خير الدين، ومحمد السنوسى محرر الرائد التونسى. و هذ الأخير هو الذى سافر إلى الشرق ، واتصل بأعضائها ، وعاد إلى تونس مروجاً لدعوتها .

(ثانيها) صدور جريدة العروة الوثقى فى باريس ١٨٨٤ يحررها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، وكانت تصل إلى تونس سراً .

(ثالثها) زيارة الشيخ محمد عبده لتونس (نوفمبر ١٨٨٤) وإقامته بها أربعين يوماً ، واتصاله برجال جامع الزيتونة والشباب المثقف وأتباع خير الدين .

وقد كان أثر ذلك هو تأكيد الاتجاه الإصلاحى الذى دعا إليه خير الدين ، والذى اختار الشيخ محمد عبده منهجاً قريباً منه بعد اختلافه فى الوسائل – لا الغايات – مع جمال الدين الأفغانى واقتناعه بأن منهج المقاومة بالعنف الذى يؤيده الأفغانى لم يحقق الهدف ، ولذلك فإن منهج الإصلاح الدينى والاجتماعى هو فى الأغلب محقق النتائج . وكان خريجو الصادقية – التى أنشأها خير الدين – وهم مزدوجو الثقافة (إسلامية وغربية) على هذا الرأى .

وقد برزوا فى المناصب بعد الاحتلال ، حيث أراد النفوذ الأجنبى كسبهم إلى صفه ، ومنهم من سافر إلى باريس وتلقى تعليمه هناك ؛ وبرز منهم محمد البشير صفر – الذى كان على حد تعبير الفاضل بن عاشور – متين التعلق بخيرالدين متناهى الإعجاب بمواقفه ، بليغ الاعتناء بتوجيهاته ، قوى التعصب لمبادئه .

ولقد كان النفوذ الفرنسى قوى الوطأة على هذه الطائفة ، محاولاً أن يدفعها إلى طريق التغريب ، مغرياً لها بأن المستقبل للغرب وثقافته ، وأن الاتجاه العربى الإسلامى فى الثقافة إلى زوال ... لولا حكمة البشير صفر ، الحذر المتمسك بأمجاد العروبة والإسلام .

وقد اتجه هذا الترابط حول الهدف إلى قيام « الخلدونية » هيئة للعمل على بث العلوم

العصرية باللغة العربية ، وقد جمعت الهيئة بين خريجى الزيتونة وخريجى الصادقية ، وكان ترابطها حول أهداف الإصلاح الذى دعا إليه خير الدين .

ومن ثمرة هذه النهضة أن ظهر رجال كثيرون آثروا الفكر العربى ، فى مقدمتهم عبد العزيز الثعالبي ، ومحمد بن الخوجة ، ومحمد الخضر حسين .

كما ظهر زعماء قادوا الحركة السياسية والوطنية فى مقدمتهم على باش حانبه .

رابعاً ـــ جمعية العلماء

كانت الجزائر بؤرة اليقظة فى المغرب العربى كله ، وكان احتلالها علامة على حركة المقاومة الواسعة فى الفكر والثقافة ، ونقطة البدء فى مطالع التحدى ورد الفعل بين الإسلام والعروبة من ناحية ، وبين مؤامرات النفوذ الغربى فى صورها المتعددة من ناحية أخرى .

فقد كانت الجزائر هى أول أقطار العالم العربى والمغرب احتلالاً ، وجاءت وضعيتها فى الاحتلال على أقسى ألوانه، تمثلت فى الاتجاه إلى إدماجها إدماجاً نهائياً ، واعتبارها جزءاً من فرنسا ، أو فرنسا الجنوبية ، كما كانوا يطلقون عليها ، وتضمن الدستور الفرنسى نصوصاً مبكرة تعتبرها مقاطعة من الجمهورية الفرنسية تمثل فى البرلمان الفرنسى .

وقد قاومت الجزائر بقوة السلاح طويلاً ، ولم تستسلم قط ، ثم جاءت جمعية العلماء على رأس المائة عام من الاحتلال علامة على الثبات فى المقاومة والإصرار على طابع الجزائر الإسلامى العربى الذى لا سبيل إلى محوه ، أو القضاء عليه .

ولا شك فى أن حركة عبد الحميد بن باديس كانت أكبر علامة على « التحدى ورد الفعل » فقد حاولت فرنسا ١٩٣٠ أن تحتفل بمرور مائة عام على احتلال الجزائر أى على « تغريب الجزائر » وبلوغها الغاية فى الإدماج والفرنسة ، ولكن حركة جمعية العلماء محت هذا المعنى محواً تاماً ، وأكدت بقاء الجزائر عربية مسلمة ، وظلت عبارة ابن باديس النارية تدوى وتصنع الأجيال . « إن الأمة الجزائرية ليست هى فرنسا ، ولا يمكن أن تكون فرنسا ، ولا تريد أن تصير فرنسا ، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت ، بل هى أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد فى لغتها ، وفى أخلاقها وعنصرها ، وفى دينها ، لا تريد أن تندمج ، ولها وطن محدود معين ، هو الوطن الجزائرى »

« إن هذه الأمة كانت قبل الاستعمار ذات مقومات من دينها ولسانها ، وذات مقومات من ماضيها وحاضرها ، كانت أرقى عقلاً وأسمى روحاً ، وأوفر علماً وأعلى فكراً من أمم البلقان لذلك العهد ، ولو سارت سيرها الطبيعى ، ولم يعترضها الاستعمار بعوائقه وبوائقه لأنجبت المعلم الذى يملى الحكمة ، لا المعلم الذى يمالىء الحكومة . إننا أمة علم ودين ، لم ينقطع سندنا فيهما إلى آبائنا الأولين ، فلو أن المعلم الذى

جاءتنا به فرنسا علم ناصحاً وربى مخلصاً ، وثقف مستقلاً ، ولم يقيده الاستعمار ببرامجه لظهرت آثاره الطيبة فى الأمة (١) .

« إننا نريد (٢) نهضة شعبية قوية ، تجلى شخصية الشعب الجزائرى ، وتكشف مجد الماضى ، بما ينير له طريق الحياة من جديد ، لا أقوالاً مكررة عن سياسة انتخابية يديرها الاستعمار ، إدارة تزيد فى تمكينه من غير أن يشعر بذلك أحد ممن راضهم عليها وسخرهم لخدمتها . ونريد انقلاباً جزائرياً يتركز على إعداد نشء صالح تتمثل فيه عنصرية الجدود ، فينهض نهضة إسلامية عربية تأخذ من عظمة الماضى ويقظة الحاضر ما يعصمها من الزلل والانحراف ، وهى تسير فى طريق المستقبل الباسم » ..

هذه هى ملامح الدعوة التى حمل لواءها « عبد الحميد بن باديس » ، وجاهدت من أجلها جمعية العلماء منذ برزت إلى الوجود فى نفس اللحظات التى قام فيها الاستعمار الفرنسى بالاحتفال بمرور مائة سنة على فرنسة الجزائر ، وحين دعا الدعاة إلى أنه لا وجود لشخصية الجزائر وأن الجزائريين ليسوا إلا فرنسيين مسلمين .

وكانت الأحزاب السياسية تذهب شمالاً وجنوباً مع أهواء السياسة : حتى ظهرت جمعية العلماء ، فركزت دعائم المقاومة الفكرية الإسلامية العربية الجزائرية على قواعد واضحة ورسمت لها طريقاً صريحاً هو الحفاظ على اللغة العربية والإسلام والشخصية الجزائرية والتراب الجزائرى ، بعيداً عن مداورات السياسة ومناورات الأحزاب ، يقول ابن باديس : « قمنا (٣) بالدعوة إلى ما كان عليه السلف الصالح من التمسك بالقرآن الشريف ، والصحيح من السنة الشريفة ، عرف القائمون بتلك الدعوة ما يلاقونه من مصاعب ، وأقحم فى طريقهم من وضع الذين شبوا على ما وجدوا عليه آباءهم من خلق التساهل فى الزيادات والذيول التى ألصقها بالدين المغرضون وأعداء الإسلام »

وعنده أنه إنما أقدم على ذلك محافظة على جوهر الإسلام ، ورغبة فى انتشال الشباب المثقف بالثقافة الجديدة من وهدة الشك فى كل شىء يعزى إلى الدين بسبب ما يجده من خرافات وسخافات لا يمكن للعقل أن يصدقها ، وأن يعزوها إلى دين اشتهر باتصاله بالعقل اتصالاً وثيقاً : بحيث لا يقبل من تعاليمه مالا يقبله العقل . وقد رأى أن الإقدام على انتشال هذه الطبقة من الشباب من آكد الواجبات فى مثل هذه الظروف التى طغى

(١و٢و٣) خطابات ابن باديس « ابريل ٣٦ الشهاب » ٢٥ اكتوبر ١٩٣٧ و ١٤ يوليو ١٩٣٩ الرابطة العربية والشهاب « ابريل ١٩٣٦ » .

فيها تيار المادة على كل شيء لا سيما وقد أوشك الإلحاد والمروق من الدين أن يغزو هذه الطبقة التى هى عدتنا فى المجتمع الجزائرى الإسلامى، وقد شجعها على ذلك ما تقرؤه وتطلع عليه من سخافات الطقوس المسيحية وغيرها ... مما ألجأها إلى المروق والزراية بكل ما يعزى إلى الدين .

وقد تدرج دعاة الإصلاح بتلك القوة المعنوية التى جردوها من تعاليم الإسلام الصحيحة ، فما عتموا أن خلقوا جواً صالحاً لدعوة تلك الطبقة الهاربة المتبرمة إلى ما يتفق ومنتجات العلم والعقل إلى دين هو طليعة الأديان من جهة أنه دين صالح للرقى من كل ناحية يتلاءم وقوانين الاجتماع البشرى . وبذلك بدا أن الثقافة الجديدة لا تتنافى مع الإسلام .. »

ولم يقف ابن باديس عند النثر ، بل حمل الشعر لواء دعوته . ومن أبرز شعره هذه القصيدة التى كانت حداء الركب الصاعد ، ونشيد الطلائع الزاحفة :

شعب الجزائر مسلم   وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن اصله (١)   أو قال مات فقد كذب
يا نشء أنت رجاؤنا   وبك الصباح قد اقترب
خذ للحياة سلاحها   وخض الخطوب ولا تهب
وارفع منار العدل والإحـ   ـسان واصدم من غصب
يا قوم هذا نشؤكم   وإلى المعالى قد وثب
كونوا له يكن لكم   وإلى الأمام ابنا وأب
واذق نفوس الظالمـ   ـين السم يمزج بالرهب
واقلع جذور الخائنـ   ـين فمنهم كل العطب
واهزز نفوس الجامديـ   ـن فربما حيي الخشب
نحن الألى عرف الزما   ن قديمنا الجم الحسب
ومعين ذاك المجـ   ـد فى نسل العروبة ما نضب
من كان يبغى ودنا   فعلى الكرامة والرحب
أو كان يبغى ذلنا   فله المهانة والحرب

---

(١) توصل هنا همزة الوصل ولا تقطع ، حتى لا ينكسر الوزن

هـــذا نظام حياتنـــــــــا بالنـــــور خط وباللهـــــب
حتى يعـــود لشعبنـــــــا من مجـــــده ما قـــد ذهـــب
هـــذا لكم عهـــدى بـــــه حتى أوســـــد فى الترب
فإذا هلكـــــت فصيحـــــتى « تحى الجـــزائر والعـــرب »

★ ★ ★

تلك دعوة عبد الحميد بن باديس على رأس المائة من احتلال الجزائر عنوانها التحدى الصارم من أجل بقاء الجزائر عربية مسلمة ليس بالقول والخطب والكتابة والصحافة ، وكلها كانت أدواته ، ولكن بالعمل الإيجابى الواسع الآفاق ، العميق العريض ، فقد أنشأت جمعية العلماء ثلاثمائة مدرسة فى المساجد ، تعلم اللغة العربية والقرآن والإسلام ، فإذا قلنا اليوم إن ما بقى لهذا اللسان من لغة الضاد فى الجزائر فإنما كان كله من عمل هذه النهضة بعد أن ألغت فرنسا اللغة العربية من جميع مدارس الجزائر الرسمية إلغاء شاملاً ، ونشأ فعلاً جيل لا يعرف اللغة العربية ولا يتكلمها ، فقد حق القول وصدق .

وهو عمل تم فى ظل الاحتلال الفرنسى للجزائر ، التى لم تكن قطراً محتلاً أو موضوعة عليه الحماية كتونس أو المغرب ، وإنما هو قطر أصرت فرنسا أن تعتبره جزءاً من جمهوريتها وإقليماً من أقاليمها .

وقد بدأت جمعية العلماء الجزائريين فوضعت خطة لنشر التعليم العربى الإسلامى الخالص على مرحلتين فى المدن والقرى ، كانت المرحلة الأولى هى تلك المدارس التى كان يعدها الاستعمار غريبة وهى فى وطنها ، ويعاملها معاملة الثقافات الأجنبية الخطرة ذات المبادىء الهدامة والتى تغلقها الإدارة متى شاءت من غير محاكمة ، وتطرد مدرسيها على حد تعبير جريدة البصائر .

والمرحلة الثانية بدأت عام ١٩٤٧ بإنشاء معهد علمى يجمع أبناء الأمة الذين كانوا يشدون الرحال لتلقى العلم فى القرويين (فاس) أو الزيتونة (تونس) .

★ ★ ★

وقد قاومت فرنسا حركة ابن باديس وجمعية العلماء ، ولكن المجاهد العنيد لم يتوقف .. « من رام أن يحول بيننا وبين فكرتنا التى نؤمن بها ويؤمن بها المؤمنون الصادقون ، فقد حاول عبثاً قلب الحقائق . ونحن لذلك لا نتزحزح عن تلك الفكرة قيد شعرة ،

مهما طمى سيل الكوارث على أمة ، لما للشعب الجزائرى من الصفات المرغوب فيها ، الكامنة كون النار فى الكهرباء .

« إن هذا العبد – يقصد نفسه – له فكرة معروفة ، وهو لن يحيد عنها ، ولكنه – وهنا محل الشاهد – يبلغها بالتى هى أحسن ، فمن قبلها فهو أخ فى الله ، ومن ردها فهو أخ فى الله ، فالأخوة فى الله فوق ما يقبل وما يرد .

« والاستعمار ما مكن لنفسه فى بلاد الإسلام إلا بقوة المسلمين ، فلو أنهم قطعوا عنه قوتهم لانكمش ، وانقلب إلى أهله مذموماً مدحوراً .

« أنا (١) أحارب الاستعمار لأنى أعلم وأهذب ، ومتى انتشر التعليم والتهذيب فى أرض أجدبت على الاستعمار ، وشعر فى النهاية بسوء المصير .. »

وهنا تبدو مفاهيم عبد الحميد بن باديس واضحة . إنها مقاومة الاستعمار الفرنسى بالتعليم ، وهى الدعوة التى حمل لواءها الشيخ محمد عبده قبل نهاية القرن التاسع عشر ، وأذاعها فى تونس والجزائر خلال زيارته الثانية عام ١٩٠٣ . فقد آمن ابن باديس بأن العمل الأول والأعظم فى مقاومة الاستعمار الفرنسى فى الجزائر هو حماية اللغة العربية ، لغة القرآن ، وذلك بإذاعتها ، ونشر التعليم كوسيلة كبرى لمقاومة الاستعمار الذى يعيش على الجهل ، وكانت دعوته مستنيرة مستبصرة قائمة على أساس السلفية الواضحة النقية ، قوامها العودة بالإسلام إلى منابعه الأولى ، ومقاومة الخرافات والزيوف ، ومحاربة الفرق الضالة التى عاونت المستعمر ، وكان مؤمناً بأن الإسلام لا يقاوم الحضارة ، ولا يعارض التطور ، ولا يقف أمام تيار النهضة والعلم والكشف والاختراع ، بل إنه يحث عليها ، وينهض بها .

ولذلك فقد عمل على إحياء اللغة العربية ، وتقوية الشعور بالشخصية الجزائرية « إننا نرى أن الأمة الجزائرية موجودة ومتكونة على مثال ما تكونت به سائر أمم الأرض ، وهى لا تزال حية ، ولهذه الأمة تاريخها اللامع ووحدتها الدينية واللغوية ، ولها ثقافتها وتقاليدها الحسنة والقبيحة ، كمثل سائر أمم الأرض » .

وهو يؤمن بالتراب الجزائرى ، والجزائر جزء من الأمة العربية « إن لنا وراء هذا

---

(١) خطابات ابن باديس ٢٥ اكتوبر «١٩٣٧» و ١٤ يوليو ١٩٣٩

الوطن الخاص أوطاناً أخرى عزيزة علينا ، هي دائماً منا على بال ، ونحن فيما نعمل لوطننا الخاص نعتقد أنه لابد أن نكون قد خدمناها وأوصلنا إليها النفع عن طريق خدمتنا لوطننا الخاص ... »

***

وعلى هذا النحو مضى ابن باديس يعمل في الاتجاهين بالعرض والعمق جميعاً ، فهو الخطيب الذي يهز المشاعر والأرواح ، ويسيطر على الجموع ؛ وهو الكاتب الدقيق العبارة ، النقي الأسلوب ، الواضح الفكرة . وهو الصحفي والمدرس والمحدث والرحالة.

وهو الذي ينشيء المدارس والمعاهد في طول البلاد وعرضها ؛ ثم هو الذي يمضي يومه كاملاً في حلقة الدرس ، يفتتح الدروس بعد صلاة الصبح حتى ساعة الزوال بعد الظهيرة ، ومن بعد المغرب إلى صلاة العشاء ، فإذا خرج من المعهد ذهب رأساً إلى إدارة جريدته « الشهاب » يكتب ويحرر ويراسل البصائر ، ويجيب عن الرسائل فيقضي موهناً من الليل ، حتى إذا نودي لصلاة الصبح كان في الصف الأول .

لم تصرفه الصحافة عن التدريس ، وما من نظرية ظهرت في التربية والتعليم أو كشوف العلم والفكر إلا استوعبها . وأبدى رأيه فيها . وما من صحيفة ظهرت في المشرق أو المغرب إلا نظر فيها واستخلص منها ما ينفع بني جنسه ووطنه ودعوته . وهو الذكي الفطن الفاهم لتيارات ساسة الغرب في الشرق ، وما تحمل في أطوائها من زاوية دعوته ، ومن زاوية أمر العرب والمسلمين . ذلك إلى خبرة عميقة بالسياسة الاستعمارية في الجزائر يتعقب أخطاءها عن علم وبصيرة . ويفند مزاعم المستعمرين ما اتصل منها بالإسلام أو باللغة العربية ، أو بتفوق العنصر الأوربي على العربي الإسلامي .

وقد دل صدق الدعوة وعمق الفكر على استمرارها وحياتها . فهي وإن اتصلت بدعوات الفكر العربي الإسلامي في العالم الإسلامي كله . مرتبطة بالسلفية والإصلاح ، وإذا كان لها طابعها المختلف عن السنوسية في ليبيا والسلفية في المغرب ؛ فهي مرتبطة في معالمها العامة مع دعوة الشيخ محمد عبده والمنار . إلا أنها تمثل الحاجة الروحية والفكرية للجزائر ، وتملأ الفراغ الذي يتمثل في الجزائر بصورة واضحة كرد فعل وإجابة على التحدي الذي أراده النفوذ الثقافي الغربي في الجزائر ، محاولاً إحياء الشخصية الجزائرية بصفة خاصة . واللغة العربية والإسلام بصفة عامة . ويمكن القول انه بهذه الدعوة قد حقق استعلان الجزائرية الشخصية العربية الإسلامية واضحة .

« إنا (١) بالأمس حين لم نلتفت هذه اللفتة إلى ماضينا وقوتنا السماوية ما كنا نرهب أحداً ولا نستطيع أن نشعر بوجودنا أحداً ، أما اليوم فبهذه اللفتة القصيرة إلى تراثنا المجيد فقد استطعنا أن نعلن عن وجودنا ونخيف بعد أن كنا نخاف .. »

وقد ربط بعض الباحثين ، وفى مقدمتهم (٢) « ماسنيون » بين جمعية العلماء وحزب السلفيين المتشددين الذين ينزعون نزعة نصف وهابية ، واعتبرها شعبة من الحركة التى كانت تمثلها فى القاهرة مجلة المنار ، كما ربط بينها وبين الحركة السلفية فى المغرب التى نشأت عنها الأحزاب الوطنية هناك ، وقال : إن برنامجها ينطوى على الرجوع إلى تعاليم القرآن « التى لم يتطرق إليها الفساد » .

ومما يذكر أن الجماعة فى أيامها الأولى كانت جماعة صغيرة (٣) لم ينضم إليها إلا القليلون . وأنها لذلك لم تجد من السلطات الفرنسية الحاكمة مقاومة تذكر ، « لأن العلماء السلفيين فيها أقلية غمرتهم كثرة جارفة من الطرقيين : والعلماء التابعين للحكومة ، فظنت — أى السلطات — أنها بالفئة الكثيرة تقضى على الفئة الصغيرة ، وقد حاولت فعلاً — كما ذكر حمزة بوكوشة فى بحث له بالبصائر — قلب نظامها ، غير أن الفئة القليلة استطاعت أن تثبت وتقاوم ، هناك رأت الحكومة أن تنشىء جمعيات تحت أسماء مختلفة لمحاربة جمعية العلماء ، فكان نصيبها الإخفاق ، وثبتت جمعية العلماء على نشر العربية بالمدن والقرى ، وتعريب ما غربه الغرب من المعالم والآثار ، حتى ضاق دعاة التبشير والاستشراق ذرعاً بها ، لأنها أحبطت بعض ما صنعوا .

ويقول حمزة بوكوشة بعد مرور عشرين عاماً على إنشاء الهيئة « إن لها فى عنق كل هيئة وطنية فى الجزائر منة ودينا سواء أكانت سياسية أم اجتماعية أم اقتصادية . »

* * *

ويستطيع أن يقدر مدى عمل جماعة كبار العلماء من يراجع كتابات الفرنسيين قبل عام ١٩٣١ (تاريخ إنشاء الهيئة) حين أعلنوا : (٤) « لقد أذللنا الدين الإسلامى ، وبلغ الأمر ألا يعين فقيه أو إمام إلا إذا شارك فى أعمال الجاسوسية الفرنسية ، ثم عليه كى يرتقى فى الدرجة أن يثبت قدراً كبيراً من الحماس والإخلاص للإدارة »

---

(١) خطب ابن باديس — الشهاب م ١٩٣٩

(٢) الحركات الاستقلالية فى المغرب « علال الفاسى »

(٣) ، (٤) الحركات الاستقلالية فى المغرب العربى « لعلال الفاسى ».

هذا بالإضافة إلى سياسة التنصـــير التى رسمت ونفذت وفتحت الباب للبعثات التبشـــيرية .

وكان عبد الحميد بن باديس قد عاد ١٩١٣ من المشرق ، بعد أن تعرف على الحركة السلفية والفكرية فى العالم العربى (الحجاز ومصر) وقد عزم على القيام بالعمل الكبير الذى وهب نفسه له ، فبدأ يخطب فى جامع قسنطينة الأعظم ، يعلم ويربى ويوجه ، فلما منع من التدريس لم يلق السلاح ، وانتقل إلى الجامع الأخضر وعرفت دروسه هناك بالدروس العلمية ، كما عرف بكلماته فى مسجد سيدى قموش ..

هنالك كان يلقى محاضراته بعد الفجر ، ولا ينتهى إلا بعد صلاة العشاء ، يلقى فيما بينها من (٩ــ ١٢) درساً بين الخاص والعام ..

والتف حوله البشير الإبراهيمى ، والعربى التبسى ومبارك الميلى وأحمد توفيق المدنى والطيب العقبى . وظل كذلك حتى بدأ عام ١٩٢٤ يعلن عن مشروعه ، غير أنه لم يتمكن من إبرازه ، وإن أخذ يسرى فى الأوساط الشعبية والأدبية ، وتبلورت الفكرة وانتظرت لحظة البزوغ ، وقد كانت فى ظل احتفالات فرنسا فى عام ١٩٣٠ م بمرور مائة عام على احتلال الجزائر ، وكان الفرنسيون اهتموا بهذه المناسبة ، وحشدوا لها وسائل كثيرة لإقناع الشعب الجزائرى بأنه لم يعد إلا جزءاً من شعب فرنسا ، وأنه انتهى كشعب عربى وانتهى أهله كمسلمين ، وأن اللغة العربية انتهت ، وأن الشخصية الجزائرية انمحت فلا وجود لها .. وأعلنوا على لسان الكردينال لافيجرى حينما زار الجزائر أن الجزائر صارت مسيحية وأن لغتها الوطنية هى الفرنسية .

هنالك انتفضت الفكرة وأخذت طريقها إلى مجال الحركة ، ومضى الأمر هيناً أول الأمر ، ثم تعمق وبدت الحرب تعنف . وسيق ابن باديس مرات للمحاكمة ، ومضى الصراع بين جمعية العلماء والاستعمار الفرنسى ومبشريه وبعض الزوايا والطرقيين ، واستخدم الاستعمار مختلف أساليب الخيانة . وحرض العلويين والشاذليين والقادريين على جمعية العلماء ، ودبرت محاولة لاغتيال ابن باديس نفسه ، وتعهد بتنفيذ المؤامرة اتباع العلويين لولا يقظة أعضاء الجمعية .

وعندما سافر ابن باديس إلى فرنسا مع اللجنة الوطنية عام ١٩٣٦ لتنفيذ مرسوم ١٩٠٧ القاضى بفصل الدين عن الدولة . والذى طبق على الأديان الأخرى ما عدا الإسلام .. انبرى له دلاديه . رئيس وزراء فرنسا وقال له : إن لدى فرنسا مدافع

طويلة ، فرد ابن باديس بقوة قائلاً : إن لدينا مدافع أطول ، فدهش ديلاديه وقال له ما هي هذه المدافع قال ؟ : إنها مدافع الله ...

وبرز عمل جمعية العلماء كاشفاً على أن للجزائر ثقافة مميزة هي الثقافة العربية الإسلامية ، وبالتالي فإن الجزائر ترتبط روحياً وتاريخياً بالعالم العربي ، وأن للجزائر تاريخاً قوياً وأن ذلك يتضح خلال الحقبة التي ظهرت فيها الجزائر (القرن ١٦ إلى القرن ١٨م) كقوة بحرية هائلة في البحر المتوسط ، هذه الحقبة التي يسميها المؤرخون القوميون عصر الجمهورية الجزائرية المستقلة . حتى يثبتوا صفتها الدولية قبل الاحتلال الفرنسي .

وقال ابن باديس – قبل أن يموت في ١٦ أبريل ١٩٤٠ – حكمته الخالدة : « إن الأمة الجزائرية لن تزال حية ما حافظت على دينها ولغتها ... »

ومضت جمعية العلماء في طريقها حيث ولي أمرها « البشير الإبراهيمي » أخلص زملاء ابن باديس ، فحققت نتائج باهرة ، فأصبح لها حتى ١٩٥٣ ثلثمائة مدرسة – ٧٠٠ مدرس – ٧٠ ألف تلميذ وتلميذة .

وفي عام ١٩٥٢ أجرت جمعية العلماء أول امتحان لنيل الشهادة الإبتدائية العربية ، ومن قبل ذلك أنشأت أول معهد للتعليم الثانوي باسم معهد ابن باديس (١٩٤٧) بلغ ما ضمه عام ١٩٥٣ ألف وخمسمائة طالب ، وقد احتمل زملاء ابن باديس وأعوانه المتاعب والمشاق ، ولطالما أغلقت معاهدهم ومدارسهم ، وسيقوا للمحاكمات والسجون والمنافي ...

خامسا ـ الطرق الصوفية

لعبت الطرق الصوفية فى المغرب العربى دوراً هاماً وخطيراً . هذا الدور له اتجاهان :

١ ـ اتجاه إيجابى ضخم بعيد المدى فى نشر الإسلام فى القارة الإفريقية على نحو أذهل المستعمرين وأقض مضاجعهم .

٢ ـ اتجاه سلبى أو مضاد فى الالتقاء بالاستعمار الفرنسى وتأييده والتأثير على العامة للإذعان له .

ولاشك أن الحركات الفكرية فى المغرب كان مبعثها إسلامياً ، وأن الدعوة السنوسية هى فى أساليبها تعد من الطرق الصوفية وإن كانت فى مفاهيمها ومنهجها تستقى من مفاهيم الإسلام الأساسية ؛ وتدعو إلى تنقية الإسلام من البدع ومقاومة الغاصب ، ومناهضة النفوذ الأجنبى .

ويمكن القول بأنها الطريقة الصوفية الأولى والكبرى فى الشمال الإفريقى وأنها ذات الأثر الضخم الواضح فى نشر الإسلام .

وقد سار معها فى هذا الاتجاه : القادرية التيجانية (ولا نعرض هنا للمهدية فى السودان حتى لا نخرج عن نطاق البحث)

فالتيجانية نشأت فى الجزائر (فاس) حول نهاية القرن الثامن عشر (١٧٨٢) ثم امتدت إلى السودان وقلب إفريقيا . وكانت ذا مدارس عديدة تعمل على نشر العقيدة ، وقد اتخذت أساليب القوة فى مقاومة خصومها ونشر العقيدة الإسلامية .

أما القادرية التى كانت أوسع نطاقاً فى المغرب فإنها لم تنشأ أصلاً بها ، ولكنها انبعثت من بغداد ودخلت وسط إفريقيا فى القرن الخامس عشر ، ثم انتقلت حثيثاً إلى الشمال الإفريقى فأنشأت زاويتها الكبرى فى (مزارات) أسسها الشيخ مختار الكبير وانقسمت بعد وفاته .

وكانت تقوم أساساً على الفقه والعلم والدعوة القوية ، ويرسل أتباعها أولاً بأول

إلى مدارس القيروان وطرابلس وإلى الزيتونة فى تونس وإلى الأزهر فى القاهرة فإذا عادوا إلى بلادهم استطاعوا نشر العقيدة مزودين بالوسائل .

ويرى شكيب أرسلان أن القادرية هم أحمس مبشرى الإسلام من إفريقية إلى السنغال إلى بنين قرب مصب النيجر ، ينشرون الإسلام بطريقة الاستعمار والتجارة والتعليم .

والشاذلية من أوليات الطرق التى أدخلت التصوف إلى المغرب ومركزها بوبريت فى مراكش ، ومن أبرز دعاتها (العربى الدرقاوى المتوفى ١٨٢٣) وقد أوجد عند مريديه حماسة شديدة امتدت إلى المغرب الأوسط وكان للدرقاوية دور فعال فى مقاومة الغزو الفرنسى .

وعلى الجملة فقد كانت هذه الطرق مراكز وجماعات للدعوة الإسلامية ، فقد أخرجت عشرات من الدعاة الفاقهين الفاهمين الذين انبثوا فى إفريقيا ، وكان لها دورها الواضح فى نشر الدعوة ومواجهة جماعات التبشير المسيحية ومقاومتها ، وكان دورها البالغ فى مقاومة النفوذ الفرنسى والإيطالى والإسبانى المتسلط على المغرب العربى كله منذ عام (١٨٣٠ فى الجزائر ، وعام ١٨٨١ فى تونس ، وعام ١٩١١ فى طرابلس ، وعام ١٩١٢ فى المغرب الأقصى) .

وقد صور أحمد توفيق المدنى فى كتابه (تاريخ الجزائر) دور هذه الطرق فى هذه المرحلة فقال : إنها استطاعت أن تحفظ الإسلام فى هذه البلاد فى عصور الجهل والظلمات ، وعمل رجالها الكاملون الأولون على تأسيس الزوايا (الرباطات) يرجعون فيها الضالين إلى سواء السبيل ، ويقومون بتعليم الناشئة ، وبث العلم فى صدور الرجال ، ولولا تلك الجهود التى بذلوها لما كنا نجد الساعة فى بلادنا أثراً للعربية ولا لعلوم الدين ، فالزوايا الكبرى هى التى كونت دائماً فى هذه البلاد طبقة فاضلة من العلماء والفقهاء وحفظة القرآن الشريف ، وكانت وساطة فعلية فى نقل الإسلام إلى بلاد أقاصى الجنوب والسودان .

غير أن بعض هذه الطرق كان لها دور خطير فى مؤازرة الاستعمار ، وأبرز هذه المواقف موقف « التيجانية » من تأييد الاستعمار الفرنسى ، ومقاومة الأمير عبد القادر الجزائرى فى كفاحه ضد فرنسا خلال المعركة الطويلة التى استمرت سبعة عشر عاماً .

وأمامى نصوص كثيرة عن موقف التيجانية من الأمير عبد القادر الجزائرى أهمها ما جاء فى كتاب محمد عزيز (حقائق عن المتاعب الجزائرية) .

فقد تناول في فصول متعددة دور مشايخ الطرق في مقاومة الأمير عبد القادر ، وكيف انبثوا في البلاد يثبطون الهمم بالنسبة للمقاومة ، ويطالبون الشعب بالانتظار والهدوء حتى تصل السفن الفرنسية ، وقد قربت حكومة الجزائر بعض هؤلاء ، واتخذت منهم أصدقاء بالإضافة إلى المكافآت والنياشين . وكما رفضت الحكومة الفرنسية مطالب وفود الشعب الجزائرية ونوابه ، محاجة إياهم بعرائض مذيلة بإمضاءات المشايخ ، ومن جملتهم الوفد الذى كان يرأسه الدكتور ابن جلول ، والذى سافر إلى باريس عام ١٩٢٢ ؛ وأشار محمد عزيز إلى ما ذكره الحاكم الفرنسي في هذا المجال من أن الحكومة الفرنسية تعظم زاوية من زوايا الطرق أكثر من تعظيمها لثكنة جنودها وقوادها وأن الذى يحارب الطرق إنما يحارب فرنسا .

وقد سجلت مجلة الفتح (م ٦) قصة صاحب السجادة الكبرى الذى ألقى خطبة الإخلاص (١٣٥٠هـ-١٩٣١م) وهو سيدى محمد الكبير رئيس الطريقة التيجانية بين يدى الكولونيل سيكوني الفرنسي وصف فيها فرنسا المستعمرة بأنها أم الوطن الكبرى ، وقال : إن من الواجب علينا إعانة حبيبة قلوبنا فرنسا مادياً وأدبياً وسياسياً ، وقال : إن أجدادى قد أحسنوا صنعاً في انضمامهم إلى فرنسا قبل أن تصل إلى بلادنا ، ففي عام ١٨٣٨م كان أحد أجدادى قد أظهر شجاعة نادرة في مقاومة أكبر عدو لفرنسا (عبد القادر الجزائرى) وفي عام ١٨٧٠ م حمل سيدى أحمد تشكرات الجزائريين ؛ وبرهن على ارتباطه بفرنسا قلبياً ، فتزوج من (أوريلي بيكار) وبفضلها تحولت منطقة (كوردان) من أرض صحراوية إلى قصر منيف رائع ، وهو أول مسلم جزائرى تزوج بأجنبية ، وقد أصدرت كتاباً أسمته (أميرة الرمال) تعني نفسها ملأته بالمثالب والمطاعن على الزاوية التيجانية ، وذكرت أن سيدى أحمد تزوجها على يد الكردينال لافيجرى على حسب الطقوس المسيحية ... » الخ .

وموقف آخر واضح الدلالة في مراكش وهو تأييد عبد الحي الكتاني للاستعمار الفرنسي ، مما دعا رجال الحركة السلفية إلى الدعوة لمقاومته بعنف ، وقد قاومه أبوشعيب الدكالي ، ومحمد بن العربي ، وأصدر المولى عبد الحفيظ رسالة في الرد على التيجانية ، كما أمر بإقفال زاوية الكتانيين بعد أن انكشف أمرهم في تآمرهم على الدولة وعلى البلاد .

وبدا هذا الموقف أيضاً في خيانة بعض مشايخ الطرق في حرب الريف التى كان يقودها عبد الكريم الخطابي .

وكانت هذه المواقف علامة على انحراف الصوفية في مرحلتها الثانية بعد وفاة

مؤسسيها ودعاتها الأول ، حيث انتقلت من معاهد علم وإرشاد إلى ما اسماه احمد توفيق المدنى استثمار غفلة العامة وبلههم ، حتى ينالوا منهم مال السحت . الذى « ينفقه رجال الزاوية على ملاذهم وملاهيهم ومنكراتهم » وآل (١) أمر الكثير من الزوايا والطرق إلى إحداث وثنية فى الإسلام ، وأصبح شيخ الطريقة يتصف بأوصاف الربوبية ، فهو الذى يعطى وهو الذى يمنع ، وهو الذى يقبض وهو الذى يبسط . وأصبح شيخ الطريقة أو الضريح أكبر مكانة فى القسم به من القسم بالله . وتفشت على إثر ذلك بدع وأباطيل لا تشوه وجه الإسلام السمح فحسب ، بل تسود وجه البشرية برمتها ، وذلك بضرب الدفوف والرقص ، واختلاط الرجال بالنساء ، وأكل الحشرات السامة ، والتمرغ على الأشواك ، ومن رجال الطرق من يقوم بهذه الحفلات بمدن مخصوصة فى مواسم معينة ، بقصد جلب السائحين إليها ، وتقاضى أجورهم ، ويقومون بدور المهرجين فى الملاعب . — والأوربيون يعتقدون أن ذلك هو الإسلام . « أ . هـ » .

ولقد كان هذا كله عاملاً فى يقظة الدعوة السلفية ، والاتجاه إلى مقاومة هذا الانحراف الذى لزمه الاتصال بالاستعمار وتأييده . ودعوة الناس إلى قبول الأمر الواقع ، وتثبيط همم المجاهدين .

وقد كتب أحمد توفيق المدنى كتابه هذا عام ١٣٥٠ هـ الموافق ١٩٣١ م وهو العام الذى برزت فيه إلى الوجود حركة جمعية العلماء التى قاومت نفوذ الطرق الصوفية ، وحملت عليها حملات عنيفة .

وقد جاء فى عبارته : « هذه الزوايا لابد من تحطيمها ومحو أثرها من الوجود ، وتقوم الآن فى القطر الجزائرى حركة إصلاحية جسيمة ضد هذه المنكرات ، على رأسها الشيخ الطيب العقبى ، الذى كرس حياته وأمواله للتبشير بالإسلام ، ودحض مقدمات المبتدعين » .

وقد شارك احمد توفيق المدنى فى هذه الحركة ، وكان من العاملين البارزين فى صفوف حركة جماعة العلماء زملاء الإمام « ابن باديس » مع البشير الإبراهيمى ، والعربى التبسى ، والمبارك الميلى ، والطيب العقبى .

---

(٢) تاريخ الجزائر ـ احمد توفيق المدنى ـ ١٣٥٠ هـ

من أعلام اليقظة والنهضة

١ ـ عبد الحميد بن باديس (١٩٢١–١٩٤٠)

« رائد الإصلاح الديني والاجتماعي في الجزائر »

يقف « عبد الحميد بن باديس » علماً على مرحلة النضال في الثلاثينات من هذا القرن في الجزائر ، فبعد مائة عام من الاحتلال والمقاومة ، وقف ابن باديس عام ١٩٣٠ ليرسم الخطة المثلى للمقاومة . إنها ليست في المعركة العسكرية ، فقطعاً لن تستطيع الجزائر أن تقف أمام قوات فرنسا وأسلحتها الحديثة في ذلك الوقت . ولن تكون في النضال السياسي القائم على الخطط والمفاوضات والوعود البراقة الخادعة ؛ وإنما جوهر النضال وحقيقته كما فهمه ـ عبد الحميد بن باديس — هو في التربية الروحية والاجتماعية للأمة . وحماية اللغة العربية من جور الأجنبي الذي خطط للقضاء عليها ، والدعوة للوحدة العربية ، وتحرير الفكر العربي من شوائب التقليد وقيود المرتزقة والطرقيين ، الذين كانوا أسلحة ضد وطنهم في صف الاستعمار ، وشوكة في جنب الدعوة إلى الحرية والمقاومة .

كان هذا هو العمل الديني الذي تبلور في عقل ابن باديس بعد أن جال جولته الطويلة في الشرق ، بين الحجاز ومصر والعالم العربي .

والتقى بالعشرات من أعلام الفكر والوطنية والحرية ، وقرأ آثار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، وعبد العزيز جاويش ، وعبد الرحمن الكواكبي : وكون فكرة واضحة عن العمل النافع .

ولم يكن العمل الذي تصدى له (ابن باديس) هيناً ولا ميسوراً . فقد كانت تعرف فرنسا ما وراء صيحات الساسة ورجال الأحزاب ، وتعرف كيف توجههم وتحركهم ، أو توقف نشاطهم ، أو تحول اتجاههم ، أما إذا كانت الدعوة تحمل هذا اللون من الكفاح الذي يبدأ من نقطة « الصفر » ويتغلغل في القرى والدساكر منشئاً المدارس والمكاتب في قلب المسجد ، لتعويض الجزائرين عن إلغاء التعليم باللغة العربية في معاهدهم وكلياتهم ومدارسهم ، تعليماً لهذه اللغة في أعماق القرى نفسها ، فإن فرنسا سوف تحارب هذا العمل أعنف الحرب ، وسترصد لهذا الداعية البليغ العبارة ، الحلو الصوت ، الجميل الصورة ، الفاهم الذكي ، كل مرصد ، وستقف في وجه كل موقف .

لذلك كان لابد أن يعمل ابن باديس فى دهاء ويقظة ودقة فلا يثير عليه ثائرة الاستعمار ولا ضير عليه أن يترك جانب السياسة ، حتى يركز هذه الدعوة .

وقد بدأ عمله حيث كان يلقى درساً فى الجامع الأخضر بقسنطينة ، فاستمع إليه المئات ، ويتحدث فيه على النحو الذى كان يتحدث به جمال الدين الأفغانى فى قهوة « ماتتيا » ، أو الشيخ محمد عبده فى الرواق العباسى ؛ ويفسر القرآن بنظرة جديدة ، ويدخل آراءه الإصلاحية فى ثنايا الحديث على نحو لا يصطدم مع القوة الرجعية أو قوى الاستعمار التى تساند قوى الرجعية وتحميها .

وقد استمر الشيخ على ذلك سنوات حتى بدأ حملته على الطرقيين والرجعيين من رجال الدين الذين يعتصمون بفرنسا ، كان ذلك فى عام ١٩٢٥ عندما بدأ يوسع دائرة التدريس إلى مساجد متعددة فى الجزائر ، وإلى إصدار صحيفة تحمل لواء الفكرة الإصلاحية ، وكانت هى جريدة المنقذ ، فى عام ١٩٢٦ والتى سارع الاستعمار بإغلاقها . فلم يلبث أن أصدر جريدة الشهاب وخفف لهجته حتى تستمر وتعيش .

صدر « الشهاب » فى عام ١٩٢٧ واستمر إلى عام ١٩٤٠ ، وتألق اسم (ابن باديس) ، والتف حوله المثقفون والعلماء وخريجو الزيتونة ، وهو ماض فى العمل ، يوسع نطاق مدارسه فى المساجد ، ويقاوم علماء الدين من الرجعيين ، وهذه حلقة من حلقات الكفاح شهدتها (تونس) وشهدتها (مراكش) أيضاً ، وأطلق عليها (الحركة السلفية) وقد وجدت قبولا فى نظر المثقفين لمفاهيمها الحرة الواضحة المتقدمة مع الزمن ...

وفى عام ١٩٣٠ أخذت فرنسا تعد للاحتفال بالعيد المئوى لاحتلال الجزائر ، وكان لابد للشيخ ابن باديس أن يضرب ضربته وقد قويت جبهته واشتد عودها ، وضمت مئات من المثقفين المؤمنين بحق الجزائر فى الحرية وأنها ليست جزءاً من فرنسا ، وأن اللغة العربية هى عماد هذه الحرية . هناك جابه فرنسا فى أعياد الاستعمار بإنشاء جمعية العلماء برياسته ، ودخل دور الكفاح بقوة ، حيث فتح ميداناً جديداً للعمل ، هو مقاومة التغريب ، والدعوة الفرنسية الزائفة إلى أن الجزائر جزء من المغرب ، أو البربر من أصل فرنسى ، أو أن اللغة الفرنسية يجب أن تسود الجزائر ، وتظل اللغة العربية لغة إضافية ثانوية . بدأ مقاومة أنصار الثقافة الفرنسية من العملاء ودعاة التغريب . وبذلك امتدت المعركة إلى جناحين ، هما محاربة الجمود والرجعية والتعليق فى الفكر العربى الإسلامى ، ومحاربة تمييع الشخصية العربية الجزائرية ، وسلبها مقوماتها وتحويلها صورة مهزوزة للفكر العربى .

ولم يكن ابن باديس ضيق الأفق فقد كان مجددا يترسم خطا المصلحين فى تحرير الأمة العربية من كل ما يعوق تقدمها ، ولم يكن عدواً للفكر الغربى ، وإنما كان عدواً للاتجاهات الاستعمارية فيه .

ورسمت جمعية العلماء التى امتدت واشتد عودها دعوتها فى إحياء الإسلام وتطهيره من البدع والخرافات ، والعودة به إلى منابعه الأولى ، وبعث اللغة العربية وإذاعتها إلى أوسع مدى فى الجيل الجديد من الشعب وتقديمها على اللغة الأجنبية ، وإحياء القومية الجزائرية باعتبار أن الجزائر جزء من الأمة العربية .

وقد صور ابن باديس أهدافه فى عبارات موجزة واضحة :

« إن خدمة الإنسانية فى جميع شعوبها ، والحدب عليها فى جميع أوطانها ، واحترامها فى جميع مظاهر تفكيرها ونزعاتها ، هو ما نقصد إليه ونرمى إليه ونعمل على تربيتنا وتربية من لنا حق عليه . »

« إن لنا وراء هذا الوطن الخاص أوطاناً أخرى عزيزة علينا ، هى دائماً منا على بال . ونحن فيما نعمل لوطننا الخاص نعتقد أنه لابد أن نكون قدمناها وأوصلنا إليها النفع عن طريق خدمتنا لوطننا الخاص . »

« إن الإسلام عقد اجتماعى عام فى جميع ما يحتاج إليه الإنسان من جميع نواحى الحياة لسعادته ورقيه . دلت التجارب من علماء الأمم المحدثة على أن لا نجاة للعالم مما هو فيه إلا بإصلاح عام على مبادئ الإسلام . »

« مبدؤنا فى الإصلاح الدينى والدنيوى أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها . »

« اخدموا العلم بتعليمه ، وانشروه وتحملوا كل بلاء ومشقة فى سبيله ، وليهن عليكم كل عزيز ، ولتهن عليكم أرواحكم من أجله . »

« إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هى فرنسا . ولا يمكن أن تكون فرنسا ، ولا تريد أن تصير فرنسا ، ولا تستطيع أن تصير فرنسا لو أرادت ، بل هى أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد فى لغتها وفى أخلاقها وفى عنصرها وفى دينها ، لاتريد أن تندمج ، ولها وطن محدد معين هو الوطن الجزائرى . »

وكتب يوم عيد الحرية الفرنسى ١٤ يوليو ١٩٣٩ يقول :

« أيتها الحرية التى يتغنى بمفاتنك الشعراء ؛ وتسفك فى سبيلك الدماء ، أين أنت فى هذا الوجود ؟ كم من أمم تحتفل بعيدك وقد وضعت نير العبودية على أمم وأمم . وكم قوم نصبوا لك التماثيل فى الأرض ، وقد هدموك فى القلوب والعقول . فتشت عنك فى الشعوب القوية فوجدت العتاة الطغاة قد قيدتهم الأطماع فى تراث الضعفاء . فتشت عنك فى الشعوب الضعيفة فوجدت الأنصار المرهقين قد كبلهم استبداد الأقوياء ، آه أيتها الحرية المحبوبة . واشوقاه إليك بل واشوقاه إلى شهدائك . المحيا محياهم والممات مماتهم . »

* * *

ولد الشيخ عبد الحميد بن باديس فى عام ١٨٨٩ على أرجح الأقوال — بمدينة قسنطينة ، حيث درس بها العلوم ، والتحق بالجامعة الزيتونية فى تونس ، سافر للحج عام ١٩١٢ فطاف سوريا ولبنان ومصر والمدينة ، واتصل بعلماء هذه الأقطار ، ثم عاد إلى وطنه وقد أزمع العمل فى مجال الإصلاح الدينى والاجتماعى .

وقد كان ابن باديس من أسرة عريقة قديمة ذكرها ابن خلدون فى كتابه (العبر وديوان المبتدأ والخبر) وكان ميسوراً يستطيع أن يعيش حياة رخية هانئة ، دون أن يعرض نفسه لمتاعب الاستعمار الفرنسى ، ولكنه كان صادق الإيمان بالعمل لأمته ، قوى القلب والوجدان .

ولقد هددته فرنسا مرة ومرة فلم يصرفه ذلك عن هدفه .

قال له مسيو ميرانت الكاتب العام للإدارة الفرنسية : إن موارد الأسرة ستقطع عنه إذا استمر فى هذه الحركة . »

ولكن تهديده بقطع موارد الأسرة كلها إذا ظل يتحدى السلطة لم يرده عن هدفه ، قال : « إن أبى شيخ كبير . أما أنا فلن أتوقف عن المسير فى الحركة . »

وقد مكنه ثراؤه من التنقل والرحلة فى أنحاء الجزائر مؤسساً للمدارس ، ومنفقاً من ثروته الشخصية ، ثم جمع التبرعات وداعياً إلى النفقة فى سبيل تأسيس المدارس الوطنية ، وبناء المدارس فى القرى .. حتى استطاع مع زملائه وأعوانه (العقبى والإبراهيمى) بناء ٣٥٠ مدرسة فى مختلف أنحاء الجزائر كانت تخرج أكثر من ١٥٠ ألف مواطن يتقنون اللغة العربية .

وخلق ابن باديس بهذا العمل تياراً ضخماً ، لم تستطع فرنسا القضاء عليه ، واستمر فى دعوته على صلابة فى الإيمان بالفكرة ، ومرونة فى مواجهة الغاصب حتى يفوت عليه غرضه .

وصور غرضه فى وضوح فقال : نريد انقلاباً جزائرياً يرتكز على إعداد نشء صالح تتمثل فيه عبقرية الجدود ، وتنهض نهضة إسلامية عربية تأخذ من عظمة الماضى ويقظة الحاضر ما يعصمها من الزلل والانحراف ، وهى تسير فى طريق المستقبل الباسم .

وكان يصور طريقته فى العمل على نحو دقيق يقول : « تستطيع الظروف أن تكيفنا ، ولكنها لا تستطيع أن تقهرنا » .

وكان ابن باديس داعية يقظاً ، يحذر من الألقاب ويقول : إنها كانت وبالاً على هذا الشرق ، وداءه الذى سرى فى أعصابه فخدرها طيلة هذه القرون .

وعندما ذهبت الوفود إلى فرنسا لتطالب بتغيير السياسة الاستعمارية قال :

« إن الوفود لاتستطيع أن تغير شيئاً . ولكن الشعب هو الذى يستطيع أن يغير كل شيء . وإن الاستعمار يقوى اليوم بجنوده وأشياعه وأعوانه من رجال الطرق الصوفية وأحزابهم المخدوعين ، ومتى نفض الشعب عن نفسه غبار الجهل والغفلة أدرك وجوب تسيير شئون نفسه ، وأخذ يضع كل شيء موضعه » .

وهذا ما حدث بالفعل من تأثير دعوته ، وكانت أبرز فكرة حطمها ابن باديس هى فكرة أن الجزائر فرنسية ، كانت صحيفتا الشهاب والبصائر تحمل لواء هدم هذه الفكرة . وكان كثيرون من زعماء الجزائر قد أعلنوا منذ عام ١٩٣٤ هذا الرأى . ولقد عمل ابن باديس على دحضه ، وأكد أن للجزائر شخصيتها العربية المستقلة .

وعندما تجمعت الخصومات عليه من الرجعيين والدعاة لثقافة فرنسا ولغتها والاستعمار نفسه لم يثنه ذلك عن استمساكه بدعوته ، وقال كلمته الخالدة : « من رام أن يحول بيننا وبين فكرتنا التى نؤمن بها . فقد حاول عبثاً قلب الحقائق ، فنحن لانتزحزح عن الفكرة قيد شعرة مهما طمى سيل الكوارث على أمة لها ما للشعب الجزائرى من الصفات المرغوب فيها ، الكامنة كمون النور فى الكهرباء .. »

وصدق . وعاش حياته مجاهداً حتى توفى فى ١٦ أبريل سنة ١٩٤٠ ، وقد ترك أثراً قوياً وبعيد المدى فى مرحلة الثورة الجزائرية التى حققت تحرير الوطن ، واليوم تعرف الجزائر قدر ابن باديس وتذكره وتحتفى بآثاره وكلماته الخالدة .

٢ ــ علال الفاسى

هذا رجل عريض الاسم يذكر فى مجال الحركة الوطنية ، كما يذكر فى مجال الحركة السلفية ، ونذكره هنا فى مجال العمل الفكرى الثقافى الذى وهبه عدداً كبيراً من البحوث والدراسات فى مجال الدراسات التاريخية والثقافية والإسلامية ، وأمامى من كتبه :

« النقد الذاتى » و« الحركات الاستقلالية فى المغرب العربى » و« مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها »

وهى تكفى لتحله مكان العلماء قادة الفكر المغربى الأعلام . وآراؤه العميقة البناءة فى مجال فلسفة فكرية عربية إسلامية مغربية ، واضحة فى مجال الدراسات التى تعرضنا لها .

وهو إلى هذا شاعر يذكر فى مقدمة شعراء المغرب العربى ، يقول روم لاندو ، « كان يُنظر إليه لا على أنه الزعيم السياسى فحسب ، بل نبى الوطنية وشاعرها أيضاً ، ومعظم الأناشيد الوطنية التى يتغنى بها المراكشيون منذ عشر سنوات على الأقل من نظمه ، وكانت شهرته وأدبه فى الشرق الأوسط تماماً كشهرته فى وطنه » .

وهو الخطيب الذى يدهش كتاب الغرب كيف احتفظ بسلطته العظيمة على الجماهير « صوت عميق كالجرس تتدفق كلماته كالسيل الدافق »

★ ★ ★

وفى رأيى أن مجاله الأكبر هو مجال الدعوة الفكرية ، فهو ثمرة الحركة السلفية التى قادها محمد عبده والمنار ، والتى صبغت العالم الإسلامى كله بصبغة الفكر الحر القائم على المنطق والفلسفة .

وأمامى نظرة بقلمه لمفاهيم الفكر المغربى تمثل مذهبه وطريقة تفكيره : « إذا نحن نظرنا للبلاد المغربية نجدها لا تصل براً إلا عن طريق الصحراء الواسعة التى تربطها بالشرق الأوسط وبمهابط الوحى الإلهى فى الأراضى المقدسة ، ونجد سلسلة الجبال الأطلسية تحيط بها فى شكل منطقة محكمة ، فتقويها على الثبات فى كيانها المنعزل

عما وراء البحار ، ولكنها فى الوقت نفسه تمنحها المناعة المحدقة بها عمق المحيط وسذاجة المتوسط ، وتصل بها الأرض إلى الصحارى الكبرى التى تعكس فى باطنها أشعة الوحى وسعة القلب وقوة الإيمان .

هذه الطبيعة الأرضية المغربية لم تستطع أن تجد النموذج النفسى الذى يمكن أن تتحد معه إلا فى المثل العليا التى وردت عليها عن طريق البر ، تستطيع أن تتأكد ذلك بنفسك كلما رجعت للتاريخ القديم وما بعده فى هذه البلاد ، فإن القرطاجنيين وحدهم هم الذين استطاعوا أولاً أن يتحدوا مع المغاربة زمناً طويلاً ، وأن يغرسوا فى وسط المغرب لغتهم وعاداتهم ودياناتهم الفينيقية التى لانزال نجد الآثار العديدة منها فى تقاليدنا وأساطيرنا إلى اليوم ، وعلى العكس منهم فإن كل الذين وردوا للمغرب من وراء البحار لم يقدروا أن يتعمقوا النفس المغربية أو يغرسوا فى دواخلها حضاراتهم ومدنياتهم .

ولقد وصلت المسيحية للمغاربة عن طريق المشرق ، ولكن ما أصبحت هذه الديانة رسمية فى روما حتى أنكرها أهالى إفريقيا الشمالية قاطبة .

وأنا لا أريد أن أتوسع فى ذكر الأمثلة التاريخية الدالة على هذه الحقيقة ، لأنها معروفة فى كتب التاريخ ، وإنما يكفى أن نذكر بأن الرومانيين والقوط وأبناء روما الشرقية كلهم لم ينجحوا فى غرس أفكارهم ولا مدنيتهم فى بلاد المغرب العربى ، والعلة فى ذلك على ما نرى هو أن نموذجهم النفسى وطبيعة الأرض التى جاءوا منها لم تكن متفقة مع ما اختاره المغاربة من نموذج مشرقى ولا مع الطبيعة التى لأرض المغرب . وهذه العلة نفسها هى السبب فى نجاح الإسلام فى بلادنا ، وهى السبب فى التآخى الذى حصل بيننا وبين العرب ، لأننا كنا متآخين فى الطبيعة وفى النموذج النفسى قبل أن نلتقى .

ونحن اليوم بأرضنا ونموذجنا النفسى إزاء الأزمة التى تعرض عادة فى أثناء هجوم نماذج نفسية أجنبية ، والحقيقة أننا لم نجد له الآن فى أعماقنا عزماً قوياً على نبذ مثلنا الأعلى وكياننا القومى .

إن المغربى منذ كان يحب الحرية ويعشقها ، وهو لذلك يدافع عنها ، ويبذل كل مجهوداته للتمتع بها ، وقد وصل حبه للحرية إلى أن نبذ كثيراً من الأنظمة ، ورفض الاتصال بالعالم الخارجى ، وانزوى على نفسه .

وهذا الحب للحرية لا يزول من روح المغاربة أبداً حتى ولو طالت عليهم الآماد وأخفى مقاومتهم الاضطهاد ، لقد لبثوا مئات السنين مع المحتلين قبل الإسلام ، ولكن ذلك لم يقتل فى نفوسهم حب المقاومة ، ولا منعهم من أن يتطلبوا الحرية بمجرد ما برق لهم النموذج النفسى الذى يعشقونه على أسنة رماح العرب وأبطالهم .

والمغربى منذ كان ، وفى كل أطواره التاريخية ، لم يقبل أن يكون تابعاً لسلطة روحية خارجة عن الوطن ، فقد اعتنق المسيحية ولكنه رفض أن يخضع للكنيسة الرسمية ، واعتنق الإسلام ولكنه رفض أن يتبع الخلافة العباسية ، وليس أدل على هذه العقلية من دراسة الطرق والزوايا الموجودة فى المغرب ، فإننا لا نجد واحدة منها تخضع لمشيخة رسمية خارج الوطن ، إن ذلك لم يقع بين الحاكمين ، ولكنه وقع بطبيعة الوطن المعتز بكيانه الخاص ، وبطبيعة المغربى الذى يقبل المبدأ ، ولكنه لا يقبل أن يستعبده أحد من أجله ، وأظن أننا الآن فى تجاربنا الحاضرة سنصل لا محالة إلى الاقتناع بضرورة استمرار هذا الخلق المغربى الكريم ، فلا نقبل أى تسلط روحى يتركز خارج بلادنا ، لنا الحق فى أن نختار من المبادئ ما نشاء ، ولكن لابد أن نصهرها ونكيفها بالطبيعة المغربية التى تحب الاستقلال فى كل شىء .. »

★ ★ ★

هذا جانب من فكره الفلسفى الاجتماعى ، فإذا عرض للشريعة الإسلامية برز فى مقدمة أعلامها (١)

« .. لقد مضى على المسلمين حين من الدهر نسوا ما ذكروا به ، وذهلوا عما يحتوى عليه دينهم من هدى وإرشاد ، واتبعوا ما تملى شياطين الاستعمار من آراء وتشريعات لا قبل لهم بها ، ولا امتناع لعقولهم بمغازيها ، ولا تحتل من مجتمعهم شيئاً ، وإنما هى أنقاض لحضارات متباينة مع حضارتهم ، أرغموا على قبولها بالحديد والنار ، وبالضغط الفكرى الذى يتمثل فى هذه المدارس الأجنبية والبرامج الأعجمية .

وإن الاستعمار الغربى فى بلاد المسلمين لم يحدث من الخراب فى الأرض وفى الأجسام ما أحدثه فى العقول والقلوب والأفهام .

فقد أصبح المسلمون بما تسرب إلى بواطنهم يجهلون أنفسهم ، ولا يعرفون من حقيقة أمرهم شيئاً ، واختلفوا باختلاف عدوهم ، فمنهم من يؤمن باليمين ، ومنهم

---

(١) كتابه « مقاصد الشريعة ومكارمها » ص ٢٧١

من يؤمن باليسار ، ومنهم من يظل فارغاً من كل عقيدة ، ومجرداً من غير التبعية فى الهوى وفى الشهوة ، فكان عاقبة أمرهم أن تسلطت عليهم هذه الحكومات البوليسية فى كل مكان تصليهم ظلماً ، ولا تألوهم اضطهاداً وهضماً ، فإذا انتبهوا وظنوا أنهم قادرون على أن يقاوموا الجور وينازلوا الطغيان ، جاءهم الفكر الغربى بما يوجههم نحو طغيان آخر واضطهاد جديد ، وسيبقون كذلك ما داموا ينشدون العدل من غير الإسلام ، والإصلاح من غير القرآن .

وقد صدق مالك حين قال : « لن يصلح أمر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها » فعسى أن ينتبه طلبتنا والدارسون للقانون والأخلاق منا ، والمتيقظون على العموم إلى أن الفقه الإسلامى وحده الكافى لعلاج المجتمع ، والأخلاق القرآنية وحدها المحققة لتوازن القوى وتعادل الـ حدات الاجتماعية فى البر والتقوى ، فيتقدمون إلى دراسة الفقه واستخلاص أسراره ، وإلى الأخلاق واستنباط جمالها ومعالمها ، ثم يجاهدون جهاد الأبطال لإقرار شريعة الإسلام قانوناً للدولة ، وأخلاق القرآن معياراً للشرف والفضيلة والقيم الاجتماعية .

فأما عقلاء أمتنا فما زالوا يتألمون من هجوم الاستعمار الفكرى عليهم ، وما زالوا يحللون مع أنفسهم أسباب الانحطاط الذى أصاب بلادهم وقومهم ، فلا يردونه إلا إلى إعراض الكل عن شريعة الإسلام وتعاليم الحق ، أما المثقفون ثقافة غربية من أبناء قومنا فهم مقتنعون بأن الفكر الغربى هو كل شىء ، والقانون الأجنبى هو المثل الأعلى ، ولكن عذرهم أنهم لم يدرسوا الفقه الإسلامى ، ولا تعرفوا إلى مصادره ، ولا تعمقوا أسراره ومقاصده .

أما فلاسفة الدنيا وعظماء الغرب النزهاء فقد سبقوا بعقلهم وإنصافهم إلى إدراك ما فى فقهنا الشرعى من محاسن ومميزات لم يصل إليها غيره من القوانين ، وشهدوا أن كل من يهمه الإنصاف والعدالة يجب أن يستمد من شريعة الإسلام وأخلاق القرآن .. »

* * *

وهكذا عاش علال الفاسى حياة الفكر المغربى (العربى الإسلامى) المعاصر ، وعرض لمشكلاته وقضاياه فى عشرات من مؤلفاته ، ومقالاته الموزعة فى عديد من الصحف ، وفى مقدمتها مقالاته فى مجلات البينة ، وصحراء المغرب ، ودعوة الحق ،

وله عشرات البحوث عن « محمد عبده وموقفه من الشبه والمتشابه » ومستقبل اللغة العربية فى المغرب « الإسلام وهل هو فى حاجة إلى فلسفة » وتاريخ التشريع الإسلامى .

وأخص بالذكر كتابه « النقد الذاتى » يصور فيه كيف يبنى العقل العربى ؟ مع التحديد يقول :

« قرأت لكل فصل من كتابى — قبل أن أكتبه — عشرات المؤلفات العربية والمعربة والفرنساوية والمنقولة للغة الفرنسية المتباينة ، وقارنت بينها بقدر الاستطاعة ثم عرضتها على تجاربى فى الكفاح ، وتقلباتى بين الكادحين فى أقطار عديدة طيلة خمسة وعشرين عاماً » .

« هذا الكتاب دعوة إلى وضع البرنامج المفصل الذى يحقق الإصلاحات العميقة التى تنشرها أمتنا متى تم لها الاستقلال وظفرت بالحرية ، مؤمناً بالمحافظة على شخصيتنا ، والاستفادة من تطور الفكر العالمى » وهو بهذا يعد واحداً من دعاة المدرسة الوسطى : مدرسة بناء حضارتنا على أساس من تاريخنا وأمجادنا وشخصياتنا .

وقد جمع علال الفاسى فى حياته الفكرية الطويلة بين التدريس فى القرويين والعمل السياسى والصحافة ، وهو إلى ذلك شاعر له شعر منثور فى الصحف والمجلات المغربية ، وكان قد استهل حياته الأدبية شاعراً حفياً بالكرامة والرجولة وذلك فى مثل قوله :

أبعد مرور الخمس عشرة ألعب ... وألهو بلذات الحياة وأطـــرب ؟
ولى نظر عال ونفسى أبيـــــة ... مقاما على هام المجـــــرة تطلب
وعندى آمال أريـــد بلوغهــــا ... تضيع إذا لاعبت دهرى وتذهب

وربما ذهب إلى التواضع فى تقدير شعره حين يقول :

وما أنا ذو الشعر الذى طار صيته ... وردده من لايزال مناغيـــــــا
فآتى بالسحر الحلال تحـــديا ... وأنظم من شعرى عقوداً غواليـــاً

٣ ـ مالك بن نبي

قدم المغرب العربي الكبير فى مجال النهضة الفكرية عشرات من الأعلام : في مختلف ميادين الفكر والأدب والصحافة والإصلاح السياسى والدينى ، وقدم دعاة ومفكرين وصحفيين ومفكرين وفلاسفة ، ومالك بن نبي من أبرز هذه النماذج التى قدمها المغرب للفكر العربى الإسلامى ، قدمه المغرب العربى من الجزائر ، وقدمه الفكر العربى الإسلامى باللسان الفرنسى مرة وباللسان العربى مرة أخرى .

و« مالك بن نبي » يختلف كثيراً عن الدعاة والمفكرين والكتاب . فهو فيلسوف أصيل له طابع العالم الاجتماعى الدقيق الذى أتاحت له ثقافته العربية والفرنسية أن يجمع بين علم العرب وفكرهم المستمد من القرآن والسنة والفلسفة والتراث العربى الإسلامى الضخم ، وبين علم الغرب وفكرهم المستمد من تراث اليونان والرومان والمسيحية .

واستطاع أن يمتلك من مناهج البحث ما يجمع بين ابن خلدون فخر المغرب وفخر العرب والمسلمين جميعاً كرائد وضع أصول علم الاجتماع ، وبين أساليب المفكرين الغربيين ومناهجهم .

ويرى « عبد السلام الهراس » (١) أن فلسفة مالك تقوم على النظر فى التاريخ الإنسانى الطويل ، والتعمق فى أحداثه وأسبابها . واستنباط الحقائق الاجتماعية التى نستطيع أن نفيد منها فى معالجة أزمتنا الحاضرة على ضوء ما أصابنا فى الماضى من فشل أو نجاح .

وتتلخص آراء مالك بن نبي فيما يلى :

ان الإنسانية مرت بأكبر تجربتين حضاريتين فى التاريخ : التجربة الرومانية ، والتجربة الإسلامية . وقد كانت التجربة الأولى متجلية فى الروح الإمبراطورية التى يقسم الإنسان إلى مواطن يتمتع بكامل الحقوق . وإلى غير مواطن مسلوب من كل الحقوق . وعلى هذا الأساس حكمت وقننت وعالجت ومنحت . وهى وإن أخفقت

(١) مجلة دعوة الحق : نوفمبر ١٩٥٨ وفبراير ١٩٥٩ ، نوفمبر ١٩٥٩ .
كتب الباحث : الدكتور عبد السلام الهراس ـ تطوان عن مالك بن نبى عددا من الدراسات .

معالجة مشكلات الإنسان قديماً ؛ فقد أتيح لها أن تبدو فى صورة جديدة فى عصرنا الحاضر .

فالحضارة الغربية المعاصرة تخطت الحضارة الإسلامية التى سبقتها فى الزمن ، وكانت حلقة ضرورية فى سلسلة الحضارات الإنسانية ، تخطتها لتتصل بالحضارة الرومانية ، وتأخذ منها روحها الاستعمارية ، وتتشرب مبادئها ، وكثيراً من نظراتها الجوهرية .

يرى أن العالم الإسلامى ليس مريضاً بالتفرقة والجهل والاستعمار ، وإنما هى أعراض « مرض » فقط ، أما المرض الحقيقى فيجب أن يلتمس وراء هذه الأعراض الخداعة التى شغلت العالم الإسلامى وأتعبته وضللته عن معرفة حقيقة الداء ، ومن ثم جهل حقيقة الدواء ، والمرض يكمن فى « النفس » ، فى الذات الإسلامية ، ويطلق « القابلية للاستعمار » وهذه القابلية هى الجاذبية التى تجذب نحوها الاستعمار ، فللقضاء على الاستعمار يجب أولاً القضاء على سببه الجوهرى الذى يكمن فى النفوس ، أى « القابلية للاستعمار » .

ويعرف مالك بن نبى الحضارة بأنها تساوى (إنسان + تراب + وقت) فكل نتاج حضارى هو نتيجة اشتراك ثلاثة عوامل لا غير .

١ ــ التراب : المادة المكونة لهذا النتاج الحضارى .

٢ ــ الإنسان : الذى صنعه .

٣ ــ الوقت : الذى صنع فيه ، وليس هناك عنصر آخر يستطيع أن يدخل فى تكوين وصنع هذا النتاج الحضارى .

إن مجرد وجود هذه العناصر الثلاثة ليس بكاف لإيجاد حضارة ، وإلا لكان مجرد أكسجين وأدروجين بنسبة معينة كافياً لتكوين الماء ، إنه لابد من مركب لهذين العنصرين كالشرارة الكهربائية ، وكذلك الحضارة فإنها تحتاج لمركب ، يركب بين عناصرها ، وهذا المركب أو الشرارة يجب ألا نختلقها اختلاقاً ، بل إننا لا نستطيع إيجادها ، وإنما يبحث عنها فى التاريخ ، فهو الوحيد الذى يسعفنا بالخبر عن الشرارة المكونة للحضارات ، والتى استطاعت أن توجد العلاقة بين العناصر الثلاثة ، وعن تلك العلاقة انبثقت المدنية ، هذه الشرارة هى الدين . فالحضارة لاتنبعث إلا بالعقيدة الدينية ، وينبغى أن نبحث فى كل حضارة من الحضارات عن أصلها الدينى الذى بعثها .

وأن للحضارة مداراً تسير فيه ، هذا المدار يتكون من ثلاث مراحل :

١ ـ مرحلة الروح ، وذلك عندما تكون الحضارة فى عنفوان قوتها .

٢ ـ مرحلة العقل : عندما تبلغ الحضارة أقصى توسعها .

٣ ـ مرحلة الغريزة : التى تعود بالإنسان إلى مستوى الحياة البدائية .

فالحضارة الإسلامية مرت بهذه المراحل، ابتدأت المرحلة الأولى من قوله تعالى: « اقرأ » إلى حرب صفين ، ومن هناك دخلت فى مرحلة العقل إلى زمن ابن خلدون، وهنا استسلم العالم الإسلامى لقيادة الغريزة التى لاتزال لها القيادة إلى اليوم .

إن أوربا قد بدأت تدخل مرحلة الغريزة على الرغم من هذه الصحوة العلمية الجبارة التى انفصلت عن الضمير ، ومحاولة تقليدنا لأوربا فى هذه المرحلة التطورية من حياتها محاولة تدل على جهل بأسس المدنية وحقيقتها وبواعثها ، فالمدنية ليست بضاعة تشترى ولا أشياء تنقل أو صوراً تحاكى ، وإنما هى معان نفسية روحية تنبثق من الذات ، من الروح ، من الفطرة .

وأبرز معالم تفكير مالك بن نبي وفلسفته هى :

١ ـ اتخاذ التاريخ الإسلامى المغربى أساساً لبحثه ، فهو يتحدث عن : إنسان مابعد الموحدين كعلامة على سقوط الحضارة الإسلامية ويؤرخ لتلك الظاهرة فى التاريخ الإسلامى بسقوط دولة الموحدين « الذى كان فى حقيقته سقوط حضارة لفظت آخر أنفاسها » ثم يبدأ تاريخ الانحطاط بإنسان مابعد الموحدين »

٢ ـ ما أسماه محور واشنطون ـ موسكو . ومحور طنجة ـ جاكرتا :

ويصنف مالك بن نبي المجتمعات المعاصرة إلى نوعين :

المجتمع الذى يعبر عن حدوده الجغرافية . بخط (واشنطون ـ موسكو) ويسميه المجتمع الصانع .

والمجتمع الذى يعيش على خط (طنجة ـ جاكارتا) ويسميه المجتمع المتخلف .

* * *

ولسنا نستطيع هنا أن نستقصى فلسفة مالك بن نبي ولا نحيط أفكاره . إنما نحاول أن نعطى صورة سريعة فى مجال تطور الفكر العربى الإسلامى فى المغرب فى المرحلة التى تلت مرحلتى : السلفية والإصلاح العصرى .

ويمثل مالك بن نبي مرحلة جديدة هى مرحلة الفكر المغربى العربى الإسلامى بعد

الحرب العالمية الثانية ، وهو مجال ضخم خصب لا يزال ممتداً وفسيحاً ، وفى حاجة إلى دراسة واسعة .

فقد ولد مالك بن نبي فى الجزائر (مدينة قسنطينة) ١٩٠٥ فى بيئة متدينة ، درس القضاء فى المعهد الإسلامى المختلط ، ثم توجه إلى دراسة عصرية ، والتحق بالمعهد العالى للهندسة فى باريس ، حيث تخرج مهندساً فى الميكانيكا الكهربائية .

وفى باريس اتصل ببيئات السربون ، والكوليج دى فرانس ، ومعهد اللغات الشرقية ، واتصل بعشرات من المفكرين والباحثين والمستشرقين .

يقول عبد الرحمن الطهمازى (١) : إنه فوجىء بعد تخرجه بشىء لم يكن يتوقعه ، فوجىء بالأبواب أمامه مقفلة ، إنه لم يستطع القيام بالتمرينات اللازمة لكل مهندس تخرج حديثاً ، لأن الاستعمار الفرنسى أدرك العقلية التى يحملها « مالك » الذى لم يكف عن الاتصال بأحداث العالم العربى والتجاوب معها .

ويرى عبد السلام الهراس : أنه لم يكن بمعزل عن المراقبة الاستعمارية التى تفطنت لنبوغه واتجاهه الفكرى وعقيدته الراسخة . وأن موقف الاستعمار بالنسبة لهؤلاء هو المؤتمرات الثقافية والدهاء التربوى حتى يستطيع أن يجعل منها «وسيلة» فعالة بارزة لخدمة أغراضه على مستوى عال فإذا لم يجد ، التجأ إلى سياسة التضييق والتيئيس والخنق ، وقد يلجأ أخيراً إلى القتل ، ولقد اتبع الاستعمار هذه الخطة مع مالك بن نبى ، فقد حاول فى أول الأمر أن يحيطه بجو ثقافى خاص ليتغذى منه بما يحقق أهداف الاستعمار فيه ، كما أحاطه بشخصيات فرنسية كبيرة لتحدث فيه الأثر المرجو المحدد ، لتزييف إحساساته واتجاهه ، غير أن العقيدة كانت أرسخ من أن يعبث بها الاستعمار أو أن ينال منه شيئاً ، فأغلق الاستعمار فى وجهه باب الرزق ، وعزل والده من وظيفته ، وسلط على مالك من يحاربه من بنى جلدته ، حتى يستقر فى ذهن مالك أن المسلمين لا يستحقون أن يخدموا ، لأنهم لا يقدرون مجهوداته الإصلاحية .

وعاش مالك فى صراع مع الاستعمار ونشر أول مؤلفاته فى سنة ١٩٤٨ م فى الجزائر ، وهو « مشكلة النهضة الجزائرية » وتحدث فيه بصراحة عن جمعية العلماء ، وقال إنها تحولت عن رسالتها بقبول الاشتراك فى مؤتمر عام ١٩٣٥م ، وهاجمته جريدة « البصائر » ، واستطاع مالك أن يتجه إلى الشرق فيزور مكة ويقيم فى القاهرة ؛ ويبدأ فيها عمله الضخم

---

(١) مجلة المكتبة « كانون ثان ١٩٦٢ »

خلال سبع سنوات (١٩٥٧ – ١٩٦٣) حيث اصدر عدداً كبيراً من مؤلفاته المرسومة بموسوعة مشكلات الحضارة وأهمها :

شروط النهضة ، فكرة الإفريقية الأسيوية ، الظاهرة القرآنية ، وجهة العالم الإسلامى ، مشكلة الثقافة ، الصراع الفكرى فى البلاد المستعمرة ، تأملات فى المجتمع العربى ، فى مهب المعركة ، ميلاد مجتمع .... الخ .

وقد عاد « مالك بن نبى » إلى الجزائر ليشارك فى نهضتها ويسهم فى تطبيق فلسفته فى مجال اليقظة الفكرية الجديدة فى المغرب العربى كله .

★ ★ ★

٤ – الطيب العقبى

شاعر وداعية من أبرز دعاة جمعية العلماء الجزائريين ، عاش فى المشرق فى مطالع حياته وعاد إلى الجزائر (مارس ١٩٢٠) . ولد ببلدة سيدى عقبة سنة ١٣٠٧ هـ وانتقل مع عائلته إلى الحجاز وقرأ القرآن وتعلم بالحرم النبوى ، وتناول الكتابة فى الصحف الشرقية قبيل الحرب العالمية الأولى ، وعد من أعضاء النهضة العربية فأبعد عن المدينة على أثر حركة الشريف حسين إلى تركيا ، فالأناضول . فبقى بها عامين حتى عقدت الهدنة فعاد إلى المدينة ، وعين مديراً لجريدة القبلة والمطبعة الأميرية ، وفى الجزائر تفرغ للتدريس ، وعاوده الحنين إلى الصحافة فأنشأ جريدة الإصلاح .

وكان فى عام ١٩٢٩ يتأهب لتحقيق مشروع خلاصته تجديد الإسلام فى حدود القرآن وتنقيته مما لصق به من البدع ونشر دعوته . فاشترك فى جمعية العلماء التى أسسها عبد الحميد بن باديس ، وأنشأ نادى الترقى وظل يعمل بها حتى اتهم فى (أغسطس ١٩٣٦) بالتحريض على اغتيال مفتى الجزائر الذى كان من أعوان فرنسا (ابن والى عمر) الملقب بكحول .

وهو إلى هذا من الشعراء : يقول تعاطيت نظمه قبل الحلم بالمدينة المنورة ، وقبل أن أتمكن من أساليبه العربية ، ثم لما تقدم ذوق العربى حكمت على شعرى القديم بالإعدام . ثم جمعت ما يكاد يقرب من ديوان للمرة الثانية فطوحت بى طوائح الحرب والإبعاد

عن تلك البلاد بغتة وبلا استعداد ، فحالت بيني وبين كتبي ، ومن شعره قوله .

حي الجزائر مادامت تحيينـــا ... وانهض بشعب قضى في جهله حينا

وسر حثيثا إلى تلك الطريق إلى ... حيث المعارف حيث العلم يهدينا

واذكر حديث جدود قبلنا سلفوا ... عساك بالعلم بعد الجهل تحيينا

كنا قلادة جيد الدهر وانفرطت ... ومن يمين العلا كنا رياحينـــا

ردوا علينا علوماً لو بها بخلت ... جدودنا كنتم للبهم ترعـــونا

هبوا بني وطني من نوم غفلتكم ... جل المصاب وخطب الدهر يرمينا

تعلموا العلم وامشوا في مناكبها ... وجانبوا كسلا أودى بماضينا

القسم الثاني

قضايا الوطنية والعروبة والإسلام

الكفاح الوطني ، امتزاج العروبة والاسلام ،
التراث والتراب المغربي ، البربر ،
وحـــدة المغرب ، التقاء المغرب والمشرق .

مدخـــل

لا يتيسر دراسة تطور الثقافة فى المغرب العربى منفصلة عن الحركة الوطنية ؛ فإن النفوذ اللاتينى فى ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى ، كان هدفه القضاء على الثقافة العربية الإسلامية ممثلة فى مقومات الفكر والدين والاجتماع والتعليم واللغة . وكانت المقاومة الوطنية فى ذاتها حركة تحد ورد فعل لحملة التغريب التى تمثلت فى صور متعددة هى : التجنيس فى تونس ، والإبادة فى ليبيا ، والإدماج فى الجزائر ، (الظهير البربرى) والفرنسة فى المغرب الأقصى ؛

وتتمثل جوهر المعركة الثقافية بين الفكر العربى وموجة التغريب فى عدة قضايا أساسية كبرى ، أبرزها :

١ — محاولة خلق روح إقليمية فى كل إقليم من أقاليم المغرب بإحياء أمجاد ما قبل الإسلام .

٢ — خلق صراع بين العنصرين الممتزجين : العرب والبربر .

٣ — محاولة الفصل بين العروبة والإسلام ، وهما لا ينفصلان فى المغرب .

٤ — قضايا الوحدة المغربية والوحدة العربية .

٥ — محاولة فصل المغرب العربى عن المشرق العربى .

* * *

وقد مرت الثقافة العربية فى المغرب العربى بمرحلتين :

الأولى : مرحلة الاحتلال والحماية والنفوذ الأجنبى المباشر ، (والأخرى) مرحلة الاستقلال ، وقد عنينا فى هذه الدراسة بالمرحلة الأولى .

★ ★ ★

وقد انتهت مرحلة الاحتلال : سنة ١٩٥٤ تقريباً بالنسبة للمغرب وتونس ، وعام ١٩٦١ بالنسبة للجزائر . ولاشك أن مرحلة الاستقلال ما تزال فى بدايتها ، إذ لم تزد على عشر سنوات لما يتخلص فيها المغرب من عقابيل الاستعمار ، فما تزال بقايا النفوذ

الاستعمارى فى الفكر والثقافة والتعليم واللغة قائمة ، وإن كانت تتناقص على التوالى وتزول آثارها يوماً بعد يوم ..... ولذلك فإن دراستها بتوسع تتطلب الانتظار بعض الوقت حتى تتبلور آثارها ونتائجها .

ولاشك فى أن هناك قضايا مشتركة للثقافة والفكر العربى المغربى واجهتها المنطقة كلها .

وهناك قضايا محلية أو إقليمية واجهها كل قطر على نحو خاص ، فليس شك فى أن المغرب العربى بأقطاره كلها قد سقط تحت النفوذ اللاتينى (فرنسا : تونس والجزائر ومراكش) ، (إيطاليا : ليبيا) ، (إسبانيا : الريف المغربى) إلا أن هناك تفاوتاً زمنياً ونوعياً فى درجة هذا النفوذ ، فقد احتلت الجزائر سنة ١٨٣٠ ، ولم تسقط تونس إلا عام ١٨٨١ (أى بعد خمسين عاماً) وليبيا سنة ١٩١١ أما مراكش فقد سقطت عام ١٩١٢ أى بعد ٣١ عاماً من احتلال تونس ، ٨٢ عاماً من احتلال الجزائر .

وكان للجزائر وضعها الخاص ، فقد اعتبرتها فرنسا جزءاً من دولتها وأسمتها (فرنسا الجنوبية) وأطلقت على أهلها (الفرنسيون المسلمون) ، وهنا تختلف المواجهة لأبرز قضايا الفكر والثقافة : وهى اللغة والإسلام والقضية الوطنية والوحدة بين الأقطار الأربعة .

★ ★ ★

وقد مهدت الحركات الإسلامية التجديدية والإصلاحية فى خلال فترة ماقبل الحرب العالمية الأولى للمرحلة التالية التى مرت بالمغرب كله بعد عام ١٩١٨ حيث تطورت الحركة الإصلاحية والسلفية إلى حركة وطنية . ولا يمنع هذا من أن العمل الوطنى ظهر فى تونس قبل هذه الفترة ، ولا يمنع أيضاً بين أن الحركة الإسلامية الإصلاحية انبعثت فى الجزائر بعد ذلك وسارت فى خط واحد مع العمل الوطنى وأمدته بالقوة والحيوية ، وفى المغرب لم يكن هناك فارق كبير بين معانى الإصلاح الإسلامى والعمل الوطنى ، بل كانا شقين للنهضة الفكرية والثقافية .

أولا — الكفاح الوطني من أجل الحرية

أبرز معالم الفكر العربي فى المغرب هو الكفاح الوطنى من أجل الحرية ، وتعد جميع وجوه الإحياء والبعث والتجديد فى مجالات اللغة العربية والإسلام والنثر والشعر علامات مميزة لمقاومة التجزئة والاحتلال والحماية ، والدفاع عن وحدة المغرب وترابه ، والتقاء أجزائه الأربعة ثم التقاء المغرب كله مع المشرق العربى فى وحدة الأمة العربية والتقائه فى وحدة الفكر مع العالم الإسلامى .

وليس غريباً أن يكون الكفاح الوطنى من أجل الحرية هو القضية الأولى فى مجال الفكر العربى المغربى المعاصر ، فقد طال مطال هذا النفوذ الأجنبى فى صوره المتعددة منذ بدأ احتلال الجزائر ١٨٣٠ ، وما اتخذته فرنسا ذاتها فى كل قطر من الأقطار الثلاثة من أساليب مغايرة ، هدفها القضاء الكامل على الذاتية المغربية — كما يسمونها — ومحوها فى محاولة ضخمة لما أسموه « فرنسا الجنوبية » أو « المسلمون الفرنسيون » .

وقد امتدت هذه المرحلة من الكفاح الوطنى فى الأقطار الأربعة إلى الستينات تقريباً ، فإن تحرر ليبيا ١٩٥٠ ، وتونس والمغرب ١٩٥٤ ، والجزائر ١٩٦١ كان عاملاً هاماً فى أن يصبغ هذا الكفاح الوطنى جوانب الفكر العربى المغربى فى مختلف ميادينه الأدبية والاجتماعية والسياسية . .



ويمكن القول بأن هذه المرحلة من الكفاح التى تمتد من (١٨٣٠ — ١٩٦١) وهى فترة الاحتلال للجزائر أسبق هذه الأجزاء المغربية احتلالاً وآخرها استقلالاً ، قد تميزت بعملين كبيرين :

العمل الأول : الكفاح المسلح

العمل الثانى : المقاومة الوطنية السياسية .

ففى مجال الكفاح المسلح كانت هناك حركات متعددة فى كل من ليبيا وتونس والجزائر ومراكش أهمها :

• حركة الأمير عبد القادر الجزائرى (الجزائر ١٨٣٠–١٨٧١) .

• حركة الأمير عبد الكريم الخطابى (المغرب) خلال خمس سنوات (١٩٢١ – ١٩٢٦) وكان قوامها ٧٥ ألف مراكشى بينهم (٢٠ ألف مسلح) حشدت لها فرنسا ٣٢٥ ألف محارب يقودهم ٦٠ جنرالاً فضلاً عن مائة ألف محارب من الإسبان .

• حركة المقاومة السنوسية للاحتلال الإيطالى (١٩١١ – ١٩٣٠) .

• حركات المقاومة التى قادها فى المغرب « الشيخ ماء العينين » واكتسح بها مناطق الجنوب ، واحتل مدينة مراكش (٨ أغسطس ١٩١٢) واستمرت إلى ١٩٣٥ .

وفى الجزائر بطولة لالة فاطمة ١٨٤٧ – ١٨٥٧ ومقاومة الزعاطشة بقيادة أبوزيان ١٨٥٢ ، ومقاومة الأغواط ، وثورة ١٨٦٤ المعروفة بأولاد سيدى الشيخ بقيادة سليمان ابن حمزة . دامت خمسة أعوام كاملة .

وثورة الجرجرة بقيادة الشيخ محمد المقرانى فى جبال الجرجرة عام ١٨٧٢ ، وثورة محمد البدوى فى شرشال وثورة ١٨٥٣ فى أوراس .

وقد أعلن القائد الفرنسى جيوم نتيجة هذه المقاومة المسلحة الضخمة فى كلمات أبلغ من كل تعبير : « لم تأت إلينا أى قبيلة دون قتال مرير ، وما خضعت لنا قبيلة قبل أن استنفدت آخر وسائل المقاومة » .

وفى هذه المعارك بذل المغاربة أرواحهم رخيصة وقاوموا محاولات الإبادة الجماعية المريرة – وتسميم الآبار وإحراق الغلال وتدمير القرى على أهلها ...

وفى الجزائر اعترف الفرنسيون بقوة الشكيمة الجزائرية ، قال دون دورليان : إن هؤلاء الرجال ذوى الحمية والبأس قد أذاقوا الفرنسيين متاعب لم يعرفوها فى كامل حروبهم الإمبراطورية ، وساهموا أكثر من أى جيش نظامى آخر فى تدمير الجيش الفرنسى ، وتعددت شهادات قادة فرنسا بعظمة الجزائريين .

الحركة الوطنية

وقد تبلور العمل الوطنى فى المغرب العربى بعد انتهاء المقاومة الحربية فى الأحزاب السياسية والقيادات الوطنية ، وظهر منها فى ليبيا : سليمان البارونى واحمد الشريف السنوسى

وفى تونس : على باش حانبه ، عبد العزيز الثعالبى ، الحبيب بورقيبة ، صالح بن يوسف

وفى الجزائر : مصالى الحاج ، وعباس فرحات .

وفى المغرب : علال الفاسى ، أحمد بلا فريج ، عبد الخالق الطريس . ومحمد الوزانى .

وقد حملت هذه الأحزاب لواء الحركة الوطنية . وواجهت الاحتلال على درجات مختلفات فى المطالبة بالحرية ، وأخذ بعضها أسلوب « المراحل » والبعض الآخر أسلوب الإدماج (فى الجزائر) أو الاتحاد مع فرنسا . ودعا بعضها إلى الاستقلال الذاتى .

ووقع الخلاف بين الأحزاب فى كل قطر .

وفى المغرب بدأت الحركة الوطنية بعد انتهاء حرب الريف وبعد إعلان الظهير الذى أدى إلى التحالف بين القوميين ورجال الدين ، وكان لهذه الحركة أثرها فى ولادة الحركة الوطنية ، على حد تعبير (روم لاندو)

وظهر علال الفاسى ، وأحمد بلافريج ، ومحمد الوزانى ، وعبد الخالق الطريس .

★ ★ ★

وفى الجزائر ظهر نجم شمال إفريقيا ١٩٢٧ . ثم حزب الشعب الجزائرى وحزب البيان وبرز مصالى الحاج وعباس فرحات .

وفى تونس ظهرت الحركة الوطنية بإنشاء حزب « تونس الفتاة » بقيادة على باش حانبه ، ثم ظهر عبد العزيز الثعالبى الذى كان مفكراً عظيماً أكثر منه سياسياً ، ثم واصل الكفاح الحبيب بورقيبة وزملاؤه .

★ ★ ★

واصطدمت هذه الأحزاب بالمستعمر واعتقل رجالها وسجنوا مرات ، ونفوا إلى وسط إفريقيا ، وإلى فرنسا ، وهاجر الكثيرون منهم إلى مصر أمثال علال الفاسى وعبد العزيز الثعالبى وبورقيبة .

وتمثل الحركة الوطنية صورة الكفاح السياسى الذى بدأ بعد الحرب العالمية الأولى وأبرز مظاهر العمل الوطنى فى هذه المرحلة هى :

- وحدة العمل بين الأحزاب السياسية فى المغرب كله من أجل حرية المغرب كله .
- تأييد قضايا فلسطين والمشرق العربى .
- اتخاذ القاهرة مركزاً لحركة الكفاح المغربى العربى .

• إصدار صحف ونشرات باللغة الفرنسية للرد على اعتراضات الفرنسيين بلغتهم .

وقد حملت الحركة الوطنية لواء الدفاع عن اللغة العربية والتاريخ المغربي ومقاومة أعمال الفرنسة والتجنيس ومؤامرات التغريب والتبشير والتمسيح ...

★ ★ ★

١ – التجنيس في تونس

وقد جرت المحاولات التغريبية التي كانت تستهدف تحويل المغرب إلى فرنسا الجنوبية في خطوط متعددة ، بدأت في تونس بمحاولة (الفرنسة) عن طريق المسلمين ، فبدأت تنشر الدعوة لتجنيس المسلمين بصفة فردية ، ولكنها لم تلبث أن دعت إلى ذلك عن طريق قانون أقره البرلمان الفرنسي ، وبذلك انتقلت مسألة « التجنيس » إلى محاولة جماعية عام ١٩١٤ .

وقد وجدت هذه الحركة مقاومة ضخمة من الصحافة العربية في تونس ، ووضعت المسألة على بساط البحث ، واشتركت فيها مصر بفتاوى علماء المسلمين ، وتناولتها جميع أقلام الكتاب التونسيين ، وجرت أنهار المداد على أعمدة الجرائد السيارة على حد تعبير (انفلاح الجيلاني) .

ولقيت مسألة التجنيس معارضة عامة من التونسيين ، أعربت « عن ثبات تاريخ الأمة واستقرار جنسيتها » .

وأعلن الشعب مقاطعة المتجنسين ، وعدم الزواج منهم ، أو التعامل معهم ، ومنعهم من دخول المساجد .

وقد كان نظر التونسيين في إبان هذه المعركة متجهاً إلى « الأندلس » بعد اندماج جانب كبير من العرب والمسلمين في جنسية الغالب وآل االأمر إلى فقد قوميتهم الأصلية ، ثم تبدلت حضارة الأندلس وانقرض الجنس العربي .

واشترك في مقاومة التجنيس عدد كبير من الباحثين والكتاب وأصحاب الصحف : الطيب بن عيسى (جريدة الوزير) سليمان الجادوى (جريدة مرشد الأمة) حسين الجزيرى (جريدة النديم) على كاهيه (مجلة الفجر) عثمان الكعاك – الطاهر الحداد (جريدة الأمة) محمد محي الدين ، محمد نعمان ، حسونة الغباشى ، عبد الرحمن الكعاك.

★ ★ ★

« فأحمد توفيق المدنى » يهاجم هذا الاتجاه ويرى أن هذا الأمر يقضى على التوازن الاجتماعى بالهيئة التونسية ، وأن الذين سيطلبون التجنيس ، إنما يدعوهم إلى ذلك حب الأرباح والامتيازات المادية التى تخولها التجنيس ، وبمرور الزمن تتكون طبقتان متباينتان : طبقة من تونسيين متجنسين . لهم كل الامتيازات الخاصة التى للفرنسيين ، وأخرى مؤلفة من التونسيين الحقيقيين الذين بقوا مسلمين ، هؤلاء هم الذين سيحافظون على ماضيهم المجيد ، هم الذين سيذكرون دائماً الأسماء الخالدة التى تكلل تاج ثروتهم التاريخية والأدبية . أمثال طارق بن زياد ، وموسى بن نصير ، ، وهارون الرشيد ، وابن سينا ، وابن رشد ، وابن خلدون ، ومجنون ليلى ، والمعرى ، وأولئك الذين سيبقون محافظين فى ذاكرتهم على ذكرى عائلات الملك التونسى الماجد ، عائلات الأغالبة وبنى حفص ..

★ ★ ★

وأعلن « عثمان الكعاك » أن المسلم إذا تجنس بالجنسية الفرنسية لزمه أن يعرض عن أحكام شريعته وينبذها ظهرياً . ذلك أن الشريعة الإسلامية لم تكن مجرد عقائد ، بل منها ما يتعلق بالمعاملات والأحوال المدنية ونظام العائلة كالميراث والنسب .

وعنده أن الفرنسيين بعد أن قهر الحلفاء دولة الخلافة العظمى وجردوها من كل ولاياتها الإسلامية يفتحون باب التجنيس بالجنسية الفرنسية حتى يتجرد التونسيون من كل مميزاتهم الإسلامية .

وقال : إن التجنيس يقطع الصلة بين الدين والأدب واللغة والأخلاق والتاريخ ، هذه المؤسسات التى تستمد منها غذاءها الدينى والسياسى والاجتماعى وعندما هاجمه الدكتور (قاطان) رد عليه قائلاً :

أنسيت يا : م . قاطان ما كان للجنسية التونسية من الفضل على الشعب الفرنساوى ؟ أنسيت ما قام به العرب من تمدين فرنسا أثناء القرون الوسطى ؟ ، أنسيت أن كليات ومدارس فرنسا أثناء القرون الوسطى كانت عامرة بالأساتذة العرب ؟ ، أنسيت أن الفرنسيين أخذوا العلم عن العرب ؟ .

وقال : إن شعب تونس على طول التاريخ ظل حافظاً لكيانه . فلم يندمج فى أى قومية ولا امتزج بالرومان ، ولم يذعن لقرطاجنه ولا رومية ، ولم يندمج فى العنصر الكنعانى ولا الإيطالى .

٢ – ظهير المغرب (١)

فى ١٦ مايو ١٩٣٠ أصدرت فرنسا فى المغرب ظهيراً (قانوناً) أطلق عليه « الظهير البربرى » الهدف منه فصل العرب عن البربر :

ويقوم مفهوم الظهير على أساس أن الأمة المغربية تتكون من فريقين أحدهما بربرى والثانى عربى ، وأن هذا الأخير فتح بلاد الأول واستعمرها ، وأن مهمة فرنسا هى تحرير الأول من سيطرة الثانى الدينية واللغوية والعقيدية ، ليصبح شاعراً بوجوده الخاص ، قادراً على أن يحفظ التوازن السياسى الذين يمكن فرنسا من البقاء الدائم فى المغرب .

ويتم ذلك بوسائل أساسية :

١ – إقصاء اللغة العربية عن المحاكم ، واستعمال اللغة البربرية مع الحروف اللاتينية.

٢ – إقصاء العربية عن المدارس التى تؤسس لأبناء البربر ، ومنع تعليم الديانة الإسلامية بها .

٣ – الحيلولة بين سكان المناطق البربرية وبين الاتصال بالمناطق العربية ، وفتح الطريق أمام رجال التبشير ليقوموا بالدعوة للمسيحية .

وجملة أهداف الظهير البربرى هى محو الإسلام ، وإقصاء الشريعة الإسلامية والقضاء على اللغة العربية .

* * *

ولا نبالغ إذا قلنا : إن العالم الإسلامى اهتز لهذا الحدث ، وكان لمصر دور كبير فى المقاومة عن طريق صحفها ، وكانت « مجلة الفتح » وقلم محب الدين الخطيب من أجرأ الكتابات فى هذا المجال .

وكان لجمعيّى الشبان المسلمين والهداية الإسلامية (عبد الحميد سعيد ومحمد الخضر حسين) ورجال الإسلام والفكر فى مصر دور كبير فى توجيه النداءات واستصراخ العالم الإسلامى .

وكانت كتابات « الأمير شكيب أرسلان » من أوربا نارية الطابع ولا حد لقوتها وعنفها .

* * *

---

(١) راجع فصل « عروبة البربر » فى هذا الكتاب

وقد تحركت الأقلام المغربية فى مصر وسوريا والعراق تخوض المعركة ، وفى عبارات كاتب من المغرب العربى هو أبو القاسم كرو (تونس) تبدو وجهة نظر الفكر المغربى إزاء هذه المعركة :

« الواقع أن الظهير البربرى جاء كنتيجة منطقية لكل المقـــدمات التى بذلت قبله، كما أنه يعتبر متمماً لها ، ومستثمراً لفوائدها فى وقت واحد .

وليست هذه السياسة العنصرية التى أعلنها الظهير البربرى جديدة فى طرق الفرنسيين الاستعمارية ؛ فقد سبق لهم أن حاولوها من قبل فى الجزائر منذ القرن التاسع عشر ، ففى عام ١٨٥٩ أنشأت فرنسا فى الجزائر ما اسمته بمحاكم الجماعة بين القبائل والعشائر البدوية ، وهى محاكم تستمد أحكامها من العرف البربرى القديم بدلاً من الشريعة الإسلامية ، وقد ظنت فرنسا أنها بهذا العمل تمهد السبيل إلى إخراج البربر من دائرة الإسلام ، وتعبد الطريق أمام (الآباء والأخوات البيض) لتنصيرهم وفرنستهم ، ولكنهم كانوا أصعب مراساً وأقوى إيماناً فثاروا على هؤلاء المفرقين ثورات عديدة كاسحة، كانت أشدها هولا ورعباً ثورتهم العاتية عام ١٨٧١ .

ولكن فرنسا لا تتوقف ولاتلبث ان تنشىء فى مراكش عام ١٩١٣ معهداً للهجات البربرية لدراسة أصولها وكلماتها تمهيداً لبعثها لغة فى التعليم والكتابة .

وفى عام ١٩١٥ كوّن الفرنسيون لجنة الأبحاث ، وقد أعيد إنشاء محاكم الجماعة فى مراكش، بحيث لانـــكاد نبلغ إلى عام ١٩٢٢ حتى نجد أن عـــددها قد وصل إلى ثمانين محكمة ، لكل واحدة منها سكرتير فرنسى .

ويمضى الاستعمار بعد ذلك فى متابعة سياسة البربرية ، فيوجه عنايته مرة أخرى إلى اللهجات البربرية بغية احيائها ودرسها وتوحيدها فى لغة واحدة وتدوينها ووضع نحو لها ، والاهتمام بآدابها وقصصها وأمثالها وأساطيرها ، كل هذه الأعمال كانت — فى حقيقتها — بمثابة مقدمات لإعلان ذلك القانون الاستعمارى « الظهير البربرى » الذى كان يهدف إلى تقسيم سكان مراكش إلى شعبتين : عرب وبربر ، ونشر العداوة العنصرية والبغضاء بينهم ، ليصبحوا أعداء متحاربين فكان صدور الظهير بمثابة الفتيل الذى أشعل نار الثورة بين جميع السكان فى مراكش ، وكان فى مقدمة الثائرين البربر أنفسهم ...

وذكر أبو القاسم كرو أن أحد الفرنسيين تقدم باطروحة لينال شهادة علمية عن عمل فرنسا بالمغرب فيما يختص بالتعليم ، وجاء فيها « من الخطر أن تترك كتلة ملتحمة من

المغاربة تتكون ولغتها واحدة وأنظمتها واحدة ، ولابد من أن نستعمل لفائدتنا العبارة القديمة (فرق تسد) . إن وجود العنصر البربرى هو آلة مفيدة لموازنة العنصر العربى ، ويمكننا أن نستعمله ضد المخزن (الحكومة المراكشية) نفسه ، وقال المسيو جلاى : يجب أن نعلم البربر كل شيء ماعدا الإسلام ، وأن تحذف من مدارس البربر الديانة الإسلامية واللغة العربية ، وأن تكتب اللهجات البربرية بحروف لاتينية .

وقد لقيت حركة الظهير البربرى نفس الفشل الذى لقيته حركات التجنيس والفرنسة والتغريب التى حاكتها فرنسا واحدة بعد أخرى فى تونس والجزائر ومراكش ....

٣ ــ الإدماج فى الجزائر

حاولت فرنسا أن تعتبر الجزائر جزءاً من فرنسا وتعتبر أهلها مسلمين فرنسيين . واستهدفت فى ذلك ما أطلق عليه سياسة « الإدماج » وقد أعلن فى مجلس النواب الفرنسى عام ١٨٤٨ أن أرض الجزائر قطعة من فرنسا وأنها جزء من الوطن الأم ، وأن الجزائريين ينتخبون مندوباً عنهم فى المجالس الفرنسية بباريس ، وعلى طول المدى ظهر زعماء فى الجزائر من دعاة الإدماج كالدكتور ابن جاول .

وقد بلغت سياسة الإدماج أقوى مراحلها عام ١٨٨١ ، عندما أصدرت فرنسا مرسوماً بإلحاق الجزائر إدارياً بفرنسا ، وصدر قانون الجنسية الذى أضفى الجنسية الفرنسية على كل أبناء الأجانب الذين ولدوا فى الأرض الجزائرية .

وجرى منح العنصر الأوربى الامتيازات الواسعة على حساب السكان الأصليين ، وتحويل الجزائريين إلى رعايا حقيقيين لفرنسا ، وجرى سيل الهجرة الجماعية الأوربية عامة والفرنسية خاصة لفرض نسبة كبرى من الجنس الموالى لفرنسا على السكان الأصليين والاستيلاء على أكبر مساحة ممكنة من الأرض . وبلغ جملة الأجانب المستعمرين فى أوائل القرن التاسع عشر مليون أجنبى ، ولم يتوقف الزحف بل توالى .

ثانياً – امتزاج العروبة والإسلام

قال ابراهيم شافر :

« الاسـلام والعـروبة هما العـاملان الاساسيان اللذان احييا المغرب واخرجاه من ظلمات الاستعمار اللاتيني ، وسـاعداه على تكوين وحدته اللغوية والدينية والسياسية، فالاسلام والعربية هما اللذان اشعرا أهل جزيرة المغرب بان لهم شخصية جبارة ، وان لهم دورا يلعبونه ، وهما اللذان بوتقا وبلورا الشخصية المغـربية »

أبرز ملامح الشخصية العربية المغربية أنها تجمع بين العروبة والإسلام ، وفلسفتها فى هذا تقوم على مفاهيم واضحة من صميم الواقع ، هى أن العروبة والإسلام كل لا يتجزأ ولا ينفصل ، وأنه إذا كانت الوحدة العربية هى التقاء سياسياً شاملا يجمع الأمة التى تتكلم اللغة العربية فى مجال واحد من المحيط إلى الخليج ، فإن الإسلام هو مادة الثقافة والتاريخ والقيم والمثل التى تقوم عليها الرابطة العربية .

فعروبة المغرب كما تناولها كثير من الباحثين إنما تقوم أسسها على: اللغة والدين والتاريخ المشترك . والأكثرية الساحقة من البربر تتكلم العربية وبها يتفاهم السوسى مع الريفى ، والشلح مع القبلى . يضاف إلى هذا أن البربر يحرصون على تعلم العربية لكونها لغة دينهم ، ولأنها اللغة العلمية القومية الوحيدة التى تساعد على تطورهم الفكرى بينما لا تفى لهجاتهم البربرية بأكثر من معنى التخاطب .

وقد التقت الآراء فى الأقطار الأربعة التى تكون المغرب العربى على هذه المفاهيم وواجهت المغالطات الاستعمارية التى تحاول أن تجعل الشمال الإفريقى من أصل أوربى مرة ومسيحى مرة أخرى ، وخليط مرة ثالثة .

فالسيد البشير الإبراهيمى رئيس « جمعية العلماء » وخليفة عبد الحميد بن باديس قيادة الحركة الفكرية فى الجزائر يقول :

« إن عروبة هذا الوطن جرت فى مجاريها طيعة منسابة ، لم يشبها إكراه ، ولم يشبها عنف ، ولم يؤثر فيها عامل دخيل ، ولم تقم على تحيل أو استغفال ، كانت الأمم التى كانت تغطى هذه الأرض قبل الاتصال بالعرب مهيأة للاتصال بالعرب .

إن الدول التى قامت فى هذا الشمال كاللمتونية والرستمية والموحدية والصنهاجية والمرينية والزيانية ليس لها من البربرية إلا النسبة العرقية ، وهى فيما عدا ذلك عربية صميمة ، عربية فى الضروريات المقومة للدولة ، عربية فى الضروريات ، وعربية فى الكماليات .

ينكر الاستعمار عروبة الشمال الإفريقى بالقول ، ويعمل نحوها بالفعل وهو فى جميع أعماله يرمى إلى توهين العربية بالبربرية ، ونقل الموجود بالمعدوم ، وإنما يتعمد العربية بالحرب لأنها عماد العروبة وممسكة الدين أن يزول ، ولأن لها كتابة ، ومع الكتابة العلم ، وأدباً ومع الأدب التاريخ . »

★ ★ ★

والسيد « علال القاسى » المفكر العربى الإسلامى المغربى ، ورئيس حزب الاستقلال فى المغرب يقول :

كان هناك صراع فى تاريخ المغرب بين نفوذ العائلة اللاتينية والعائلة العربية التى تتركب ذهنيتها من مجموع تأثيرات الحضارة المغربية واليونانية والسامية ، ولكنا نجد أن النصر كان دائماً حليف هذه الحضارة العربية التى تكون الأساس الأصيل لحضارة البحر الأبيض المتوسط ، هذا الأساس الذى لايعنى بالمادة بقدر ما يعنى بالروح ، وذلك برهان على تكيف الذهنية المغربية على مركب هذا الأساس الذى يحس بالقرابة الأصيلة بينه وبين سائر أنحاء العالم .

على أن المغرب على الرغم من ارتضائه للإسلام ديناً والعروبة لغة قد ظل دائماً معتداً بوجوده الخاص ، ناشداً مكانه تحت شمس العروبة ، غير راض أن يكون فى مؤخرة القافلة العربية أو بعيداً عن مركز القيادة فيها .

طال الاستعمار الرومانى والبيزنطى والوندالى فى البلاد ، ولكنه لم يستطع أن ينال من معنوياتها أو يقضى على شخصيتها ، وها هوذا الاستعمار الفرنسى والإسبانى يزداد طغياناً ويحسب أنه بالإرهاب والعسف والكيد سيقضى على وجودنا كأمة عربية مستقلة ،

ولكن التاريخ سيعيد نفسه ، وسيفنى هذا الاستعمار ولن يبقى من أثره إلا ما يسجله من صفحات (١) .

★ ★ ★

ويقوم الفكر المغربي على أساس : اللغة العربية والإسلام معاً .

يقول جمال البغدادي القادري : إن الخطط العريقة للفكر الجزائري ، أنه فكر عقائدي يؤمن بالله وحده ، ولا يكاد يفصل بين مفهوم العروبة ومفهوم الدين ، ولعله كان سباقاً للدعوة إلى هذه الازدواجية العميقة ، ويعتبر تقدمياً إذا قارناه بما يجري في الشرق على لسان كثير من الكتاب هنالك ، والذين يحاولون إبعاد الدين عن المعنى القومي . »

والواقع أن هذا الارتباط يرجع إلى امتزاج العنصرين العربي والبربري — الذي هو أيضاً عربي الأصل — وقد جرت محاولات الاستعمار طوال معركته مع المغرب حول القضاء على هذين العنصرين ، وكانت المقاومة دائمة متصلة في الحفاظ عليهما معاً.

والواقع أنه لا سبيل إلى الفصل بين اللغة العربية والإسلام الذي هو وجه الثقافة العربية ومقومها ، وهو الرابط الحقيقي بين المغرب العربي والمشرق العربي.

وقد عاش المغرب العربي يلقي نظرتين دائبتين : أولاهما إلى المشرق العربي ، وهي تمتد حتى تصل إلى نهاية المدى في العالم الإسلامي ، والأخرى إلى أوربا .

وكانت عقائده وأفكاره مستمدة من المشرق ، ومن جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، ولم تفلح كل المؤامرات التغريبية في تحويله عن هذه الوجهة أو القضاء عليها . .

وفي أحلك ساعات المحنة ، كان المغرب يصر على شخصيته الواضحة ذات المعالم الكاملة ، المختلفة عن الشخصية الفرنسية ، وأبرز معالم هذه الشخصية المغربية هي : العروبة والإسلام ممتزجين . لقد كان السيد عبد الحميد بن باديس في معركته الكبرى يؤكد دائماً أن الجزائر ليست فرنسا ولن تكون فرنسا ، وكانت دعوته هي : الجزائر . اللغة العربية . الإسلام .

وفي تونس ردد كتابها دوماً وهم يتحدثون عن تكوين الثقافة المغربية أنها ثقافة عربية في لغتها ، إسلامية في كنهها مع علوم عصرية .

وفي المغرب يتحدثون عن : المزج بين « للعروبة والإسلام مزجاً رائعاً » .

---

(١) كتاب « الحركات الاستقلالية في المغرب العربي » ١٩٤٨.

وأنه بالرغم من تنوع الثقافة بين الزيتونة وفرنسا وأسبانيا فإن الإجماع أكيد على هذه المفاهيم ، ولم يشذ عن ذلك إلا القليلون الذين دعوا إلى أن تكون لغة الثقافة هى الفرنســية ، والدكتور عزيز الحبابى يقول : إن القاعدة الأســاسية التى يبنى عليها المغرب حياته هى الإسلام .

وقد حملت الدعوات والحركات الفكرية فى المغرب العربى : من السنوسية (ليبيا) إلى السلفية (المغرب) إلى الإصلاح (تونس) إلى جمعية العلماء (الجزائر) مقاومة سلخ المغرب العربى من عروبته وإسلامه معاً بإحياء الشخصية المغربية العربية الإسلامية عن طريق تطهير الإسلام وإحياء اللغة وفتح المدارس والزوايا ، وإحياء التاريخ .

وكان هذا فى رأى الدعاة والمفكرين فى المغرب العربى أمثل وسيلة للوقاية من الذوبان فى الأمة الفرنسية ، والاندماج فى العناصر الأجنبية . وعاونت جامعة الزيتونة وجامعة القرويين ، والمساجد على حماية اللغة والإسلام معاً ويرى روم لاندو أنه على الرغم من مرور سنوات طويلة على المغرب وهو تحت الحكم الفرنسى فإن الثقافة واللغة الفرنسية لم تمتصها إلا مئات قليلة ، وظل شعب مراكش ينظر إلى الثقافة الفرنسية على أنها شىء أجنبى دخيل ، مؤمناً باللغة العربية على الرغم من معرفة الفرنسية .

وقال لاندو : لقد اتضح أنه بالرغم من كل الجهود التى ظل الفرنسيون يحاولونها أكثر من نصف قرن لتحويل المراكشيين إلى صورة منقولة عن محاولاتهم لفرنسة الجزائريين فإن هؤلاء أخذوا يتجهون أكثر فأكثر إلى ثقافتهم الخاصة وتاريخهم الماضى .

ويقول « لاندو » إنه فى الجزائر أيضاً فشلت حركة الفرنسة ، وانتصرت اللغة العربية . وأكد هذا كله رسوخ قدم الحضارة الإسلامية واللغة العربية على النحو الذى لم يسر للزحفة الفرنسية — برغم شدتها واستبدادها — بمقاليد السلطة — أن تضع ذلك موضع جدال — على حد تعبير على القلبوطى .

وظل مفهوم الإسلام فى المغرب هو المفهوم الحقيقى كما صوره عامر غديرة (تونس) ، انه ليس ديناً فقط ، بل هو مدنية كاملة وحضارة عظمى ، وهو دين وهو أيضاً أدب وموسيقى ونقش وفن معمارى ، وهو دين وجهاز خلقى كامل ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وهو دين وجهاز قانونى تام ، نظر فى الميراث ، ودقق فى مسائل الزواج تدقيقاً ، وهو فلسفة واسعة متشعبة منها نشأ الاعتزال والصوفية . .

★ ★ ★

ويصور محجوب بن ميلاد موقف (تونس) من العروبة والإسلام فيقول « إن الحادث التاريخى الحاسم الذى طبع الشخصية التونسية بطابع لايبلى على مر الدهور ، هو الفتح الإسلامى ، فأصبحت أمة من الأمم العربية لغة وأدباً وفناً ، الإسلامية إحساسا ومعتقداً ومبادئ وقيماً . فتونس جزء لا يتجزأ من الإنسانية العربية الإسلامية ، ويرى محمد الحليوى أن الثقافة العربية هى الثقافة الإسلامية « العربية اللسان الإسلامية التاريخ ».

وعند « على البهلوان » أن الثقافة المغربية هى الثقافة العربية الإسلامية ، ولا يمكن التفريق بين اللفظين ، وعنده أن مميزات الثقافة العربية الإسلامية : العقل ، والابتعاد عن الغموض ، والبيان ، والاتزان .

وأن مستقبل الثقافة فى تونس مرتبط بمستقبل الثقافة فى الشرق العربى ارتباطاً كلياً .

والرأى بين المفكرين أن الثقافة فى تونس مرتكزة على الماضى الإسلامى ومآثره الفكرية والخلقية والأدبية ، وقد اتخذتها الحركة الوطنية عماداً وحاجزاً ، يصد عنها محاولات الاستعمار .

ويرى الطاهر الخميرى (تونس) أن الدين واللغة من العناصر التى تكسب الثقافة لونها الخاص ، وأن الثقافة العربية فى المغرب « إسلامية التاريخ ، عربية اللسان » ويرى أحمد عبد السلام (تونس) أن الثقافة العربية أشد الثقافات اتصالاً بماضيها ، وتتجلى تلك الصلة القوية فى رجوع العرب إلى ماضيهم كلما اعترضهم فى حاضرهم مشكل من المشاكل .

وأن الثقافة ترتكز على ماضى الأمة ؛ ماضيها الحى فى نفوس أفرادها ، فهذا الماضى جزء من الحاضر لا يتجزأ عنه لا ماضيها المدون فى كتب التاريخ ويرى أبو القاسم كرو (تونس) أن مقومات الثقافة هى اللغة العربية وإنتاجها الفكرى ، ومجموعة القيم والمثل الخلقية والاجتماعية ، والطابع الخاص الذى تتميز به الثقافة واللغة العربية فى المكان الأول .

ويقول عبد الكريم غلاب (المغرب) : إن حضارة الإسلام بما فيها العقيدة والخلق والفكر الاجتماعى هى التى سيرت تاريخ المغرب وكونت وحدته . وإن فهم الإسلام فى المغرب كان سليماً لم تتغلب عليه خرافات المضللين ، وإنه لا خوف من التيارات المادية فى المغرب ، لأن الإسلام ليس دين خرافة ولكنه دين توحيد وعلم وتقدم وحضارة .

ويؤكد الأستاذ أحمد توفيق المدنى المؤرخ الباحث التونسى المولد ، الجزائرى النشأة ، ومن الرعيل الأول فى جمعية العلماء ، إن (المغرب العربى) لايفرق بين العروبة والإسلام ، فالاثنان مفهومهما واحد ، لا يكون المسلم إلا عربياً ، ولا يكون العربى إلا مسلماً ، ولنا نحو العربية والعروبة نفس التقديس الذى لنا نحو الإسلام .

وقال : إن الإسلام كان عنصراً أساسياً من عناصر الثورة الجزائرية الكبرى ، وكان أقوى الدوافع للقيام بالثورة أولاً وللاستمرار فيها ثانياً ، وكان عنصراً أساسياً فى نجاح الثورة وإن الذين شاركوا فى الكفاح المسلح كان الدافع الأساسى لهم هو الدفاع عن الدين إلى جانب الدفاع عن الوطن .

ثالثا ـ التراث المغربي والتراب المغربي

في معركة التحدي ورد الفعل ركز الفكر المغربي اهتماماته الضخمة على ماضي المغرب وأمجاده وعلى التراب المغربي ووحـدته ، فاحتضن التراث والتراب وأشاد بهما ، وبهما تغنى الكتاب رداً على الدعوات الباطلة التي أثارتها دعوات التغريب والفرنسة الفكرية ، وصيحات الازدراء والسخرية التي وجهت إلى « التاريخ » و « الأرض » المغربية .

وقد برز من أجل هذا في كل قطر من أقطار المغرب دعاء أقرب ما يكون إلى الأدب القومي الإقليمي المحض ، غير أنه لم يكن إقليمياً بالصورة التي تتنكر لعروبة المغرب ، أو لوحدته ، أو للوحدة الكبرى ، أو للثقافة العربية الإسلامية . وإنما كانت هذه الإشادة بالأمجاد الإقليمية « ضرورة » من ضرورات الدفاع عن الحرية ، والدعوة إلى التحرر من أغلال الفرنسة وتجريد المغرب من مقوماته ومحاولة إدماجه في قومية أخرى غير قوميته . وإذا كانت تونس تشيد بأمجاد الأغالبة ، بينما مراكش والجزائر تشيد بالموحدين ، فإن تونس كانت دائماً تذكر « الزيتونة » ، كما تذكر المغرب « القرويين » وكانت الأقطار المجزأة اسمياً تتلاقى في آلامها وأحداثها ، ولا تتخاصم أو تتناكر لوحدتها الشاملة .

ولقد جرت الدعوة إلى كتابة الأدب القومي : « أدب المغرب الغني بمناظره الطبيعية الخلابة ، وهذه وديانه وخلجانه وهضابه وسهوله وجباله وغاباته ، وقد كسته الطبيعة وحبته بجمالها الفاتن الذي يلهم من الصور البيانية والأخيلة الشعرية ما تعجز عن التعبير عنه ريشة أمهر المصورين ، وما لو استلهمه أدباؤنا لجاءوا بالمرقص المطرب ، والمعجز المفحم ، الذي يسمو بهم إلى مرتبة الخلود .. » (١)

★ ★ ★

وتبدو صورة الحب للتراب المغربي في مناجاة علي مصطفى المصراتي لطرابلس : « طرابلس الغرب اسم حلو عذب ، سمعته لأول مرة من أمي وأبي وهما يقصان على

---

(١) مجلة الأنيس ـ المغرب م ١٩٥٢ .

مسامعي تاريخَ هذا البلد ، وقصص البطولة فيه ، وأدوار الجهاد الوطني لأبنائه ، وكانا مشردين مهاجرين فرا من اضطهاد الاستعمار الظالم مع آلاف المهاجرين وقوافل القادمين على الإبل والأقدام ، قاطعين الصحراء اللافحة ، تاركين وطناً مغصوباً ، قادمين أرض مصر الحبيبة قبلة الأحرار . »

وتحس دائماً من كتاب المغرب اعتزازاً به ، فهو عند (عبد الله كنون) المغرب الذى فتح الأندلس ، وركز راية العروبة فى أرضها ، وحماها وذاد عنها مدى القرون الثمانية التى خفق علمه عليها ، وأسس أكبر دولة عرفها شمال إفريقيا ، إذ كانت تمتد ما بين حدود مصر الغربية إلى جنوب أوربا ، وامتازت حضـــارته بما تحتفظ به من عناصر عربية أصيلة ، فإنها وإن كانت بحكم نشأتها على الصعيد الإفريقى وحول البحر الأبيض المتوسط ، لا تخلو من بذور تكوين أولية ترجع إلى هذه البيئة الخاصة ، إلا أن تأثرها بحضارة دمشق أيام حكم الولاة كان أقوى ، وزادها التفاعل مع حضارة قرطبة أيام حكم المروانيين قوة ، فاصطبغت بالصبغة العربية التى لم تزايلها بعد ، ولئن بقيت إلى عهد المرابطين آخذة ومعطية فإنها فى عهدى الموحدين والمرينيين ، كانت صاحبة اليد العليا فى الأندلس التى تنطق آثارها المتخلفة عند هذين العهدين بأنها وليدة العظمة الموحدية والعبقرية المرينية ، وعلى ذلك فإنه حين كانت موجات دول المماليك التركية تتدفق على مشرق البلاد العربية كان مغربها يتمخض عن دول عربية حسنة الرعاية للتراث العربى والحفاظ عليه .

ويجرى تمجيد (١) « تونس » على لسان الحبيب بورقيبة ؛ فهى التى تطل من شرفتها المغربية على أوربا وعلى الشرق ، وسواحلها تستقبل الرجال والآراء المتواردة من الشاطئين ، وهى مرتفع ينتصب حاجزاً وسط البحر عندما تعصف فيه عواصف يثيرها البشر ، هذه المكانة الجغرافية الاستثنائية هى بلا شك التى حبت تونس بشخصيتها القوية ورسمت لها مصيرها ، فهى أداة وصل ، وفى إمكانها أن تقوم سداً بين العالم الشرقى والعالم الغربى .

وتربة تونس مثقلة بدماء المعارك التى دارت فوقها خلال التاريخ ، وقد تجابه فيها أول الأمر الغرب اللاتينى أو الجرمانى مع الشرق الفنيقى أو الإسلامى قبل أن يمتزجا ».

★ ★ ★

(١) خطاب بورقيبة ــ نشرة الدكتور عزة النص فى كتابه « العالم العربى » .

وعنى الكتاب ببحث كلمة (المغرب) . فيرى عبد الوهاب منصور أن الأجداد أطلقوها على مايقابل المشرق فى عرفهم ، وإن كانوا لم يحددوا حدوده الشرقية بدقة ، فهو عند فريق منهم يبتدىء من الضفة الغربية لوادى النيل ، وعند فريق ثان من عقبة السلوم ، وعند فريق ثالث من خليج سرت ، حد إقليمى برقة وطرابلس .

وقد يتوسعون فى هذا الإطلاق قليلاً ، فيجعلون كلمة المغرب شاملة لكل الأراضى الواقعة بالحوض الجنوبى للبحر الأبيض المتوسط ، كالأندلس والجزائر الشرقية (البالبار) وجزائر صقلية وسردينيا وقرسقة ، كما يجعلون كلمة مغاربة شاملة لسكان هذه الأقطار جميعاً ؛ فإذا أطلقت غير مضافة ولا موصوفة ، فهى الأراضى التى يتكون منها القسم العربى لشمال إفريقيا فقط .

وقد أطلق الجغرافيون على هذه الأراضى أسماء كثيرة منذ فجر التاريخ إلى أيامنا ، مثل ليبيا وإفريقيا الصغرى ، والسلسلة الإطلنطية ، والبربرية ، وبلاد البربر ، ودعته الهيئات القومية بالمغرب العربى.

ويرى عبد الكريم (١) غلاب أنه لابد من الإيمان بأن همة أهل المغرب قد صنعت منه محطة استقبال وإرسال، وجعلت منه مركز الثقل للحضارة المتجهة نحو الأندلس، وحماية هذه الحضارة من فكرة الاسترجاع التى ظلت تراود الإسبانيين ثمانية قرون ، وقد كان دور المغرب هاماً فى تحمل حماية الفردوس المفقود أربعة قرون أو تزيد .

ويقول : نقلنا من حضارة الرومان كل ما لايدخل فى باب الاستعمار ، ونقلنا علوم اليونان عن طريق العرب ، ونقلنا حضارة العرب ودينهم ولغتهم وأدبهم ، وأسهمنا فى كل وسائل الحضارة ، ثم رحلنا بحضارتنا هذه مجتازين مضيق الحوض إلى الأندلس وجنوب فرنسا ، وحمينا هذه الحضارة مايقرب من ثمانية قرون ، مؤثرين ومتأثرين ، ودعمنا أسس هذه الحضارة فى المغرب العربى : فى الجزائر وتونس وليبيا ، وانتقلنا بحضارتنا وديننا ولغتنا إلى الجنوب ؛ إلى السنغال والسودان ، وكل الحملات التى وجهت لبلادنا باءت بالفشل حتى كان تأخرنا الحضارى سبباً فى تخلصنا من وسائل المقاومة المادية ، عند ذلك قهرنا وما خضعنا ، ثم بدأنا نقاوم تخلصنا من الاستعمار .

* * *

ولم ير إعجاب وتقدير واعتزاز كاعتزاز المغرب بأعلامه ومؤسساته ، فتونس

---

(١) مجلة البينة ــ العدد الاول « مايو ١٩٦٢ » .

أحد معاقل العالم الإسلامى الثلاثة (الزيتونة) أنجبت أمثال ابن خلدون وابن رشيق وابن شرف وسحنون وأسد بن الفرات وأبى الحسن وأبى اسحاق الحصرى القيروانى

والمغرب ، يفخر بابن تومرت الذى سجل وحدة المغرب ، وبالقرويين حيث إن الشيخ محمد الايرارى يدرس أصول الموسيقى لطلاب من كافة أنحاء العالم فى أواخر الثالث عشر ، ومحمد بن سليمان مخترع كرة الدوائر الفلكية المشهورة ، وعبد الله اليفرنى .

ولقد حظى ابن خلدون بجاه عريض ، وكتبت عنه مئات البحوث : هذا العلامة مؤسس علم الاجتماع الذى يمثل وحدة المغرب أصدق تمثيل ، انتقل من بلاط تونس إلى بلاط فاس ، ومن أشبيلية إلى بجاية ، ومن تلمسان إلى غرناطة ، ولكنه لم يفرض نظريته فى الحياة السياسية واكتفى بأن دونها ، وهو يمثل خصائص الفكر فى الشمال الإفريقى : فكرة الشمول .

والمغرب العربى هو الذى أثر فى العالم الجديد منذ القرن السادس عشر حيث دخلت الحضارة العربية أمريكا الجنوبية بواسطة الغزاة البرتغاليين الذين اكتسحوا ذلك العالم الجديد ، فقد تلقت البرازيل ، خلال ثلاثة قرون متوالية ، تأثير المدنية الأندلسية فاتسمت جميع مظاهر الحياة الاجتماعية الأمريكية بطابع مغربى ينمو ويضعف حسب الأصقاع .

والمغرب هو الذى فرض نفوذه على البحر الأبيض المتوسط الذى كان رومانياً فأصبح طوال العصور الوسطى بحراً عربياً بجزره وسواحله ، وأساطيله ، وأصبحت لغة القرآن هى اللغة الدولية للتجارة والعلم ، والأسطول الموحدى الذى كان يضم ٤٠٠ قطعة ، أصبح أول أسطول فى المتوسط .

ولا ينسى الفكر المغربى العربى الإسلامى ، « القيروان » رابعة العواصم العربية الكبرى فى نشر الثقافة ، حيث انتقلت منها إلى السودان الغربى وإلى الاندلس لغة العرب وثقافة الإسلام ، ومن أهل القيروان نبغ أقطاب اللغة والأدب كالقزاز والحصرى وابن رشيق ، وورثت الزيتونة القيروان ولا ينسى المغرب أبطاله ومجاهديه عبد القادر وعبد الكريم وعمر المختار وماء العينين ، وأعلامه فى الأندلس من أمثال موسى أبى الغسان يقول عبد الحميد بن التهامى : « أتعرف أيها الطفل العربى ، كم تمنيت أن يكون فى كل عواصم الإسلام تمثال لموسى أبى الغسان الغرناطى (فارس غرناطة) تمنيت ذلك إذكاء لشعورنا القومى ، وإشارة إلى العصر الذى ازدهرت فيه العروبة والإسلام .

ويرد الفكر المغربى على آراء المستشرقين : نعم ، طال أمد الاستعمار الرومانى والبزنطى والوندالى فى البلاد ، ولكنه لم يستطع أن ينال من معنوياتها ، أو يقضى على شخصيتها .

فالمغرب مع ارتضائه الإسلام ديناً والعربية لغة ، ظل دائماً معتداً بوجوده الخاص ، ناشداً مكانه تحت شمس العروبة ، وهو منذ القديم كذلك ، وإنك لتجد فى كتب ابن جبير وابن خلدون وفى شعر ابن هانىء من الأدلة الواضحة على تمسك المغربى بوطنه ، وحبه لبلاده ، وتفضيله لها حتى على الأوطان الشقيقة مالا نجده فى آثار أدباء الأمم المعاصرة لهم ، هذه الروح القومية هى التى دفعت المغرب العربى إلى الاستبسال فى سبيل الذب عن كيانه طيلة القرون الوسطى الأوربية كلها ، بعد أن توالت عليه هجمات عديدة من دولتين شديدتى التعصب هما إسبانيا والبرتغال . (١)

ولا ينسى الفكر المغربى أن يشيد بفضله على الثقافة العربية الإسلامية ، فمنذ وقت بعيد أخذت الثقافة المغربية الإسلامية طابعاً خاصاً متميزا عن طابع المشرق فى الخط المغربى ، فكان هناك قلم مغربى خاص ، وفى الفن الإسلامى طابع خاص ، وفى الثقافة الدينية « المالكية » ، وفى الناحية الفكرية « النزعة السلفية » ، ومدرسة القيروان ومدرسة فاس .

كما لا ينسى أهل تونس أن يفخروا بماضيهم الفينيقى والقرطاجنى .

أما الأندلس فإن الفخر به عظيم ، لا ينسى أبداً ، ويقاوم الفكر المغربى محاولة الفصل بين حلقات ماضيه ؛ فهى قبل الإسلام وبعده حلقات من أمجاده ، لذلك لا يرضى عن الغربيين حين يحاولون الربط بين الفترة اللاتينية السابقة للإسلام ، وفترة النفوذ الفرنسى بعد عام ١٨٣٠ مهملين ثلاثة عشر قرناً من التاريخ المغربى ، وعندهم أن التاريخ هو « ذاكرة الأمة » . ولا مستقبل للأمة إذا لم تكن واعية للماضى . ولا يتصور الفكر المغربى « الثقافة المغربية » إلا ضمن الثقافة العربية الكبيرة تحتضنها وتغذيها وتتفاعل معها ، كما لايتصورها إلا متفتحة على ثقافات البحر الأبيض المتوسط تتفاعل معها كذلك فى حوار لاينقطع » .

وعندما غمرته التيارات الحديثة ، استطاعت طبيعة المغرب أن تتمرد على هذا الغزو الموجه ، لتثبت قوة الاستمرار الحضارى والثقافى ، ولتقضى على إرادة العزلة

---

(١) الحركات الاستقلالية في المغرب العربي ـ علال الفاسي

التى حاولت التيارات الاستعمارية ان تفرضها على المغرب . ولا ينسى الفكر المغربى هجوم فرسان مالطة على طرابلس ، وهجوم الإسبان على تونس ، وغزوة لويس التاسع ضد الحفصيين ، والاستعمار الإيطالى .. ولاينسى فاجعة (ماى ١٩٥٤) ومعركة سطيف .

رابعا ـ عروبة البربر

قال الحسن السائح :

« الذين يدرسون اللغة البربرية يشـهدون لها ، لامجال للشك فى انتسابها الى الارومة السامية التى تجمع بينهما جنسيا وسلاليا

اللغة البربرية من العائلة اللغوية السامية كاختهـــا العربية ، وهى من اللغات السامية القديمة المعبر عنها فى تاريخ اللغـات .

وهى تتشابه مع العربية فى كثير من المفردات ، واصل الاشتقاق ومخارج الحروف ، وقد نقحت هذه اللغة مـرة اخرى بالعربية القحطانية بعد جلاء يهود خيبر عن ضواحى يثرب واقامتهم بشمال افريقيا ، كما نقحت قبل ذلكبالعربية قبل الميلاد بخمسة قرون ، اى عام ٤٨٠ ، حيث هاجـرت قبائل كنعانية عربية الى بلاد افريقيا » .

لا أعتقد أن قضية من قضايا الفكر المغربى (العربى الإسلامى) واجهت اهتماماً وشغلت الباحثين والمثقفين فى المغرب والعالم العربى والإسلامى وفى أوربا وفرنسا بالذات كما شغلتهم هذه القضية التى ركز الاستعمار الفرنسى عليها ، وحاول أن يجعل منها وسيلة إلى تمزيق وحدة المغرب العربى الذى التقى فيه العنصران العربى والبربرى منذ أربعة عشر قرناً وامتزجا امتزاجاً تاماً ، وقد جمعهما الإسلام واللغة العربية .

فضلاً عما أسفرت عنه البحوث العلمية وأكدته وقائع التاريخ وأسانيده من أن البربر فى الأغلب والأكثر سلالة عربية أصيلة ، وموجة من موجات الجزيرة العربية .

وفى مختلف كتب التاريخ المغربى التى ألفها كتاب فرنسا والغرب كانوا يحرصون على محاولة التشكيك فى (١) امتزاج العنصرين (٢) فى عروبة البربر . (٣) إبراز وجوه

من الخلاف فى التقاليد والعادات والطباع والأخلاق . (٤) الإدعاء بأن البربر الذين فتحوا إسبانيا وغزوا فرنسا وفتحوا إيطاليا إنما كانوا برابرة مسيحيين ، وأنهم منحدرون من شعوب أوربية أصلاً .(٥) الإدعاء بأن البربر شعب مستقبل بعيد عن العرب (الغزاة). (٦) الدعوة إلى إحياء عاداتهم وتقاليدهم والعرف الخاص بهم ليكون مصدراً للتشريع المدنى".

وكان الكاتب الفرنسى جونيه فى مقدمة من حملوا لواء هذه الدعوة مستعملاً أساليب البحث والعلم أداة لخدمة الغايات الاستعمارية ، كما تناول هذا أيضاً المؤرخ موسان فى كتابه « تاريخ الرومان » ودعا المستشرق ماسينيون فى دروسه فى الكوليج دى فرانس إلى جامعة بربرية لتعاون الجامعة العربية .

ودعا جودفرى ديمومبين فى رسالة التعليم إلى التفريق بين العنصرين ، وأنه من الخطر ترك كتلة ملتحمة من المغاربة ، وفى دائرة المعارف الإسلامية ردد (ج. يفر)(١) هذه الآراء .

وكانت فرنسا قد اتخذت طريقها فعلاً إلى هذا العمل بإجراءات ذات صفة رسمية بإنشاء معهد اللهجات البربرية ، وفى عام ١٩١٤ حيث صدر ظهير سبتمبر المعروف الداعى إلى احترام التقاليد البربرية ، وفى عام ١٩١٥ كون الفرنسيون لجنة الأبحاث البربرية ودراسة الأعراف وجمعها ، ولحقه ظهير ١٦ مايو ١٩٣٠ الذى كان أضخم الخطوات فى هذا السبيل

وانبرى الفكر المغربى العربى الإسلامى لهذه المسألة الخطيرة فواجهها مواجهة علمية ، وحققها من جميع جوانبها التاريخية والاجتماعية والسياسية ، وكان فى مقدمة من تصدوا لهذا البحث : عثمان الكعاك (تونس) ، علال الفاسى ، محمد المكى الناصرى ، محمد سعيد الزاهرى ، إدريس الكتانى (المغرب) .

١ — وخلاصة رأى عثمان الكعاك الذى ألف كتاباً مستقلاً عن البربر — هو أن البربر فى عمومهم أمة يمنية عاربة قحطانية ، نزحوا من الجزيرة العربية إلى السودان والمغرب والأندلس وجزائر البحر المتوسط ، هذه الأمة العاربة القحطانية قامت بأول فتح عربى للمغرب ، ونشرت العمران بالدم العربى القح فى ديار المغرب ، وسجلت لأول مرة ونهائياً عقد ملكية المغرب للعروبة . والنسابون للبربر من(محمد بن حزم إلى

---

(١) حوليات الثقافة العربية جـ ٢ « ساطع الحصرى » .

ى ابن خلدون) لا يجعلون للبربر عرقاً فى غير (حمير) ، والبربر يكرهون جداً إلى اليوم أن يقال إنهم بربر ويسمون أنفسهم (أمازيع) أى أشراف .

وليس البربر متوحشين ولا همجاً (الكلمة اليونانية بربروى) بل هم أرباب حضارة عربية ، والناشرون للحضارة العربية الأولى بأصقاع القارة الإفريقية . ولا اعتبار لما يذهب إليه بعض العلماء الفرنسيين من أن البربر من (السلت) أى من جنس (الغاليين) قدماء سكان فرنسا ، فهذا الادعاء سياسى لا علمى ، يراد به إدماج البربر فى الفرنسيين ، والتفريق بين البربر والعرب .

البربر عرب من اليمن ، والفينيقيون أيضاً عرب مستعربة شماليون من بنى كنعان ، أصلهم من فينيقيا أى الشام ، نزحوا إلى شمال إفريقيا فى القرن الثانى عشر (ق . م) وأسسوا عاصمتهم قرب تونس ، كما أسسوا عدة مدن على طول الساحل المغربى قبل بنزرت (تونس) وبونة والجزائر والجيجل (بالجزائر) وطنجة وسلا (المغرب الأقصى) .

وقد أدت لحمة الدم العربى بين البربر العاربة والفينيقيين المستعربة إلى الأخوة طوال أحد عشر قرناً ، وشملت دولة الفينيقيين الأندلس وجنوب إيطاليا وجزائر البحر المتوسط وغانة الكبرى والمغرب الكبير .

واللغة الفينيقية شقيقة للعربية ، لأنها عربية قديمة . بقيت حية رغم الاحتلال الرومانى .

٢ — دحض أحمد الأخضر بالبرهان ما يزعم علماء الفرنسيين من الفروق البعيدة بين العرب والبربر فى الأصول واللغة والمزاج وقال : الحقيقة أنهما شعب واحد فرقت بينهما الليالى ، ثم عادت الفروع فالتقت تحت راية الإسلام وأن عرق البربر ضارب ىوا حمير وإلى قيس .

هذه المحاو رد علال الفاسى على الكاتب الفرنسى (جونيه) حول أصل كلمة (بربر) ـمة بربر تدل على السرعة وفى السير مستشهداً على ذلك بشعر أورده وذلك قوله «ليكف مارس الجبار ! قفوا سيروا بربر» وقد عرف فى ـل أن المؤرخين أطلقوها على البرابرة المقيمين على شاطىء النيل ، . إن عائلة من الشعوب الناطقة بالبربرية كانت تمتد من مصر وحتى ـغال ، ومن المتوسط إلى النيجريا ، ومن المعروف أنه يوجد فى ادى البربر ، إذن فالاطلاق ورد على هذه العناصر ذات

العائلة اللغوية الواحدة من جهة السرعة فى كلامها أو إقامتها بشاطىء النيل السريع ، ومن هناك دخلت فى اللغة الرومية والكنعانية .

٤ – أما محمد سعيد الزاهرى (١) فقد تناول هذا الموضوع بإفاضة ، وعنده أن القول بأن البربر هم من أصل لاتينى لم يقم عليه دليل يؤبه له من العلم والتاريخ ، وقد عمد أصحابه إلى النقوش والصور التى لا يزال بعض البربر إلى الآن يضعونها على الأوانى فقالوا : إنها تشبه بعض الوجوه التى وجدت فى إيطاليا ، مما يدل على أن البربر من أصل لاتينى .

ويزعمون أن البربر ، حينما كانوا لاتين وكانوا نصارى ، نبغ منهم رجال فى السياسة والدين ، وإنهم بعد أن صاروا عرباً مسلمين انحطوا وتأخروا .

وزعم المؤرخ الفرنسى (رن) أن البربر كانوا أوزاعاً بين الأمم والشعوب ، وقال : إن أكثرهم هنود وآريون .

ويرى الزاهرى أن ما تواتر عليه رأى المؤرخين هو أن البربر بجمعهم جذعان عظيمان هما البتّر والبرانس ، وأن البتّر من أبناء قيس عيلان بن مضر ، وأن قبيلتى كتامة وصنهاجة من قبائل البرانس ، وهما من عرب اليمن تركهما أفريقش (أحد تبابعة اليمن) فى ليبيا هذه التى سميت باسمه (إفريقية) فيما بعد ، وذلك حينما رجع من غزوها .

وروى ابن عبد البر ، عن بعض النسابة من البربر ، أن البتّر والبرانس هما جميعاً لأب واحد ، هو النعمان بن حمير بن سبأ ، ويرى المسعودى وغيره أنهم أوزاع من اليمن وغسان وخزام واخترام وغيرها من قبائل العرب ، وقيل هم من العماليق ، وقيل من العبرانين والفينيقين ، وقيل من المصريين ، إلا أن (ابن خلدون) يرى أن البربر كلهم من ولد (مازيع بن كنعان بن حام بن نوح) ولا يستثنى إلا قبيلتى كتامة وصنهاجة الحميريتين ، على أن ابن خلدون ليس على دعواه دليل إلا ما حكاه من أن البربر لا،
حمد
يسمون (الأمازيع) وهذا لا يكفى فى إثبات هذه الدعوى . فقد تكون فئة (
اندمجت فى البربر فغلبت عليهم اسمها .
- هو أن
وقد انقرض اليوم هذا الاسم بالمرة ...
إلى السودان
وأن كثيراً من المؤرخين يرون أن البربر عرب ، وأنهم يترلو؛ قامت بأول
صميمها . ومن هذا انحل المشكل الذى حار فيه أكثر الفرنجة الغرب ، وسجلت
من(محمد بن حزم إلى .

(١) المقتطف – يونيو ١٩٣٢

تاريخ البربر ، حاروا فى امتزاج العرب والبربر امتزاجاً شديداً ، حتى صاروا فى مدة قليلة أمة واحدة متجانسة الأخلاق والعادات ، وهذا أمر عجب له كتاب الفرنجة أشد العجب ، وقالوا : إنه لم يوجد له مثيل فى التاريخ.

والعرب والبربر هما من عنصر واحد يجرى فى عروقهما دم واحد.

العرب حينما توغلوا فى هذه البلاد يفتحونها لم يتخذوا لهم ترجماناً بينهم وبين البربر ، وهذا معناه أن اللغة البربرية لم تكن يومئذ تزيد على أنها لهجة عربية محرفة يفهمها العربى دون مشقة أو عناء ، وكان يومئذ أكثر أسماء الأعلام من البربر عربياً ، وهذا طارق ابن زياد : سمى طارقا فى أوائل الفتح الإسلامى وقدكان أبوه زياداً قبل ذلك.

وخطبة طارق تمثل النفسية العربية فى أكرم صورها وأسمى معانيها ، ومعنى هذا أن طارقا عربى بطبيعته ومزاجه.

لو أن ابن خلدون نظر إلى اللغة البربرية لكان له رأى آخر فى أصل البربر ، وإذن لوجد فيها ما يدله على عروبة البربر ، أو ما يدله فى الأقل على أصلهم السامى ، فهذه اللغة البربرية هى عربية لا فى ألفاظها ومفرداتها فقط ، بل أيضاً من حيث تراكيبها وحروف المعانى فيها.

★ ★ ★

وجملة القول أن عروبة البربر أكيدة وصحيحة . وأن كل النظريات التى قدمها الغرب للتشكيك فى عروبة البربر لم تتأيد بل دحضها التاريخ . وقد قام شانتر وبرتلون بدراسات لسكان الأطالس والقبائل فى الجزائر وجنوب تونس وهضبة الحمير فقاسا الجماجم والذقون والأنوف ، ولم يستطيعا أن يصلا إلى شىء يؤيد نظريتهم ، ولم تفلح نظريات المؤرخين الفرنسيين الذين حاولوا تفكيك التاريخ المغربى والإلحاح على عناصر معينة منه للبربر دور بارز فيها ، والواقع أن البربر أنفسهم قاوموا هذه المحاولة وعارضوها.

خامسا – وحدة المغرب العربى

ليست وحدة المغرب العربى فى حاجة إلى الدفاع عنها أو تأكيدها ، فهى حقيقة تاريخية واقعة ، غير أن الاستعمار حاول أن يشكك فيها ، وذلك بإقامة الحدود بين الأجزاء المختلفة ، متخذاً فى كل قطر سياسة تختلف عن الأخرى ، رغبة فى خلق قوميات ضيقة ، كما جرى على خلق قضايا ومسائل يريد بها تصوير ملامح متغايرة لصورة واحدة ، ومضى النفوذ الأجنبى عن طريق البحوث العلمية والتاريخية غير الخالصة لوجه العلم ، وعن طريق الصحافة التى كان يصدرها فى المغرب العربى يصور للعالم الإسلامى أن ليبيا غير تونس ، وأن الجزائر غير المغرب ، وأن كل قطر من هذه الأقطار يختلف فى عناصره وتاريخه وأخباره ، وأن هناك خلافاً فى التاريخ وفى الجغرافيا وفى الفكر .

ولم يكن هذا كله فى حقيقته إلا محاولة ماكرة لتمزيق وحدة المغرب العربى الذى هو بجملته قطاع كامل من الوحدة العربية والعالم الإسلامى .

ولقد واجه الفكر المغربى هذه القضية مواجهة علمية تاريخية ، وقدم الأدلة والأسانيد على دحض ما ذهب إليه دعاة التغريب والتمزيق والتقسيم .

يقول علال الفاسى : إن وحدة المغرب شىء قار فى النفوس ، ثابت فى الذهنيات ، يجرى به الدم المشترك ، ويسرى به الإيمان المتوقد فى الأرواح ، ويصعد به التاريخ العميق الذى سجل على صفحاته سطوراً من نور ، وقد قضى الاستعمار الإسبانى والتركى أولاً ، ثم الفرنسى أخيراً أن يوزع مغربنا ، ولكن الوحدة العملية لا تؤثر فيها آفات الدهر ولا أحداث المستعمرين .

ويفصل هذا « عبد العزيز بن عبد الله » الذى يقرر أن المغرب فى عرف المؤرخين العرب هو مجموع الأقطار الإفريقية الممتدة غربى مصر بما فيها برقة وطرابلس ، والتعريف يستند إلى حقائق إنسانية لها مظاهر سلالية واقتصادية واجتماعية ناتجة عن الإطار الجغرافى ، كما أن لها عوامل تاريخية تمخضت عن وحدة الفكر والتراث . إن جزيرة المغرب محاطة بالبحر من أهم جهاتها (شمالاً وغرباً وشرقاً) وتعتبر الصحراء امتداداً طبيعياً لها فى

الفيافى الإفريقية ، ومجموع سكان هذا الجزء من العالم يحملون نفس الاسم ، وهو (أمازيغ) من طرابلس إلى قابس إلى الصويرة .

وقد دهش المؤرخون الغربيون للسرعة الخارقة التى كان المغرب يسترجع بها وحدته السياسية فى ظرف سنوات معدودة ، بحيث تمتد المملكة بمجرد انبثاقها من مركز إلى مركز إلى أقصى التخوم .

ويزعم المؤرخون الغربيون انعدام نقطة مركزية أصلية تلتف حولها الأمة ، ويقولون : إن الوطنية العربية أو البربرية ، لا ترتكز على التراب ، ولا تستلزم وجود وطن له حدوده وذاتيته الخاصة . وقد واجهت هذه النظرية النقد والتفنيد ، إذ أن أبرز مظاهر وحدة المغرب العربى هى « المظهر الجغرافى » الذى تمخضت عنه كثير من المظاهر ، وبالأخص الحاجيات الاجتماعية ، والوحدة الاقتصادية . ذلك بأن أقطار إفريقيا الشمالية تتجلى كجزيرة جبلية شاسعة تمتد من الشرق إلى الغرب فى مسافة ينيف طولها على ١,٨٠٠ كيلو متر وعرضها على ٤٠٠ كيلو متر ، ويحف بها البحر من ثلاث جهات ، فى حين تتغلغل جنوباً فى فيافى الصحراء ، وإذا استثنينا هذه الصحراء الشاسعة التى هى امتداد طبيعى للمغرب العربى ، وجدنا أن مساحة إفريقيا الشمالية تبلغ ٨٠٠ ألف كيلو متر ، وتمتد الأطلسان الأوسط والأكبر نحو الشمال الإفريقى عبر المغرب العربى بوساطة الأطلس التلى ، بينما ينفرج الأطلس الأكبر شرقاً إلى جبال القصور ، ثم يستطيل (أطلس صحراوياً) نحو الشمال الشرقى فى سلسلة سابقة تتخللها ممرات واسعة ، وفى (تونس) يلتحق الأطلسان ، الواحد بالآخر ، ثم يمتزجان .

وتتسم الشواطىء بنفس المظهر ، ضفاف واطئة فى المحيط الأطلسى ، دون أى نتوء صخرى ، وعلى ضفاف المتوسط شواطىء تتخللها فرض ضيقة متفتحة لرياح الشمال والشمال الشرقى .

وخلاصة القول أن إفريقيا الشمالية واحدة فى جميع مظاهر حياتها الماضية والحاضرة . (كما عبر عن ذلك الكولونيل بوطسن فى كتابه عن إفريقيا الشمالية) فهى كتلة متراصة لا يمكن تجزئتها :

- جزيرة هائلة عاش سكانها منطوين حول أنفسهم آلاف السنين .
- أرومة واحدة .
- القطر الليبى امتداد طبيعى للمغرب العربى تجمعه بالمغرب وحدة الجنس ، علاوة

على وحدة التاريخ والحضارة ، وإن كان ينفصل عن المغرب جغرافياً واقتصادياً ، لأن الأطالس تمتد إلى تونس فقط ، ولأن الصحراء تمتد فى ليبيا إلى الشواطىء نفسها .

وعن طريق مصر دخل إلى المغرب الفاتح العربى ، وبعد خمسة قرون تدفقت موجة العرب الهلالين والسليميين ، والفينيقيون هم الذين حملوا من الشام إلى المغرب للمرة الأولى الزيتون والكرم والتين والرمان .. (١) »

وقد تناول عدد من الباحثين هذه القضية من زوايا متعددة ، ولكنها لا تخرج عن تأكيد « وحدة المغرب العربى » .

الوحدة اللغوية : جميع أهل المغرب يتكلمون اللسان العربى ، ويكتبون بالأحرف العربية ، وبعد خمسين سنة ستنتهى بقية اللغة البربرية القديمة التى عمل الاستعمار جهده على حفظها .

المغاربة مسلمون ، ٢٨ مليوناً من السكان على طول خمسة ملايين ونصف من الكيلو مترات » .

أقطار الشمال الإفريقى كالحلقات المفرغة التى لا تطلق إحداها حتى تمسك بالأخرى .

لايوجد فى العالم شعب يمثل هذه الوحدة ويتكلم لغة واحدة وله أصل واحد ومشرب واحد .

وحدة عنصرية وجنسية أمكنها أن تصارع المحتلين وتقف فى وجه المغيرين الأجانب الذين تعاقبوا على أرضها .

المغرب العربى يتكون من سلالتين : هما البربر الذين هم من أصل عربى أساساً ، والعرب ، وقد امتزجوا منذ ثلاثة عشر قرناً وصهرهم الزمن فى بوتقة واحدة ، سر امتزاجهما هو وحدة العنصر ، وهذا سر التوافق الذى تم بينهما لسرعة فائقة .

الفينيقيون عرب مستعربة ، والبربر عرب عاربة ، واللغة الفينيقية ابنة عم شقيقة اللغة العربية ، ومن هنا جاءت الوحدة الجنسية واللغوية .

★ ★ ★

---

(١) مجلة قطوف « المغرب » ــ العدد الاول ــ ١٩٥٦ .

وقد حاول الاستعمار مقاومة هذه الوحدة بتمزيقها ، فكانت الشخصية المغربية ذات الطاقة العجيبة من الثبات أمام الهجمات الواردة من الخارج ، تنافح فى قوة .

ولم تستطع القوى الاستعمارية القضاء على وجودها ، وقد تناول هذا البحث عديد من الباحثين ، يقول عبد اللطيف خالص (المغرب) إن الاستعمار حاول أن يطمس كياننا المغربى ولكننا قاومنا ، والواقع المغربى يدل على أننا أمة لها مقومات قوية ، وقيم مثلى ، وأخلاق وطنية ، وحضارة عريقة ، وأن هذا الوجود القومى المغربى كان قبل دخول الإسلام ، وأن المهاجمين للمغرب والمهاجرين إليه لم يستطيعوا أن يقضوا على وجوده وذاتيته ؛ بل أدمجتهم بلادنا فى شخصيتها ، وغمرتهم بذهنيتها وأخلاقها ، وحفظت بذلك تبلورها القومى وكيانها المسدود فى وجه كل غاصب ، وظلت الشخصية المغربية موجودة قائمة الذات داخل « المغربى » ، محافظة على وجوده برغم ارتضائه الإسلام ديناً ، والعربية لغة ، وقد نبغ فى ميدان السياسة مغاربة يغارون على شخصية بلادهم وسيادتهم ، منهم ابن خلدون ، وابن بطوطة ، وابن جبير ، والفشتالى ، وابن زاكور ، وابن رشد ، وابن حزم ، والحاتمى ، وابن حبوس ...

★ ★ ★

ولعل المغرب (١) هو أشد هذه الأجزاء دعوة للوحدة المغربية وحديثاً عنها ، وذلك رداً على ما حاول « جون جنتر » ترديده حين قال : وتعد مراكش بصفة خاصة غربية ، وقد وصفها غليوم بأنها كسرة منفصلة من القارة الأوربية . ومن المغرب الأقصى (مراكش) بالذات ارتفعت الصيحة لوحدة المغرب العربى وعقدت مؤتمر طنجة (مايو ١٩٥٨) الذى حضرته تونس والجزائر ومراكش ، وكان علال الفاسى قد دعا إلى وحدة المغرب العربى بعد قيام وحدة مصر وسوريا .. « رأينا توحيد العرب تتحق فى مصر وسوريا ، وبين العراق والأردن » فإن وحدة المغرب أمتن جغرافياً وتاريخياً من كل تلك التواحيد ، وأن حاجة المغرب وتونس والجزائر إليها أكثر من حاجة الدول العربية الأخرى .

إن المغرب قد أعرب عن هذه الرغبة وحققها فى كل مرة سنحت فيها الظروف وتركته المطامع الاستعمارية ، وإن أزهى عصور التاريخ قد جعلت بلادنا وطناً راقياً واسع الأطراف متسع الممكنات ينشر السلم والعدل والحضارة فى كل الأنحاء .

(١) يسجل كثير من الباحثين بأن على باش حانبه « تونس » هو أول من حمل لواء توحيد المغرب العربى فى ميدان الكفاح ضد الاستعمار .

وإن الشعب الذى يعيش فى كل المغرب والجزائر وتونس شعب واحد مكون من سلالات واحدة ، فيه العرب والبربر ، وفيه الأفارقة والمنحدرون من سلالات أوربية ، وكلهم تبلور فى هذه « العروبة المغربية » المعتزة بكيانها وبما لها من شجاعة وإيمان ، واللغة التى نتحدث بها هى لغة الضاد التى نفخر دائماً بأن لنا فيها من النبوغ والقدرة ، ما نتفوق به أحياناً على غيرنا من أبناء عمومتنا فى المشرق ، وحتى اللهجات التى تحتفظ بها بعض القبائل فى الجبال واحدة ، وتنتمى على اختلاف مجموعاتها إلى فصيلة واحدة مع العربية ، هى الفصيلة السامية ، والإسلام دين الأغلبية الساحقة دافعت عنه طيلة ألف سنة كاملة .

لقد عمل الذين سبقونا لتحقيق هذه الوحدة فى الحرب العالمية الأولى بقيادة على باش حانبه والحمامى والشقابى وغيرهم ، وبثورة ماء العينين والسنوسى ... »

وجملة القول أن الوحدة المغربية تقوم على أسس كاملة :

- الوحدة الجغرافية بين أقطار المغرب العربى كلها تقع فى جزء واحد فى قارة واحدة على بحر واحد .
- الوحدة السلالية ، فالمغاربة جميعاً ينتمون إلى السلالة البربرية العربية الممتزجة المتوحدة الأصل .
- الوحدة اللغوية : اللغة العربية والأحرف العربية .
- الوحدة الدينية : (الإسلام)
- وحدة الطباع والعادات
- وحدة التاريخ المشترك

للاستزادة من التفاصيل يراجع :

* المغرب وطن واحد لا يتجزأ : محمد المكى الناصرى (مجلة الوحدة المغربية ١٩٣٧) .
* وحدة المغرب العربى : عبد العزيز بن عبدالله (مجلة دعوة الحق يونية ١٩٥٨) .
* الاتحاد المغربى : عبد الوهاب بن منصور (مجلة دعوة الحق يونية ١٩٥٨) .
* مفاهيم الوحدة المغربية : عبد الله العامل الكتانى (مجلة دعوة الحق يوليو ١٩٦٢) .
* عوامل الوحدة فى المغرب العربى : محمد زنيبر (مجلة دعوة الحق ابريل ١٩٦٢) .

سادسا — التقاء المغرب بالمشرق

لم يتوقف التقاء المشرق بالمغرب ولم ينقطع ، خلال أحلك فترات الظلام والضغط والإعنات التي فرضها الاستعمار الفرنسي على هذه المناطق وأغلقها . كانت هناك بعض الصحف العربية والمصرية بالذات الموالية للاستعمار الفرنسي والتي تحمل وجهة نظره تدخل إلى المغرب ، وفي مقدمتها الأهرام وصحف دار الهلال . وكان عشرات من المجاهدين يقطعون الصحراء حتى يصلوا إلى مصر ، ويردوا الأزهر ، وكان المغرب في خلال أزماته يتطلع نحو المشرق دائماً ، ولقد فتحت صحف عربية مصرية وطنية صفحاتها دائماً لصرخات تونس والجزائر ومراكش ، كالبلاغ وكوكب الشرق والجهاد والسياسة اليومية على فترات . وتخصصت صحف لقضايا المغرب كالفتح (محب الدين الخطيب) والهدى الإسلامي (محمد الخضر حسين) والمنهاج (إبراهيم أطفيش) .

وعاش في القاهرة عشرات من المجاهدين ، لا يتوقفون عن كشف مساوىء الاستعمار الفرنسي والإيطالي والإسباني في الشمال الإفريقي ، عاش عبد العزيز الثعالبي خمسة عشر عاماً بين القاهرة وبغداد ، وكتب ألوف الصفحات ومئات المقالات ، وطوف في العالم الإسلامي كله داعياً للمغرب ، وكذلك فعل الخضر حسين ، وإبراهيم أطفيش ، وقد أقاموا بالقاهرة إقامة دائمة ، وعاش شكيب أرسلان في لوزان يغرق صحف القاهرة (الشورى والفتح وكوكب الشرق والجهاد) بمقالاته النارية كلما ادلهمت الأحداث : التجنيس في تونس ، الظهير البربري في المغرب (مراكش) مقتل عمر المختار (طرابلس) وهكذا دون توقف .

★ ★ ★

وكانت القاهرة مورد أعلام المغرب ومجاهديه : عبد العزيز الثعالبي ، علال الفاسي ، الحبيب بورقيبة .. ، والوزاني والورتلاني وغيرهم وكانت أندية القاهرة وصحفها مفتوحة لآرائهم ودعواتهم .

ومنذ فجر النهضة هاجر الأمير عبد القادر الجزائري إلى سورية ومعه مئات من من أعوانه وأهله ، وجاء محمد بيرم إلى مصر ، وكتب في صحفها ، وعبد الكريم الخطابي ورد مصر بعد نفيه عشرين عاماً في جزيرة (رينو) ، وفي العراق أقام أبو القاسم

كرو ، وألقى عشرات المحاضرات ، وكتب عديد المقـالات عن قضايا المغرب العربي ».

وعاشت مصر حلماً فى أذهان المغاربة وقلوبهم ، حتى لقد كتبت صحيفة الوحدة المغربية تقول : « إن فى عنق كل مغربى ديناً لمصر » .

كل جزء من المغرب العربى كان المشرق قبلة له ومنطلقاً . يقول محمد كامل التونسى (١) للمجالس الأدبية فى تونس اهتمام كبير بمصر ، فهم يباهون بقراءة أدبهم ويفاخرون باقتناء كتبهم نثراً وشعراً ، فما من أديب فى تونس إلا ويجمع ثروة ثمينة من شعر أكابر الشعراء المصريين ، والمكتبة التونسية أغلب ما تحويه من مؤلفات الكتاب المصريين .

وإذا ما جاءهم من الشرق من له إلمام بالأدب التفوا حوله ، وطالبوه بما عنده من الإنتاج الحديث لأدباء مصر . وقد حاول الاستعمار إبعاد الثقافة المصرية من الشرق عنهم ، ليستعاض عنها بثقافة أجنبية لا تتصل بأرواحهم ، ووضع العقبات فى طريق الثقافة العربية جملة .

وفى الجزائر كانت العيون على المشرق دائماً ..

يقول الهادى السنوسى « من منا معشر الأدباء الجزائريين من لم يفتح عينيه منذ انتهت الحرب الكبرى الأولى على آثار مدرسة إسماعيل صبرى وحافظ وشوقى وطه وأحمد أمين والمنفلوطى والزيات من أفراد الرعيل الثانى ، أقول الثانى لأنهم سبقوا بطبقة الشيخ محمد عبده وبمن التف حولهمن أمثال رشيد رضا وعبد العزيز شاويش وطنطاوى جوهرى وعلى يوسف وتوفيق دياب والمرصفى ، وخلف من بعد هؤلاء الخلف الصالح كأحمد أمين والمنفلوطى والرافعى . فكانت الهلال والمقتطف والمنار ، هذه الثلاثة على الخصوص ، رسل النهضة الأدبية الشرقية إلى الشمال الإفريقى ، وكان أساتذتنا لا يفتئون يتحرون لنا من منظومهم ومنثورهم ما يؤثروننا به لتثقيف عقولنا وإصلاح ألسنتنا ، وتبصيرنا بما تجود به أفكار المدرسة الحديثة فى عالم العرب ، وكانت بحوث أحمد أمين ذات ميزة خاصة لما تشتمل عليه من رزانة وتمشى مع ما تقتضيه سنة النشوء والارتقاء بعيدة عن الطفرة التى رمى بسببها كثير من الأدباء بالمروق عن القومية والحظيرة الدينية ، وكان اللقاح الفكرى لهؤلاء يعمل فيهم أكثر مما تعمل مدارسهم ..

---

(١) مجلة الثقافة ــ ١٨ مارس ١٩٤٧

ويرد أبو العباس أحمد التيجانى (الرباط) النهضة فى أوائل هذا القرن إلى عديد من المقالات والصحف والمجلات والمؤلفات (وأهمها) جريدة اللواء لمصطفى كامل ، والعروة الوثقى (جمال الدين ومحمد عبده) والرد على هانوتو فى تهجمه على الإسلام ، وأم القرى للكواكبى .. وشعر البارودى ، وحافظ ، والسيد عبد الله النديم .

كان ذلك بمنزلة حقبة أيقظت النفوس من سباتها العميق ، ثم أخذت دائرة التفكير تتسع اتساع الدوائر فى الماء .

ولطالما رددت الصحف والمجلات فى المغرب الدعوة لتوثيق هذه الروابط بين المغرب والمشرق وتأكيدها .

فمجلة الفجر التونسية فى أول أعدادها بعد انتهاء قيود الحرب العالمية الأولى وعودة الصحف تقول : نحن والمصريون متحدون لغة وديناً ومتقابلون فى الأخلاق والعوائد ، ومتفقون فى عدة أمور أخرى ...

« إنه ليس بيننا إلا خطوات قليلة يمكن اخترالها بوثبة نشيطة تجعلنا معهم فى مستوى واحد ، نناجيهم ويناجوننا بلغة العلم ، ونتعاون على استرجاع مجد لغتنا العربية » .

وتعالت الصيحة دائماً بالارتباط بين جناحى الأمة العربية :

وفى وقت مبكر (فى الثلاثينات) يكتب محمد داود فى مجلة السلام (١) :

هل وطننا المغربى إلا جزء من العالم الإسلامى العظيم ؟

هل أمتنا المغربية إلا عضو عامل فى جسم الأمة العربية الكبرى ؟

نقدر أسباب رقى الأمم ذات العظمة المادية ، مع المحافظة التامة على جميع مبادىء ديننا الحنيف ، ودون أن نفرط فى مقدساتنا القومية ، إن تاريخنا الإسلامى العربى حافل بالمواقف المشرفة ، وإن كتب سلفنا الصالح مفعمة بالمبادىء السامية ، نريد أن نأخذ من أدبنا لباب نهضتنا ونترك القشور ، نأخذ تجاربهم فى العلم والعمل والجد والمثابرة.

★ ★ ★

وتهز قضية فلسطين المغرب العربى هزاً عنيفاً ، فتتجاوب معها فى عشرات المقالات والصرخات .

---

(١) مجلة السلام ـ اكتوبر ١٩٣٢

تقول البصائر : إن (١) الجزائر وطنكم الصغير ، وإن أفريقيا الشمالية وطنكم الكبير ، وإن فلسطين قطعة من جزيرة العرب ..

ومن أقصى المغرب ينشد (إدريس الجائي) شعره مناجياً فلسطين :

لا ترعك الدمـــاء والأشـــلاء   يا فلسطين فالفـــداء بقـــاء
لا تهابي وإن تكاثـــر صرعـــا   ك وإن أرجفت بك الأعـــداء
لا تهابي وإن غدوت أتونـــا   تترامى بجوفـــه الأشـــلاء
لا تهابي وإن ثكلت ألوفـــا   من بنيك الألى حـــداهم وفاء

ومن تونس ينادي (الطاهر القصار)

فلسطين هـــذي الوغى فاثبتي   وغني بلحن المنى واسجعي
فياحبـــذا موتـــه بعدهـــا   تشاد الحيـــاة على الأضلـــع

وفي أحداث طرابلس تجاوبت مصر وسوريا ، وحملت صحافتها لواء الدفاع وكشف جرائم الاستعمار الإيطالي ، وفي حادث الظهير البربري ، هزت مصر العالم الإسلامي وارتفعت الأصوات في القاهرة ودمشق وبغداد والقدس . ودعا شكيب أرسلان إلى مقاطعة فرنسا وعدم التعامل معها ، وتراجعت فرنسا على إثر هذه الاستجابة الضخمة ، وكانت «مجلة الفتح» ومحب الدين الخطيب في مصر حجر الرحى .

★ ★ ★

وإذا وقعت في مصر أحداث التبشير ، تنادي من صحراء الجزائر صوت مجلجل ، في صحيفة النبراس (٢) «أيها المسلمون الجزائريون ! كيف نرى أطفالنا وأفلاذ أكبادنا يفتنونهم عن دينهم ثم لا نتحرك ولا تذهب أنفسنا عليهم حسرات ؟ فلتفق جمعية العلماء المسلمين من سباتها ؟» .

ولا يموت بالمشرق أديب أو عالم أو مفكر ، إلا وتهتز دوائر الفكر والأدب في المغرب كله ، في تونس ، والجزائر ومراكش ... حافظ ، وشوقي ، الرافعي ، رشيد رضا ....

وفي مجلة الزيتونة يرثي محمد الحبيب شلبي «الرافعي» (٣) قائلاً :

---

(١) محمد البشير الابراهيمي — ٢١ جوان ١٩٤٨ «البصائر» .
(٢) عن الهادي الشرايبي «فاس» ١١ أوث ١٩٣٣ «النبراوي» .
(٣) مصطفى صادق الرافعي .

ولم تكن فى دعوتك المتحمسة وافكارك الجريئة وفنك العالى بالمتطفل على موائد الأغراب ، أو المقلد لأوضاع الدخيل ، فيجىء إنتاجك زائغاً متصنعاً ، لا نتذوقه ولا نستسيغه ، ولا نجد له وقعاً فى نفوسنا ، ولا هزة فى شعورنا ، بل لا نجد له إلا ربكة واضطراباً كما يفعل عبيد التقليد ودعاة التفرنج .. بل كنت تستمد الإلهام من من قلبك مستنيراً بأنوار النبوة ، مستعيناً بهدى ثلاثة عشر قرناً من عصارة الفكر العربى ...»

ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل إنهم ليطلقون اسمه على أبنائهم ؛ وأخونا محمد على دبوز بمعهد الحياة بالقراره .. فى جنوب الجزائر يسمى ابنه (مصطفى صادق الرافعى) ويجىء القاهرة فيذهب إلى طنطا ليزور دار الرافعى ويرى آثاره ..

والشيخ رشيد رضا يلقى فى تونس تقديراً ضخماً ، فهو صاحب المنار ، هذه المدرسة الفكرية الثقافية الإسلامية ، التى غذت المغرب كله أكثر من ثلاثين سنة ..

وكذلك يلقى محمد فريد مثل هذا الأعزاز والتقدير ، ولا غرو فهو صديق المغاربة ، زارهم فى أوائل القرن ، كما زارهم الشيخ محمد عبده ، وكان لزيارتهما أثر بعيد المدى .

★ ★ ★

سفراء من المشرق

فى مطالع النهضة اتجه أعلام من المشرق إلى المغرب وكان أبرزهم محمد فريد والشيخ محمد عبده وشكيب أرسلان ومحمد عبد الله عنان ومحمود عزمى واحمدفهمى العمروسى ومحمد فريد أبو حديد وحسين مؤنس وسامى الدهان وعمر فروخ .

وذهب إلى الأندلس أحمد زكى باشا ، والأب أنستاس الكرملى وأمين الريحانى ومحمد لبيب البتانونى ومحمد ثابت .

أما الشيخ محمد عبده فقد زار تونس والجزائر مرتين ، الأولى عام ١٨٨٤ ، والأخرى بعد عشرين عاماً (١٩٠٣) وقد أقام فى زيارته الأولى أربعين يوماً تعرف فيها على الأمراء والأعيان ، وحضر الدروس فى الزيتونة .

وكان ذلك فى سبيل تكوين فروع لجماعة العروة الوثقى التى أنشأها جمال الدين الأفغانى فى الهند ، وامتدت إلى مصر والمغرب العربى ، وكان من أبرز أعضائها فى تونس محمد السنوسى ومحمد بيرم .

وبعد أن انقضت جماعة العروة الوثقى ظل هؤلاء الطلائع من المصلحين متصلين بالشيخ محمدعبده ومجلة المنار وانقطعت كل حركات الشمال الأفريقى بطابع السلفية الذى قدمته هذه المدرسة الكبرى .

وعاد الشيخ محمد عبده فزار تونس والجزائر عام ١٩٠٣ ، واهتزت لمقدمه أندية العلم والأدب والإصلاح ، وأقبل على استضافته عظماء البلاد وعلماؤها ، على حد تعبير (الفاضل بن عاشور) ، والتقى به المتقدون عليه ، واشتد الجدال بينه وبينهم فى مسائل كثيرة .

وفى هذه الزيارة التقى بأعلام تونس أمثال عمر البكوشى ، وعبد الجليل الرواشى ، وعمر أبو حاجب ، وعلى بوشوشه (صاحب الحاضرة) والبشير صفر ، ومحمد بالفتح بالخوجة والطاهرين عاشور ، ومحمد النخلى .

وكان أبرز أعماله الفكرية هناك محاضرته المشهورة « العلم وطرق التعليم » وزار الشيخ محمد عبده الجزائر وتحدث فيها عن تفسير سورة العصر .

★ ★ ★

وعندما عاد الشيخ محمد عبده إلى مصر ، ووقع الخلاف بينه وبين العلماء بشأن الفتوى الترنسفالية الخاصة باستعمال المسلم للقبعة وأكل ذبائح النصارى أيده علماء تونس ، وألف الشيخ ابن عاشور رسالة فى تأكيد موقف الشيخ محمد عبده .

ولقد قيت دعوة الشيخ محمد عبده إلى تخليص الإسلام من البدع صدى بعيداً فى المغرب كله ، بعد أن اكتشفوا مؤازرة مشايخ الطرق للمستعمرين وتثبيط حركة المقاومة.

وكانت خلاصة دعوة الشيخ محمد عبده فى المغرب أن الطريق الوحيد للخلاص هو الرجوع إلى مبادىء القرآن السامية وألا يقتصر الإصلاح على الناحية الدينية ، وعلى المغرب أن يأخذ العلوم الحديثة التى هى مصدر القوة عند الغرب .

وكان للاتفاق الودى الذى عقدته فرنسا وبريطانيا سنة ١٩٠٤ بإطلاق كل منهما يد الأخرى ؛ فرنسا فى تونس ، وبريطانيا فى مصر ، كان له أثره البعيد ؛ فقد زاد الرابطة بين القطرين ، بعد أن تكشف ترابط الاستعمار على هدف واحد هو القضاء على الأمة العربية ، وعندما توفى الشيخ محمد عبده كانت مراثى التونسيين ومقالاتهم تمثل جانباً هاماً مما قيل فى هذا الإمام ، كما تمثل طابع الفكر المصرى العربى الإسلامى وارتباطه بالدعوة التى دعاها ، وبالمنار ومدرسته السلفية .

وكان لشكيب أرسلان ، وهو من تلاميذ الشيخ محمد عبده ، أثر واضح فى الحركات الوطنية فى المغرب العربى كله ، ويرى الكثيرون من المراقبين أن « شكيب » كان روح الحركات التحررية بالمغرب ، واتصل شكيب (١) فى تونس بالزعيمين صالح الشريف وعلى باش حانبه ، وقد منعه الاستعمار الفرنسى من دخول تونس ، ولأعلام المغرب ذكريات عديدة معه ؛ فقد حدثنى العلامة عبد الله كنون عن أثره فى النهضة المغربية ، وذكر عبد الخالق الطريس أنه كان ينصح بسلوك الاعتدال مع الإسبانيين باعتبارهم الشر الصغير الذى ينبغى الاستفادة من مجاملته للقضاء على الشر الكبير .

وتحدث محمد الفاسى عن لقائهم به عام ١٩٣٠ فى مجريط بإسبانيا ، وزيارتهم معه لخزانة الأسكوريال ، وكيف زار بعد ذلك المنطقة الخليفية والتقوا به فى تطوان ، وهى نفس الزيارة التى لقيه فيها عبد الله كنون .

ومن سويسرا كانت اتصالات شكيب أرسلان بشباب المغرب متصلة ، أمثال علال الفاسى وأحمد بلا فريج ، يوجههم ويثير حماستهم ، ويرسم لهم طريق العمل ، وقد أصدر أحمد بلا فريج بتوجيهه مجلة فرنسا بالمغرب سنة ١٩٣٢ .

وعندما أعلن الظهير البربرى فى مايو سنة ١٩٣٠ كان شكيب أرسلان أعنف كتاب العالم العربى مقاومة له ، وكذلك فعل فى مقاومة الحملة الجديدة على طرابلس بقيادة موسولينى ، وكذلك كان موقفه فى حرب الريف بقيادة عبد الكريم ، وله فى ذلك عشرات المقالات التى نشرت فى القاهرة بالإضافة إلى مقالاته المتعددة إبان الحرب الطرابلسية عام ١٩١١ فى المؤيد ، ولطالما خطب فى مؤتمرات طلاب شمال إفريقيا ، وتذكر جريدة الوحدة المغربية (مارس عام ١٩٣٧) جانباً من توجيهاته فى أحد هذه المؤتمرات وهذه عباراته :

« إن هذه الأمة الإسلامية يجب ان تتألف قلوبها وتتحد عاطفتها .. إننى أرى فى المغرب مزايا لا تنكر ، فهو معتز بقوميته ، متمسك بتقاليده ، أما فى الشرق (يقصد المشرق) فإننا مع الأسف نراه يقتبس من أوربا ويقلدها تقليداً أعمى . إن علينا أن نحافظ على مميزاتنا لأننا نستمد منها قوتنا الأدبية » ..

---

(١) انظر الملحق من شكيب ارسلان ــ ص ١٢٢ .

وكانت زيارة محمد فريد لتونس والجزائر بلا شك بعيدة الأثر فى هذا الترابط القوى بين المشرق والمغرب ، وقد زار فريد المغرب عام ١٩٠١ ، ثم زارها عام ١٩٠٥ .

وكان محمد فريد جريئاً فقد سجل صورة كاملة للمغرب فى هذه الفترة ، ونشرها المؤيد واللواء ، وفى كتابه المطبوع « من مصر إلى مصر » . وأثارت ضجة كبرى وكان من أثرها أن منع المؤيد واللواء من دخول الجزائر ، وقد عنى فريد بالجزائر بالذات ، وأشار إلى أنه كان يظن ماينشر عن أحوال الجزائر مبالغاً فيه ، أو مصدره كراهية الفاتح الأجنبي حتى قاده حب الاستطلاع فرأى بعينه ، وتحقق بالخبر ماسمعه بالخبر .

« وتأكد أن مسلمى الجزائر فى تعاسة ليست بعدها تعاسة ، فلا مطالبة هناك للحرية الشخصية ، ولا للملكية العقارية ، بل ولا للحقوق الشخصية ، أراض تسلب ، وأراض تنزع ملكيتها ، لتوزع على المهاجرين من الفرنساويين بلا ثمن ، وأوقاف خيرية تصادر مقابل ترتيب شيء زهيد للقيام بحاجيات مابقى من الجوامع والزوايا ، بعد هدم ماهدم منها ، وما حول كنائس ، وأبرياء تزج فى السجون ، بعد أن تحكم المحاكم الفرنساوية ببراءتهم ، ومسلمون يمنعون من نيل الوظائف ما لم يتجنسوا بالجنسية الفرنساوية التى تقضى باتباع قانون الأحوال الشخصية الفرنساوى ، مع مافى ذلك من مخالفة القرآن فى أهم المسائل التى لها ارتباط بالعائلة الإسلامية وأحكام الزواج والطلاق والإرث وما شاكلها .. »

وفى زيارته لمراكش كانت عباراته حزينة يائسة « أقول بكل أسف إن من يريد أن يرى بعينه كيف تموت الأمم ولا تبدى أى حركة لحفظ كيانها ، فليتوجه إلى مراكش ، خصوصاً بعد أن يزور إسبانيا ويمر بقادس ...

* * *

ويتحدث عن الحرية الشخصية فى الجزائر ، فيقول : « إن الأهالى هناك يعاملون بقوانين مخصوصة غاية فى الشدة والصرامة ، فهم محرومون من حرية الكتابة وحرية الاجتماع ، وحرية السفر ، وحرية مطالعة الكتب والجرائد ، نعم يصعب على الذى يعرف حب الفرنساويين للحرية والمساواة أن يصدق ذلك ، ولكن من يتكلف مشقة زيارة بلاد الجزائر يتحقق أن ما هو جائز فى بلاد فرنسا غير مباح للمسلمين فى المستعمرات ، وإن كان مباحاً للفرنساويين ، فلا يجوز لهم أن يؤلفوا جميعة ولو لفتح المدارس ونشر

التعليم المجرد ، وهذا الإذن لا يمنح مطلقاً ، كما أنهم لا يجوز لهم تأسيس مطبعة أو جريدة .

ولا يوجد فى جميع إقليم الجزائر غير جريدة المبشر ، وهى جريدة رسمية تتحدث فى فضل فرنسا على العرب ، والحض على التعامل بالولاء . وقد منعت عنهم الجرائد العربية ، فلم أجد فى جميع مدينة الجزائر نسخاً من اللواء ولا من المؤيد ، مع أن المشتركين فيها كثيرون ، ولا تصل هذه الجرائد إلا لإدارة المبشر مبادلة ، وهناك تحفظ فى حرز مكين حتى لا تخرج بعض أعدادها من الإدارة فتصل أخبار الإسلام والمسلمين إلى إخوانهم الجزائريين .

وقد منعت الجرائد الفرنسية التى كانت تنشر أخبار انتصار الإسلام على الأروام أيام حرب اليونان مع الدولة العلية .

ولما أرسلت لى الجرائد أثناء إقامتى بمدينة الجزائر حجزتها إدارة البوسطة وأرسلت لى جميع الجوابات ، فقصدت إلى المسيو ميرانت رئيس تحرير جريدة المبشر ، وطلبت منه توصيل جرائدى إلى أوربا بإرسالها بعنوانى إلى باريس فأرسلها لى بطريقة استثنائية ..

« ومن الغريب فى بلاد الجزائر أنه لا يجوز أن يسافر خارج المركز الذى يقيم فيه فى دائرته إلا بإذن من البوليس . لقد مضى على فتح فرنسا للإقليم الجزائرى سبعون عاماً وجيشها للآن لم ينقص عن خمسين ألف محارب ، يكلفها ٥٧ مليوناً من الفرنكات سنوياً ، وما ذلك إلا لتخوفها من الأهالى ، وعدم اطمئنانها إلى جانبهم ، ولكن لا يمكن استمالتهم بهذا الضيق وتلك المعاملة المخالفة لقوانين العدالة ، والحالة الحاضرة فى الجزائر برهان قاطع على تأخر الفرنساويين فى ميدان الاستعمار ، وعدم اقتدارهم على النجاح فى هذا الطريق الوعر .. (١) » .

★ ★ ★

وحضر محمد فريد مؤتمر المستشرقين الذى عقد فى الجزائر (وكانوا يطلقون عليها إذ ذاك جزائر الغرب) وقد حضر هذا المؤتمر فى الجزائر من المشرق : سلطان محمد ومحمد عسل وعبد العزيز جاويش وعثمان غالب من مصر ، وميرزا عبد الحسين

---

(١) اللـواء : ٣ اكتـوبر ١٩٠١
: ٩ اكتـوبر ١٩٠١ .

خان من فارس ، وألقى الشيخ محمد عسل كلمة عن اللغة العربية وقال : إنها غنية بنفسها ويمكن للإنسان أن يستغنى بها عن غيرها فى وضع أسماء المخترعات الحديثة . وألقى سلطان محمد موضوعاً عن الشريعة الإسلامية قال : إنها تصلح لكل زمان ، وألقى حسن حسنى عبد الوهاب (تونس) بحثاً عن احتلال العرب لجزيرة صقلية وآثارهم فيها . وفى هذا المؤتمر لم ينس الاستعمار نفسه ، فقد ألقى المستشرق فولرس الألمانى ومدير دار الكتب المصرية خطاباً مثيراً هاجم فيه الإسلام .

ورد الشيخ جاويش على فولرس الألمانى وفند المقدمات التى بنى عليها كلامه ، فأبان فسادها بالمرة من الوجهة اللغوية ، وتكلم عن تاريخ جمع القرآن وتوزيع نسخه على البلاد الإسلامية وبلاغته .

قال محمد فريد « ولما انتهى جاويش قام المسيو فولرس والخزى باد على وجهه ، وتقدم إلى الرئيس وطلب منه بصوت خافت أن يسحب موضوعه لكيلا ينشر فى أعمال المؤتمر وكذلك لاينشر تفنيد الشيخ شاويش .. »

ثم تكلم محمد فريد عن المصحف الجارى طبعه فى باريس ، والذى تقدم به المسيو دى منيار فى كراسة ، وقال : إنى لما تصفحتها وجدت فيها ثلاث عشرة غلطة بخلاف المكرر ، وكل منها تدل على جهل المشتغل بالتصحيح باللغة العربية وليست من الغلطات التى تقع من مصففى الحروف .

وتكلم أحد موظفى حكومة الجزائر (روبر) عن عوائد العرب فى مقاطعة (وهران) وتناولهم بالطعن والسب ونسب إلى الدين الإسلامى أموراً مشينة .

قال محمد فريد « فانبرى له شاب جزائرى اسمه « مختار بن الحاج سعيد » يتقن الفرنساوية ، وطلب منه أن يقدم على مايقول برهاناً من القرآن والسنة . فقال الفرنسى : إنه لم يقصد إهانة للدين مطلقاً .. وطلب جزائرى من المدرسين فى تلمسان اسمه (عبد الرحمن) من الرئيس أن يكلف مسيو (روبر) بسحب جميع ما قاله وعدم إدراجه فى أعمال المؤتمر ، وإلا فسيحضر أمامه ليناقشه الحساب ..

وقال محمد فريد : « لقد أظهر الجزائريون فى هذه الحادثة ما لم أكن أتوقعه منهم بالنسبة لقسوة الفرنسيين فى معاملتهم ، وأخشى أن ينتقموا منهم فيما بعد »

• • •

وقام الشاب الجزائرى — مختار بن سعيد — الذى اعترض على ما قاله روبر

وتلا مذكرة عن تعليم الأطفال فى الزوايا ، وأبان فساد الطريقة المتبعة فيها ، وأنها عقيمة ، وأن التلميذ يضيع عشر سنوات فى حفظ القرآن دون أن يفقه له معنى .. فى حين أن التلميذ فى المدارس النظامية يكون قد حصل على الثانوية ...

وتكلم المسيو برناس الفرنساوى فى موضوع الحج إلى بيت الله الحرام فهاجم المسلمين ...

وقدم أرمنى من أعضاء المؤتمر (أركليان) بحثاً عن معاملة المسلمين لغيرهم فرفضه المؤتمر ، فنشره فى جريدة (الديبش) الجزائرية فى (٢٨-٤-١٩٠٥) .

وقد انبرى له البشير صفر رئيس جمعية الأوقاف بتونس ، وكتب رداً أرسله إلى جريدة الديبش ، فنشرته (١-٥-١٩٠٥) تحدث فيه عن معاملة الإسلام الكريمة العادلة للذميين والساميين وأتى بالشواهد العديدة التى تكذب ما زعمه العضو الأرمنى وصور كيف عامل الأتراك المسيحيين عند دخولهم الآستانة .

وقال : إن مذابح الأرمن مرجعها تحريض اللجان الثورية الأرمنية ، ولو كان العثمانيون يرون أن الفتك بالأرمن من المقربات الدينية لأهلكوهم .. » . ا هـ

هذه هى الصورة التى قدمها محمد فريد للجزائر عام ١٩٠١ ، ١٩٠٥ من خلال زيارته لها ، وفى رحلته إلى تونس عام ١٩٠٢ كشف عن أعمال الاستعمار وقال : إنها أقل وطأة منها فى الجزائر .

كما التقى بأعلام التونسيين وتحدث معهم طويلاً حول عوامل النهوض والمقاومة :

وانتقد على الفرنسيين حبس حركة الفكر والضغط على الجريدة التونسية الوحيدة (الحاضرة) ومراقبتها المراقبة الشديدة ، وعدم إدخال الجرائد الإسلامية الأجنبية التى تبحث فى شئون المسلمين عامة .

وقال : إنه قابل المسئولين الفرنسيين وجاهر بانتقاد حالة تعليم المسلمين وعدم وجود تعليم عال أو ثانوى بتونس ، وعدم صلاحية التعليم الابتدائى لأولاد المسلمين « لأنه يرمى إلى نشر اللغة الفرنساوية وإماتة اللغة الشريفة العربية والتضييق على أولاد المسلمين ، وإيجاد العقبات فى طريقهم لتقليل عددهم بهذه المدرسة الثانوية الوحيدة حتى لم يبق بها إلا تلميذ واحد من أولاد المسلمين ، مع أن عدد تلاميذها ستمائة ، بينهم نحو الثلث من أولاد اليهود ...

وقال محمد فريد : أنه كان من رأى الكاتب الفرنسى العام بالنسبة لحرية الصحافة أن الأهالى شديدو الحمية ، أقوياء الشكيمة ، ولو أطلق لهم عنان حرية الجرائد لثاروا وقاموا فى وجه الحكومة الفرنسية ، وعلق محمد فريد على هذا الرأى بقوله « إنه غير سديد لأن الضغط يوجب إيغار الصدور وإثارة الأحقاد بخلاف ما لو أطلقت لهم حرية الكتابة » ..

وقال فريد : إنه التقى بعديد من المثقفين التونسيين : « تناولنا الطعام فى فندق صغير يشرف على البحر فى ليلة مقمرة مع بعض الرفاق من أدباء وفضلاء التونسيين ، كنت أود ذكر أسمائهم لولا خوفى من أن تتعقبهم الحكومة الفرنسية فتلحق بهم الأذى ، وكانت الموسيقى تصدح ببعض الألحان العربية ، فيصل إلينا صوتها ، وضوء القمر يرصف على صفحات البحر إلى مد النهر ، فما أجملها من ليلة لولا أن الحديث كان دائماً فيها على الإسلام ومصائبه ، وتسلط الإفرنج على بلاده ينتقصونها من أطرافها .. »

وقال فريد : إنه قابل الوزير الأول محمد العزيز بوعتوره ، ولاحظ أنه يتجنب الحديث فى الشئون التونسية .

واعترض على الصورة الأولى التى واجهته فى ميناء تونس(١) : « بأول شارع البحيرة ؛ تمثال جول فرى الوزير الفرنسى الذى كان له اليد الطولى فى فتح الإيالة التونسية ، وأمامه على القاعدة تمثال معمل فرنساوى ينظر إليه بإعجاب ، وتمثال فتاة عربية بيدها سعف النخل تقدمه له شكراً على احتلال الفرنساويين لبلاد أجدادها .. وهو رمز لم يصب كبد الحقيقة ، وعلى النافذة فى الخلف طفل فرنساوى يعلم القراءة لطفل عربى وفوقها صورة الوزير الذى كان وزير الخارجية أيام الاحتلال ..

وقال فريد معلقاً : وهذا رمز مخالف للواقع ، لأن الفرنساويين لايسعون إلى تعليم التونسيين بل يبذلون الجهد فى عرقلة مساعيهم لكيلا يتعلموا .

وذكر فريد أن تونسياً نفى نفياً إدارياً إلى إحدى البلاد مدة ثلاثة شهور لأنه كان يقرأ (المؤيد) على القهوة بمسمع من إخوانه فاعتبر هذا تحريضاً على الثورة وأضاف قوله : « فأين المعاملة التى ينادى بها الفرنسيون من أنهم رجال الحرية ، وأين ما ينشرونه بجرائدهم من الطعن على الدولة العلية »

---

(١) محمد فريد ــ اللواء ١٣ اكتوبر سنة ١٩٠١

وتحدث عن النهضة التى تقوم بها الجمعية المكدونية التى أسسها بعض الفضلاء لتدريس بعض العلوم العصرية ، وأشاد بالعلامة البشير صفر صاحب الفضل الأول وقال : إنه من الشبان الأذكياء الذين جمعوا بين الثقافتين العربية والفرنسية .

وممن زار المغرب العربى وله فيها ذكر طيب فارس الشدياق ، ورد تونس حيث عمل فى الصحافة وأقام بها ثمة ، أما فارس الشدياق فقد التقى بالباى أحمد باشا عام ١٨٧١ فى باريس ونظم قصيدة فى مدحه ، فلما التقى به أعجب الأمير به واستقدمه فى مركب حربى وولاه رياسة تحرير جريدة « الرائد التونسى » الجريدة الرسمية للدولة إذ ذاك ، وكان لهذه الحفاوة والتكريم أثره فى نفس فارس الذى لم يلبث أن أعلن إسلامه وأسمى نفسه « أحمد » تيمناً بالباى ، ونجد فيما بعد الثلاثينات رحلة الأمير محمد على ، وهى زيارة لها طابع استعمارى واضح ، فما كان يمكن للأمير المصرى صديق فرنسا (وهو يمر بتونس والجزائر ومراكش) أن يصدع بكلمة حق ، وكان جل اهتمامه موجهاً للآثار والقصور والمساجد ، وهو لم يقابل الوطنيين ولا المثقفين ، وإنما قابل الحكام و كبار الفرنسيين ، ولم يلفت نظره سوى المبانى والأثاث الفاخر والطرز المختلفة .

وقد أشار فى رحلته التى طبعت عام ١٩٢٥ ، والتى كتبها بالفرنسية وترجمها (أحمد مختار) إلى هدفه من هذه الرحلة « ما أردت استطلاعه هو المدنية العربية ، وما خلفته من المدن الكبيرة والمساجد الفاخرة ، والأسوار المنيعة العالية التى تحيط بتلك المدن ، وغير ذلك مما يصح أمام أعيننا آثاراً عمرانية تدل على عظمة العرب ومجد الإسلام فى القرون الوسطى التى عرفها التاريخ عند غيرهم بعهود الظلام ، ولو أنى رأيت شيئاً من آثارهم فى بلاد الأندلس منذ عشرين سنة ، إلا أن ولوعى بصناعة المغرب وكونى من غواة فن المعمار المغربى الذى يوجد من نسقه فى دارى ، وبالجملة ميلى للاطلاع على كل ما يتعلق بهم من لغة وأخلاق وصناعة ، وتباين فى مذاهبهم وعناصرهم القومية .... »

وكان محمود عزمى (مصر) فى كتابته عن زيارة المغرب (نوفمبر — ديسمبر ١٩٤٦) مثلاً لأتباع المدارس الغربية الاستعمارية ممثلا فى قوله « فهناك تفاعل بين الحاكمين والمحكومين » والحاكمون هم الفرنسيون والمحكومون هم المغاربة ، والمغاربة هم سلالة لأصول ممتزجة من الكنعانيين والفينيقيين والعرب ، والمستعمرون مستقرون فى المساحات الواسعة التى امتلكوها من الأراضى الخصبة ، وهكذا ....

وهو معنى بالحديث عن حزب «اتحاد البيان» لأنه يرمى إلى إقامة جمهورية جزائرية داخلة فى الاتحاد الفرنسى ..

★ ★ ★

سفراء من المغرب

واستقبل الشرق عشرات من أعلام المغرب ، منهم من عاش فى مصر حياته كالشنقيطى والخضر حسين ، ومنهم من قصد إلى الآستانة كخير الدين التونسى وعلى باش حامبه ، وسليمان البارونى وأحمد الشريف ، ومن قصد دمشق كالبشير السعداوى ومنهم من عاد كالبقالى ، ومنهم من مر مرور الطيف وحمل معه أمانة الفكر كابن باديس ، ولا نرى رحلة أبعد أثراً فى دعم هذه الروابط كرحلة عبد العزيز الثعالبى .

ولا ننسى فضل مغاربة عاشوا فى المشرق ، وتأقلموا فيه وكانوا بعيدى الأثر ، أذكر منهم الآن : عبد العزيز جاويش التونسى الأصل ، ودوره فى اليقظة الفكرية معروف ، وصلابته فى الحق مشهورة . وطاهر الجزائرى ودوره فى دمشق ونهضة الفكر بعيد المدى ، وعبد القادر المغربى تلميذ جمال الدين وعلامة اللغة والفكر فى دمشق والعالم العربى ، وقد ذكره (محمد الفاسى) عندما اختير بديلاً له فى مجمع اللغة ، وأشار إلى ما كان له من مواقف فى قضية المغرب « إذ كان فى الصف الأول من المناضلين عن حق المغرب العربى فى الحرية والكرامة . وشباب المغرب مدين له بفضل كبير حيث إن كتابه (الأخلاق والواجبات) مقرر فى كل المدارس الثانوية الرسمية والحرة ، وقد كان له أحسن الأثر على الناشئة بما يمتاز به من الأسلوب السهل ، وروح الحماسة التى تسوده وتجعله محبباً عند التلاميذ .. »

★ ★ ★

أما « التركزى الشنقيطى » فقد كان صديقاً للشيخ محمد عبده وأستاذاً للشيخ البكرى : ظل متصلاً بهما منذ جاء من المغرب وأقام بمصر ، وكان قد رحل إلى مكة فاتصل بأميرها ، وانتدبته الحكومة العثمانية أيام السلطان عبد الحميد للسفر إلى إسبانيا والاطلاع على ما بها من مخطوطات (توفى عام ١٩٠٤) وكان جريئاً حر الرأى انتقد رسالة التوحيد ، وأجاب الشيخ عبده عن نقوده فى مجلس الدرس مع الثناء عليه : وليس هو بالشنقيطى الوحيد الذى ورد الشرق وأقام به (١) .

★ ★ ★

(١) اقرأ ملحقا من الشناقطة فى آخر هذا البحث .

وفى مصر عاش محمد بيرم بعد خروج خير الدين التونسى ، وأخرج كتابه الضخم « صفوة الاعتبار » مسجلاً فيه رحلاته إلى أوروبا والعالم العربى.

وشارك المغرب فى النهضات الفكرية والسياسية التى جرت فى الشرق ، فالثعالبى وأطفيش قد مثلا المغرب كله فى المؤتمر الإسلامى عام ١٩٣٠ وتحدث الثعالبى فيه عن العمل لإعادة بناء الأمة العربية موحدة لاتتجزأ .

وكما التقى على صحف مصر والمشرق كتاب المغرب الذين كانوا فى الأغلب يرسلون كلماتهم وصيحاتهم بدون توقيع أو بتوقيعات رمزية خوف البطش بهم .. التقى على صحف المغرب كتاب من المشرق : على الحلى (العراق) عبد القادر رشيد الناصرى (العراق) الدكتور عمر فروخ (لبنان) وكاتب هذه السطور الذى حرر فى صحف تونس والجزائر والمغرب وليبيا ، ومما يذكر فى هذا الصدد أننى وجدت فى جريدة البلاغ عام ١٩٣٧ عشرات من برقيات الاحتجاج من مختلف الهيئات والبلاد المغربية فى إبان إحدى أزمات فلسطين : كطوزر والمنستر ، وصفاقس والقصور وسوق الأربعاء والسليمانية وعين دراهم ، وكذلك برقيات متعددة عن مظاهرات المغرب الأقصى لتأييد فلسطين وخاصة فى فاس والرباط .

ويصدق ما قاله عبد العزيز سيد الأهل فى هذا المجال : إن تاريخنا الشرقى لم ينفصل قط عن تاريخ المغرب العربى ، وإن تونس كانت معبر قوادنا إلى أوربا ، يغزونها ، وينقلون حضارتنا إليها ، وفى أرض تونس قضت جمهرة كبيرة من كبار رجال الفتوح ، وكانت مسلك التيار الذاهب إلى الغرب والوافد منه ، وكانت المنفذ الذى سارت فيه مع الجيوش الفاتحة العقائد واتجارات وألوان الحكم والاجتماع .. »

ولم تكن هذه الروابط بين المشرق والمغرب جديدة ، ولا فرضتها ظروف الضغط الاستعمارى ، وإنما هى قديمة جداً ، مستمرة أبداً .

وقد صور هذا المعنى حسن حسنى عبد الوهاب (تونس) حين أشار إلى أن الفينيقيين حين ابتنوا مدينة قرطاجنة عمدوا إلى تشييدها بأسلوب المصريين فى فن البناء والنقوش ، ولقد كانت مصر مهد الحضارة الباقية شواهدها على الزمن تراثاً يدفع من شرق البحر الأبيض ، إلى الدنيا ثروة متجددة من الكمال المثالى ، وإن تكون تونس إلى جانبها مظهراً يمثل العالم فيه يشهد فيها على الجانب العربى من هذا البحر أكمل مثل للتمدين القرطاجنى العجيب فهما يعيشان على كفتى البحر وعلى رأس الصحراء ، كأنهما

صدرتا عن بيت واحد ، له المزاج الذى لا يستطيعه إلا من كان من أهل الدار .

إن الحضارة المصرية فى فجرها الأول قد سجلت الحقيقة التى يعرفها كل من فى تونس ، وهى أن البلاد التونسية عرفت أول ما عرفت من المصريين .

إن تونس كانت تابعة للفسطاط ، سحنون وأسد بن الفرات فى الفسطاط ، الليث ابن سعد هو أستاذ إبراهيم بن الأغلب التميمى التونسى ، أهداه الليث الجارية (جلاجل) ، وإبراهيم بن الأغلب هو مؤسس أول دولة تونسية عربية وهى (دولة الأغالبة — ١٨٤ هـ)

من مدينة المهدية تحرك الأسطول الإفريقى بجوهر الصقلى إلى مصر ففتحها للفاطميين ، ونقل المعز إليها معالم أختها تونس ، وباب زويلة هو اسم المهدية القديم ، والمغاربة هم الذين شيدوا الأزهر ٣٦١هـ وخلد مؤرخو مصر أسماء أمراء تونس (الزركشى فى كتاب أخبار الدولتين) والشاعر إبراهيم الرقيق القيروانى التونسى أحب مصر وهتف باسمها .

هل الريح إن سارت مشرقة تسرى تؤدى تحياتى إلى ساكنى مصر

وعبد الرحمن بن خلدون انتقل من تونس إلى مصر ، ومحمد بيرم الخامس ، ومحمد ابن عزم من علماء تونس لقى حفاوة مصر ، ومن مصر وفد إلى تونس الشيخ حمزة فتح الله مصحح المطبعة التونسية الرسمية (١) .

وذكر المؤرخون الإمام أبا الفضل المشرالى (التونسى) الذى قدم مصر وألقى بها دروساً فى فقه المالكية فى الجامع الأزهر ، وقال عنه الحافظ الشوكانى إنى ما رأيت مثله ، ولا رأى هو مثل نفسه ، وإن من لم يحضر دروسه لم يحضر العلم ، ولا سمع كلام العرب ، ولا رأى الناس ، ولا خرج إلى الوجود ... »

* * *

وتحدث (محمد البشير النيفر) عن أثر المشرق فى الثقافة التونسية فقال : إن تونس بعد الحملة الأسبانية عليها (عام ٩٨١ هـ) وحريق مكتبتها الإسلامية ، أعادت تجديد ثقافتها بالاستمداد من مصر ومن المغرب الأقصى ، ومن أثر ذلك أصبحت المدرسة المصرية تسود التعليم بكتبها وأساليبها .

وإن الإشعاع العربى انتشر فى تونس بفضل رجلين تعلما فى مصر هما : « محمد الحجيج عام ١١٠٨ ، ومحمد زيتونة عام ١١٣٨ » .

---

(١) مجلة الثقافة ٢٧-٢-١٩٤٥

وقال : إن محمد الزرقانى والنفراوى والمنوفى رجعوا من مصر إلى الحاضرة . ومن المسافرين إلى القاهرة الغريانى والحجى والمكى وعلى بن خليفة ومحمد بن الحسن ... وغيرهم ممن توزعوا فى الجهات الساحلية .

وذكر أن محمد الأومى (عام ١٣٠٤) قدم من مصر بخزانة كتب واسعة ، وقال : إن بعثات الراحلين إلى مصر كان لها فضل كبير ، لإفاضة الحيوية والتحقيق على ما هو موجود فى تونس من معارف .

وإنها بهؤلاء وبالقادمين من المغرب الأقصى ، أمكن لجامعتها الإسلامية أن تبالغ خطاها وأن تكون شجى فى حلق الاستعمار الفرنسى حين أراد الاستحواذ على العقلية التونسية .

وقال : لقد تعاونت الرحلة إلى مصر والكتاب المصرى على المساهمة منذ أجيال فى تلوين الثقافة وتكوين الامتزاج .. »

ولا نحب أن نطيل فى هذا المجال ، وإنما نذكر أثرين كبيرين ، أحدهما من المشرق إلى المغرب وهو الغزوة الهلالية ، وآخر من المغرب إلى المشرق وهو فتح الفاطميين لمصر والشام .. وإنشاء الأزهر ودار الحكمة . وقد زار (ابن تومرت) زعيم الموحدين مصر والتقى فيها بأبى بكر الطرطوشى صاحب سراج الملوك وتلقى منه ، كما زار ابن بطوطة مصر والمشرق كله ، وعاد يقص أخبار هذا الجناح ؛ وأشار كثير من الباحثين إلى التقاء صعيد مصر وعرب أولاد على غرب الإسكندرية وشمال إفريقية وأعالى النوبة فى لهجة واحدة لها ملامحها الخاصة التى تميزها عن سائر اللهجات العربية (١) .

ومن هذا الترابط الجذرى أن عرب إفريقيا يرجعون فى جملتهم إلى قبيلتى بنى هلال وسليم ، ولهاتين القبيلتين بنو عمومة فى مصر ، وقبيلتا البربر (هوارته ولواته) وبطونهما المغربية تلتقى مع فروعها فى صعيد مصر .

وهناك التقاء فى مذهب ، نقله أسد بن الفرات بعد أن التقى بالإمام مالك فى المدينة ، وكان سحنون بن سعيد إمام المغرب شامى الأصل ، وابن زيتون قاضى الجماعة فى تونس من الذين عاشوا فى المشرق .

أما ابن خلدون فقد جاء مصر بعد أن تجاوز الخمسين ، وأقام بها حتى توفى بها . ومصر عنده ، خضرة الدنيا وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر ،

---

(١) طه الحاجرى « مجلة المجلة » ــ مارس ١٩٦٤

وإيوان الإسلام ، وكرسى الملك ، حتى لتلوح القصور والأواوين فى جوها ، وتزهر الخوانك والمدارس بآفاقها ، وتضيء البدور والكواكب من علمائها .. »

لقد كان التقاء المشرق بالمغرب جذرياً وعميقاً ومتصلاً ... وبعيد المدى ؛ فأبو على القالى البغدادى صاحب الأمالى يصبح أستاذاً فى الأندلس ، ويدخل أبو إسحاق الموصلى قرطبة ، ويخرج ابن عربى المغربى الأندلسى إلى المشرق ، وبعده بقرون يخرج أبو الحسن الشاذلى ليكونا منارة المشرق فى التصوف . ويرد الغزالى فى (تهافت الفلاسفة) على الفارابى وابن سينا فى الشرق ، فيأتى الأندلسى المغربى ابن رشد ليرد بدوره على الغزالى فى (تهافت التهافت) . ويبتكر أهل الأندلس الموشحات (١) وينبغ فيها المشارقة ....

وهكذا فى القديم والجديد ، لقاء متجدد ودائم وأكيد ، إنه دليل الوحدة الروحية والفكرية والنفسية والاجتماعية .... جميعاً

* * *

لقى الأمير شكيب أرسلان تقديراً كبيراً فى المغرب العربى ؛ فقد كانت علاقته بالشباب المغربى فى سويسرا وفرنسا بعيدة المدى فى توجيه الجيل الذى حمل لواء الحركة السياسية والوطنية .

وقد كان له دوره فى إنجاح حركة الإصلاح السياسى والثقافى ، حتى وصفه فيلكس فارس بأنه كان روح جميع الحركات التحريرية بالبلاد العربية ، ويدين له الليبيون بما بذل من مجهودات مع أنور باشا القائد التركى لمقاومة الاستعمار الإيطالى . وقد اتصل شكيب فى تونس بصالح الشريف وعلى باش حانبه والبشير صفر وكلهم من قادة الرأى فى تونس وكذلك فى المغرب كان على صلة وثيقة بأحمد بلافريج وعبد الله كنون وعبد الخالق الطريس .

وقد أشارت إلى هذا صحف المغرب بعد وفاته ، وقالت جريدة الحرية (١) التونسية « لسنا ننسى مواقفه المؤثرة لفائدة المغرب العربى ، وسنشيد بها ما حيينا حتى تعلم الأجيال الطالعة مقام الرجال الذين ندين لهم بالنجاح والتخلص من براثن العبودية . »

---

(١) مجلة الفكر « تونس – جوان – يونية ١٩٥٦ »

(١) العدد ٢٧ – فبراير ١٩٤٩

من أعلام الوطنية

عبد العزيز الثعالبي

الحديث عن الثعالبي له مجالات ثلاثة (١) :

• المصلح المفكر خليفة جمال الدين الأفغاني و محمد عبده .

• الوطني الرائد في مجال العمل الوطني والسياسي .

• سفير المغرب العربي في الشرق العربي .

والمجال الأخير هو ما نعني به في هذه الدراسة ؛ فلقد عاش الثعالبي خمسة عشر عاماً في المشرق العربي مجاهداً في سبيل المغرب والعرب والإسلام ، بالإضافة إلى رحلاته العديدة قبل ذلك ، وخلال ذلك في العالم كله ، أوربا وآسيا . وهي رحلات تدل على الإيمان الصادق وقوة العزم بالنسبة لرجل ضخم الجسم ، كان قد جاوز الخمسين عندما رحل إلى الهند ، فضلاً عن موارد الإنفاق لمجاهد ينزل أفخم فندق ، ويبدو في مكانة المجاهد العزوف الذي يقف في صف الملوك والأمراء غير أن هذه الرحلات قد أمدت « الثعالبي » بفيض من الخبرة والتجربة والعلم بأحوال العالم الإسلامي ، ودراسة لأفكاره واقتصادياته ، وتطور مفاهيمه الاجتماعية والسياسية والروحية .

بدأ رحلته الأولى إلى المشرق عام ١٨٩٢ م ؛ فزار طرابلس ومصر والآستانة ، وعاد منها « غريب الشكل والنزعة والمنطق والقلم » على حد تعبير الفاضل بن عاشور يتكلم بأفكار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، ويعجب بالكواكبي وحسن حسني الطويراني وعلي يوسف ، ويدعو إلى التطور والحرية وفهم أسرار الدين وأسرار الوجود ، ويغرب بمقالات الحكماء والطبيعيين ، وما كاد يرجع من مصر حتى أحاطت به هالة من أهل العلم والأدب ، أصبحت ألزم له من ظله ، فكان ينتقل بهم من مجامع العاصمة نادياً سياراً ، مأخوذين بحلاوة تعبيره ، وفصاحة منطقه وقوة عارضته ، ومقدرته على تحليل الموضوعات استرسالاً بلا ملل ولا فتور ..

كان ذلك في أوائل القرن العشرين (١٩٠٢) . ثم كانت رحلته الثانية عام (١٩١٩) .

---

(١) يعد المؤلف دراسة مطولة عن الثعالبي

إلى بلاد المشرق . أما رحلته الثالثة فكانت ١٩٢٠ إلى إيطاليا وفرنسا وسويسرا وبلجيكا . ولم يقر بعد ذلك إلا سنوات ثلاثاً ليبدأ رحلة العمر فى (أوت - أغسطس ١٩٢٣) إلى المشرق فلا يعود إلى تونس إلا فى فاتح (أكتوبر ١٩٣٧) ليقضى سنوات من المرض والكمد حتى توفى عام ١٩٤٤ .

أما رحلته هذه فقد استغرقت أربعة عشر عاماً أمضى منها سنوات إقامة فى القاهرة والقدس وبغداد ، وقام برحلات طويلة إلى أقصى المشرق ؛ إلى الهند وأندونيسيا وحدود الصين ، وإلى الجزيرة العربية وتركيا وإيران وأفغانستان ، وإلى كل مكان يجد فيه مسلماً أو متكلماً بالعربية . وهو فى خلال جولته يحمل رسالة كبرى قوامها :

- اليقظة والتجمع والالتقاء الروحى والفكرى للعالم الإسلامى .
- إبلاغ كلمة المغرب إلى المشرق فى مجال الحرية والكفاح والتخلص من الاستعمار .
- دراسة أحوال العالم الإسلامى ماضيه وحاضره وثقافاته واقتصادياته .

ويكشف الثعالبى منهجه الفكرى فى كلماته :

« لنا فى ماضينا عبرة فلا نأسف عليه بقدر ما يجب أن نستفيد من الأغلاط التى ارتكبناها فيه ، ومهما غالتنا الغوائل ونابتنا النوائب فإننا لم نزل أمة قوية عزيزة الجانب ، لها تأثيرها الفعال فى سير السياسة العالمية ، وغايتنا أن نعيش أحراراً فى بلادنا .

على الشرقيين إذا أرادوا أن يسعدوا أن يعتمدوا قبل كل شىء على إصلاح النفوس ، ومتى أصلحوها وثقفوها أصلحوا الشرق ، وهى لا يصلحها غير العلم النافع والتربية الصحيحة .

لست أقول بالطفرة ولا أطلب المحال ، ولا أريد الناس على عمل لا يقدرون عليه ، وإنما أدعوهم إلى العمل الممكن الميسور ، أدعوهم إلى التفكير فى الأمور ، والإتقان فى العمل ، والتوسع فى الاستنتاج .

أدعوهم إلى التحول والانتقال من الأعمال الفردية إلى الجهود الاجتماعية وإحداث النظم لها والمؤسسات ؛ إذ ليس فى مستطاع فرد مهما أوتى من القوة والبأس والذكاء أن يتقن ويستثمر عملاً ما لم يقترن سعيه بجهود الآخرين ؛ فإن تكافح الأقوياء فى هذا العصر ، لم يقم على الأفراد ؛ بل على جهود الجماعات ، والسبب فى هزائمنا المتوالية نحن معاشر الشرقيين هو اعتمادنا على مكافحة الفرد ، وذلك ما جعلنا ننهزم فى الصدمة الأولى فى معترك الحياة أمام الأجانب ، فهم يكافحوننا بالنظم والشركات والأحزاب المتناصرة ،

وقوة الأمم تخرج من بين صلب وترائب هذه الوحدات ، لا من بين الحب الأفلاطونى والخيال الموهوم .

فإن الشرق لم يزل مشرق العظائم والكمالات والثورة ؛ ففيه نزل الوحى الإلهى على الصفوة من خلقه ، وفيه انبعثت أفنان المدنيات ، ولولاه ما أدرك الغرب الفضيلة ، ولاعرف الأديان ، ولا الفلسفة ، ولا بلغ مبلغه من المدنية والعمران ، ألم تكن مصادر المدنية الغربية شرقية ، ومن عمل الشرق ؟

ونحن إن نسينا فلن ينسى الغربيون أن المسيحية هداية شرقية محضة ، وهى والإسلامية واليهودية نبعة واحدة يفيض بها الروح الأمين على السامعين من قلب البلاد العربية .

مهما تصورنا عظمة الشرق ، وبالغنا فى وصف جماله وجلاله ، فإننا لا نستطيع المكابرة فى الحق ، وإنكار تفوق الغرب فى عمله وفى نظمه وفى قوته ؛ فقد استيقظ الغرب فى الساعة الأخيرة التى غفا فيها عنه الشرق فبزه وما عزه .

إذا أردنا أن نعيد الشرق إلى منزلته الأولى من التقدم وجب علينا أن نقتبس من الغرب كل جديد يجمل به ، وننبذ كل قديم رث بال عفاه الدهر وقتلته العصور ؛ فإن الحياة كون خاضع لناموس التغير والتجدد ، ولا يخلق بهما أبداً الرفو والترقيع ، وكفانا أن نحتفظ من ماضينا بالدين والأخلاق ، وما عداهما فإلى البوار وإلى الدمار . »

وقد عاش الثعالبى حياة خصبة كلها كفاح وجهاد ونضال منذ ولد عام ١٨٧٤ وتطلع إلى العمل الوطنى بعد تخرجه فى الزيتونة سنة ١٨٩٥ فى مجال العمل الوطنى والإصلاح الدينى والصحافة والخطابة والتعليم والتأليف .

فقد عمل مع على باش حانبه فى المجال الوطنى ، وبرز بعد الحرب العالمية الأولى وألف (روح القرآن الحرة) ومعجزة محمد بالفرنسية .

وأصدر جريدة سبيل الرشاد ، وحرر جريدة التونسى .

وأصدر كتابه (تونس الشهيدة) بالفرنسية ١٩٢٠ بدون إمضاء ، وناب عن التونسيين بعد الحرب الأولى فى الدفاع عن مطالبهم فى باريس فى الوقت الذى ذهب فيه سعد زغلول عن مصر وفيصل بن الحسين عن العرب ودخل السجن مرات ومرات ، فى تونس وفى فرنسا .

وكانت شعلة النور والنار فى حياته عند ما رأى جيوش الاحتلال تقتحم بلده عام ١٨٨١ ، وتضرب عمه بالسياط وكان جده عبد الرحمن الثعالبى قد اشترك فى قتال الفرنسيين

عند احتلالهم الجزائر ، وقام بدور ضخم فى المقاومة . فهو جزائرى الأصل تونسى المولد . وقد ظل مقامه (مسجد سيدى عبد الرحمن) مركزاً ثورياً فى حرب التحرير الجزائرية .

وقد كانت الفكرة التى يحملها فى أول الأمر وطنية خالصة ، فلما عاد من مصر كانت نظريته قد تبلورت فى مزاج من الإصلاح الدينى والاجتماعى والعمل السياسى ، على النحو الذى دعا إليه جمال الدين ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبى . فهو واحد من ذلك الرعيل الذى كونته المدرسة الجمالية .

ومن أجل هذه المعانى القائمة على الإيمان بالمغرب العربى الإسلامى ، وامتزاج الفكر العربى الإسلامى ، وقيام الشخصية العربية الإسلامية فى نفسه كأساس للاقتباس من الحضارة الأوربية والثقافة الغربية لقى المحنة التى عاشها من قبله جمال الدين .

مُقوّمات الثقافة والفِكر

أدب المرأة المغربية — التاريخ المغربي

— أدب الكفاح المغربي شعر الوطنية والكفاح —

التعليم — الثقافة — الصحافة

مدخـــل

إذا كان المغرب قد واجه أبرز قضايا شخصيته الأساسية : المغربية العربية الإسلامية بشجاعة وقوة ، وسجل فيها انتصارات أكدت هذه الشخصية وعمقت جذورها . فإن الفكر المغربي قد واجه معركة كبرى في مجال الاحتفاظ بأصوله وقيمه في مجالات التعليم والثقافة والصحافة والأدب والتاريخ واللغة العربية .

كان الاستعمار حريصاً على أن يحطم المقومات الأساسية لهذه المجالات ، أو يحولها حتى يقضى على قوة الأمة المغربية العربية الإسلامية حتى يستطيع أن يسيطر عليها فكرياً ؛ ذلك أن هذه المقومات كانت تمثل العوامل الحية للأمة وكيانها ، فإذا ما أمكن تهديمها وتمييعها فقد استطاع الاستعمار أن يقيم نفوذه ويؤكد سلطانه ويحول المغرب إلى أقاليم جنوبية من إيطاليا وفرنسا وأسبانيا .

وقد قاد هذه الحملة دعاة أقزام يخاصمون اللغة العربية والإسلام في عنف ، ويجحدون فضل العرب على الحضارة الإنسانية ، وفي مقدمة هؤلاء الدعاة الكردينال لافيجرى والمارشال ليوتى .

ففي التعليم كان الهدف خلق موظفين تابعين ، وفي الثقافة استهدف الاستعمار خلق جيل من المؤمنين بالفكر الغربي والثقافة الفرنسية ، وفي مجال الصحافة كان الهدف مسايرة الاستعمار والدفاع عنه . وفي التاريخ حاول الاستعمار التشكيك في البطولات العربية الإسلامية وتصوير الأمة بصورة مهلهلة مفككة . وفي اللغة العربية كان الهدف القضاء عليها وتغليب اللهجات الإقليمية والحروف اللاتينية واللغات اللاتينية عليها ، ومن ثم فقد بدأ صراع عنيف امتد وتعمق في سبيل الهدم من جانب الاستعمار . ولكن الذى حدث أن الفكر المغربي العربي الإسلامي استطاع مواجهة هذه المؤامرات بقوة وبرز في دور التحدى ورد الفعل على نحو باهر . واستطاع أن يقاوم النفوذ الغربي في مجال الثقافة والتعليم والصحافة والأدب والتاريخ ، وأن يؤكد الشخصية المغربية العربية الإسلامية . وأن يكشف عن دورها في كل مجال ، وأن يحقق انتصارات لا حد لها . كان لأقطاب الزيتونة والقرويين فيها أكبر الفضل .

ومضت معركة التغريب تحقق الهزائم وتنهار أمامها قلاع الفرنسة والتجنيس والإذابة والإدماج والتفرقة بين العرب والبربر واحدة إثر أخرى . بينما تتكشف القوة الحقيقية للأمة على نحو لا سبيل إلى إنكار أثره وقوته .

واستطاع الفكر المغربى العربى الإسلامى أن يحقق انتصاراً فى خلال مرحلة الاحتلال فى هذه المجالات لا حد له . فقد كان مرناً واسع الأفق حين لم يغلق أبوابه على خير ما فى الفكر الغربى . بل تقبله وانتفع به وجدد به مناهجه وشحذ قواه ، ثم استطاع فى نفس الوقت أن يحافظ على كيانه وملامح شخصيته وقيمة ومقوماته وتراثه ، على النحو الذى بدا به ذلك الكيان جديداً حياً ينتفض شباباً ، ولا غرو فقد كان الفكر العربى الإسلامى الذى امتد فى المغرب وأسس قوائم ثقافته معيناً ثرياً لا حد لغنائه وتراثه فى مجال الثقافة والتاريخ واللغة العربية والعلوم . وكان فضله على نهضة أوربا وحضارتها كبيراً . وكان المغرب هو الطريق الذى نفذ منه هذا الفكر إلى أوربا فأوقد فيها النار والنور ، ومنحها هذه اليقظة عن طريق جامعات القرويين وقرطبة وأشبيلية وغيرها . ومن طريق الأندلس شقت الثقافة الإسلامية طريقها إلى أوربا وخلقت عهد النهضة .

لذلك لم يكن عجيباً أن يحارب الفكر الغربى فى معركة التغريب هذه القيم ولا يعترف بها بل يحاول أن يشكك فيها وأن يثير بين أهلها الشبهات وأسباب التوهين من شأنها . هنالك كشف الفكر العربى عن حقيقة جوهره واستطاع أن يرد هذه الحملة غير المنصفة بقوة وأن يثبت وجوده وكيانه .

أولا – التعــــليم

واجه التعليم فى المغرب العربى معركة ضخمة بعيدة المدى ؛ فقد حرص الاستعمار (أولاً) : على القضاء عليه و (ثانياً) على تحويله إلى تخريج أدوات استعمارية تعمل فى الدواوين والوظائف و (ثالثاً) على تخريج مثقفين عملاء يتثقفون الثقافة الفرنسية ويؤمنون بها ويزدرون الثقافة العربية

ومن قبل الاحتلال اللاتينى للمغرب العربى كله ، كانت الثقافة العربية سائدة وعلى نحو واسع وعميق ، وكانت منارتا القرويين والزيتونه هما مصدر الإشعاع ، بالإضافة إلى زيارة المشرق التى كانت بمثابة الدراسات العليا لأهل المغرب ؛ فقد كان دائماً قادة الفكر وأعلام اللغة والإسلام يردون المشرق ويتصلون بالأزهر ومكة ..

ثم نشأ تعليم مزدوج يجمع بين اللغة العربية واللغة الفرنسية يتمثل هذا فى مدارس الصادقية (تونس) ومثيلاتها فى المغرب (مراكش) . أما إقليم الجزائر فقد حظى بنظام أشد صرامة إذ ألغيت منه المدارس العربية إلغاء كاملاً ، وحلت محلها المدارس الفرنسية الخالصة .

هذا بالإضافة إلى الغزو التعليمى بمدارس الإرساليات التبشيرية المختلفة ، ثم كانت البعثات مجالاً لخلق جيل من أعوان الثقافة الفرنسية ، وفى تونس كان وزير المعارف فرنسياً له التصرف المطلق فى التعليم العام . ، ومديرو المدارس كلهم فرنسيون ، وقد عملت حكومة الاحتلال على تضييق دائرة التعليم ،وظل جامع الزيتونة مدى طويلاً تابعاً لوزير المعارف الفرنسى .

أما برامج التعليم فإنها تعنى – قبل كل شىء – باللغة الفرنسية وتاريخ فرنسا وجغرافيتها وتراجم رجالها . أما ما يدرس لهم من التاريخ العربى فلا يعدو أن يكون صورة مزورة تهدف إلى تحقير الماضى والحط من قيمة أبطال العرب والإسلام .

* * *

ويرى ساطع الحصرى (١) أن التعليم فى المغرب العربى كانت توجهه سياسة

---

(١) ساطع الحصرى : حوليات الثقافة العربية جـ ٢

التنصير والفرنسة ، وإقامة الديانة المسيحية محل الديانة الإسلامية ، وإحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية .

وقد وضعت لذلك خطة لنشر اللغة الفرنسية بالتدريج ، وتعميم الآراء والأفكار الفرنسية ، وإهمال العربية إهمالاً كاملاً ، ثم مكافحتها مكافحة فعالة ، وإنضاب الموارد المالية للمدارس الأهلية عن طريق القضاء على الأوقاف ، والإكثار من إنشاء المدارس الفرنسية فى المناطق المسكونة بالقبائل البربرية ، يدرس فيها بالبربرية والفرنسية ، كما حظر على الفقهاء الانتقال إلى هذه المناطق وتعليم القرآن فيها ، وذلك قطعاً لصلةالبربر باللغة العربية .

وفى تونس كانت اللغة الفرنسية لغة أساسية بجوار اللغة العربية ، وفى مراكش كانت اللغة الفرنسية هى لغة التعليم فى جميع المدارس .

وكان أساس برامج التعليم إضعاف الروح المغربية العربية الإسلامية ، وتقديم ثقافة لا تمت بصلة إليها ، وإحلال الفلسفة واللغة والتاريخ والجغرافيا الفرنسية ، بغية القضاء على الشخصية المغربية ومقوماتها .

وفى الجزائر كانت الخطة أشد عنفاً ؛ فقد ألغيت العربية إلغاء . وجرى التعليم كله بالفرنسية وصدر قانون شوتان عام ١٩٣٨ الذى يعتبر اللغة العربية لغة أجنبية فى الجزائر . ورفضت السلطات إعطاء الجزائرى تصريحاً لفتح مدرسة ، وإذا صرح بفتح (كتّاب) كان ذلك بشروط قاسية منها أن يحفظ القرآن دون تفسيره ..

يقول أوجين كومب « مما لا شك فيه أن التعليم فى الجزائر خلال عام ١٨٣٠ (أى عام الاحتلال) كان أكثر انتشاراً وأحسن حالاً مما هو عليه الآن ؛ فقد كان هناك أكثر من ألفى مدرسة للتعليم بدرجاته المختلفة ، فضلاً عن مئات المساجد . وقد أغلق الاستعمار الفرنسى هذه المدارس العربية بالقوة .

ويقول (بونار) : أحدث وجود الفرنسيين اضطراباً بالغاً بين هؤلاء المفكرين والأدباء ، واضطر معظم العلماء والفقهاء إلى ترك وظائفهم كما تشتت شمل التلاميذ .

وقد سيطرت فرنسا على عقارات الدولة الجزائرية والأوقاف الإسلامية . وفى ٢٤ ديسمبر عام ١٩٠٤ أصدرت فرنسا قانوناً ينص على عدم السماح لأى معلم مسلم أن يتولى إدارة مكتب لتعليم اللغة العربية بدون تصريح يمنحه إياه عامل العمالة أو قائد الفيلق العسكرى .

والتصريح (الرخصة) لا تعطى إلا بضمانات هى :

• اقتصار التعليم على حفظ القرآن فقط .

• عدم التعرض بأى وجه كان إلى تفسير القرآن خاصة آيات الجهاد والتحرر ، وعدم الرضوخ للظلم والاستبداد .

• استبعاد دراسة تاريخ الجزائر والتاريخ الإسلامى العربى ، وجغرافية القطر الجزائرى والبلاد العربية .

• استبعاد الأدب العربى بجميع فنونه .

وقد اتخذت فرنسا هذه التحفظات ؛ لأنها ترى فى الثقافة العربية الإسلامية خطراً يهدد وجودها فى الجزائر ، ورغبة فى القضاء على هذه الثقافة .

وقد صور المرحوم محمد فريد خلال زيارته للجزائر فى أوائل القرن حركة (١) التعليم فى الجزائر فى عبارة بليغة قال : « هجرت ربوع العلم ، وخربت دور الكتب ، وصارت الديار مرتعاً للجهل والجهلاء ، وكادت تدرس معالم اللغة العربية الفصحى ، وتطرقت إلى اللغة العامية الكلمات الأجنبية ، بل أصبحت اللغة الفرنساوية هى لغة التخاطب فى العواصم مثل وهران والجزائر وقسنطينة وعنابة وغيرها .

وقال محمد فريد : « إن حالة التعليم فى القطر الجزائرى سيئة جداً ، ولو استمر الحال على هذا المنوال لحلت اللغة الفرنسية محل العربية فى جميع المعاملات ، بل ربما تندرس العربية بالمرة مع مضى الزمن ، فلا الحكومة تسعى فى حفظها ولا تدع الأهالى يؤلفون الجمعيات لفتح المدارس .. »

وفى ليبيا (طرابلس وبرقة) قضى الاستعمار على كل الزوايا التى كانت بمثابة معاهد لتعليم اللغة العربية والقرآن ، وإنشاء مدارس لا يدخلها إلا المستوطنون والإيطاليون .

وفى عديد من تقارير الاستعمار كانت الروح اللاتينية واضحة فى مواجهة المغرب مجال التعليم ، معلنة أن الغرض من التعليم الرسمى تثبيت أقدام الاستعمار بخلق عدة عوامل :

• تحويل المتعلمين إلى أدوات استعمارية .

• الإعجاب والرضا بالمستعمر ، والنظر إليه نظرة الإجلال .

---

(١) اللواء : ١٢ اكتوبر ١٩٠١

• القضاء على مقومات الأمة المغربية العربية الإسلامية .

• صهر الجزائريين فى البوتقة الفرنسية وتبديل أحوالهم الشخصية .

ويقول مسيو بونار ١٩٠٨ « إنه لمن الأهمية بمكان أن نبث فى أذهان الأهالى فكرة رفيعة ونقية عن وطننا ، وذلك بتلقين التلاميذ دروساً عن عظمة فرنسا وجيشها وثروتها ... »

غير أن المغرب العربى بما عرف عنه من صلابة واعتداد بمغربيته وعروبته وإسلامه قاوم هذا التيار مقاومة كاملة .

ومن قلب الجزائر التى هى أخطر مناطق التغريب والفرنسة الفكرية ، والتى واجهت أسوأ صور التعليم الفرنسى الخالص مع القضاء على اللغة العربية ، ظهر أقوى عمل فى تاريخ المغرب العربى كله لإحياء اللغة العربية والإسلام فى مخطط جمعية العلماء الذى حمل لواءه عبد الحميد بن باديس ، وعاونه فيه وأكمله : البشير الإبراهيمى والتبسى والعقبى ، وقد أتم هذا المخطط إنشاء ثلاثمائة مدرسة على الرغم من كل القوانين والمخالفات وأعمال الاضطهاد .

وأثمرت هذه الحركة ثمرة ضخمة قضت على مخطط النفوذ الفرنسى ، وحفظت اللغة العربية التى وصفها دعاة جمعية العلماء بأنها « قطعة من وجود العرب ومرآة لعصورهم الطافحة بالمجد والعلم والبطولة ، والتى كانت فى وقت ما لسان معارف البشر ، وترجمان حضارتهم ، وناقلة فلسفات الشرق وفنونه إلى الغرب ، ومستودع آداب المشرق وملتقى تياراته الفكرية ، دخلت به إلى الهند والصين ، وقطعت به البحار والفلوات ، والأمة الجزائرية من أوفى الفروع لهذه اللغة وأكثرها براً بها وتمجيداً واعتزازاً » .

وقد قام التعليم الجزائرى – كما صور ذلك البشير الإبراهيمى (١) – على الأصول العربية مع الاقتباس من الأساليب الأوربية والأمريكية والاستفادة من تقدم التربية الحديثة وعلم النفس ، هذا الاقتباس الذى لا يمس جوهر الأسس التى يقوم عليها نظامنا التربوى ، هذه الأسس شىء لا يمكن أن نستورده من الخارج دون أن نعرض الملامح الرئيسية من شخصيتنا لخطر الفناء ، على الرغم من تقديرنا للمزايا العظيمة التى ترتبت على صبغ نظامنا التربوى بصبغة ديمقراطية ، وجعل التربية غاية فى نفسها كما توصى به

---

(١) جريدة البصائر – مجلد ١٩٤٩

النظريات الحديثة ، فإن الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية السائدة فى الجزائر ستصبح جهودنا معها فى الإصلاح عملاً من غير طائل .

فالشعب الجزائرى لم تتح له فرص كبيرة فى مجال التعليم ، وظروفه التاريخية القلقة لم تسمح له أن ينكب على البحث العلمى ، لأنه كان يفقد أهم عوامل الإنتاج العقلى وهو الأمن والاستقرار ، وقد كان فى العهود المعروفة لدينا من تاريخه فى الغالب بين إحدى حالين : إما أن يقاوم غزواً أو يستعد لمقاومة غزو .

وكانت تربية الطبيعة له على شظف العيش والتأقلم فى الجبال والبوادى خير عون له على أن يقدم الشواهد الكثيرة على شجاعته فى المعارك ، سواء منها ما خاضها مع فرنسا ضد حروب الإمبراطورية الثانية حتى الحرب الأخيرة ، وثبت أنه محارب من الطراز الأول .

وعندما انتهت المعارك الطاحنة التى نشبت بين سكان هذه البلاد والعرب ، استطاع البربر أن يفهموا طبيعة الرسالة التى حملها المسلمون إليهم عبر الصحارى ، ويدركوا الفرق بينها وبين الأغراض الاستعمارية التى كانت تدفع الغزاة إلى محاولة فتح بلادهم فى الماضى ، فكان امتزاج البربر بالعرب وتقبل رسالتهم .

إن نظام التربية عندنا لا يمكن أن يأتى ثمرته المطلوبة إلا إذا جعل من أهدافه الرئيسية نشر اللغة الصحيحة ومحو العجمة التى طرأت على اللسان العربى ، وتقوية الروح العربية والإسلامية » .

وبالرغم من كل قيود النفوذ الفرنسى وقراراته باعتبار اللغة العربية أجنبية فى الجزائر وقيود فتح المكاتب العربية استطاعت جمعية العلماء عام ١٩٥٢ أن تعقد أول امتحان لنيل الشهادة الابتدائية العربية وتفتح معهد ابن باديس .

وبعد الاستقلال بدأت فى تونس والمغرب حركة التعريب ، ثم امتدت إلى الجزائر بعد استقلالها .

وهى تهدف فى الأغلب إلى تعريب التعليم ، واستعمال اللغة العربية بحيث تكون لغة التدريس لجميع المواد ، وإحلال مدرسين عرب محل المدرسين الفرنسيين ، والتخلص مما أطلق عليه « لائكية التعليم » أى التعليم المدنى .

ولا يزال الموقف فى المغرب العربى الكبير يواجه مشكلتين هامتين :

• معارضة المكونين تكويناً فرنسياً لحركة التعريب ، ويوجد منهم عدد كبير يبلغ عشرة آلاف أو يزيدون .

• ازدواج لغة التدريس وما تؤدى من معاناة ، حيث إن ثلث المواد تلقن بالعربية وثلثين بالفرنسية ، وقد أشارت التقارير إلى ما فى هذا الازدواج من إرهاق لعقول الأطفال والشباب .

والمعتقد أن هاتين المشكلتين فى طريق الحل ، وأن الخطوات المتوالية كلها تتجه إلى تغليب اللغة العربية .

أما بالنسبة للتعليم الزيتونى فقد تطور فى أكتوبر عام ١٩٥٨ على أساس ما تقرر من أهمية تحويل ١١ ألف طالب فى التعليم الثانوى الزيتونى إلى التعليم الجامعى وهذه عبارة مجلة الشباب التونسية (مارس ١٩٥٩) فى هذا الصدد تحت عنوان « التعليم الزيتونى فى مفترق الطريق » على هذا النحو :

« لقد مضى عهد الاستعمار ، وحاجة الأمة إلى محاربين عن طريق القومية والديانة قد فرغت بخروجه . إذن فما هو الداعى فى بقاء ما كان على ما كان من حشد نصف الشباب التونسى لدراسة نوع من الثقافة هو الدين واللغة ، وزميله فى كل من روسيا وأمريكا وغيرها يدرس الذرة والكهرباء ، إن الساعة أزفت للتخصص فى العلوم ، والتفنن فى أسرارها ، ومشاركة الأجنبى الغازى فى نيل سلاحه الذى يحصدنا بشفرته ، ويخلع علينا ثوباً من الذلة والهوان .. »

ولا شك فى أن هذا التحول يعد نقطة هامة ذات دلالة كبيرة على تطور الثقافة المغربية العربية الإسلامية ..

ومما يذكر أن مشكلات المدرسين من ناحية والاصطلاحات العلمية العربية من ناحية أخرى والانحصار فى لغة واحدة هى الفرنسية ، من ناحية ثالثة قد خطت خطواتها إلى الحل فى المغرب والجزائر .

جامع الزيتونة وجامع القرويين

جامع الزيتونة فى «تونس» والقرويين «المغرب» هما منار النهضة والثقافة والوعى والحركة الوطنية فى المغـــرب العــربى كله »

وقد وصف احد مارشـــالات فرنسا جامع القــرويين بقوله « ايها البيت المظلم »

تخرج فى الجامعتين كل الاعلام الذين قادوا حــركات الاصلاح والثورة ، وهما منتدى كل حركات اليقظة حيث كانت تعقد حلقات العلم ، ولطالما نكل الاستعمار برجال القــرويين وطوقهم بالدبابات والجيوش ، ورماهم من تحت ابـــواب المسجد الضخم برصاص الرشاشات والبنادق .

وفى صحن القرويين تعلم البابا « سلفستر الثـــانى » الذى كان اول من حمل لواء ترجمة التراث العربى الاسلامى فبدا بذلك نهضة الغرب ، وقد تاثر بمبادىء الفقه والتشريع الاسلامى ، فحمل الى ايطاليا فكرة تطوير القانون الرومانى وكذلك « باث الانجليزى » الذى نقل من خزائنها عـديدا من المخطوطات الرياضية ، ونقل «رديراف شتسبر» كتاب التلخيص لابن البناء ، وكذلك جيراردافي كريمونا وميخائيل سكوت «كتاب الهيئة ومؤلفات ابن رشد» وليونارد دفيوناتشى « علم الجبر والمقابلة » .

كانت الزيتونة والقرويين من أبرز مراكز الثقافة فى المغرب العربى ، الزيتونة فى (تونس) والقرويين فى فاس (المغرب) . ولا شك فى أن الصفوة الكبرى من أعلام الفكر والحركات الوطنية وحملة الأقلام وكتاب الصحف والدعاة والباحثين قد تعلموا فى أحد هذين المعهدين ، فمتعلمة طرابلس وبرقة كانوا يقصدون الزيتونة ، وكذلك كان متعلمة الجزائر ، هذا بالإضافة إلى من كان يقصد منهم إلى الشرق وإلى الأزهر بالذات أو المجاورة فى مكة .

وجامع القرويين فى فاس أقدم الجامعات الإسلامية فى المغرب بل فى العالم الإسلامى كله ، فقد تأسس ٢٤٥ هـ ٨٥٩ ميلادية قبل الأزهر بمائة وأربعة عشر عاما ، (تأسس الأزهر عام ٣٥٩ هـ) وقد تولى هذان الجامعان دراسة علوم الإسلام واللغة العربية وما يتصل بها من تفسير وحديث وفقه وعقائد ونحو وصرف ومعان على النحو المعروف فى الأزهر الشريف .

وقد جدد جامع القرويين سنتى ٣٢٢ هـ (٩٣٤) م ، ٥٣١ هـ (١١٣٧) م وظل منذ إنشائه « دار علم وفقه » لم تنقطع الدراسة فيه ، ولم يفقد مكانته حتى بعد أن أصبحت مراكش عاصمة المغرب الأقصى ، ويمكن تقدير مدى أثر هذه الجامعة الإسلامية إذا عرفنا أن جامعة بولونيا بإيطاليا أسست ١١١٩ ، وأن جامعة أكسفورد أسست ١٢٢٩ ، وجامعة السربون بفرنسا بعد ذلك . فهو بذلك أقدم كلية فى العالم كله .

وقد قدم للعالم الإسلامى عديداً من أعلام الثقافة والفكر فى اللغة والعلوم والفقه والأدب والرياضيات والطب منهم أبو عبد الله بن غازى (فقيه) وأبو عمر السلاجى (متكلم) وأبو رشيد السبتى (محدث) والجاحظ أبو العلاء العراقى (الفلكى) المتوفى ٧٢٣ وابن زاكور (الشاعر) وابن البناء المراكشى (الرياضيات) والطبيب أبو القاسم الوزير ، ومحمد بن سليمان الوزانى مخترع كرة الدوائر الفلكية المتوفى ١٠٩٥ وعبد الله اليفرنى الجبونى المتوفى عام ٨٥٦ .

ومما يتميز به أن الطلبة من جميع أنحاء أوربا وردوه وتعلموا به ، وأنه ضم أعلاماً من فرنسا وإيطاليا والأندلس ، ومن أبرزهم البابا سلفستر الثانى أول من أدخل إلى أوربا الأعداد العربية التى لا تزال مستعملة فى المغرب إلى الآن وتعرف بحروف الغبار كما (١) استقبلت جامعة القروين طلاباً من مصر وطرابلس وتونس والجزائر ، ودرست فيها مختلف العلوم ، ويرجع المؤرخون سر حفظ القرويين من الضياع فى الطب والفلك والتشريع حتى الموسيقى ، وبقائها عدة قرون تؤدى رسالتها التى لم تتخلف عنها ولم تتوقف قط ، كما حدث للأزهر مثلاً — يرجعونه إلى عدم احتلال العثمانيين للمغرب ، فالمغرب هو القطر العربى الوحيد الذى لم تتمكن تركيا من احتلاله .

---

(١) عبد الله كنون — ماضى القرويين وحاضرها « الرسالة » ٤ يوليه سنة ١٩٣٨م.

وقد تجددت جامعة « القرويين » عام ١٢٣٢ هـ عام ١٨١٦ م وذلك بتأسيس مجلس للنظر فى شئونها ووضع برنامج للدراسة فيها ، ويسبق هذا التاريخ نهضة الأزهر والزيتونة .

غير أن مشاركة بعض الشخصيات الغربية على حد تعبير السيد عبد الله كنون (١) فى وضع هذا التنظيم كان عاملاً من عوامل استرابة الناس به ، حتى من كان يحب الإصلاح ويميل إلى التجديد ، وهكذا بقى على ما كان عليه ، وحدث أن السلطة كانت تستخدم بعض الشخصيات البارزة من العلماء فى مختلف المصالح ، والبعض الآخر كان ينتثر عقده بالموت ، فلم يشعر الناس إلا وجامع القرويين يكاد ينعق فيه البوم والغراب لخلوه من أهل الكفاية والخير ، غير أنه لم يلبث أن أعيد تنظيمه وتجديده عام ١٢٥٠ هـ — ١٨٤٠ م

أما الزيتونة فقد قدمت إلى العالم الإسلامى عشرات من أعلام الفكر فى مقدمتهم مؤسس علم الاجتماع « عبد الرحمن بن خلدون (٢) » ، وعبد الحميد بن باديس ، والطاهر بن عاشور ، وسالم أبو حاجب ، ومحمد السنوسى ، ومحمد بيرم ، وعبد العزيز الثعالبى .

كما حملت لواء الدعوة الإصلاحية التى دعا إليها خير الدين ، وشاركت فى جمعية العروة الوثقى التى أسسها جمال الدين الأفغانى .

وعندما بدأ محمد عبده فى إصلاح مناهج الأزهر أخذت الزيتونة بنفس المنهج .

وقد وصف الفاضل بن عاشور نهضة الزيتونة فى الثلاثينات : « سرت فى جامع الزيتونة حركة عظيمة بتأثير النهضة الجديدة ، فشاع فى الطلبة والأساتذة الانتقاد على خلو مناهج التعليم الزيتونى من تلك العلوم ، والتشنيع بالقصور البين فى معارف طلبته ومداركهم ، وامتلأت أعمدة الصحف بهذه الدعوة (٣) » .

وكان من نتيجة ذلك أن بدأت حركة إصلاح التعليم الزيتونى (١٣١٥ — (مايو) عام ١٨٩٨) وتعددت خطوات الإصلاح ، وتوالت مرة بعد أخرى .

---

(١) نفس المراجع .

(٢) انظر الملحق بدراسة ابن خلدون .

(٣) ص ٥٥ الحركة الادبية والفكرية فى تونس ، للفاضل بن عاشور .

وقد واجه المعهدان أزمة ضخمة عندما [بدأ العصر الحديث وبدأ النفوذ الأجنبي يزحف على العالم الإسلامى وعلى المغرب العربى بعد احتلال الجزائر عام ١٨٣٠ .

فمن المعهدين خرجت كل قوى العمل فى ميدان المقاومة الفكرية ، وقد كانت الزيتونة – على حد تعبير أحد الكتاب الفرنسيين (جريدة السعادة ٨ يوليو ١٩٤٦) – تمثل لديهم فى كل وقت من حياتهم القطب الروحى للمسلمين ، إلا أن شعاعه مضى يتجاوز حدود إفريقيتم وينير أرجاء الجزائر وطرابلس الغرب، حيث إن هذين القطرين يوفدان كل سنة أفواجاً من الطلبة...

ولقد ظل جامع الزيتونة خلال حياته الطويلة مرآة لانعكاس الحالة السياسية والاجتماعية فى البلاد .

ولقد كان النفوذ الأجنبى حفياً بأن يهاجم هاتين الجامعتين الإسلاميتين ويقاوم منهجهما محاولاً تغييره ، باعتبارهما مصدر المقاومة الفعلية لنفوذه ، وكذلك فعل بالأزهر . غير أن المصلحين كانوا أيضاً حريصين على تعديل أنظمة هذه الجامعات الإسلامية حتى لا تواجه النقد ، وحتى تستطيع أن تساير التطور وتجرى مع التيار .

وفى مراجعة لتاريخ القرويين يتبين أن الاستعمار عندما فرض الحماية على المغرب كان حفياً بأن يواجه هذا المرفأ العلمى الخطير ، ويحد من طاقته ، وذلك بإلغاء العلوم الهامة ، والاكتفاء بالقشور . فتحولت كلية القرويين إلى شبه مدرسة للإعراب والنحو لاتستغرق فى العام أكثر من شهرين ، ولم تفلح اليقظة المغربية فى مقاومة هذا الجمود ، وتطبيق الإصلاحات التى كانت تجد معارضة شديدة .

ومما أثر فى هذا الصدد قول المارشال الفرنسى ليوطى (شبيه كرومر فى مصر) لأحد أعوانه : « إذا تم لفرنسا القضاء على القرويين فقد ضمنت لنفسها الخلود فى المغرب » ذلك أن طلبة القرويين وخريجيه كانوا هم عنصر المقاومة الهام فى مواجهة الاستعمار ومخاصمة أهدافه ومعارضة أساليبه التغريبية للفكر العربى الإسلامى .

وقد أشار إلى هذا المعنى (عبد الهادى التازى) فى التعريف بجامعة القرويين بعنوان « أحد عشر قرناً فى جامعة القرويين » حين قال : لقد تعرض رجال القرويين منذ أواخر القرن الثامن عشر على الخصوص لحملة هوجاء وجهها ضدهم بعض كتاب الإفرنج ممن وردوا على المغرب فى « بعثات خاصة » ، لقد نعتوهم بأنهم « يعادون كل تطور » ,وطعنوا فى معارفهم وكفاياتهم ، ولعل من يعرف « مركز القرويين »

أيامئذ ، والخطوة التى تنعم بها سواء من لندن رجال السلطة أو الشعب يدرك سر التوجه إلى « هؤلاء» على الخصوص وسر « الرثاء » على مقبرة الفكر بفاس !

ولقد بسطت الحماية نفوذها على المغرب (١٩١٢ م) وكان عليها أن تطمئن إلى ما يجرى داخل القرويين التى تهيمن على « المدنية المحرمة » كما دعاها الجنرال موانيي ، لاسيما وقد أعرب المولى يوسف — قدس الله روحه — عن رغبته فى أن يتطور التعليم إلى حال أفضل . إن الحماية لابد أن يكون لها وجود فى القرويين أيضاً ، وهكذا لأول مرة فى التاريخ تفصل الإدارة عن نظر القاضى ، ويتكون مجلس بحضور المسيو مرسيه والقبطان ميلى (١٧ مايو ١٩١٤ — ٢١ جمادى الثانية ١٣٣٢) ينص على أن أطوار التعليم بالقرويين ثلاثة : (الابتدائى والثانوى والنهائى) وهذا يشتمل على قسمين للتخصص الدينى والأدبى .

وأشار عبد الهادى التازى أن تقدم القرويين كان بالفعل أمراً متعذراً بل وغير مرغوب فيه ، فإن صرخة الاحتجاج ضد السياسة البربرية قد نفذت من زوايا هذه الجامعة ، وبذلك تعرض « علماء الشباب » للحرمان من اعتلاء الكراسى العلمية ١٩٣٢.

كما أن حركة المطالبة بالاستقلال ١٩٤٤ كان الدور الأكبر فيها للقرويين ، فزج بأبرز المتسببين إليه فى غياهب السجون .

وكان مشروع الجنرال جوان ١٩٥١ لإصلاح القرويين للانتقام من رجال هذا لمعهد لمناهضتهم للاستعمار .

ولم يستطع جامع « القرويين » أن يشق طريقة إلى الإصلاح والنهوض إلا عام ١٩٥٧ ، ولكن ذلك لايمنع أن يمتزج تاريخه ، خلال اليقظة الحديثة ، بتاريخ البطولة والكفاح والنضال من أجل الحرية ، كما امتزج تاريخ الأزهر فى مصر ومن أبرز خريجى القرويين علال الفاسى ، وعبد الله كنون ، ومحمد الفاسى ، وعبد الهادى التازى .

وفى مجال الزيتونة جرت إصلاحات كثيرة من أجل دفع هذه الجامعة الإسلامية إلى الأمام ، وأنشئت المدرسة الصادقية عام ١٢٩١ هـ — ١٨٧٤ م لتواجه نفس الحاجة التى قصد بها إلى إنشاء دار العلوم فى مصر ، وكان العاملون فى تلك المدرسة والمتعلمون فيها من الزيتونة أصلاً ، مع إضافة العلوم الحديثة واللغات الأجنبية .

كما جرى تعديل التعليم الزيتونى وإعادة تخطيط مناهجه فى ظل النهضة التى حمل

لواءها خير الدين التونسى قبل الاحتلال الفرنسى لتونس عام ١٨٨١ وتجددت محاولات الإصلاح .

وكانت الزيتونة – كالأزهر والقرويين – مصدر الحركات الوطنية كلها ، ولها الدور الأوفى فى عمليات المقاومة ، وأبرزها حركة التجنيس التى حاولها الاستعمار الفرنسى ، فقد كان للزيتونة ورجالها دور كبير فى مقاومتها .

وفى خلال مشرق النهضة ، كان أعلام الفكر فى دراسات الأدب وكتابات الصحافة من الزيتونة .

وكان للزيتونة أثرها فى الفكر العربى فى الجزائر ، وكل أعلام الجزائر تعلموا بها .

وفى الشرق جاء سفير للوطنية والعلم من تونس بهر الناس خلال خمسة عشر عاماً طوف فيها بالعالم الإسلامى كله ، وأقام بالعراق فترة ، وكان مركزه الأول القاهرة هو « عبد العزيز الثعالبى » أبرز خريجى الزيتونة .

وقد واجه الإصلاح الزيتونى هجوماً من بعض الزيتونيين أنفسهم على أثر الخطوات التى اتخذت عام ١٩٥٤ بظهور مشروع التعليم الزيتونى ووسائل إصلاحه .

فقد كتب عبد الله شريط أحد خريجى الزيتونة الذى يرى أن كل الإصلاح الذى جرت(١) المحاولات من أجل تنفيذه إنما كان منصباً على تنظيم أوقات التدريس وإدخال نظام الكتبة والمقيمين وتسجيل أسماء الطلاب ، أما المواد الدراسية والكتب المقررة وأسلوب التدريس ومبادئه فلم يتغير إلا قليلاً ، وإن التعليم الزيتونى فى جوهره ومواده لا يختلف كثيراً عما كان قبلاً . وقال : « إننا لا نتعلم فى الزيتونة إلا الخلاف والمعارك بين الشراح والمحشين (أصحاب الحواشى) من أجل حرف جر أو شرح الفروق الهائلة بين الماء الطاهر والماء الطهور » .

وهو من المؤمنين بأن علوم الزيتونة الرئيسية قادرة – لا على تهيئة جيل ينسجم مع الحياة ولا يتناقض معها فحسب – بل على أن تنشئ كذلك مجتمعاً ثقافياً يصلح أخطاء هذه الحياة ويقضى على نقائضها . والعائق فى نظره هو طريقة التدريس .

ويمكن القول بأن جامعى الزيتونة والقرويين كانا من العوامل الهامة فى مجال الثقافة والفكر واليقظة الوطنية فى المغرب كله ، ففيهما تخرج أعلام ليبيا والجزائر بالإضافة

---

(١) عبد الله شريط مجلة الندوة التونسية ١٩٥٣ .

إلى أعلام تونس والمغرب ، ومنهم خرجت ألوية المقاومة لكل أعمال فرنسا ومحاولاتها في التجنيس والظهير البربرى والإدماج والإبادة ..

وكان لهما دورهما الواضح فى الحفاظ على اللغة العربية فى تونس والمغرب ، ولعل خلو الجزائر من جامع قديم قوى الجذور عامل هام حال دون مقاومة عوامل السيطرة الثقافية والفكرية فيها .

من أعـــلام النهضـــة التربوية

إبراهيم بيوض

من زعماء النهضة التربوية والإصلاحية فى جنوب الجزائر فى منطقة ميزاب . سبقه على الطريق فى هذه المنطقة عبد العزيز التميني . والحاج محمد بن يوسف أطفيش ، وإبراهيم الأبريكى . والحاج عمر بن يحيى وهو من خلفاء الرعيل الأول من المصلحين والسلفيين ، ومفاهيمه تقوم على أساس العودة بالإسلام إلى منابعه الأولى ونشر اللغة العربية وحمايتها ، وله حلقات فى تفسير القرآن الكريم ينحو فيها نحو الشيخ محمد عبده ، حيث يعرض المجتمع على القرآن . وهو خطيب بارع يتحدث ساعات طويلة .

وقد قام بدوره السياسى إلى جانب دوره التربوى فى حماية الجنوب من الانفصال ، وقاوم مؤامرة الاستعمار الفرنسى فى فصل الصحراء .

وأبرز أعماله إنشاء معهد الحياة عام ١٩٢٥ م الذى مازال قائماً والذى خرج عدداً كبيراً من العلماء والأساتذة . وقد لعب خريجو معهد الحياة أكبر الأدوار فى الثورة الجزائرية .

ولهذه النهضة صحافة كان الشيخ أبو اليقظان إبراهيم رائدها حيث أصدر صحف : الميزاب ، ووادى ميزاب ، والمغرب ، والنور ، والأمة ، والبستان ، والنبراس ، والفرقان .

وقد اشترك الشيخان بيوض وأبو اليقظان فى جمعية العلماء ، وكانت حركة النهضة فى الجنوب استكمالاً لها ، وامتداداً فى مقاومة الحملة على اللغة العربية والإسلام ومناهضة مؤامرات التغريب والفرنسة والإذابة والإدماج .

وكان الشيخ بيوض من دعاة المزج بين العروبة والإسلام ، وارتباط المغرب بالمشرق ، وإعزاز الإسلام واللغة العربية والجزائر .

وقد كان لهذه النهضة أثرها فى الحفاظ على اللغة العربية فى الجنوب حيث ظلت أكثر انتشاراً ، وبفضل هذه الجهود عجز الاستعمار الفرنسى أن يثبت الفرنسية ، وبفضلها أيضاً استبقى أهل الجنوب المساجد والأوقاف .

وقد اعتبرت هذه الحركة المسجد مدرسة ومعهداً ودار قضاء ، وما يزال الميزابيون من أبرز الجزائريين والمغاربة فى شئون التجارة من حدود تونس إلى حدود المغرب الأقصى ، يتكلمون اللغة العربية بفصاحة وطلاقة .

ومن أبرز كتابهم وعلمائهم : الشيخ عدون ، وعبد الرحمن بن عمر ، وسليمان بن الحاج داود ، والشاعر مفدى زكريا ، ومحمد على دبوز مؤلف موسوعة تاريخ المغرب الكبير .

ثانيا – الثقـــافة

١ – مقاومة الفرنسة الفكرية

قاوم المغرب العربى مؤامرات التغريب التى وجهت إليه . ما استعلن منها وما اختفى ، قاوم التجنيس ، والظهير البربرى ، والإدماج ، والإذابة ، والتمسيح ، ووضع نصب عينيه هدفين كبيرين ، دافع عنهما ، هما ؛ اللغة العربية والإسلام ، ولكن فرنسا بالأخص (واللاتينية بصفة عامة) التى ظلت تحكم المغرب العربى وتسيطر عليه بنفوذها من قبل احتلال الجزائر ١٨٣٠ إلى استقلال تونس والمغرب والجزائر ١٩٦٠ ، كانت تفرض طوال هذا الوقت حكامها وقادتها ومفكريها ونزعتها فى الحكم والإدارة ، وأسلوبها فى التعليم والتربية ولغتها الفرنسية ومناهجها الفكرية فى الصحافة والأدب . وعلى الجملة فإن فرنسا استطاعت من وراء كل مقاومة مغربية أن تترك طابع « الفرنسة » فى الثقافة والفكر .

فى حربها للغة العربية أتاحت الفرصة للغة الفرنسية أن تتسع وتستطيل ، حتى إن مجاهداً كالثعالبى لا يجد ابنه يكتب إليه وهو مغترب عن وطنه إلا باللغة الفرنسية ، وحتى لا يجد كتاب الجزائر أمثال : محمد ديب وكاتب ياسين . ومولود معمرى وآسيا جبار ومالك حداد وغيرهم سبيلا للتعبير عن رأيهم إلا بالفرنسية . وكذلك فعل فيلسوف الجزائر « مالك بن نبى » فى أغلب مؤلفاته ، قبل أن يكتب بالعربية .

ووجد الفكر الفرنسى واللغة الفرنسية دعاة لهما ومؤيدين. حتى إن كاتباً كبيراً يصدر مجلة أدبية مرموقة فى أحد أقطار المغرب العربى يدعو إلى أن تكون اللغة الفرنسية هى اللغة الأولى فى بلده . لغة الثقافة والكتابة ، وقبل اللغة العربية !!

ولقد حشد الفرنسيون لخلق هذا الطابع الفرنسى فى الفكر العربى جهداً ضخماً قوامه : مؤلفون ومؤرخون وباحثون ، زيفوا تاريخ المغرب ، واستأثروا بالكتابة عنه حتى لم يكن يجد الباحث العربى غير المراجع الفرنسية حين يريد أن يكتب عن

المغرب ، وقد حدث هذا فعلاً للدكتور صلاح العقاد ، وسجله فى كتابه « تاريخ المغرب العربى » . وحتى يذكر مسيو برنار (١) (١٩٠٨) فى تقرير له بالحرف الواحد : «إنه لمن الأهمية بمكان أن نثبت فى أذهان الأهالى فكرة رفيعة ونقية عن وطننا (أى فرنسا) وذلك بتلقينا تلاميذنا دروساً عن عظمة فرنسا وجيشها وثروتها تتناسب وأعمارهم . وفى مجال التاريخ العصرى ستتحدث عن عمليات التزييف التى فرضتها فرنسا ، وكما وجدت هذه المؤامرة من أيدها وحمل لواءها من زعماء ومفكرين بارزين فى المغرب العربى ، فقد وجدت دعاة صادقى الإيمان بالعروبة والإسلام والمغرب قاوموها وكشفوا خدعتها .

ويقول عبد الجبار الجومرد (الكاتب العراقى) إن للفرنسيين أسلوباً خاصاً فى تسجيل تاريخهم الاستعمارى يفرغونه فى قالب إنسانى ، وينسجون عليه من أخيلتهم غطاء جميلاً من المثالية السامية ، ومن حب لتمدين الشعوب وتحريرها ، حاسبين أن ذلك ينطلى على الناس ، وهم يعلمون أولاً بأنهم لا يزالون يحملون حتى الآن عقلية استعمارية أقل ما يقال عنها : أنها قديمة لم تتطور مع الحوادث وكثير من هؤلاء الكتاب المغاربة أمثال : علال الفاسى ، وعبد الله كنون ، ومحمد على دبور ، وأبو القاسم كرو وعبد الكريم غلاب ممن واجهوا مؤامرة « الفرنســة » الفكرية وكشفوا الآراء المسمومة ، وكشفوا عن الكتاب الفرنسيين الذين يحملون هذه الآراء ، وكيف أنهم فى الأغلب من التابعين لأجهزة الاســتعمار ، ومن العــاملين فى وزارة المستعمرات .

ولقد كان من دعوى «الفرنسة» الفكرية الادعاء بأن الفرنسى رسول إنسانى ليكون أستاذاً يثقف الناس ، وأن هذه الرسالة لا يمكن تحقيقها إلا بنشر لغته وحضارته وثقافته وتاريخه بين سكان البلاد التى استعمرها مع القضاء على لغتهم وثقافتهم .

هذا بالإضافة إلى نظرته الدائمة بعين الازدراء إلى القيم والتراث والشمائل العربية الإسلامية المغربية .

ويتم توجيه هذا التيار عن طريق الصحافة والمدرسة ؛ فالمدارس الفرنسية فى المغرب كانت تحاول الإيحاء لخريجيها بهذا المعنى ؛ التمجيد لفرنسا وتاريخها وثقافتها ، والازدراء للعربية والإسلام والمغرب .

---

(١) مجلة البصائر ١٩٥٣

يقول سكوتورى — وهو يبحث أثر الثقافة الفرنسية فى أفريقيا — وقد وصل الاستعمار بهذه الطريقة إلى التأثير على المثقفين الأفريقيين الذين يذهب بعضهم إلى حد الاعتقاد بأن الوسيلة الوحيدة للحصول على العلوم الحديثة يتمثل فى التنكر للقيم الخلقية والفكرية ، ومن هنا ظهرت كتابات بعض الكتاب العرب المغاربة فى بعض الصحف الفرنسية كمجلة (فرانس أبسير فاتور) ترمى اللغة العربية بالعقم وتعتبرها لغة ميتة ، ويفضل أن تبقى اللغة الفرنسية منتشرة ، وفى مجال (١) القومية حاولت الفرنسة الفكرية أن تتهم المغاربة بأنهم ليسوا أمة كاملة ، وإنما هم خليط من الشعوب ، وأن للاستعمار فضل تهذيبهم وتوحيدهم .

ويقول عبد اللطيف خالص : إن للغزو الفكرى الاستعمارى أثراً على كثير من شبابنا الذى أصبح بعضه يؤمن بأن المغرب لم يتوفر فى حياته على قيم شخصية ومثل ذاتية وعقلية ، وأن كل ما يكون شخصيتنا هو ما أتى به الإسلام إلينا ، وما حمله العرب ورجال الأندلس لما لجئوا إلى أوربا .

وذهب الغلو ببعض المثقفين المقلدين للغرب إلى المطالبة بمحو عقليتنا ونبذ الشخصية التى تتحلى بها ، وإنها فى اعتقادهم شخصية أجنبية عنا ، وإنما أخذناها عن العرب وبعض المهاجرين الأندلسيين »

★ ★ ★

ولقد كانت الحركة الفكرية فى المغرب كله تقوم على إيمان صادق بالمقومات العربية الإسلامية والوطنية الجريئة المقاومة لفرنسا وللغرب وللنفوذ الغربى المسيطر ، مع الارتباط بالمشرق العربى وبالعالم الإسلامى ، وبدعوة جمال الدين ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبى . وفى ظلها ظهر الثعالبى وعلال الفاسى وابن باديس ومالك بن بنى .

غير أن التيار الغربى القائم على «الفرنسة» الفكرية قد زحف وسيطر وأخذ مكانه كتيار أشد قوة ومؤيد بالنفوذ الفرنسى . وهو تيار له طابع فرنسى فى اللغة والثقافة يتجه إلى الغرب ويفضل الثقافة الفرنسية ، ويركز على الإقليمية الفينيقية .

وقال هؤلاء إنهم مغاربة ، ولكنهم فرنسيو الفكر غربيو الثقافة ، وكان جهدهم محاولة تخفيف روح الخصومة للفرنسيين وثقافتهم ، وقبول ما تتنازل عنه فرنسا ،

---

(١) عثمان سعدى « مجلة الآداب ١٩٥٣ م »

والمطالبة بالإصلاح ، مع الإيمان بأن احتلال فرنسا كان ضرورياً ولا غنى عنه ، لضعف البلاد عن حماية نفسها .

وقد أدار هذا التيار ظهره للإسلام واللغة العربية والمشرق العربى ، وحاول المقارنة بين مرحلة تعرب المغرب وإسلامه وبين الاستعمار اللاتينى الجرمانى ، والموازنة بين ارتباط المغرب العربى بفرنسا وأوربا ، وارتباطه بالمشرق العربى والمسلمين . وتأكيد القول بأن العقول فى المغرب لم تتفتح إلا بفضل اللغة والثقافة الفرنسية ، لذلك فلا ضير على المغرب ألا يحمل حقداً لفرنسا وأن يصادقها ، وكان انحباس المغرب مع فرنسا قد أغلق الأبواب دون التطلع إلى الثقافات الأخرى .

حمل هذه الدعوة مثقفون ودعاة وزعماء وسياسيون ، لهم نفوذ ، وبذلك برز الوجه الغربى ، واختفى الوجه الإسلامى العربى إلى حين ...

ولكن كتاب المغرب ومفكريه الأبرار ، عرفوا ما يهدف إليه هذا التيار على إطلاقه ، وهو إذابة الشخصية المغربية العربية الإسلامية فى الفرنسة الثقافية ...

وقالوا : إننا نريد أن نتعلم ثقافتنا لا ثقافة الآخرين ، وإننا لا نعتبر أنفسنا أحراراً إذا حررنا فكرنا من نفوذ اللغة والثقافة اللاتينية

* * *

ووقف عبد الله كنون يرد على دعوى النفوذ الفكرى الفرنسى الذى ينكر ماضى المغرب الثقافى بكتاب ضخم هو « النبوغ المغربى » الذى صادرته السلطات الفرنسية عام ١٩٣٨ ، واعتبرته مقاومة لدعوى الفرنسة الفكرية ، ودافعت عنه جريدة الوحدة (١) المغربية وكتب محمد المكى الناصرى يقول : « إنه كتاب أدب يعتز بالإسلام والعربية ، ولكن فرنسا — حبيبة الإسلام وصديقة العرب ومربية الشرق كما تقول ويقول دعاتها المناحيس — ضاق صدرها وانكشف سرها وافتضح أمرها ، وأصبحت لاتطيق أن ترى للمغاربة وجوداً حتى فى صفحات التاريخ ، وفى زوايا الماضى البعيد ، وسياستها اليوم تعمل ما فى المستطاع ، لقطع صلة المغاربة بماضيهم نهائياً حتى لايعرف المغربى المستعبد البائس أن له أجداداً أعزاء ، علماء ، وحتى يؤمن إيماناً جازماً بضيعته وحقارته ، ويثق بأنه حكم عليه للمرة الأخيرة بالفناء والاندثار . وما دامت فرنسا ترمى إلى هذا الغرض فلن يسعها مطلقاً أن تسمح برواج كتاب « النبوغ المغربى » لأن معنى ذلك فى منطق

---

(١) ١٢ غشت « اغسطس ١٩٣٨

السياسة الفرنسية أن المغرب الأقصى سيواصل سيره الروحي والفكرى ضمن دائرة العروبة والإسلام ، تلك العملية التي تركت الفرنسيين سكارى حيارى ، وهذا يعرقل عملية التجنس والإدماج والتفرنس .

يافرنسا : منعت كتاباً وضيعت على المغاربة لذة مطالعته ، كما ضيعت على المؤلف ثمرة جهاده الفكرى ، وألحقت به خسارة مادية ، ولكنك أقمت الحجة للعالم الإسلامى أجمع مرة أخرى على أنك أعلنت حرباً صليبية شعواء ضد العروبة والإسلام » .

★ ★ ★

ويحرص علال الفاسى أن يكشف الحقائق فى مجال الفرنسة الفكرية ويرد الفكر المغربى العربى الإسلامى إلى حقيقة مفاهيمه يقول : تكلموا لغتكم ، فكروا بلغتكم ، لا لغتكم القومية فحسب ، ولكن لغة الإسلام ولغة القرآن ، لا تخدعوا للذين يدعونكم باسم التقدمية لاستعمال كلمات ليست فى معجمكم ، تعلموا تعبيرات القرآن وتقاليد اللغة التى بها تدركون ، لا تجعلوا للكلمة العربية الإسلامية مدلولاً خارجاً عما تريدون أنتم ، وعما هو لها بالوضع ، لا تفهموا كلمة (الدين) المسلمة العربية على معنى كلمة (religion) الفرنسية المسيحية ، إن هناك تناقضاً فى الدلالة ، ولا تفهموا كلمة (الزكاة) على أنها معنى كلمة (charité) فالثانية اختيارية والأولى تعنى إشراك الفقير فى مال الغنى بصفة إجبارية ، إن حرب الكلمات هى أول حرب النظريات ، إننا عرب مسـلمون فيجب ألا نخرج فى كتاباتنا وأعمالنا عن المعجم الذى يتفق مع ديننا وعقيدتنا » .

★ ★ ★

وفى مجال الاقتباس من الفكر الفرنسي محل للبحث ، ففى تونس يرى محجوب ابن ميلاد « لست ممن يقولون بضرورة تقليد الغرب فى كل ما يذهب إليه ، وكل ما يصطنعه من عادات وتقاليد وأزياء ، لإيمانى بأن البعث الشرق ليس يقع عن طريق التقليد وسفه التقليد .

ولئن دعا بعض الأدباء الإسلاميين من أدباء الجيلين الماضيين إلى مثل ذلك التقليد فلهم عذرهم، لانبهارهم بالحضارة الغربية ، ولعدم نفاذهم إلى أغوارها وعدم يقظتهم لما ينخر فى الهيكل الغربى من جراثيم هدّامة جعلته يشكو أزمة معنوية لا مثيل لها .

وليس معنى هذا أن نوصد أبواب نفوسنا دون تفكير الأعلام من المفكرين الغربيين ،

مهما تكن جنسيتهم ، مثلما أنهم لم يوصلوا أبواب نفوسهم فى عصورهم الخوالى دون أروع ثمار الفلسفة اليونانية والفارسية والهندية .

وتونس الجديدة أحرص ما تكون على أن تخلص لماضيها وما بقى راسباً فى قرار نفسها من روائع رواسب الماضى ، ولكن مع الإخلاص لواقعها الحاضر ، والأخص خصائص العصر الحاضر ، أعنى لحصرها الجوهرى على أن توفر لنفسها فى العالم العصرى عوامل العزة والقوة ، وأسباب الحياة .

وقال : إنه ليس هناك منافاة أو تضاد بين قيم الغرب وقيم الشرق عندما نحسن تصفية حسابيهما ، وقال : إنه لا بد من الجمع بين القيم الشرقية والقيم الغربية وصهرها فى بوتقة واحدة ، هى بوتقة العقلية التونسية الجديدة .. »

★ ★ ★

ورأى محجوب (١) بن ميلاد يمثل مدرسة قائمة فعلاً فى المغرب العربى كله ، هذه المدرسة التى لاترى بأساً من مزج الثقافتين دون أن تحسب حساباً للشخصية المغربية العربية الإسلامية كأساس قائم فعلاً ، وله ملامحه وطابعه وقيمه وتاريخه .

★ ★ ★

فإذا جرى البحث عن العلاقة بين الثقافة التونسية (المغربية) والثقافة الفرنسية قال محمود المسعدى (٢) :

هذا الارتباط بين الثقافة بتونس وبين الثقافة الفرنسية ، هو أشبه شىء بالصلة بين الغل والمغلول به بوجه من الوجوه ، وبين الظمآن والماء الذى نشربه ، ما أظن أن غلا يصح أن يعد عنصراً من عناصر ثقافة المغلول به » .

★ ★ ★

وقد حاولت فرنسا فى مجال فرنسة الفكر العربى الإسلامى المغربى محاولة أخرى حين حشرت عشرات الأبحاث عن الفكر الفرنسى فى مصر والمشرق ، وما أسمته الروح الفرنسية وتأثيرها فى الشرق العربى الحديث ، وظهر ذلك فى ترديد اسم الدكتور طه حسين وعلى عبد الرازق ومحمود عزمى وغيرهم من دعاة الثقافة الفرنسية والتغريب .

---

(١) انظر الملحق عن شخصية محجوب بن ميلاد وآرائه

(٢) انظر الملحق عن شخصية محمود المسعدى وآرائه .

ومن ذلك قول دعاة الفرنسة فى المغرب : « أيها المساكين : إن نظركم متجه نحو الشرق بينما أنظار الشرق متجهة نحو باريس ، وإن الشعوب الشرقية تحتذى مثال فرنسا . وإن ما أسموه العبقرية الفرنسية تؤثر فى الشرق تأثيراً قوياً يرجع مفعوله بعد ذلك إلى الجزائر ، فأدباء المسلمين بأفريقيا الشمالية لم يعرفوا روسو أو هوجو إلا بواسطة الصحف المصرية والترجمات الشامية والمصرية ، وإن هناك تماثلاً بين باسكال والغزالى وابن خلدون .

وإن حملة بونابرت على مصر أخرجت العالم الإسلامى من حياة القرون الوسطى وأدخلته فى نطاق الحياة العصرية » وليس هذا كله قولاً صحيحاً وهو قابل للنقض .

وإن رأت فرنسا أن هذا كله إذا قاله مغاربة كان أشد وقعاً فى النفس المغربية .

★ ★ ★

وقد واجه الفكر المغربى العربى الإسلامى كل هذه القضايا ، وكشف عن زيف هدفها ، وحذر من ألا يقف الأمر عند الكلام بلغة المستعمر ، بل أن يصل الأمر لأن يفكر المغاربة الذين يتكلمون الفرنسية بتفكير فرنسا ، ويستعملون منطقه وأسلوبه ، وذلك لأن الفكر واللغة شيء واحد ، كما يقول (موكس مولار) ، الذى يشبههما بقطعة النقد ، والذى يقول : إن ما نسميه بالفكر ليس إلا وجهاً من وجهى النقد ، والآخر هو الصوت المسموع ولطالما أعلن الفكر المغربى الإسلامى الفوارق الواضحة والحدود الأساسية :

« نحن – العرب المسلمين المغاربة – غير الأوربيين والأمريكيين والنصارى واليهود ،

إن مكاننا الذى نحن منه وإليه يفرض علينا اتجاهات وروابط لا يمكن أن تمحوها أفكار الشرق والغرب ، ولا أن تفصم عراها روابط الفكر المنتحل والاستغراب المصطنع (١) » .

وفى مجال المقاومة الوطنية السياسية قاوم المغرب العربى أضخم مؤامرة ، هذه المؤامرة التى كانت إبادة وتمسيحاً وفرنسة وإدماجاً وتغريباً .

★ ★ ★

وفى طرابلس وبرقة اتبعت إيطاليا سياسة الإبادة . وفى تونس والجزائر ومراكش وليبيا اتخذت فرنسا وإيطاليا سياسة « الاستيطان » التى ترمى إلى غزو الأرض وإسكان

---

(١) علال الفاسى . مجلة البينة « العدد الأول »

العنصر الأوربى فيها ، وتهجير ألوف من الفرنسيين واليهود والأجانب إلى الأقطار الأربعة، وإحلالهم محل الوطنيين الذين يطردون من أراضيهم الساحلية إلى قلب الصحراء . وتهدف هذه السياسة إلى خلق قوى عددية وجنسيات أخرى داخل الوطن المغربى والقضاء على القومية .

وقد بدأت معركة المقاومة فى ثلاثة أعمال ضخمة هى :

التجنيس فى تونس .

الظهير البربرى فى المغرب (مراكش)

الإدماج فى الجزائر .

ولا شك أنها حققت نتائج واضحة فى استقطاب هذا التيار وكشفت أمام العيون امرته ونبهت إلى أخطاره .

* * *

حركة التغريب

واجه « المغرب العربى » معركة ضخمة من معارك التغريب ، كان أبرزها منصباً على المقومين الأساسيين للأمة المغربية العربية ، وهما : الإسلام واللغة العربية .

واجهت الأقطار الأربعة حركات التبشير حين سمحت لفرنسا بإنشاء مؤسسات ومستشفيات ومعاهد ودور ، وبرز اسم « الآباء البيض » فى تونس التى ركز الاستعمار الفرنسى عليها بصفة خاصة بعد فشل مشروعيه فى الفرنسة والتجنيس .

وكان آية ذلك عقد المؤتمر « الافخارستى » فى تونس (مايو ١٩٣٠) فى نفس الوقت الذى كان الظهير البربرى يعلن فى (مراكش) ، وكان ذلك احتفالاً بمرور ٥٠ عاماً على احتلال تونس ، ومائة عام على احتلال الجزائر .

عقد المؤتمر الذى يسميه كتاب المغرب « الصليبى » فى قرطاجنة ، ودام ثلاثة أيام ، وضم ممثلين عن البابا والكنائس الكاثوليكية فى فرنسا وإيطاليا وألمانيا وإسبانيا ، والكنائس الكاثوليكية فى أفريقيا أيضاً ، وبلغ عدد المشتركين فيه ٥٠٠ قسيس ، وأعلن أسقف قرطاجنة أن المؤتمر حملة صليبية تاسعة على تونس ، وأنه استمرار للعهد الذى قطعه لويس التاسع للعمل والجهاد من أجل إعادة أفريقيا إلى المسيحية ، وكان لويس قد قاد الحملة الصليبية الثامنة ٦٦٩ هـ ١٢٧٠ م ولقى حتفه فيها .

بدأ المؤتمر بجماعات كثيفة من الرهبان يتجولون فى الشوارع ، تعقبهم صفوف متراصة من فرق كشافة « الصليب » ذكوراً وإناثاً ، وهى ترتدى ملابس جنود الحروب الصليبية وهم ينشدون الأناشيد الكنائسية ، ويترنمون بالدعاء لإدخال البلاد فى حظيرة النصرانية .

وتحدث الرهبان الإيطاليون إلى المسلمين بأن المسلمين فى المغرب يرجعون إلى أرومة يونانية ، وأن فى سحنة وجوههم دليلاً قاطعاً ، وأن العرب لم يغيروا غير اللباس والمعتقد ، ودعوهم إلى إعتناق مجد روما من جديد ، وقد واجه التونسيون المؤتمر بشىء كبير من الازدراء والمقاومة ، والأضراب والمظاهرات الصاخبة والاحتجاجات العنيفة ، وفشل المؤتمر فشلاً ذريعاً .

* * *

وكان الكردينال لافيجرى قد وضع الخطط فى (١) (مراكش) لتنصير العرب فى المغرب قبل أن يحتل الفرنسيون جميع أراضيه، معلناً أن تمسك العرب الأفارقة بالإسلام، سوف يعوق الاحتلال الفرنسى، ويمنع استمرار السيطرة الفرنسية.

ولافيجرى مبشر فرنسى (١٨٢٥ - ١٨٩٢) كانت تماثيله تملأ ساحات المدن العربية فى أقطار المغرب العربى، وخاصة الجزائر، وظل تمثاله يتحدى بصليبه شعور الملايين من أبناء المغرب زمناً طويلاً وكان الكردينال لافيجرى (٢) يحارب الإسلام تحت ستار محاربة الاسترقاق، وقد اشتهرت خطبته التى ألقاها فى يوليو ١٨٨٨ فى كنيسة سان سوليبس بباريس وأحدثت ضجة عظيمة، قام على أثرها أحمد شفيق باشا بتأليف كتاب (الرق فى الإسلام) بالفرنسية وترجمه إلى العربية أحمد زكى باشا.

ولم يقف عمل لافيجرى عند مراكش بل امتد إلى تونس والجزائر، وأقامت له السلطة الفرنسية فى تونس تمثالاً فى ساحة إسلامية وبيده الشعار الدينى المسيحى «الصليب» وهو أطول من التمثال تحدياً.

وقد نصب هذا التمثال فى ٢٨ نوفمبر ١٩٢٥، ولم يسكت أهالى تونس إزاء هذا العمل بل قاموا بمظاهرات ضخمة .. معلنين سخطهم واحتجاجهم.

وفى قرطاجنة أقامت فرنسا تمثالاً لسان لوى (القديس لويس) قائد الحملة الصليبية الثامنة إلى تونس...

ومنذ عقد المؤتمر «الأفخارستى» انطلق جيش من المبشرين فى تونس والجزائر والمغرب، ومن بينهم ليوتى وشارل دوفوكو اللذان تتلمذا فى جامعة القرويين وادعيا الإسلام، وتوسع المبشرون فى مناطق جبال الأطلس وسط البربر.

* * *

وقد أكد عثمان الكعاك (تونس) فى هذه المؤامرة (١) التنصرية، أن الفرنسيين استعملوا جميع العلوم الإبادية لإبادة الجزائر وقال: «إن محنة الجزائر أشد المحن، الحرب لم تنقطع (١٨٣٠-١٩٥٦) إن الحرب لم تكن حرباً فى الأجسام بل كانت حرباً فى العقيدة قام بها «لافيجرى» وشيعة الآباء البيض وغير البيض حرباً على الثقافة الإسلامية

---

(١) ابو القاسم كرو: كتاب «ماى شهر الدماء والدموع»
(٢) مجلة المنهاج مجلد ١٣٤٤ هـ
(١) مجلة الندوة مجلد ١٩٥٦ م

العربية ، قامت بها جامعة الجزائر وإدارة التعليم وصليبية (هانوتو) ضد اللغة العربية لفائدة اللهجات البربرية ، وحرباً فى انتزاع الأرض ، وحرباً ضد المعالم الإسلامية ، فقد حولت مئات الجوامع إلى كنائس ، ومصليات يهود ، وحرباً حتى ضد أسماء المدن الجزائرية التى حولت إلى أسماء قواد وأدباء من الفرنسيين ، وحرباً ضد الجنسية الجزائرية ؛ فقد أصدرت فرنسا أمرها بأن جميع الجزائريين فرنسيون ، وحرباً ضد الجنس الجزائرى بغية إبادته وتسليط فريق ضد فريق ، والادعاء بأنه لا يوجد جزائريون ولا أمة جزائرية ولا وطنية جزائرية ، وحرباً ضد تاريخ الجزائر ؛ فقد ادعت المدرسة التاريخية الجزائرية أنه لا يوجد تاريخ جزائرى ولا حضارة جزائرية فضلاً عن شعب وأمة جزائرية ، وحرباً على التراب الإقليمى الجزائرى ؛ فقد ادعت أن تراب الجزائر فرنسى بحت مثل تراب نوتردام ... » .

* * *

ويعرض عبد العزيز بنعبد الله (٢) (المغرب) هذه المرحلة فيقول (٣) : غير خفى أن البابا هو الذى كان يحرض الأسبان على غزو التراب المغربى فى أواخر القرون الوسطى ، وقد نزل ١٦ راهباً إلى التراب الجزائرى يوم (١٤ يونيه ١٨٣٠) مع الجيش الفرنسى ، وشاركوا فى المجازر التى أدت إلى الإحتلال .

وقد حولوا جامع كشاوة أعظم مساجد الجزائر إلى كنيسة ، وأرادت الكنيسة فى شخص ممثلها (الكردينال لافيجرى) أن يمثل من الجزائر مهداً لأمة مسيحية كبرى ، ومهداً لفرنسا جديدة ، انتظاراً لذلك اليوم الذى تتسع فيه رقعة الغزو فتمتد إلى تونس والمغرب والسنغال ، وينشر — حسب تعبير الكردينال نفسه — ضياء مدنية يكون الإنجيل مصدرها وقانونها ..

وصرح الملك شارل العاشر (٢ مارس ١٨٣٠) أن فرنسا تريد الوصول من وراء تمدين الأفارقة إلى تمسيحهم .

وكتب الأب بونس كتابه « كنيسة أفريقيا الجديدة : » أنه بعد ما اتصل الغزاة بالشعب الجزائرى وشاهدوا تحمسه للإسلام ، أسلم الكثير منهم متأثرين بتلك الحرارة التى كانت تنبعث من قلوب المؤمنين » .

---

(٢) انظر ملحق الدراسة من عبد العزيز بن عبد الله

(٣) جريدة البصائر

وقال الأب جيرار : عندما جئت الجزائر كنت آمل أن يعتنق المسلمون المسيحية ، ولكن بعد مرور خمسة عشر عاماً تبين أنى واهم ، وشعر جميع الرهبان الذين توافدوا من فرنسا ، وكذلك المدنيون الذين استغربوا أن المسلمين لم يتمسحوا ... ».

* * *

وقد أجاب (ابن باديس) على منطوق هذه الحركة فى عبارته الخالدة « إننا نرى الأمة الجزائرية موجودة ، هذه الأمة الجزائرية ليست هى فرنسا ، ولا تريد أن تصبح هى فرنسا ، ومن المستحيل أن تصبح هى فرنسا ولو حبسوها .. »

* * *

وصور (علال الفاسى) هدف التغريب حين قال : « إن القوة الكبرى التى كانت أشد وطأة علينا من كل قوة ، وأخطر أثراً من كل سلاح ، هى معرفة الاستعمار بأحوالنا ، على إخراجنا من كوننا الخاص ، وإدماجنا فى وجوده العام ..

لوح لنا بالحرية عن طريق الإيمان به وبنظمه وأفكاره ، وخاطبنا بالمعسول من القول ، واحتكر وسائل الحياة فلم يسمح بالقليل منها إلا لمن اتبعه وتكلم لغته وانتحل فكرته ، فأصبحنا نفكر بأفكاره التى أملاها علينا فى المدرسة والمعهد والجامعة والسينما وفى كل مكان ، ونرغب فى أن نصبح على صورته » .

* * *

وسقطت كل هذه المحاولات حين اعترف جون جنتر بعد أن طوف بالمغرب العربى كله ورأى آثار حملات التغريب ومداها على الفكر المغربى العربى الإسلامى : « ظلوا من ذلك الحين – المحتلون – منهمكين فى صبغه بالصبغة الأوربية ، ولكن الثقافة العربية كانت عميقة الجذور فلم يسهل استئصالها » .

* * *

جـ ـ الثقافة العربية الإسلامية

يمكن القول أن طابع الثقافة العربية فى المغرب العربى يقوم على هذه الأسس :

- الطابع العربى العام .
- المستقبل المغربى الواحد .
- ثقافة عربية فى لغتها وروحها ، وإسلامية فى كنهها ، تقوم على علوم عصرية .
- اللغة الفرنسية هى اللغة الثانية .
- مشاركة الثقافات الأجنبية ، واقتباس ما يلائمها منها مع صبغه بصبغة عربية .
- وجه إلى أوربا ووجه إلى المشرق العربى الإسلامى .

★ ★ ★

وتتميز الثقافة العربية فى المغرب العربى بتقدير الماضى والتاريخ والتراث ، فهى لا تنسى دورها فى تاريخ الحضارة والنهضة قبل الإسلام وبعده ، وأثرها فى الأندلس وأثر ذلك كله فى أوربا ، ودور الزيتونة والقرويين ، ومن قبلها جامع القيروان وما خرجت من أعلام من أمثال : ابن خلدون ، وابن رشيق ، وابن شرف ، وسحنون ، وأسد بن الفرات .

فالطابع الأساسى للثقافة المغربية « العربية الإسلامية » هو عظمة التاريخ ، ورسوخ الحضارة الإسلامية واللغة العربية رسوخاً كان له أكبر الأثر فى مقاومة الزحف الفرنسى : (الحربى والسياسى والفكرى) .

ويمثل هذا الإيمان بالتاريخ أمكن ضمان سلامة الشخصية العربية المغربية وقدرتها على الوقوف أمام الغزو الغربى أمداً طويلاً ، لا أقل من مائة وعشرين عاماً .

ومن خصائص الفكر العربى الإسلامى المغربى الشمول والحرية والقابلية للتجدد والالتقاء مع الثقافات المختلفة . دون الجمود أو التحجر ، وهذا ما يقضى على ادعاءات الثقافات الغربية عن التعارض بين الثقافة الإسلامية والحضارة .

ولذا لم تمتنع الثقافة العربية الإسلامية المغربية من أن تقبل مذاهب الفكر الغربى ، وتلقح به نفسها ، وتجدد به شخصيتها دون أن تنصهر أو تذوب أو تتحلل .

ولعل مرجع هذا إلى طبيعة الصحراء والصلابة المعروفة فى الاحتفاظ بالمقومات ، وتقبل الجديد تقبلا عقلياً منطقياً ، وإلى نظرة الحرص واليقظة الدائبة نحو أهداف النفوذ الأجنبى ، ورغبته فى القضاء على معالم الإسلام والعروبة فى الشخصية المغربية .

ومن هنا قبلت « التعصر » دون أن تفقد ذاتيتها ، ووسعت آفاقها الإنسانية دون أن تتخلى عن نظرتها الأساسية وهدفها حيث لا تتخلى الثقافة العربية فى المغرب عن الإيمان بإحياء التراث الفكرى والتاريخى المغربى ، وتراه دعامة أولى لإنشاء المستقبل . وعندها أن الثقافة العربية الإسلامية الأساسية هى الذاكرة والأساس ، وقاعدة البناء .

ويصور هذا الارتباط التاريخى بماضى المغرب قبل الإسلام وبعده « عثمان الكعاك » فيقول : « نحن بين جاذبية الحضارة التونسية المتولدة من خلاصة حضارات البحر الأبيض البونيقية ، والمغربية ، واليونانية ، واللاتينية ، والبربرية ، وبين جاذبية الحضارة الإسلامية التى ورثت خلاصة المعنويات والماديات الشرقية من صينية وهندية وفارسية ويونانية وزادت عليها ، وتقدمت بها خطاً شاسعة إلى الأمام ، وبين جاذبية الحضارة الغربية بمظاهرها المادية » .

غير أن المغرب لا ينسى أن التقاءه بالإسلام كان هو الحدث الرئيسى فى حياته كلها ، يقول محجوب بن ميلاد : « .. ولكن الحدث التاريخى الذى طبع الشخصية التونسية بطابع لا يبلى على ممر الدهور هو الفتح الإسلامى ، فأصبحت أمة من الأمم العربية لغة وأدباً وفناً ، وإسلامية إحساساً ومعتقداً ومبادئ وقيماً . وبذلك لا تتجزأ تونس من الإنسانية العربية الإسلامية .. »

ويرى محمد (١) زينير (المغرب) أن الثقافة القومية تحتوى على عنصرين : أحدهما يربطنا بالماضى ، والآخر بالحاضر ، فعنصر الماضى يتمثل فى التراث الثقافى الذى يكون بالنسبة إلينا أحد ركائزنا التاريخية الإنسانية ، ولكنه عنصر تبقى له قيمة تاريخية وفكرية مجردة ، ولا يلعب أى دور مباشر فى حياتنا اليومية وفى مشاغل جيلنا .

أما العنصر الحاضر فهو الثقافة الحية ، الثقافة التى ينشئها الجيل ، وتتفاعل مع اهتماماته وآماله ، وتوضح له حقائق العصر والمجتمع .

ويرى عبد الكريم غلاب (المغرب) أن المغرب حافظ على كونه أمة مسلمة ؛ لأن حضارة الإسلام بما فيها العقيدة والخلق والفكر الاجتماعى سيرت تاريخاً وكونت

---

(١) انظر الملحق عن التعريف بالكاتب

وحدة ، وفهم الإسلام فى المغرب كان سليماً لم تتغلب عليه خرافات المضللين والجاهلين بأصول الإسلام .

وفى أقصى المغرب العربى تتردد نفس المفاهيم ، مفاهيم الإيمان بماضى المغرب العلمى الحافل الذى يستحق الدرس المتواصل ، ويرى عبد الرحمن الزيانى (مكناس) أن التجديد لا يكون إلا بالمحافظة على القديم والاعتزاز به ، ومحاولة سد ما به من نقص بإضافة كل رائع وطريف إليه ، وأن كل تجديد يأتى طفرة ولا يعتمد فى تشييده على أنقاض الماضى فإن مصيره إلى الإنهيار السريع ، وأننا لو حاولنا الانسلاخ عن الماضى لم نكن فى دنيا العروبة شيئاً مذكوراً » .

* * *

ويمكن القول إجمالاً بأن كل دعوة من الدعوات الفكرية التى اتقدت شعلتها فى المغرب العربى الكبير كانت مؤمنة بالماضى والتاريخ العربى الإسلامى المتمثل فى اللغة العربية والإسلام وأمجاد الأمة العربية والحضارة الإسلامية .

فحركات السنوسية فى برقة وطرابلس ، وحركة الإصلاح فى تونس التى دعا إليها خير الدين التونسى وقبادو ، وحركة السلفية فى المغرب ، وحركة ابن باديس وجمعية العلماء فى الجزائر ، كلها كانت مؤمنة على هذا النحو . .

التحدى ورد الفعل

يقرر كتاب المغرب العربى وأعلام الفكر فيه أن المغرب تحمل الغزو الأوربى (الفكرى) واستطاع أن يخرج منه بذاتية سالمة . فإلى أى حد استطاع المغرب العربى احتمال هذا الغزو الفكرى ، وإلى أى حد بلغت هذه السلامة ؟

وهناك إجماع على أن المغرب العربى قد « تعصى » على الإذابة والانصهار فى بوتقة الثقافة الغربية ، واستطاع أن يتحمل الغزو الأوربى والسطو الاستعمارى — على حد تعبير محمود المسعدى — « وأن يخرج منه بذاتية سالمة من مسخ التقليد للأجنبى والاصطباغ بمستعار الصبغة من ثقافته وتفكيره ، وسالمة فى آن واحد من التجمد والتحجر ، وعنده أن طور « التعصى » الضرورى الذى مر به الشرق العربى كله بين أواسط القرن التاسع عشر واليوم قد مر على تونس أعسر ما يكون ، وفى أشد الظروف ، وبأعظم الأخطار . . فقد حافظت على ذاتيتها الثقافية العربية الإسلامية مع تقوية الجانب الإنسانى الصميم من تفكرها ونظرتها إلى الوجود .

وأقسى ملامح الصورة تبدو فى الجزائر إذ كانت الحرب فى ميدان العقيدة والثقافة واللغة والجنسية ووجهت ضد تاريخ الجزائر ، والحضارة الجزائرية والأمة الجزائرية ، ولندع (عثمان الكعاك) يرسم لنا هذه الصورة :

« كانت حرباً فى العقيدة قام بها لافيجرى والآباء البيض وغير البيض ، والسورات وغير السورات ، وحرباً على الثقافة الإسلامية العربية قامت بها جامعة الجزائر وإدارة التعليم ، وصليبية هانوتو ضد اللغة العربية لفائدة اللهجة البربرية ، وحرباً فى انتزاع الأرض وحرباً ضد المعالم الإسلامية ؛ فقد حولت مئات الجوامع إلى كنائس ومصليات يهود ، وحرباً ضد أسماء المدن الجزائرية التى حولت إلى أسماء قواد وأدباء وعلماء من الفرنسيين ، مثل « باسكال » و « فولتير » و « مونتسيكو » و « هوجو » ، وحرباً ضد الجنسية الجزائرية بإبادة الشعب الجزائرى ، وحرباً ضد تاريخ الجزائر ، فقد ادعت المدرسة التاريخية الجزائرية أنه لا يوجد تاريخ جزائرى ، ولا حضارة جزائرية ، فضلاً عن شعب وأمة جزائرية ، ولا يوجد تراب جزائرى .. »

وقد حمل هذه الأفكار بعض الدعاة من الجزائريين أنفسهم ، ورددوها فى مؤلفات لهم ، وقد حاولت هذه الأفكار أن تقنع الناس بأنه لا توجد شخصية جزائرية ، وأنه لا مفر من قبول الالتحاق بفرنسا بدلاً من الاندماج ، وهو ما أطلق عليه (من المستعمرة إلى المقاطعة) .

وقد نشرت هذه الآراء فى مؤلفات ورددتها أقلامهم فى الصحف الفرنسية أمثال « لانتانت » .

★ ★ ★

وهذا نموذج من هذا الاتجاه :

« نحن أصدقاء ابن جلول السياسيين ، كان يمكننا أن نكون من القوميين ، ولقد تحدثت فى هذه المسألة مع شخصيات عديدة ، ورأيى فيها معروف ، فالقومية هى تلك العاطفة التى تدفع القوم إلى العيش فى حدودهم الإقليمية ، وهى العاطفة التى أوجدت مختلف الأمم ، ولو أنى اكتشفت الأمة الجزائرية لكنت من القوميين ، ولما خجلت من ذلك ، فالرجال الذين ماتوا من أجل مثلهم الوطنية مكرمون محترمون ، ولا تساوى حياتى أكثر من حياتهم ، ومع ذلك فلن أموت من أجل وطن جزائرى ، لأن ذلك الوطن ليس له وجود ولم أكتشفه .

لقد ساءلت التاريخ وساءلت الأحياء والأموات وزرت المقابر فلم يحدثني أحد عنه ، ولا يمكن البناء على الهواء ، وقد استبعدنا تماماً جميع هذه الأوهام ، لنربط نهائياً مستقبلنا بما حققته فرنسا لهذا البلد .

وعلى كل فلا يوجد من يعتقد جدياً فى هذه القومية الجزائرية، وكل ما يراد من وراء هذه العبارات ، هو تحريرنا السياسى والاقتصادى لأنه بدون تحرير السكان الأصليين لن تكون هناك جزائر باقية على مر الزمن » .

★ ★ ★

وقد عارضه الإمام عبد الحميد بن باديس فى هذا الرأى ، وكتب فى الشهاب (ابريل ١٩٣٦) مؤكداً أن الشخصية الجزائرية موجودة .

ومما قاله : إنهم يقولون ، : حاولنا عبثاً البحث عن الشخصية الجزائرية فى التاريخ وفى الحاضر فلم نجدها ، فرنسا هى أنا . وأقول : إننا بحثنا عن الشخصية الجزائرية فى الماضى والحاضر فوجدناها أمة إسلامية جزائرية ، تكونت ووجدت كما تكونت ووجدت جميع أمم الأرض » .

ومن هنا بدأت مقاومة هذه الآراء على نحو واسع عميق عن طريق جمعية العلماء ومدارسها الواسعة الانتشار فى الجزائر .

وقد كانت هذه الدعوة عام ١٩٣٠ مرتبطة بحملة فرنسا على مقومات الثقافة والفكر العربى الإسلامى فى الجزائر ، باعتباره قد انتهى تماماً بعد مرور مائة عام على الاحتلال والإدماج .

وليس حمله مثل هذه الآراء إلا نموذجاً لعدد من الشباب الجزائرى أو العربى (بصفة عامة) الذى تعلم فى فرنسا ، ولم يدرس اللغة العربية ولا شيئاً من تراث بلاده أو حضارتها أو تاريخها أو قيمها (وقد تحول بعضهم من النقيض إلى النقيض فيما بعد) وقد حاولت فرنسا أن تعلم شباب المغرب الذين درسوا فى باريس مثل هذه المعانى : الثقافة العربية الإسلامية فى طريق الغروب والزوال . والثقافة الفرنسية فى طريق الانتشار ، وانخدع كثيرون . كان جانب الإغراء بعد الخداع ، فى أنهم سيصبحون بالارتباط مع ثقافة فرنسا — وقد انمحت شخصيتهم العربية الإسلامية — فرنسيين متساوين فى الحقوق والواجبات مع الفرنسيين الأصلاء .

وفعلاً انتخب عباس فرحات عضواً فى البرلمان الفرنسى عن الجزائر، وقام بالدعاية فى الجزائر لقانون عام ١٩٣٦ بتسهيل منح الجنسية الفرنسية للجزائريين ، ولكنه

لم يلبث أن اصطدم بالمعارضة العنيفة التي واجهت المتفرنسين من الدوائر الفرنسية ، فأحس أن الجزائرى مهما تفرنس فهو محتقر فى نظر الفرنسيين ، وآمن بأن الجزائرى شىء والفرنسى شىء ، وأن أحدهما لن يمتزج بالآخر ، ومن هنا تحول عباس فرحات عن رأيه ، وأحس بأنه كان على غير وضوح فى الرؤيا .. وتزعزعت تلك المفاهيم التى آمن بها ، وكشف له العمل فى الميدان السياسى أنه عربى ، وأن لغته هى العربية ، وأن دينه هو الإسلام ، وأن وطنه هو الجزائر .

★ ★ ★

وهكذا قاومت الجزائر فكرة أن الجزائر جزء من فرنسا ، وأن الجزائريين مسلمون فرنسيون ، وبرزت « الشخصية الجزائرية » فى كتابات ابن باديس والبشير الإبراهيمى والعقبى والميلى ، وشعر سحنون ومحمد العيد آل خليفة .

وعندما أوقفوا تدريس اللغة العربية فى المدارس ، فتحت جمعية العلماء المدارس الأهلية فى المساجد. يقول عثمان سعدى : إن الفرنسيين جعلوا تعليم اللغة العربية جريمة يعاقب عليها القانون ، ولم يسمحوا إلا بتحفيظ القرآن وتلقينه ، إلا أن تحفيظ القرآن كان بمثابة مصباح يحد من كثافة الظلام الذى اجتاح الجانب الثقافى العربى فى الجزائر .

وفى الوقت الذى كانت الأحزاب السياسية ، « كالشعب » و « البيان » ، تدعو إلى الثقافة الفرنسية والحضارة الفرنسية ، وإلى نبذ التعصب ، كانت « جمعية العلماء » تقف حائلا دون أن يجرف التيار الفكرى الفرنسى والعربى الجزائر ويسلخها من عروبتها وإسلاميتها ، فقد أحيا – ابن باديس – وجماعته الجانب العربى فى الشخصية الجزائرية ، وطهر الإسلام من الخرافات ، وانشأ المدارس الحرة والمساجد الحرة ، وكان معنى هدفه : أن امتناع الاستعمار عن تدريس اللغة العربية القومية فى المدارس الرسمية لا يقف حائلاً دون تعلمها . (١)

وأمكن الجزائر أن ترد على التحدى ، وأن تقاوم محاولة القضاء على « الذاتية الجزائرية » بفرض الجنسية الفرنسية على المواطن الجزائرى أو القضاء على لغة الضاد .

كانت دعوة ابن باديس أن (اللغة العربية – الإسلام – الجزائر) هى مقومات الشخصية الجزائرية . وقامت دعوته على أساس التربية ، وكشف عن أن الفكر الجزائرى فكر عقدى يؤمن بالله وحده ، ولا يكاد يفصل بين مفهوم العروبة ومفهوم

---

(١) عثمان سعدى : الآداب م ١٩٥٥

الإسلام ، ولعله – كما يشير جمال البغدادى (دعوة الحق يوليو ١٩٦١) كان سباقاً إلى هذه الازدواجية العميقة ، ويعتبر تقدمياً إذا ما قارناه بما يجرى فى الشرق على لسان كتابها هناك والذين يحاولون إبعاد « الدين » عن المفهوم القومى .

وبدأ الفكر الجزائرى : فكراً مثالياً يؤمن بالأخلاق والسلوك من ناحية ، وفكراً ثورياً نضالياً يؤمن بالمقاومة والكفاح من ناحية أخرى .

★ ★ ★

وما يقال عن الجزائر فى مقاومة دعوة التغريب يقال عن ليبيا وتونس والمغرب ، فقد كانت الجولة واحدة ، ومتشابهة فى أسسها وإن برزت بصور مختلفة .

حاول « التغريب » أن يفهم كلاً من تونس والمغرب أنها ليست أمة ، وحاول الادعاء بأن كلا منهما خليط من الشعوب .

ولقى الإسلام من التهوين والتشنيع والتزوير والخلط والدراسات غير النزيهة ، الملفقة المجزئة لأسرار الإسلام ولمقاصده . (١)

« حاول الاستعمار إخراجنا من كوننا الخاص ، وإدماجنا فى وجوده العام . لوح لنا بالحرية فى طريق الإيمان به . وبنظمه وأفكاره ، واحتكر وسائل الحياة . ولم يسمح بالقليل منها إلا لمن اتبعه ، وتكلم لغته ، وانتحل فكرته . (٢) »

إنكار فضل العرب والأندلس

وجه الكتاب والمفكرون المغاربة أهمية كبرى لحملات الاستعمار الفرنسى التى تجحد فضل العرب على الحضارة الإنسانية .

وقد رد الدكتور عزيز الحبابى فى كتابه (من المغلق إلى المنفتح) على مزاعم بعض الغربيين من أن الحضارة العالمية تقتصر على القارة الأوربية التى نشأ فيها العلم والفن والأسس النظامية : العلم والفن للإغريق ، والقوانين والنظام للرومان ، وزعيم هذه الحركة البغضية هو « رينان » الذى زعم أن الشعوب السامية لاتعرف إلا بالصفات السلبية ، وليست لها ثقافة ولا فن ولا علوم ، وأنها لم تستطع أن تنشئ الفنون التى تحتاج إلى استعمال الخيال .

وقد فصل الحبابى الرد على هذه المزاعم واستشهد بأدلة من التاريخ ، وأوضح

(١) محمد العيسوى – مجلة دعوة الحق .
(٢) علال الفاسى .

أن لكل أمة قسمها من الحضارة العالمية ، وأن المتخلفين يوجدون فى كل الأمم بما فيها أوربا .

وأن للأمة السامية فنونها وآدابها التى تغذت بخيال غنى ، واستشهد ببعض اختراعات العرب العلمية التى لها أهمية تاريخية كاكتشاف الدورة الدموية التى لايرجع الفضل فيها إلى « هرفى » ، بل إلى العربى « ابن نفيس » .

وقد كتب الحبابى كتابه باللغة الفرنسية حتى يصل إلى دعاة التغريب الذين جحدوا فضل العرب والمسلمين وقال : إن روح الإسلام متلائم مع المذهب الإنسانى ، لأن الإسلام يأمر بالعمل ، ويحب الرجل المحترف ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

وفى هذا المجال كتب إدريس الكتانى (المغرب) يرد على :

• تجاهل فضل الحضارة العربية على حضارة الغرب .

• الدور الذى قام به المغرب العربى فى غرب أوربا .

• تجاهل أن اللغة العربية كانت هى اللغة العالمية خلال القرون الوسطى ، وأن الغرب حتى القرن الخامس عشر كان يشعر بتفوق العرب ولغتهم وقصوره عن مجاراتهم .

وأن دعاة النهضة الأوربية اضطروا إلى بذل جهد كبير لإزالة الشعور بالنقص من مواطنيهم تجاه التفوق العربى .

وقال : « ها نحن اليوم بعد أن دار الزمن دورته ، نجد أننا فى بدء نهضتنا الجديدة نقف من الغرب نفس الموقف » نعانى كثيراً من مركب النقص تجاه التفوق الأوربى واللغات الغربية ، وننظر إلى طاقاتنا ولغتنا نظرة مفعمة بقلة الاكتراث وعدم الثقة »

★ ★ ★

وردت الثقافة العربية الإسلامية فى المغرب على دعوى القرون الوسطى التى اتهمنا بها الغرب ، قال عبد الرحمن الزيانى : (٢) إن ما يسمونه بالقرون الوسطى ليس إلا عبارة عن الفترة التى ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية وأخصبت القرائح العربية ، فحمل العرب وحدهم مشعل المعرفة الوهاجة لينقذوا البشرية مما ارتكست فيه من تأخر وانحطاط ....

★ ★ ★

(١) مجلة دعوة الحق : المغرب

(٢) مجلة الانيس « المغرب » يناير ١٩٥٣

د — كفاح اللغة العربية

واجهت اللغة العربية معركة ضخمة فى المغرب العربى ؛ فقد كانت هدفاً كبيراً من أهداف الاستعمار الفرنسى وجميع حركات التغريب : (الفرنسة والتجنيس والإذابة والإدماج) .

وقد استطاع الفكر العربى الإسلامى فى المغرب أن يقاوم وأن ينتصر ؛ ففى تونس والمغرب الأقصى ، لم يحرز الفرنسيون أى نتائج كبرى ، وفى الجزائر استطاعوا أن يصلوا إلى بعض النتائج فى المدن وفى الشمال حتى الثلاثينات . أما بعد ذلك فقد انحدرت الكفة ، وغلبت اللغة العربية ، وبدأت تسيطر وتستعيد مكانها ، نتيجة لحركة جمعية العلماء .

ونظرة اليوم إلى المغرب العربى كله نجد أن اللغة العربية فيه تأخذ مكانها الحق ، ولعل حركة المقاومة لها بإلغائها والقضاء عليها زاد المثقفين قوة فى التمسك بها وتهذيبها ودفعها إلى الأمام ، والأسلوب العربى المغربى سواء فى ليبيا أو تونس أو الجزائر أو المغرب لا يقل بأى حال عن مستوى الأسلوب العربى فى المشرق .

ومن يطالع مجموعة مجلة « البصائر » الجزائرية التى صدرت بعد الحرب العالمية الثانية فى قلب الجزائر يجد أسلوباً عربياً مرناً ، وأداء سليماً رائعاً ، حيث يكتب عشرات من الشباب ، وينظمون الشعر العالى الجيد العبارة ، وترسم مجلة البصائر بعد عام ١٩٤٦ ثمرة الحركة الضخمة التى قادها ابن باديس وجمعية العلماء فى عام ١٩٣١ لحماية اللغة العربية من الفناء .

ومنذ اليوم الأول لاستقلال كل قطر من هذه الأقطار بدأت حركة التعريب فيه تشق طريقها فى قوة ، مستهدفة عودة اللغة العربية إلى مكانها الطبيعى فى الدواوين والدفاتر الرسمية والبنوك ومختلف الأعمال ...

ولقد بدأت نهضة اللغة العربية منذ اليوم الأول لليقظة فى الشمال الإفريقى ، ووجدت من عوامل التحدى ما دفعها إلى المقاومة والاتساع ، وقد ظهر عشرات من الكتاب فى ليبيا وتونس والجزائر ومراكش يؤلفون بها .

وكانت الصحافة منذ ظهورها فى المغرب العربى عاملاً فعالاً من عوامل نمو اللغة العربية واتساعها وجريها مع شئون العصر ، وتخلصها من المحسنات اللفظية ، واقترابها من الأسلوب البسيط الهادف الذى يقصد المعنى ولا يعنى كثيراً بالمقدمات ولا بالمداخل البلاغية ..

★ ★ ★

وقد وجه الاستعمار الفرنسى حملته إلى اللغة العربية فى المغرب العربى منذ مطالع الحماية والاحتلال ؛ فنى الجزائر منذ ١٨٣٠ لم تعد اللغة العربية لغة كتابة إلا إضماراً — على حد تعبير (جان كوهين) .. فلم يعد لها عملياً كتب أو جرائد تطبع بتلك اللغة . وبذلك تراجعت إلى قانون اللغة غير المكتوبة .

وفى ١٩٣٣ صدر قرار رسمى بمنع اللغة العربية من القطر الجزائرى نص على أن اللغة العربية تعتبر لغة أجنبية . وفى عام ١٩٤٥ فرض على معلمى المكاتب العربية معرفة اللغة الفرنسية .

وقد صور عربى حالة اللغة العربية فى المغرب فى أوائل هذا القرن (المقتطف — فبراير ١٩٠٣) :

• ليس فى مغربنا مطابع ولا جرائد ولا مدارس ولا صنائع ، وما تنتحلونه من بعض العلوم فهو ملتقط من هنا وهناك .

• صناعة الإنشاء استمرت على نمط واحد يتداولها الكتاب جيلاً بعد جيل .

• المطابع العربية معدومة من البلاد ، وصناعة النسخ رائجة .

• الكتب الخطية هى المعول عليها ، حتى إنه يسهل على المطالعين قراءتها أكثر من قراءة الكتب المطبوعة .

• الذين تاجروا بالكتب من المشرق خسروا فيها لعدم إقبال الناس عليها ، ليس لغلاء أثمانها ، وإنما لعدم معرفة الأهلين قراءتها .

• ليس من اختلاف بين اللغتين (يقصد اللهجتين) الشامية والمغربية إلا أن حرف الفاء عند المغاربة ينقط من تحت ، وللقاف نقطة واحدة من فوق . أما شكل الحروف الخطية فيختلف ، والمغربى أشبه بالكوفى .

• إهمال اللغة العربية دعا لغات أخرى (كالبربرية والأفرنجية) إلى مزاحمتها .

• حدث بعض التمازج فى الكلام ، ووقع الاختلال فى التراكيب ، فتغيرت المعانى عن حقيقة وضعها ، ودخل فى لسان العامة الانتحال والنطق بالساكن والإشمام والجزم والترخيم .

• ألحقوا لفظة (شى) على آخر الأفعال ، وأدخلوا (كافا) على صيغة المضارع مثل (كنكتب) وهو دلالة على الاستمرار ، وأبدلوا (هاء) الغائب (واواً) مثل (كتابو) أى كتابة ، وذالهم دالاً ، وثاءهم تاء .

• لغة العامة تختلف باختلاف الأماكن ، ولكنها لا تخرج عن كونها عربية ، وجميع كلماتها عربية الأصل إلا الأعجمى منها .

هذه صورة اللغة العربية فى أوائل القرن فى المغرب العربى كله ، حيث كانت الجزائر وتونس ترزح تحت نير الاحتلال الفرنسى .

ويصور باعزيز بن عمر (الجزائر) (١) أثر الاستعمار فى اللغة : « إن الاستعمار سن القوانين التى جعلت اللغة العربية لغة أجنبية لا يسمح لها بالظهور إلا فى المسجد والزاوية ، وأسس للغته فى المدارس ما نفذ به سياسة اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية ، ونجحت هذه المدارس ، فتخرج فيها طوائف من أبنائنا وصح بحكم ما نالوه من هذه الثقافة التى قدمها إليهم الاستعمار أن يحملوا لقب النخبة الإسلامية ، وتهيأ لبعضهم الطريق إلى الظهور بجنب المستعمرين فى الإدارات والمصالح ، ومن هنا أطلوا على اللغة العربية فلم يعثروا لها على وجود ، فحكموا عليها بالموت ، واتهموا قراءها بالجمود ، واعتقال اللسان ، وضيق النظر ، ولم يغيروا نظرهم إلى لغتهم العربية إلا يوم صاحت هذه النهضة (يقصد حركة ابن باديس وجمعية العلماء) فى الجزائر صيحتها الأولى .. » .

وفى تونس والمغرب وليبيا واجهت اللغة العربية نفس المواجهة : كل الشباب العربى الذى تعلم فى فرنسا أو اتصل بالمستشرقين أو الحكام الفرنسيين نظروا إلى اللغة العربية بازدراء ، وحملوا عليها ، ودعوا إلى تفخيم اللغة الدارجة .

وتقدمهم فى هذا الميدان المستشرق ماسينون عام ١٩٢٦ والمستشرق كولون عام ١٩٣٧ ، وكلاهما دعا إلى اللغة العامية المغربية باعتبارها اللغة الدارجة التى يفهمها الجميع ،

• اتخاذ اللغة العامية لغة الثقافة .

(١) جريدة البصائر « ٢٤ جوان ١٩٥٠ » .

• كتابة اللغة العامية بالحروف اللاتينية .

• الاستغناء عن اللغة الدارجة واتخاذ اللغة الفرنسية لغة الثقافة .

وقد واجهت هذه الحملة رداً عنيفاً ، وتعرض لها الكتاب بالنقد والتفنيد ، ووصل الصدى إلى مصر والشرق العربى ، فهاجمت البلاغ فى مصر ومجلة المجتمع العلمى العربى فى دمشق هذه الدعوة . ومن أبرز كتاب (المغرب) الذين واجهوا هذه الحملة العلامة (عبد الله كنون) ؛ فقد كتب فى جريدة « الأطلس » يرد على ادعاءات (كولون) قال : إن الشعب المغربى جد متشبث بعربيته ، ويقدمها فى الطلب على كل لغة أخرى ، ويساعده على ذلك أساتذة المعاهد الدينية ، وعلى رأسها (القرويين) وأساتذة المدارس الأهلية وإن تكن قليلة .

إن عامية المغرب هى أقرب اللهجات إلى الفصحى لكثرة ما تشتمل عليه من التراكيب الصحيحة ، والكلمات الفصيحة ؛ فهى لا تزال محتفظة بتصاريف الفعل على اختلافها ، ومراعية الفروق بين المذكر والمؤنث فى غالب الاستعمالات .

فيما عدا (الخط) لا نرى أن هناك خلافاً بيننا وبين الشرق فى هذه العربية أصلاً » .

* * *

وفى تونس تعرض (محمد النخلى) (١) لهذه المعركة ، فرد على القائلين بأن اللغة العربية لغة ميتة فقال : « وحسبها أن تقام بها فروض الدين الإسلامى وتؤدى بها طقوسه وعباداته ، وقد جرى تشبيهها باللغة اللاتينية والعبرية وسائر اللغات الدارسة التى قامت الأمم المتمدينة بإحيائها فى هذا العصر إبقاء على ذماء القديم ، وصيانة لآثار التاريخ » .

وقال محمد النخلى : إن هذه الدعوى قديمة ، وأشار إلى أنها ترددت من قبل فى مصر ، وأن الكتاب العرب فى مصر حملوا عليها حملة شعواء ، وقال : إن اللغة العربية غزيرة المادة واسعة الأطراف وأنها صالحة لكل زمان ومكان ، وتستطيع مواجهة الحضارة ، والاستجابة لمسمياتها وتطورها .

وقد هاجمت تونس (توصيات) المؤتمرات الفرنسية التى عقدت لدراسة شئون التعليم ، وقرر فيها « ألا تشغل اللغة العربية الفصحى مكاناً كبيراً فى التعليم ، وألا يشرع فى تعليمها إلا بعد دخول الطفل للمدرسة بسنتين أو ثلاثة لأن تعليمها لا يحصل معه

---

(١) كتاب حياة اللغة العربية « ١٣٢٧ هـ »

متعة ، ولا يكون ناجعاً إذا كان الأطفال صغار السن » وحملت الصحف والكتاب حملات كبيرة على هذه التوصية ، واضطر الفرنسيون إلى سحبها والإغضاء عنها .

★ ★ ★

وكتب نور الدين محمود (تونس) (١) بدافع عن اللغة العربية فقال : « نحن شعب عربى عريق له فى العربية الفصحى قدم رسخ ، حين أخرج أمثال ابن منظور صاحب « لسان العرب » ، وابن خلدون ، وابن عرفة ، وعبد العزيز الثعالبى ، والشاذلى خزنه دار ، إلى غيرهم ، زيادة على ذلك فلنا مقدرة على إخراج كافة الأحرف العربية من مخارجها ، الأمر الذى قل أن يتوفر فى بقية الشعوب العربية ، ولنا أكبر جامعة لتدريس اللغة العربية بالعالم (الجامعة الزيتونة)

وهاجم فكرة الكتابة باللغة الدارجة ، وقال : إنها فكرة استعمارية شرع فيها بعض الآباء البيض منذ مالا يقل عن ثلاثين سنة خلت ، وما زلنا نذكر مواقف الأب فوكا والأب سلام ، ومن قبل ذلك مواقف العلامة م فرساى من هذه الفكرة معلومة ، .. على أن كل ذلك لا يهمنا ، ما دمنا نحن الحارصون (كذا) على نشر اللغة العربية بين قومنا.

كما هاجمت « مجلة الفجر » فى تونس ما أدخله أبناء الجيل الحاصر من الألفاظ الأجنبية التى شوهت محاسن اللغة العربية وقال : إن كثيراً من شباب العصر حين تعلم فى المدارس الأجنبية صار يرمى هاته اللغة البديعة بالجمود ، ويقضى عليها بالممات. وحجتهم أن هناك مسميات كثيرة من مصطلحات العلوم والاختراعات لا يوجد لها أسماء باللغة العربية . وقال : إن اللغة العربية لا تضيق عن إعطاء أسماء لتلك المصطلحات عندما تتوجه إلى ذلك همة العلماء من أبنائها .

ويكتب غامر غديرة من باريس فى مجلة الفكر (٢) متأثراً بما يحس به هناك من توجيه للشباب المغربى نحو كراهية لغتهم العربية فيقول : أنت تعلم أن اللغة العربية والآداب العربية فى خطر ، لأن الأجانب برغم ما قام به المستشرقون من جليل الخدمة ، وبرغم دفاع الكثيرين منهم عنها ، يحتقرونها عن جهل وتعصب ، والآن قام من العرب ومن غير العرب من يريدون اليوم تشويهها بالعدول عن لغة القرآن والأسلوب العربى الإسلامى إلى عبارة جديدة مشوهة وأسلوب لا قرآنى ، إن لم أقل « مسيحى » ، واللغة

---

(١) مجلة الاسبوع : ٢٤ — ٥ — ١٩٥٤

(٢) ابريل ١٩٥٦ مجلة الفكر

العربية هى التى تحمى (وحدها) كياننا الثقافى ، وتضمن للثقافة الإسلامية الكاملة الحياة والنمو ، فلئن أهملنا اللغة أضعنا الثقافة الإسلامية ، وأهلكنا الفكر الإسلامى ، والإسلام ليس دينا فحسب ؛ بل هو مدنية كاملة وحضارة عظمى ، وهو دين وهو أدب وموسيقى ونقش وفن معمارى ، وهو دين وجهاز خلقى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وهو دين وجهاز قانونى تام قد نظر فى الميراث ودقق فى مسائل الزواج تدقيقاً ، وهو فلسفة واسعة متشعبة منها نشأ الاعتزال ومنها خرجت الصوفية .. »

* * *

وقد ضعف موقف النفوذ الأجنبى من اللغة الغربية إزاء هذا الإصرار الواضح والتمسك القوى بها ، وجرى البحث حول تطويرها مع الإيمان بها . ومنذ ۱۹۲۱ تناولت مجلة الفجر التونسية هذا الإصلاح : « إذا قيل ؛ : إن اللغة تضيق عن احتمال مالا يعرفه أهلها الأصليون ، كان وزر ذلك علينا لا على اللغة ، لأنها كائن حى قابل للنمو والتطور مع الإنسان ؛ فقد احتملت المدنيات القديمة ، وكانت حلقة اتصال بيننا وبين المدنية العصرية .. » ولا يعلم من ذلك أننا نتسامح فى تضييع العربية أو نتساهل فى الحط من قيمتها ، فإنها لغة الدين والوطن التى يجب أن يكون تعليمها إجبارياً ، ليس هى فقط بل هى وآدابها إذا أردنا أن نحتفظ بقوميتنا كشعب له تاريخ ، وأن نعيش فى مصاف الأمم الحية ..

وقال : إن اللغة العربية لا تضيق عن أسماء مصطلحات العلوم والاختراعات عندما تتوجه إلى ذلك همة العلماء من أبنائها .

وظلت اللغة العربية أنشودة رائعة على كل لسان ؛ فالشيخ محمد خير الدين (۱) فى جريدة البصائر الجزائرية يشيد بها :

.. أما اللغة العربية لسان تسعة ملايين من المسلمين ولغة دينهم وقراءاتهم ، تلك اللغة الخالدة ذات الآداب والثقافة التى شعت بنورها على أوربا ، فاقتبست منها حضارتها الحاضرة وعلومها وفنونها ، فهى تعامل فى وطنها ، وعلى مرأى ومسمع من بنيها كما تعامل اللغات الأجنبية ، فأنت لا تكاد ترى لها أثراً فى المؤسسات ، وأنه ليروعك ما أحيطت به المدارس العربية الحرة من قوانين وقراءات ترمى فى مجموعها إلى القضاء على هذه اللغة .. »

ودافع الكثيرون من المفكرين عن الدعوى التى جدت فى بعض أقطار المغرب والتى

---

(۱) البصائر : ۱۰ سبتمبر ۱۹٥۱

أذاعها الأساتذة الفرنسيون من أن اللغة العربية عاجزة عن أن تكون لغة التعلم فى المدارس وأنها لا تملأ الفراغ الفكرى الذى يشعر به الشباب فى المغرب العربى ، كما تملؤه اللغة الفرنسية التى لا يستطاع الاستغناء عنها .

وتوالت الأبحاث فى صحف المغرب ومجلاته ، وتناولت ذلك مجلة دعوة الحق (المغربية) فى عشرات الأبحاث ، كما صدرت فى تونس مجلة خاصة بشئون اللغات .

ويدعو محمد بلعزيز (مجلة التربية الوطنية « المغرب » يناير ١٩٦٠) إلى لغة قادرة على مسايرة التطور العلمى الذى قطعه العقل العربى فى القرون الثلاثة الأخيرة .

وقال : إنه فى مجال أبحاث توسيع اللغة ينبغى الرجوع أول الأمر إلى اللغة الرومانية واليونانية ، لأنهما من مآخذ اللغة فى أطوارها الأولى ، ولأنهما أقرب إلى صيغة اللغة العربية ، وكذلك اللغة الإسبانية ، وإذا ما عدنا إلى هذه المصادر ولم نجد فيها بغيتنا ، حينئذ نلتفت إلى اللغات الأخرى .

★ ★ ★

وعلى هذا النحو سارت حركة « التعريب » فى تونس والجزائر والمغرب التى تهدف أساساً إلى إحلال اللغة العربية فى التعليم والتشريع والإدارة ، وتعنى كلمة « التعريب » فى المغرب العربى إقرار اللغة العربية وجعلها لغة التكلم والعمل .

وقد أشار تقرير الجامعة العربية (١٢ كانون أول ١٩٦٣) إلى الجهود المبذولة فى هذا الشأن ، مستهلاً للبحث بقوله « لقد حاول الاحتلال الأجنبى دوماً طمس معالم اللغة العربية بكل الوسائل ، وفى سائر الميادين ، وخاصة فى أقطار المغرب العربى حيث عمد إلى إحلال اللغة الأجنبية محل اللغة العربية لغة البلاد القومية ، ليضمن لنفسه البقاء » ولكن تفكير الشعب برغم الاحتلال الطويل ظل عربياً صافياً لم تعكر صفوه طريقة اللسان التى فرضت على الشعب خاصة فى المجالا الرسمية ، وما أن تخلصت هذه الأقطار من الاحتلال .. حتى بدأت شعوبها الكفاح ، وكان طبيعياً أن تنال قضية اللغة العربية وإعادتها إلى مكانها الحق أهمية أساسية .

من أعلام الفكر والثقافة

١ - محمد الخضر حسين

« كان نظام التعليم فى المعهد الزيتونى من أسباب تنافس أصحاب المذهبين : المالكى والحنفى فى ميدان العلم ، وقد أخرج جامع الزيتونة فقهاء يعتزون بعلمهم ويزهدون فى المناصب ، أدركت من هؤلاء فقهاء وأساتذة بلغوا الغاية فى سعة العلم وتحقيق البحث ، مثل عمر بن الشيخ ، وأحمد بن الخوجة ومحمد النجار ، ومن نظر فى فتاوى هؤلاء الأساتذة أو رسائلهم التى حرروا بها بعض المسائل العويصة رآهم كيف يرجعون إلى الأصول والقواعد ومراعاة المصالح ، ولا يقنعون بنقل الأقوال دون أن يتناولوها بالنقد والمناقشة .

ويدلنا التاريخ القريب على أن بعض رجال الدولة التونسية عندما اتجهوا إلى إصلاح الحالة السياسية أو العلمية أو الاجتماعية ، وجدوا فقهاء يدركون مقتضيات العصر ، ويعرفون كيف تسعها أصول الشريعة بحق ، فكانوا يعقدون منهم بعض لجانهم ، ويستنيرون بآرائهم مثل أساتذنا : عمر بن الشيخ ، وسالم أبو حاجب ، ومصطفى رضوان وما زال الرسوخ فى الفقه ، وربط الأحكام بأصولها ، من مواضع عناية الأساتذة فى جامعة الزيتونة لهذا العهد ، يشهد بهذا ما نقرؤه فى محاضراتهم ومقالاتهم التى تنشر فى الصحف التونسية والمصرية .

كانوا يدرسون الفقه بأنظار مستقلة ، وآراء تستضىء بالأدلة ويتفاضلون فيها على قدر تفاضلهم فى العبقرية وسمو الهمة ... »

* * *

لاشك كان محمد الخضر حسين علماً من أعلام الفكر المغربى الإسلامى ، مكافحاً وطنياً ، ومغترباً فى سبيل الحفاظ على حرية الكلمة ، وأقام كابن خلدون بقية عمره فى مصر ، ورقى فيها إلى أعلى المناصب ، وعمل فى ميدانى الإصلاح الإسلامى والقياسى اللغوى ، وعمل فى التدريس والصحافة والكفاح الوطنى ، ولقد أتيح له أن يقاوم حركات التغريب بدعوته إلى إنشاء جمعية الشبان وكانت مجلته وقلمه من ألسنة الدفاع عن المغرب وقضاياه ، ورسولاً قوياً يستصرخ المشارقة حين يكشف لهم عن مؤامرات الاستعمار

ويدعوهم إلى مقاومة التغريب والتجنيس والفرنسة ، فهو منذ أقام فى مصر بعد الحرب العالمية الأولى يحمل هذه الرسالة ، ويعمل فى كل هذه الميادين : الإسلام واللغة والكفاح السياسى .

★ ★ ★

وكان محمد الخضر حسين مستنيراً متفتح الذهن يدعو إلى الإصلاح على أساس قاعدة علمية واضحة ، فهو يؤمن بفكر لا يتعصب لقديم ولا يفتتن بجديد ، يعتمد الرأى حيث يثبته الدليل ، ويتقبل الحكم متى لاحت بجانبه حكمة ، ويثق بالرواية ، بعد أن يسلمها النقد إلى صدق الغاية ...

ومن رأيه أن على العلماء قول كلمة الحق لأهل الحل والعقد دائماً ، وعدم التوقف عنها .

« لا ينبغى لأهل العلم أن يغفلوا عن سير أرباب المناصب والولايات ، فمن واجبهم أن يكونوا على بينة من أمرهم ، حتى إذا أبصروا عوجاً نصحوا لهم بأن يستقيموا ، أو رأوا حقاً مهملاً لفتوا إليه أنظارهم ، وأعانوا على إقامته .

ومن أدب العلماء أن ينصحوا للأمة فيما يقولون أو يفعلون ، ويحتملوا ما ينالهم فى سبيل النصيحة من مكروه ، وكم من عالم قام فى وجه الباطل فأوذى فتجلد للأذى » .

★ ★ ★

وقد كانت حياة الخضر حسين رمزاً على هذا المعنى ، معنى طلب الحرية والهجرة من بيئة الظلم ، فقد فر من تونس ومن الشام ومن تركيا ، وكان فراره ليحتفظ لنفسه بحقه فى الكلمة ، يقول : « نشأت فى بلدة من بلاد الجريد بالقطر التونسى يقال لها « نفطة » وكان للأدب المنظوم والمنثور فى هذه البلدة نفحات تهب من مجالس علمائها . كان حولى من أقاربى وغيرهم من يقول الشعر ، فتذوقت الأدب من أولى نشأتى . وحاولت وأنا فى سن الثانية عشرة نظم الشعر . وفى هذا العهد انتقلت أسرتى إلى مدينة تونس ، والتحقت بطلاب العلم بجامع الزيتونة » وكان ذلك عام ١٨٩٩ ، أحب أستاذه الشيخ سالم أبو حاجب الذى كان يحثه على البحث « ويلاقى السؤال المهم بابتهاج ، ويدعو للطالب بالتفتح يقول : « كان يقول الشعر مع كونه يغوص على المسائل العلمية بفكر ثاقب » وكان الشيخ أبو سالم قد رفض وسام السلطان ووسام الباى ، فأحب منه الشيخ الخضر هذا الاعتداد بالنفس ، « بعد أن نلت درجة العالمية أنشأت مجلة علمية أدبية ،

وهى أول مجلة أنشئت بالمغرب ، فأنكر علىّ بعض الشيوخ ، وظن أنها تفتح باب الاجتهاد ، وشجعنى على إنشائها شيخنا أبو حاجب ، كما شجعنى عليها الوزير محمد أبو عنور .

كانت خطته الإصلاح الاجتماعى والدينى ، والعمل لإعادة مجد الإسلام ؛ ولكنه لم يلبث أن اختلف مع السلطات بشأن العمل فى القضاء ، بعد أن وليه فى بنزرت ١٩٠٥ ، إذ فضّل العودة إلى التدريس فى الزيتونة ، فلما خاطبته المحكمة الفرنسية ١٣٢٥ هـ بالعمل فى المحكمة عضواً ليحضر حكمها بين الوطنى والفرنسى ، امتنع ولم يقبل أن يصدر الحكم الجائر ...

واستقر رأيه إثر ذلك على الهجرة إلى الشرق ، فاستوطن دمشق عام ١٩١٢ ، وكانت تحت سلطان العثمانيين ، فنصب للتدريس فى المدرسة السلطانية فى كرسى الشيخ محمد عبـده .

ثم اعتقله جمال باشا حاكم الشام ، ورحل إلى الآستانة فأسند إليه التحرير بالقسم العربى بوزارة الحربية ، وحين احتل الحلفاء الآستانة رحل مع زعماء الحركة الإسلامية عبد العزيز شاويش وعبد الحميد سعيد والدكتور أحمد فؤاد .

وعاد إلى دمشق ١٩١٨ فى عهد الحكومة العربية لفيصل ، وعُهد إليه بالتدريس فى المدرسة السلطانية ، ولكن فرنسا لم تلبث أن بسطت سلطانها على سوريا ؛ فترك دمشق إلى القاهرة ١٩١٩ ، وفى مصر عرف أحمد تيمور باشا الذى كان خير رفقائه ، وكان له فضل واضح فى إنشاء جمعية الشبان المسلمين مع السيد محب الدين الخطيب صاحب الفتح . كما أنشأ من بعد جمعية الهداية الإسلامية ومجلة الهداية الإسلامية ، وتولى ثمة مجلة لواء الإسلام (مجلة الأزهر) ، واتصل بالأزهر ونال إجازته ، وعمل فى كلياته ، واختير عضواً فى جماعة كبار العلماء ، فشيخاً للأزهر عام ١٩٥٢ ، وعضواً فى مجمع اللغة العربية.

★ ★ ★

ولطالما ذكر المغرب ، فلم ينسه قط ، وما من مناسبة إلا جرت فى نفسه المقارنة ، وتطلع إلى مجد المغرب وحريته ، يقول عام ١٩٤٩ :

دمعة كالثلج بردا مجها ... فى المآقى فرط بشر وارتياح
إذ شهدنا عرض جيش من بنى ... مصر فى أسنى عتاد وسلاح
وتلتها دمعة صور لى ... حرها أنفاس مكسور الجناح

إذ ذكرت المغـــرب الغــارق فى   لجج ســـود من العسف الصراح
نهضت مصر إلى المجـــد ومـــا   نهضت إلا بعزم وكفـــــاح
أتـــرى المغــرب يوماً ناهضـــا   للعـــلا بين سيــوف ورماح

وقد كانت مجلة الهداية : مجلة مغربية واضحة الدلالة ، فى كتابتها وأبحاثها ، ودفاعها عن مختلف المواقف الوطنية والإسلامية والعربية ، ورأس جبهة شمال أفريقية ، التى ضمت الأحرار الذين سعوا نحو مصر من أجزاء المغرب العربى ، .

★ ★ ★

وكان الشيخ الخضر كاتباً وشاعراً له شعر كثير جيد ، وقد وصفه الفاضل بن عاشور (١) فقال : كان كاتباً بليغاً ذا طبع خاص وأسلوب قوى الروح الأدبية ، فصيح العبارة بليغ التركيب ، ينزع إلى طرائق كتاب الترسل الأولين ، رحل عام ١٩١٢ إلى مصر وسوريا وتركيا ، فكتب رحلة بديعة نشرت فى مجلة الزهرة ، طافحة بانتقاداته وأفكاره .

وأشار إلى مجلة السعادة العظمى (التى أصدرها فى تونس ١٩٠٤) فقال : إنها كانت مركزاً للحركة الفكرية وقوة توجيهيه متصلة بجميع أهل الثقافة العربية يجتمع تحتها شقان متباعدان ... ولم تدم إلا عاماً ناقصاً .

وللخضر حسين : مؤلفات متعددة أهمها :

محمد رسول الله ، وسائل الإصلاح ، آداب الحرب فى الإسلام ، القياس فى اللغة العربية ، هذا بالإضافة إلى عشرات الفصول والمقالات فى صحف مصر والمغرب والشام ...

* * *

٢ ـ الفاضل بن عاشور

« يأسف التونسيون جميعاً ، كما يأسف من ورائهم العرب كافة ، والعالم الإسلامى كله ، على أن التاريخ التونسى بأمجاده وحوافزه وعبره ومباهجه ليس له مرجع واف مفصل مدروس النظريات محكم الأوصاف ، قوى الإسناد ، بليغ البيان .

إن الذى يستعرض ما تزخر به المكاتب فى الدنيا من التواريخ الموسوعة المستبحرة التى وفت ما ضى كل أمة حقه من البسط والتحليل ليقف حائراً مدهوشاً أمام تلك الدواوين الزاخرة بعشرات المجلدات الضخمة ، مثل ما كتب أحمد جودت لتركيا ، وما كتب

---

(١) الحركة الفكرية والادبية فى تونس

ماكولى لبريطانيا ، وما كتب ميشلى ولا فيس لفرنسا ، وما كتب أورمى وفيرارى لإيطاليا . ويستيقظ الناظر من دهشته مذعوراً لتلك الثغرة المهولة فى التراث التونسى ، حتى تتحرك فى نفسه روح الإباء والأنفة ، فيندفع بذكره مختالاً إلى تاريخ ابن خلدون .

ومن ديوان ابن خلدون نفسه ترتفع صيحة ثلاثين قرناً ، قد أحسن ابن خلدون تسجيلها وتصويرها حقاً ، ولكن أتى على صورها من الكلف والسفع ، وركب تساجيلها من المحو والصدأ ما حال بين أكثر أبناء العصر الحاضر وبين مطالعتها ، فأين هو القلم الجدير بأن يتقمص روح ابن خلدون تقمصاً جديداً يعيد به عرض ما كان أبرزه من الكنوز على صورة تأنس بها الأذواق الشابة ، وتدركها العقول المعاصرة .

لا جرم أن المفزع فى ذلك لا يكون إلا إلى مصادر تحرير التاريخ التى بنيت المناهج الحديثة على استيفائها من المواد والآلات ، مما شملت عليه خزائن المحاكم من السجلات والدفاتر والرسوم والأحكام والفتاوى ، وما اشتملت عليه خزائن الأوقاف من الوقفيات والمحاسبات والمعارضات ، وما اندرج فى أطباق الأرض وتلاشى على وجهها من المعالم والمشاهد والألواح والسلاح والمتاع ... إلى ما تتيحه دراسة التقاليد الديوانية والطرائق التوثيقية ، والبصر بمجاميع الأحكام والنقود والطغارى والخطوط والجلود .

فالتآليف المختلفة فى التاريخ والتراجم ما هى إلا حلق مترابطة وأبنية متراصة ، لا يستطيع مؤلف التاريخ أن يخطو خطوة إلا من بين مشاكلها ومنحنياتها .

ثم إن فى خزائن الكتب مادة أخرى لم يكتمل نضجها العلمى ، وهى على رطوبتها وفجاجتها تعتبر ، لصنع التاريخ ، من ذوات الأهمية الأولى وأعنى بها الآثار الكتابية التى ترجع إلى الوثائق أكثر مما ترجع إلى الكتب .

وقد اهتم المؤرخون العصريون بصنف من هذه الوثائق متميز بخصائصه عن الأصناف المعهودة فى القديم ، وهو صنف المذكرات التى لم يعرف اسمه إلا فى القرن الحاضر.

وقد استعمله كتاب العصر تبعاً لاستعماله فى اصطلاحات الآداب الغربية من باب التعريب بالتصرف فى نفس المادة ، فإن الاسم الذى يطلق عند الغربيين على هذا النوع من التحارير هو اسم الذاكرة التى هى إحدى القوى العقلية للإنسان ، وتطور استعماله من طريق الإصلاحات القضائية حتى صار بالغلبة علم جنس على شرح الواقعات التى يتقدم بها الخصم بين يدى قضاته ... »

من أعلام الثقافة الإسلامية العربية وأبرز ثمار الزيتونة . كاتب وخطيب عرف بالبراعة فى محاولات العلم ومسامرات الأدب ومجادلات السياسة . تعلم الفرنسية على معلمين ، تعلم فى المعهد الزيتونى ، والجامعة الزيتونة ، وانتسب إلى كلية الآداب بجامعة الجزائر عام ١٩٣١ ، واشتغل بالتدريس ١٩٣٢ ثم بالقضاء ، وكان قد اتصل بالصحافة الوطنية منذ ١٩٢٨ ، له عديد من الرحلات ذات الأثر فى تكوينه الفكرى زار فرنسا ومصر والحجاز والجزائر والشام وليبيا والمغرب الأقصى ، وطاف أوربا ، فزار النمسا واليونان ويوغسلافيا وبلغاريا وتركيا ، واشترك فى مؤتمر المستشرقين باستانبول ١٩٥١ ونظم أناشيد للشبان إبان الأزمة القومية ١٩٣٩ ، محافظة على روح التوجيه الوطنى ، وتحدياً لمحاولة حكومة فيشى الفرنسية فرض أناشيد أجنبية على طلبة المدارس .

قرأ فى مطالع شبابه للغلايينى ومحي الدين الخياط وعبد القادر المغربى ،وآثر ديوان الحماسة ، ومقدمة ابن خلدون ، ورحلة ابن بطوطة والأغانى ، وأبرز مؤلفاته « الحركة الفكرية فى تونس » الذى أرّخ به لنهضة الفكر والأدب فى تونس منذ عام ١٨٨١ إلى وقتنا الحاضر .

عذب الأسلوب ، بارع الأداء ، استطاع أن يمزج ثقافته الإسلامية الأصيلة بالثقافات الغربية ، فأفاد منها خبرة الفلسفات والأبحاث الغربية ومناهج البحث .

« كان (١) خروجى من الصبا إلى الشباب مقترناً بانبعاث الحركة الوطنية ، ونشاط الصحافة والحركات الاجتماعية والأدبية ، فكنت أتبع تلك الحركات باهتمام وأتعرف تفاصيلها ورجالها ، ومع ذلك لم أتصل مباشرة بأى حركة منها ، إذ كان نطاق تنقلى بين الجامع والبيت ، فلم أبدأ اتصالاتى المباشرة بالصحف والجمعيات إلا عام ١٩٢٨ ، ومن يومئذ انغمست فى العمل بالجمعية الخيرية وقدماء الصادقية . وكان المرحوم عبد الرحمن الكعاك هو الذى ربطنى بالخلدونية .

أهم ما كان يؤثر فى الحركة الاجتماعية بتونس فى عهد شبابى هو نهضة الأمم الإسلامية نهضة شعبية بعد سقوط الخلافة العثمانية لتحقيق آمال الخلاص اعتماداً على الكفاح الشعبي ، وكان للحركة الاشتراكية فى فرنسا وعموم البلاد الأوربية صلة بالنهضة الاجتماعية فى تونس .

رحلت أول مرة إلى فرنسا ١٩٢٦ . وكان لتلك الرحلة أثر قوى بتوجيهها إلى تطلب نواحى العظمة والسيادة لوطننا على نحو ما بهرنى فى فرنسا » .

---

(١) مجلة الثريا مجلد ــ ١٩٥٦ « نوفمبر »

٣ – زين العابدين السنوسى

نشأ فى بيئة الأدب والسلفية والعروة الوثقى والصحافة ، فقد كان والده الشيخ محمد السنوسى من الرعيل الأول الذى سافر إلى المشرق ١٨٨٢ واتصل بجمعية « العروة الوثقى » التى أنشأها جمال الدين فى كلكتة وصار من أعضائها (فلما رجع إلى تونس ظل عاملاً على مبادئها) . والشيخ محمد السنوسى هو أول من حرر الصحف فى تونس بل المغرب كله ، الرائد التونسى ١٨٦٤ أول جريدة ظهرت فى المغرب العربى ، وصفها زين العابدين السنوسى بأنها كانت لتوجيه الأمة نحو النهضة الحديثة والتطور السياسى . وقد فارق محمد السنوسى جريدة « الرائد » فى اليوم الثالث للاحتلال ، وهى أيضاً ثانية الجرائد العربية الإسلامية فى العالم .

★ ★ ★

فى هذا الجو نشأ « زين العابدين السنوسى » أحد رواد النهضة الفكرية والأدبية والصحفية فى تونس ، قرأت له كثيراً فى صحف المغرب ، ومقدمات الكتب التى نشرها فى مطبعته العربية الكبرى التى قدمت للفكر المغربى العربى ذخائر الأدب والفكر . ولفت نظرى بيانه الرائع وأداؤه الخصب

وهو من تلاميذ الثعالبى ، وزملاء أحمد توفيق المدنى ومحى الدين القليبى والطاهر الحداد . ومن ثمرات الزيتونة ونوابغها من الخطباء والكتاب الذين جاهدوا بعد الحرب العالمية الأولى .

وأنا أنقل عبارة الفاضل بن عاشور عنه « إن شاباً طموحاً عالى الهمة الأدبيةمن أسرة مجلة البدر ، وأركان جمعية الجامعة الزيتونية ظهر ،هو زين العابدين السنوسى ابن الشيخ محمد السنوسى ، فكون له مطبعة باسم مطبعة العرب على ضعف مالديه من الوسائل المادية ، وتحيل على المنع القانونى بإصدار نشرة شهرية على طراز مجلة البدر فى صورة كتاب ذى أجزاء سماها « العرب » فمنعت الحكومة رواجها من العدد الرابع ، فاستمر ينتحل لكل عدد اسماً يدل على ثباته فى إصدار مجلة العرب التى لم يرخص لها »

كذلك فعل السنوسى فى سنوات مابعد الحرب حتى ١٩٢٦ ، عندما أصدر مجلة « العالم » فى يناير ١٩٣٠ ، « فالعالم الأدبى » التى كانت رائد النهضة الفكرية ،وسجل التطور الأدبى » اعتنت بنشر الأخبار عن الاكتشافات العلمية والأثرية والتطورات

الأدبية فى الشرق والغرب ، وعرفت بأحدث الكتب وأشهر الكتاب فى مختلف اللغات وتوفرت عنايتها بالدراسات الاستعراضية لتيارات الآداب الغربية والدراسات التحليلية، فى الأدب العربى والمقالات عن المناهج الأدبية عامة ، وكان أهم أعمالها التنويه بالتطور الأدبى بتونس بنشر أشعار المجددين والاعتناء بدراستهم ، ونشر القصص والروايات وتوجيه تطورها بنقل القصص الرائعة عن كبار الكتاب باللغات الأجنبية ، والربط بين الأدب والفكر والفن .

وقد كان زين العابدين السنوسى من طلائع المؤرخين للنهضة الأدبية فى تونس ، فهو مؤلف الأدب التونسى فى القرن الرابع عشر فى جزءين (مطبعة العرب ١٣٤٦ هـ ١٩٢٧ م) جمع فيه منتخبات شعرية عن ٢٦ شاعراً تونسياً من المعاصرين ، وقدم عن كل منهم ترجمة لحياته وذوقه ومنهجه الأدبى .

* * *

وأمامى نموذجان لكتاباته (١) أحدهما فى مجال الأدب

« تطور الأدب فأصبح فناً قائماً بنفسه ، وله تاريخ لا يقل مجادة واعتباراً عن تاريخ تطورات المجتمع البشرى . وعلى ذلك قام كتاب العربية ينفضون عن آداب لغة القرآن الخالدة غبار القرون ، ويجددون تبويبها وتقسيمها ، بما يسهل معه تتبع التطور والرقى الذهنى .

ولقد صدر حتى اليوم كثير من التآليف عن آداب الأقطار العربية تاريخياً وعصرياً ، أحمد ضيف ، وطه حسين ، إن جميع هؤلاء لم يكتبوا عن الشمال الأفريقى شيئاً ، والظاهر أن هذا التغافل أثر من آثار التشتت السياسى الذى أوجدته الطوارئ الاستعمارية فى القرن الأخير ، وقد بلغ التشتت والتناكر بأبناء العربية أن أصبحت الصحافة المصرية لا تكاد تهتم بنا اهتمامها بمملكة الحبشة ، ولا تتطلع لأخبارنا تطلعها لحفلات السباق والزحافة . وليست الأغلاط قاصرة على الصحافة والنشريات الدورية ، بل تتناول حتى الكتب الدراسية والموسوعات العلمية ، فمدينة (بنزرت) ذكرت فى الموسوعة المصرية (النخبة الأزهرية) باسم (بزرطة) وذلك نتيجة اعتمادهم على المؤلفات الأجنبية .

هذا وإن تاريخ تونس ومركزها بالنسبة لبقية الشمال الإفريقى يجعلانها شاعرة أبداً بمسئولية ربط نهضة هاتيك الأصقاع الفنية ببقية الأرومة العربية ، حتى لا تنقطع

الروابط التي ربطها أبناء يعرب بدمائهم ، ويذهب آخر أمل في البناء على أنقاض ماضينا الزاهر .

وفى اعتقادنا أن تعميم الإحساس بالتماس التاريخي والوحدة اللغوية هو أضمن طريق يسار به إلى التكافل المنشود ربما يتيح الزمان لهذا الشرق نفض الكابوس عنه ، وإعلان رغبته الصريحة فى الوحدة والسلام ، اللذين لا تشوبهما تهمة جبن ولا مداجاة ، لأنهما يعبران عن نفس مؤمنة قوية ، تعرف مركزها من العالم ، وحقها فى الحياة ..»

(٢) أما النموذج الثانى فهو فى مجال البحث التاريخي :

« تطورت حركات الشعوب ، وأصبح العقل والمصلحة سائدين على مظاهرهما ، إلا أنهما لم يكونا مفقودين فى التطورات التاريخية ، بل غطى عليهما زلفى المؤلفين القابضين على أزمة الشعوب واعتزاز الناقلين بالشخصيات البارزة ، والتي لا يزيدها القدم وتراكب طبقات التاريخ إلا إجلالاً وضخامة .

أضف إلى ذلك أن الكتابة النقدية ليست من رائجات العصور السالفة ؛ فقد كان المؤرخ إنما يزيد اعتباره بقدر اطلاعه على شواذ الأخبار ، بقطع النظر عن مطابقتها للواقع والمعقول .

إلا أن هذا القدر لم يبق اليوم ، بل إن عقلية الأمم لم تعد تشرئب إلى معرفة الأسباب النفسية للانقلابات التاريخية ، بل أصبحت تهتم بمعرفة الطبقات الأممية فى كل دور ومبلغ تماسها .

ونتساءل عن طريقة الإدارة والحكم ومبلغ سيطرة الدولة ، وتأثيره على عقلية الفرد وماليته ، إذ أن المجتمع نسيج متداخل وجسم واحد متواصل الأعضاء .

كما أنها أصبحت تستنقص كتب التاريخ التي لا ترى فيها الوثائق الكافية والمرافق الكاملة للاستيعاب بالنظر البسيط .

إن تجديد التاريخ وسبكه على العقلية العصرية ليس من الأعمال الهينة البسيطة ، بل لا يمكن أن ينسبك قبل بضع عشرات من سنين يمضيها المجددون فى الملاحظة والنقد والتفسير .

فإن تاريخ عرب آفريقيا ، وبالأخص تاريخ الأمة الجزائرية لا يزال بكراً من هذه الناحية ، بل إنه مسبوك على عكس ما يجب أن يطلبه ابن البلاد من أمته ، فإن كثيرين من علماء الأمة المحتلة عملوا على تشويهه ، وتجسيم النواحي السود منه ، وإظهاره

كتلة مريعة من السواد الفاجع المحزن ، لتنفير الناشئة من ماضي آبائها ، حتى يزوروا عنه ، ويهاض من كبريائهم أمام المحتلين الذين قضوا مائة سنة أو أكثر في تزويق تاريخهم وتنميقه ، ليس بالمعقولات فقط ، بل حتى بالخرافيات والأساطير ، وقد برعوا فى تناسي مالا يعجبهم من ماضي آبائهم ، ثم الإطالة والتبسط فى الجزئيات الصغيرة ، وحتى حكايات الأفراد إذا أعوزهم الدليل على عظمه آبائهم المعروفين .

كم سنة إذن يجب على الجزائر أن تقطعها للتخلص من تلك الغيلان التى ملئوا بها تاريخها ، حتى يتسنى لها أن تصور من ماضيها حقيقته المعجبة المهيبة ... »

★ ★ ★

وهذان النموذجان يصوران عقلية « زين العابدين السنوسى » فى مجال الأدب والتاريخ ، ويدلان على منهج عربى إسلامى عميق الدلائل ..

(توفى عام ١٩٦٥)

٤ – البشير الإبراهيمى

« .. اللغة العربية فى القطر الجزائرى ليست غريبة ولا دخيلة ، بل هى فى دارها وبين حماتها وأنصارها ، وهى ممتدة الجذور مع الماضى ، مشتدة الأواصر مع الحاضر ، طويلة الأفنان فى المستقبل ، ممتدة مع الماضى لأنها دخلت هذا الوطن مع الإسلام على ألسنة الفاتحين ، ترحل برحيلهم وتقيم بإقامتهم ، فلما أقام الإسلام بهذا الشمال الأفريقى إقامة الأبد ، وضرب بجرانه فيه ، أقامت معه العربية لا تريم ولا تبرح ، ما دام الإسلام مقيماً لا يتزحزح ، ومن ذلك الحين بدأت تتغلغل فى النفوس ، فأصبحت لغة دين ودنيا معاً ، وزاحمت البربرية على ألسنة البربرفغلبت وبزت ، وسلطت سحرها على النفوس البربرية فأحالتها عربية ، كل ذلك باختيار لا أثرفيه للجبر ، واقتناع لا يد فيه للقهر ، وكذب وفجر كل من يسمى الفتح الإسلامى « استعمارية » .

ومن قال : إن البربر دخلوا فى الإسلام طوعا فقد لزمه القول بأنهم قبلوا العربية عفوا ، لأنهما شيئان متلازمان حقيقة وواقعاً ، لا يمكن الفصل بينهما ، ومحاول الفصل بينهما كمحاول الفصل بين الفرقدين .

ومن شهد أن البربرية ما زالت قائمة الذات فى بعض الجهات ، فقد شهد للعربية بحسن الجوار ، وشهد للإسلام بالعدل والإحسان ، إذ لو كان الإسلام دين جبر وتسلط لمحا البربرية فى بعض قرن فإن تسامح فى قرن .

ما هذه النغمة الناشزة التي تصك الأسماع حينا بعد حين ؟ والتي لا تظهر إلا في نوبات من جنون الاستعمار ؟ ما هذه النغمة السمجة التي ارتفعت قبل سنين في راديو الجزائر بإذاعة الأغاني القبلية ؟ وإذاعة الأخبار باللسان القبلي ؟ ثم ارتفعت بلزوم مترجم للقبلية في مقابلة مترجم للعربية ؟

أكل هذا إنصاف للقبلية وإكرام لأهلها ، كلا ، إنه تدجيل سياسي على طائفة من هذه الأمة . إن هاتين النغمتين مغزاهما واحد ، هو إسكات نغمة أخرى تنطق بالحق ، وتقول : إن هذا الوطن عربي فيجب أن تكون لغته العربية رسمية .

أما الحقيقة فهي أن الوطن عربي .

وأن القبائل مسلمون عرب ، كتابهم القرآن يقرءونه بالعربية ، ولا يرضون بدينهم ولا بلغته بديلا .. (١) »

★ ★ ★

يمثل البشير الإبراهيمي أرقى أساليب اللغة العربية في المغرب العربي ، وهو زعيم في مجال الإصلاح والسلفية والتعليم والصحافة ، عمل مع عبد الحميد بن باديس ثم خلفه في مجال جميعة العلماء ، بدأ كفاحه في الجزائر عام ١٩٣٠ ، وتعرض للسجن والنفي ، وترك الجزائر في يناير ١٩٥٢ حيث طاف بالمشرق العربي داعياً لحرية الجزائر .

وكانت جمعية العلماء إذ ذاك قد أنشأت ٤٠٠ مدرسة عربية فيها ٧٠٠ معلم ، و٩٦ ألف طالب وطالبة يتعلمون اللغة العربية .

وهو من مواليد سطيف عام ١٨٨٩ ، تلقى تعليمه على يد علماء الدين ، وجاور في المدينة المنورة حيث أخذ يدرس العلم والنحو والبلاغة ، وتطلع إلى العمل من أجل العودة بالدين إلى بساطته الأولى في ظل الموجة الضخمة التي حملها جمال الدين الأفغاني إلى المشرق ، وحملها محمد عبده إلى المغرب منذ عام ١٨٩٢ ، وفي الشام ١٩١٦ عمل أستاذاً للأدب العربي بالمدرسة السلطانية حتى عام ١٩٢٠ .

وقد عمل البشير في مجال الخطابة والتدريس والصحافة مع ابن باديس ، ثم تولى العمل بعده ١٩٤٠ ، فلما انتهت الحرب عاود إصدار « البصائر » التي عطلت من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٤ .

---

(١) البصائر ـ ١٩٤٨ العدد «٤١»

ومنذ بدأ يصدر جريدة البصائر فى مرحلتها الثانية عام ١٩٤٧ دخل فى مرحلة أخرى من الكفاح من أجل :

(١) مقاومة خصومة فرنسا للغة العربية والإسلام فى الجزائر ، وقد وسعت آفاق عملها إلى مجال :-

(ا) تحرير أجزاء المغرب العربى وتوحيدها

(ب) قضية فلسطين

(ج) الوحدة

وقد كتب البشير عشرات المقالات فى مختلف الذكريات التاريخية للجزائر (٨ ماى) وقضايا ليبيا ، وعروبة الشمال الإفريقى ، وأبدى اهتماماً ضخماً بقضية فلسطين ، حيث كتب عشرات المقالات صور فيها المغرب والجزائر إزاء فاجعة فلسطين ، وكشف عن مشاعر الجزائر والمغرب إزاء المشرق والإسلام ومصر وأثر الأزهر فى النهضة الإسلامية .

وكان مجال التعليم العربى وموقف الحكومة الفرنسية الجزائرية منه موضع دراسات طويلة وأبحاث مستفيضة ، وكذلك أمر فصل الدين عن الدولة كما تحدث طويلا عن أعمال جمعية العلماء ، وتناول بالحديث عشرات من الأعلام[1] فى مقدمتهم عبد الحميد ابن باديس ، والزاهرى ، والبيطار ، ومبارك الميلى ، والطاهر بن عاشور ، ومحمد بن يوسف ، والمودودى ، والفضيل الورتلانى .

وقد جعل شعار البصائر : (العروبة والإسلام) وقال : إننا نحارب نزعتين : نزعة الإلحاد والشعوبية .

وقد اضطرت الظروف الكاتب إلى أن يكتب رمزاً لا يفهمه الرقباء الفرنسيون ، فكتب خواطر كثيرة أسماها « سجع الكهان » .

وأتيح أخيرا لافتتاحيات البصائر أن تصدر فى مجلد أنيق باسم « عيون البصائر » تضم كتاباته فى ٢٣٢ عددا (١٩٤٧- ١٩٥٣) ، طبعته دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٦٣.

(١) توفى سنة ١٩٦٠

* * *

٥ - محجوب بن ميلاد

من مفكرى تونس الأعلام ، تخصصه فى الفلسفة الإسلامية ، أبرز مؤلفاته كتاب

(تحريك السواكن) الذى صدر باسم الفكر الإسلامى بين الأمس واليوم عام ١٩٥٥ .

ومن أبرز كتاباته بحثه (تونس بين الشرق والغرب) نشره فى مجلة الفكر سنة ١٩٥٥ يرى فيه أن تونس هى أداة الوصل بين الأقطار الشرقية وغربى البحر المتوسط والمغرب العربى ولذلك كانت معبراً طبيعياً كثيراً ما عبره الغزاة الزاحفون شرقاً وغرباً .

وعنده أنه يمكن أن يؤلف كتاب رائع عن الحقيقة التونسية وعن كنوزها الدفينة ، ويرى أن الحادث التاريخى الحاسم الذى طبع الشخصية التونسية بطابع لايبلى على مر الدهور هو الفتح الإسلامى ، ومن ثم أصبحت تونس أمة من الأمم العربية (لغة وأدباً وفناً وإحساساً ومعتقداً ومبادىء وقيماً)

ويقول : إن تونس جزء لايتجز من الإنسانية العربية الإسلامية ، ويرى أن الهيكل الإسلامى تراكمت عليه أكداس مكدسة من الأوهام خلال عصور طويلة ، فالتصقت بعناصره الجوهرية فأضحى البعض يظنها من الهيكل وليست منه .

وإن الأدباء الذين تنبهوا لذلك هم الذين احتكوا بالغرب والغربيين واطلعوا على طرق تفكيرهم ومنهاج أبحاثهم ومذاهب فلسفاتهم .

وهو – على حد تعبيره – ليس من الذين يقولون بضرورة تقليد الغرب فى كل مايذهب إليه ، وكل مايصنعه من عادات وتقاليد وأزياء ، وعنده أن البعث الشرقى ليس يقع عن طريق التفكير ، وإنما يقع عن طريق يفاع الاجتهاد ورشد الابتكار واقتدار الخلق .

ويردد محجوب ميلاد هذه الدعوة فى كتابه « تحريك السواكن » ويدعو إلى تحرير العقول الإسلامية من جميع ما ورثناه من أوهام قاتلة تقضى علينا بأن نفتح منا القلوب والعقول والهمم لكل مافيه الحق وما فيه الخير ، وتطهر عقلياتنا من شوائب عصور التقليد والانحطاط .

* * *

٦ – محمود المسعدى

من خريجى الصادقية ، والفرير الفرنسية ، اشتغل بالتعليم حتى ولى منصب وزير المعارف . كتب فى مختلف صحف تونس والمغرب ، وله قصة ذات صدى بعيد هى هى قصة « السد » وغيرها من مؤلفاته : (المسافر) ، (حديث أبو هريرة) ، (مولد النسيان) .

وعنده أن المذاهب الأدبية ليست إلا فروعاً لشجرة واحدة ، أو جداول لنهر واحد ، والشجر أو النهر هو « الإنسانية » أعنى مصير الإنسان وشأنه فى الوجود .

وقد كشف فى حديث له بمجلة الفكر (سبتمبر ١٩٥٧) عن آرائه فى الثقافة التونسية كجزء من الثقافة المغربية والعربية والإسلامية .

يقول : إن تونس لاتزال منذ القرون تجهد أن يكون وفاؤها لسنتها الثقافية وفاء ديناميا حياً ، لسنة دينامية متجددة حية ، وأن يكون الذى ترثه عن الماضى فى غير تنكر له أو إنكار نقطة انطلاق نحو جديد يكتشف بجهد جديد ويضاف إلى صالح الموروث وباقيه . وبهذا يفهم الشرق أن الثقافة التونسية والفكر التونسى استطاعا أن يتحملا نحو القرن من الغزو الأوربى والسطو الاستعمارى ، وأن يخرجا من ذلك بذاتية سالمة من مسخ التقليد الأجنبى ، والاصطباغ بمستعار الصبغة من ثقافته وتفكيره ، وسالمة فى آن واحد من التجمد والتحجر فى قديم الذاتية الموروثة اللذين كانت تدفع إليهما غريزة المحافظة على الوجود تجاه الاستعمار وأخطاره وهجوماته .

وعنده أن كل كلمة تقال بالشرق تسمع بالمغرب العربى ، وكل حديث يدوى صوته فى المغرب ، وعلى العكس لايكاد يصل إلى المشرق من المغرب صوت .

★ ★ ★

٧ — محمد المكى الناصرى

يبرز اسم هذا الكاتب الشاعر فى خلال الدراسات المغربية ، وهو مؤلف كتاب « فرنسا وسياستها البربرية فى المغرب الأقصى » وصاحب جريدة « الوحدة المغربية »

ولد عام ١٣٢٤ هـ ، تعلم فى معاهد المغرب ، ثم سافر إلى مصر عام ١٣٤٦ هـ ودرس فى الأزهر وله شعر يحيى فيه المجدد الدينى أبا شعيب الدكالى :

فلتحى فينا ياشعيب مجدداً ... دين الإله وفيه جاهد واجهد
واغلظ على أهل البدائع جملة ... واصبر على إيذائهم وتجلد
أسست للإصلاح أساً ثابتاً ... وفتحت منهم كل باب موصد
أظهرت للناس الحقيقة جهرة ... لم تخش فى دعواك قول مفند

وله كتاب « إظهار الحقيقة »

أما مجلته « الوحدة المغربية » التى صدرت عام ١٩٣٧ فقد كان هدفها : المغرب وطن واحد لا يتجزأ ، وهو من أوائل الكتاب الذين واجهوا سياسة فرنسا ، وقد أحدث كتابه « فرنسا وسياستها البربرية » ضجة كبرى فى دوائر الاستعمار ،

وقد استهله بقوله : نشأت السياسة البربرية منذ اعتداء فرنسا على الجزائر (١٨٣٠) وهى ترمى إلى مقاومة الإسلام بصفة كونه قانوناً ، ومقاومته بصفة كونه عقيدة ، ومقاومته بصفة كونه حارساً للثقافة المغربية ، ومقاومته بصفة كونه دستوراً أساسياً للأمة المغربية ، كيف عقليتها تكييفاً خاصاً ، ونظم مجتمعها تنظيما يحميها من الفناء والاندماج ، قرر مستعمروها أن هذه البلاد لا يمكن الاطمئنان عليها إلا بعد إبادة الإسلام فيها بدعوى أن الإسلام دين يبث فى معتنقيه عاطفة المقاومة للأجانب ، ويحول دون اندماجهم فى الملل الأخرى ، ... الخ

★ ★ ★

٨ — محمد النيفر

من كتاب تونس ، صاحب كتاب (عنوان الأريب عما نشأ فى المملكة التونسية ن أديب) عرفه محمد بن الخوجة فى مقدمة كتابه بأن جده الأعلى من الأندلس ، ولد سنة ١٢٧٦ هـ ودخل الزيتونة ١٢٩٠ . فأحرز شهادة التطويع فالتدريس من الرتبة الأولى ، ثم انتخبته الدولة للعضوية بلجنة إصلاح فهارس الكتب بجامعة الزيتونة

وقد أقبل على صناعة التأليف منذ عهد الشباب . وعرف بفصاحة الكتابة . ومن مؤلفاته :

واسطة التاج (فى عيون الحكم والوصايا) — اللآلى النضيدة بتاج الياقوتة الفريدة . تقويم المنطق الحضرى بكشف اللسان المضرى — جلاء العين بأخبار الوزير خير الدين .

ومن شعره قوله :

ياجامع الزيتونة السامى الذرا   كم بث فيك جواهر الإسلام
كم قد أنار رحابه بيتك مرشدا   لبيان ماخفى على الأفهـــام

قال محمد بن الخوجة فى التعريف به : وإنه لحسن ظنه بى أطلعنى على أغلب مادونه ، لاسيما فى الأدب والتاريخ ، فكانت نفسى تنشرح لقراءة ماحرره قلمه الفصيح من الأدبيات والحوادث والأخبار التونسية التى كان يتحرى فى نقلها ،

ولا يأخذها من غير مصادرها الصحيحة ، وهذا شأن المؤرخين الثقات. وقال ابن الخوجه إن كتابه عنوان الأديب نصفه نظم ونصفه نثر ، وقد تضمن ماجادت به قريحة الأدباء من هناء ورثاء الخ ...

كما وصفه بأنه ثاقب الفكر ، صادق اللهجة ، فصيح اللسان ، بليغ البيان ثابت الجنان ، ذو وقار وسكينة وتواضع على رفعة مكانته ..

* * *

٩ ـ الحسن السائح

هذا كاتب مغربي محقق . قرأت له عشرات من الأبحاث ، وهو واحد ممن كنت أتمنى أن أترجم لهم وأكتب عنهم بتوسع ، لولا ضيق نطاق البحث ، وقد لفت نظرى فى خلال قراءتى الطويلة فى صحف المغرب وأبحاثه ، وبالتعمق ، وانتفعت به فى كثير من جوانب البحث .

وهو يرى أن الأدب المغربى له طابعه الخاص بالرغم من صلته بالآداب العربية الأخرى وعنده أن الحركة الأدبية فى المغرب العربى كانت أقوى من أية بلاد أفريقية أخرى لأنه كان ـ أى المغرب ـ مركزاً لالتقاط الأشعة المتوهجة المنبعثة عن الشرق والغرب ، كما كان مركز إرسال إلى أفريقيا الجنوبية والأندلس العربية ، ويرى أن سر تبلور الثقافة العربية فى المغرب يرجع إلى وحدة الجنس والدم بين سكان المغرب ، وشدة تمسك المغاربة بعروبتهم ، نتيجة البعد الجغرافى عن البلد .

ومن أهم أبحاثه فى مجلة دعوة الحق فصل عن أصول الثقافة المغربية ، وابن بطوطة ومن رأيه أن اللغة البربرية من العائلة اللغوية السامية كأختها العربية ، وهى من اللغات السامية القديمة ، وتتشابه مع العربية فى كثير من المفردات ، وأصل الاشتقاق ، ومخارج الحروف .

* * *

١٠ ـ عبد السلام الهراس

عرفت هذا الكاتب من كتاباته فى مجلة « دعوة الحق » ، وأشهد أنى أعجبت به أشد الإعجاب ، وراعنى الجانب الذى تخصص فيه وهو علاقة الإسلام بالحضارة ، ميمماً نفس الخط الذى شقه فى الفكر العربى الحديث أستاذه « مالك بن نبى » ، وهو يكشف دائماً عن ذلك أخطا الدور التغريبى الذى يهدد الثقافة المغربية حين يسيطر على

الوطن العربي بعد التحرر العسكرى أو السياسى : محاولة أن يخلق أجيالاً من المنسحبين من ماضيهم وتراثهم وقيمهم وشخصيتهم الأصلية .

يقول : « لا يهم الاستعمار أن تظل الأمة عاجزة عن التشبه ببلاده ، بل بالعكس يهمه أكثر أن تظل الأمة الواقعة تحت سيطرة كهان ثقافته ، حائرة تدور فى الفراغ قلقة الخطا سطحية التصاميم ، لأن فى ذلك فرصة له فى الاستمرار والقيادة ، ولهذا يلاحظ أن الأمم التى ماتزال تتعثر فى سيرها هى تلك التى ما تزال قيادتها تتبنى وتؤمن بتلك الثقافة المسمومة التى تشل الإرادة ، وتقيد الفكر وتجعل بعض قادة هذا النوع يتهمون أمتهم بالبلادة . ولهذا كان من شرط نجاح القيادة أن يتعمق فهم النفسية للأمة فهماً مستقلاً من كل تأثير أجنبى أو توجيه استعمارى ... »

وهو يحاول أن يكشف عن حقيقة هامة ، هى أن معركتنا مع الاستعمار لم تنته بالاستقلال ؛ ذلك لأن الاستعمار إنما يحارب الآن فى مجال الفكر والقيم والثقافة ، هادفاً إلى القضاء على الأجيال القادمة يقول : « أننا دافعنا دفاع الأبطال عن كياننا السياسى ، فلما كف الله أيدى الأعداء توهمنا أن المعركة انتهت ، وهى فى الواقع لا تزداد إلا حدة واشتداداً ، ونتيجة لذلك تركنا حصوننا التى كنا نعتمد عليها فى المعركة تتساقط فى أيدى الأعداء ، أى تركنا أجيالا من شبابنا يضيعون فى غبار المعركة ..

وهو ينبه دائماً إلى الشخصيات الإسلامية التى تعمل تحت واجهة الاستعمار الخفى باعتبارها واجهة أخطر على المسلمين من واجهة الاستعمار الصريح ، ونتيجة لذلك تسرى أفكار غريبة عن الإسلام تتردد فى أجواء العالم الإسلامى ويكاد يصبح بعضها قاعدة عامة ، وهو يدعو إلى تصفية التراث الإسلامى من الدخيل والسموم المبثوثة فيه ويرى أن ذلك أجل عمل يجب أن يقوم به علماؤنا .

* * *

١١ ــ محمد الحليوى

ولد محمد الحليوى سنة ١٩٠٧ من أسرة قيروانية .

وهو من ألمع أدباء تونس ، عالج الشعر والنقد والترجمة وكتابة المقالة ، من أساتذته محمد البشير النيفر ، وهو صديق « أبو القاسم الشابى » ، يقول : « أن لقاء الشابى من أكبر ما أثر فى حياتى ، ولم أعد بعد ذلك أحس بالحاجة ، إلى لقاء شخص آخر ، كان كلانا يهيم بابن الرومى والمعرى ، ويقدس العقاد والمازنى ، مال الشابى إلى أدباء المهجر ، وبقيت

أنا متشبثاً بالعقاد » وهو من الذين اتصلوا بالآداب الشرقية ، وقرأ ما قرأ الجيل الذى نشأ فيه للزهاوى والرصافى والكاظمى وجبران ونعيمة والريحانى وأبى ماضى والمنفلوطى والرافعى وشوقى وحافظ .

وفى أدب الغرب قرأ الأدب الفرنسى ، وقرأ أغلب ما كتبه النقاد الفرنسيون عن زعماء الأدب الكلاسيكى والرومانتيكى يقول : وجدت حقاً ما يهزنى من سعة أفق وعمق فكرة وشمول نظرة مما زهدنى قليلاً فى أساتذتى الشرقيين .

وكما أحب من كتاب فرنسا : أناتول فرانس ، انتصر للعقاد على الرافعى ، وكتب مقالا عنوانه « سفود من رصاص » نشره فى جريدة الزمان ، وقال : إن العقاد اقتبس كثيراً من مقالى فى رده على الرافعى .

ومن رايه ان الفضل فى النهضة عائد إلى الصحافة ، فقد كانت الساعد القوى للامة العربية فى نشر المبادئ الحرة و أن الشعب التونسى نسج على منوال الشعب المصرى ، وأن الصحافة مدرسة لها الفضل فى تخريج جيل الربع الأول من القرن العشرين .

وقد تغلب عليه ميله إلى النقد ، ومضى يكتب فى صحف تونس منذ ربع قرن ، كما كتب فى أبولو والرسالة ، ومن مؤلفاته « نافذة على الغرب » و « دراسات عربية » ؛ « وفى الأدب التونسى » و « أحاديث للشباب » و « أحاديث للمعلمين » . ويعد كتاب « القيروان فى التاريخ والأدب ».؟

ومن أبرز مؤلفاته : اتجاهات الأدب التونسى المعاصر ، وكنت أتمنى الانتفاع به .

* * *

— محمد الصباغ

ولعل محمد الصباغ من الأسماء الأولى التى قرأت لها فى المغرب . شاعر ناثر ، يكتب الشعر الحر والشعر المنثور ، ويتأثر بمدرسة المهجر وجبران . ولكنه يتميز بطابعه الخاص ، نشر إنتاجه مترجماً إلى الأسبانية فى جل المجلات الأدبية الأسبانية ودول أمريكا اللاتينية ، كما نشر فى مختلف المجلات المغربية والمشرقية ، أهم كتبه أنا والقمر ، شجرة النار ، والليث الجريح ، شلال الأسود . وآخر مؤلفاته عنقود ندى .

* * *

— الدكتور تقى الدين الهلالى

قرأنا له كثيراً فى صحف الهند ومجلة الفتح خلال إقامته فى المشرق حيث أمضى خمساً

وثلاثين سنة ، عاد إلى المغرب عام ١٩٥٧ وكان قد غادر المغرب إلى مصر سنة ١٩٢٢ فى رحلة لطلب العلم ، وتوثقت صلته بالشيخ رشيد رضا واتصل بالأزهر وانتسب إلى مدرسة الإصلاح التى كانت تجرى على طريق السلفية وإنكار التقليد ، ثم دفعه طموحه للسفر إلى الهند ، حيث أراد أن يلتى أعلام رجال الحديث .

وسافر الطالب الفقير حيث أمضى عاماً وبضعة أشهر فى مجال الدراسات الإسلامية بالهند ، ثم بلغ البصرة حيث عمل مع الشيخ الشنقيطى فى مدرسته بالبصرة ، ثم قصد إلى مكة مدرساً بالمسجد النبوى ، وعاد منه إلى الهند ، بدعوة من ندوة العلماء للتدريس فى كليتها .

وقصد إلى سويسرا ١٩٣٦ ، وفى جامعة بون عمل مدرساً للغة العربية وتعلم اللغة الألمانية حتى ترجم من العربية إليها كتاب « البلدان » للفقيه البغدادى وكتباً أخرى ، وأصبح مرجعاً للغة العربية فى جامعة برلين حيث تقدم لنيل إجازة الدكتوراه برسالة عن ترجمة كتاب « الجماهير فى الجواهر » لأبى الريحان البيرونى .

ثم أتيح له أن يعود إلى تطوان فالعراق فعمل بدار المعلمين بها .

* * *

— محمد زنيبر

قرأت لهذا الباحث عدة مقالات وأبحاث عميقة المبنى أهمها بحثه نحو تجديد محتوى ثقافتنا القومية .

وقد تعرض فى هذا البحث لمميزات الثقافة المغربية وقال : إنها تتمثل فى عنصرين : أن الثقافة المغربية يطلب منها الاتجاه العملى أكثر من غيره ، وأنها ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالدين ، ولم تستطع أن تخرج عن الدائرة الدينية .

ويرى زنيبر أن المغرب كان مكلفاً دائماً برسالة تاريخية تتجاوز حدوده الجغرافية ؛ فقد كان مسئولاً عن الدفاع عن الإسلام وتمكينه فى المنطقة التى يوجد فيها سواء من ناحية الشمال تجاه أسبانيا وأوربا ، أم فى ناحية الجنوب تجاه الصحراء وأفريقيا السوداء ، وكان عليه بالخصوص أن يدافع عن الدولة العربية فى أسبانيا ، وأن المغرب كان دولة حرب وجهاد وأن مهمة الأدب والفن والثقافة ملقاة على عاتق الأندلس.

* * *

وهو من المؤمنين بالوحدة العربية ، ويرى أن التضامن بين الأقطار العربية دائم

ومستمر فى كل أحداثه ، وأن عوامل الالتقاء موجودة ، يقول : « لسنا بإزاء شعوب مختلفة، فى أرومتها وعقليتها وثقافتها ولغتها بل إنه فى الحقيقة شعب واحد من المغرب إلى المشرق، يتكلم لغة واحدة ، وله عادات وتقاليد متشابهة ، يتكون من سلالتين أساسيتين : عربية وبربرية ، والتونسى ينتقل إلى المغرب فلا يشعر أنه غير وطنه ولا يجد نفسه غريباً ، وهناك مشخصات كثيرة متشابهة منها الموارد والثروة » .

ثالثا – الصحافة المغربية

ا – مهمة الصحافة المغربية

كانت الصحافة المغربية فى الأقطار الأربعة عملا هاماً وكبيراً وبعيد الأهمية فى معركة المقاومة ضد الاحتلال والاستعمار والحماية والنفوذ الأجنبى فى مختلف ميادينه . حتى يمكن القول بأنها هى التى حملت لواء الكفاح كله فى كل مجالاته دون استثناء وأنها عملت فى هذه الميادين :

- ميدان الثقافة : بدأت كل أعمال الثقافة عن طريق الصحافة ، حيث كان الكتاب العربى فى المغرب – وإلى عهد قريب – ضعيفاً متعثراً ، لايجد وسائل الطبع ، فإذا طبع تعذر نشره على نطاق واسع .
- ميدان الأدب : لم يكن للشعر والأدب مجال إلا الصحف ، وأغلب إنتاج أدباء المغرب وأعلامه نشر فى الصحف ولا يزال فى بطونها ، وعندما أراد العلامة عبد الله كنون كتابة أول دراسة للأدب المغربى نفض ألفاً وخمسمائة قصاصة من صحيفة ومجلة .
- الحركات الإصلاحية والسلفية وجدت مجال الدعوة لها فى الصحافة .
- الحركات الوطنية والكتابات السياسية وصلت إلى الشعب عن طريق الصحف وحدها .
- مقاومة الفرنسة الفكرية وكشف آراء الغربيين المغلوطة والرد عليها .
- أكبر حدثين فى تاريخ المغرب هما : حركة التجنيس فى تونس ، والظهير البربرى فى مراكش ، كانت الصحافة هى السلاح القوى الذى تصدى لمقاومتهما .
- كل كتابات الحرية ، والوحدة المغربية والوحدة العربية وجدت طريقها عن طريق الصحف .
- البحث فى مجال التاريخ والأدب ، وإحياء الذكريات القديمة ، الوقائع والأحداث ، وتاريخ الأعلام والأبطال ، تم كله عن طريق الصحافة المغربية .

• حماية اللغة العربية والدعوة لها وتطويرها وتنمية أسلوبها .

كانت الصحافة هي العامل الأول في تحقيقه .

• دعم الروابط بين أجزاء المغرب ، والصيحة من أجل كل حدث في القطر الآخر .

• دعم الروابط بين المغرب والمشرق ، وبين أجزاء الأمة العربية ، وبين المسلمين في جميع أنحاء العالم .

★ ★ ★

ولقد واجهت الصحافة في المغرب العربي مقاومة عنيفة من المستعمر ، لذلك قلما عاشت صحيفة أو مجلة وطنية طويلاً ، بعضها عاش شهوراً وبعضها عاش عاماً أو بعض عام ، ولقد جدد أصحاب هذه الصحف رسالتهم بصحف جديدة ، ولكنها كانت تلقى نفس المصير ، كانت قوانين الصحافة عنيفة ومتعسفة ، ولذلك حرصت هذه الصحف على أن تتناول الأمور في حكمة ورفق ، ولم تكن تستطيع أن تهاجم الاستعمار بل تداوره ، وإذا ذكرته أطلقت عليه كلمة ما : الأقوياء ، الأعداء ...

وإذا لم يمكن القول بأنها هاجمته في عنف وصرامة . فلا أقل من القول بأنها دافعته بشدة ، وظلت تدفعه دون أن تتوقف ، في إصرار ، لم تهزمها الضربات ولا الشائبات ، وتوقفت وصودرت وسجن أصحابها وكتابها ، وشردوا . ولكنها مع ذلك ظلت ثابتة تصدر عن خط واحد لا تتزحزح . كان هذا الخط هو حماية الشخصية العربية الإسلامية المغربية بكل ما يستطاع . حماية اللغة ، الإسلام ، التاريخ ، القيم ، المقومات .

فلم يكتب كاتب غربي كلمة إلا فنّدت ورد عليها ، لم يصدر قانون جائر إلا عورض ، لم يجر أمر دون أن تحفل به الصحافة .

ولم تنس الصحافة المغربية مهمتها الأساسية : حماية المقدسات والدفاع عنها ، ومقاومة التغريب وتطوير الفكر والأدب واللغة على النحو الذي يمكن لها النمو والحياة والقوة .

لم تكن جامدة ولا رجعية ، كانت متحررة في كلمتها ، جريئة صريحة ، تدعو إلى الأخذ من حضارة الغرب دون أن تفقد قواعدها ، تنقل صوراً مختلفة من الفكر الغربي .

ولكنها لا تنسى عظمة أمجادها الأصلية ، وهى مع هذا تواجه ضيق مواردها ، ولا تجد معونات لها ، وتلقى ألواناً من المتاعب فى مراجعة الدوائر المسئولة من ناحية ، وفى أعمال التوزيع من ناحية . ولقد حاول الاستعمار أن ينشىء صحافة ، وأن يجعلها ميداناً لدعوته التغريبية ، ولكن الصحافة الوطنية كانت أشد قوة وصدقاً ، لا تترك كلمة دون أن تكشف زيفها وتصحح هدفها .

ويمكن القول بأن الصحافة المغربية قد عملت فى هذه الميادين :

- الرأى السياسى .
- الإحياء الأدبى والتاريخى .
- الاهتمام بأدب مصر والمشرق وأعلامها .
- نظرات إلى فرنسا والأدب الفرنسى .
- نظرات إلى العالم الغربى
- الاهتمام بأجزاء المغرب وأقطاره .
- تركيز الاهتمام إلى الجزائر وفلسطين .
- مجال نشر الشعر ، والدعوة إلى تطوير اللغة والتعليم وتحرير المرأة .

وفى مراجعة واسعة لصحف المغرب العربى نجد أن قضية الصحافة كانت من هم الموضوعات التى عالجتها صحف المغرب ؛ فقد واجهت الصحافة خلال فترة الاحتلال مقاومة وضغطاً شديدين ، كان الاستعمار يعرف مدى قوة « الكلمة » ، فكان يسمح بها من أجل تخفيف التوتر ، وإطلاق البخار ، ولكنه لا يدعها تصل إلى مداها من القوة ، وفى فترات قليلة كانت الصحافة تحس بأنها تستطيع أن تقول كلمة الحق ؛ ولكن ذلك لا يستمر طويلاً .

وقد كانت الحركة الوطنية قد عملت على إنشاء صحافة تعبر عن رأيها ، وتدافع عن حقوق الوطن ، غير أن ذلك لم يتيسر على الوجه الأكمل حيث ظلت الرقابة مصلتة ، كانت الصحف خلالها تخرج بيضاء الأنهر ، وأصحابها وكتابها يقدمون للمحاكمة ، وتفرض عليهم الغرامات ويسجنون .

وقد واجهت تونس ثمانى سنوات كاملة لا تصدر بها صحف وطنية

(١٩١٢ – ١٩٢٠) تقول مجلة الفجر (أوت – أغسطس ١٩٢٠) : (مكثنا نحو ثماني سنوات لا نذكرها اليوم إلا بالسوء واللعنة ، وبالعالم نيف وأربعون ألف صحيفة ، لنا منها واحدة ، ولما تحصلنا على حق ظهور صحافتنا على مسرح الوجود رأينا أننا تحصلنا على شيء عظيم طالما تألمنا لفراقه ، وتطلعنا لإشراقه ، يجب علينا أن نخدمه بإقبالنا وأموالنا . لأن الصحف أفضل الوسائل المساعدة على حفظ اللغة ونشرها ، وخير ذريعة لتوثيق عرى الألفة بين الناطقين بالضاد ، والمترجم الصادق عن إحساس الأمة ورغائبها ، ولا نعد أنفسنا استمكنا تلك الوسيلة العظيمة حتى نستوفى لها هذين الشرطين : (١) حريتها أمام الإدارة العامة إلا فيما يؤاخذها عليه قانونها (العادل) (٢) وجود عدد منها بقدر حاجة البلاد يصدر يومياً على نمط الأهرام ووادى النيل والأخبار بمصر) .

★ ★ ★

وتعاود مجلة الفجر موضوع الصحافة (فيفرى – فبراير ١٩٢١) فتنظر إلى مصر وتقول : لولا الأمة المصرية لما تأيد المؤيد ولا سطع للمنار نور ، ولا خفق للوطنية لواء . ولا أضاء لها مصباح (١) .

لقد أقام المصريون هيكل نهضتهم العلمية وتربيتهم القومية على أساس الصحافة الوطنية والمجلات . فكانوا فى أول إنشائهم الصحف مقلدين لأوربا ، مقتصرين فى الأكثر على نشر أخبارها وما حدث فيها من الاختراعات والاكتشافات . واستعانوا بمن نزح إليهم من جيرانهم السوريين على إحداث حركة فكرية عامة ، كانوا فى أثنائها يحررون التحارير بكيفية كشفت عن حذق فى المحاكاة والمسايرة .. »

. وهنا مجال العبرة للتونسى ليتأمل بإمعان كيف أمكن لصاحب « المؤيد » أن يبرز لميدان الصحافة وهو أعزل من كل سلاح .

وقد أصاب تونس ما أصاب غيرها ، وجرى عليها ما جرى ، حتى آل أمرها إلى الوقوع فى أحضان فرنسا (خادمة العلم وناشرة المدنية) ولما أرادت النهوض وجدت أمامها عراقيل من السياسة وقيام نصراء القديم يناهضون دعاة الإصلاح ، فكان موقف المصلح بتونس من أحرج المواقف .. »

---

(١) تقصد صحف : المؤيد والمنار واللواء ومصباح الشرق

وما تزال قضية الصحافة هى الشغل الشاغل للصحفيين ، حتى إن نور الدين محمود وهو (٢) من أبرز الصحفيين التونسيين — يقول فى مجلة الأسبوع (٢١ جوان ١٩٥٤) :
إن مهمة الصحافة الرئيسية تنحصر فى توجيه الشعب التوجيه الحسن ، وإرشاده إلى مواقع الخطر ليتجنبها ، وتنبيه الحكومة لكل خطأ حتى تصونه ، غير أنها لا تقوم بمهمتها على أحسن وجه إلا فى جو الحرية الكاملة ، والضمانات الكافية للقائمين عليها ، إن هناك أحوالا وظروفاً تفرض على الصحافة الاحتراز والتحرى ، على أن هاته الأحوال لا يجوز أن تكون الصحافة من أجلها فى خطر ، فضلا عن أن تكون دائماً تحت هذا الخطر ..

فإذا كتب الصحافى شيئاً ، وكان رائده المصلحة العامة يقوده حسن النية فلا ضير عليه ، وإن لم يرق ذلك للسلطة الحاكمة . ولطالما كتبت فى الوضعية الشاذه التى تكتنف الصحافة العربية بهاته البلاد لا من حيث قانون الصحافة العربية ، ولا من حيث تسليط الأحكام الإدارية ، بل من حيث تعطيل الصحف بقرار وزارى .

فمنذ خمسة عشر عاماً والصحافة العربية بتونس تحت سيف هذا الأمر ، فضلاً عما هى فيه وضعية قانونية شاذة ... »



وفى الجزائر كانت جريدة البصائر (بعد الحرب الكبرى الثانية) عملاً ضخماً بعيد المدى فى الحفاظ على اللغة العربية ونشرها ، وخلق جيل من الكتاب الجزائريين يكتبون باللغة العربية على نحو لا يقل عن زملائهم فى المشرق العربى وفى تونس ومراكش ..

وفى (٢٦ سبتمبر ١٩٤٩) وفى أول العام الثالث لإصدارها الثانى يصور الشيخ البشير الإبراهيمى رئيس التحرير كيف جاهدت البصائر : « قطعت عامين فى جهاد للظلم مستمر ، وجلاد مع المبطلين مستمر ، بعد ما قطعت أحوال صباها على التمرس على الإقدام والارتياض على الاقتحام ، واجهت أحداثاً مثيرة ، فى ميادين كثيرة ، فجال منها القلم جولات موفقة ، إن أخطأه النجاح لم يخطئه الإخلاص ، عالجت قضية الأحزاب ، وهى الفتنة التى مزقت الشمل ، وصدعت الوحدة ، وأفسدت ما صلح من ضمائر الأمة التى نفخ فيها الإسلام من روحه ، فحاربت الحق بالباطل ، ووقفت عرضة

---

(٢) له ملحق دراسة من ترجمة حياته .

للتعليم العربى الدينى الذى هو الزاد الروحى لهذه الأمة ، فبينت « البصائر » النهج القويم ، وفى قضية فلسطين ، ولفلسطين على كل مسلم حق ، وفى عنق كل عربى عهد ، قامت البصائر ببعض الواجب على مسلمى الجزائر ، وكتبت المقالات ، ونعت على العرب وملوكهم تواكلهم وتخاذلهم واغترارهم ، أمراء العرب الذين لم يأكلوا تراث العرب ، ولكن أضاعوه ، ولم يحفظوا مجد الإسلام بل باعوه » ..

وظلت « البصائر » تقاوم ، وهى اللسان العربى الوحيد فى الجزائر ، تحمل رسالة الحق ، وتلقى مزيداً من العنت والضيق المادى والمقاومة من المستعمر .

ويصور (البشير الإبراهيمى) هذا فى أوائل العام الرابع (٨ يناير ١٩٥١) « لم تصب « البصائر » فى جميع عهودها بأزمة مالية كالتى وقعت فيها فى هذه السنة، ولم تعان من الضيق المادى مثلما عانت فى هذه السنة ، فكان ذلك بعض الأسباب فى تأخر سنتها إلى اليوم ، والسبب أن ليس للبصائر مال احتياطى ترجع إليه فى الأزمات ، ولا مورد آخر كأجور الإعلانات ؛ إنما تعتمد البصائر على شىء واحد ، وهو قيمة الاشتراك وثمن البيع ، فإذا قصر هذا المورد ففى جهود مديرها الخاصّة ما يضمن انتظام صدورها واستمراره .

وقد تعففت عن المطاعم المشتبهة ، والموارد المكدرة ، ولو أغضت قليلاً وترخصت لكانت أغنى جريدة فى هذا الشمال ؛ فقد عرضت عليها مئات الآلاف ثمناً للإعلان عن شىء تسعه الإباحة ، ويضيق به المبدأ ، فآثرت المحافظة على المبدأ ، وعرض عليها مليونان فى السنة ثمناً للإعلان عن سلعة تتجاوز بها جوانب منها المريب ، فأعرضت عنها ترفعاً ، وعرض عليها نصف مليون ثمناً لفتوى فرأت أن هذا الحال هو جزء من آلاف الأجزاء مما يؤخذ من الأمة الجزائرية بهذه الفتوى، فأعرضت عنها ، وإن صغار النفوس من الفقهاء ليبيعون مثل هذه الفتوى ببضعة آلاف من الفرنكات .

وكانت « البصائر » فى سنتيها الماضيتين تخرج كفافاً لا عليها ولا لها ، أو تخرج بقليل من الدين يسدد من دخل السنة الجديدة ، فلما ضربت الأزمة العالمية بأرواقها ظهر أثرها على البصائر فى نصف السنة الماضية تتجلى الأسباب فى النقص الملموس فى البيع ، وفى ارتفاع أجور الطبع وسعر الورق . »

وهكذا كانت الصحافة العربية فى الجزائر تقاوم ، وفى جنوب الجزائر صدرت صحافة عربية لها دورها أيضاً فى إيقاظ الوعى ، وحملت راية النهضة الإصلاحية والعلمية ، يقول الشيخ أبو اليقظان :

« اجتازت النور مرحلة السنة الأولى وهى محفوفة بالأخطار ، محاطة بالمعاطب والأهوال من شدة الأزمة المالية الآخذة بالخناق ، ومن تسمم الجو السياسى ، وضيق مجال الكاتب فيه ، وانقطاع منابع الثروة الشرقية الأدبية عنه ، وخطورة مركز الصحافة العربية ، وإعراض جل الأمة عن الصحافة ، وصدورها عن كل ما يتصرف فيها ، اجتازت هذه الأزمات كلها وهى ثابتة الجأش ، راسخة القدم ، مستقيمة المنهج ، متحدة الخطة ، جاعلة الصدق شعارها ، والحكمة والاعتدال مسلكها ، والنهوض بالأمة إلى الحياة الحقة رائدها . قاومت سموم التفرقة ، وجراثيم الإباحة والشيوعية الهدامة ، ولكنها مرت عن لغو أخصامها مر الكرام ... (١) »

والشيخ الأطفيش العالم الجزائرى الذى أقام بالقاهرة منذ سنوات يصور فى مجلته « المنهاج » كيف أن الصحافة فى الجزائر : مغلولة الأيدى ، مصفدة الأرجل ، قلما بدرت منها صراحة فى شىء إلا ونالها الإرهاق والوعيد والتنكيل ، وهى فى غضون حياتها هدف لسهام الإدارات .

« .. لم يكن للصحافة الحرة الصادقة نصيب من الحظ الحسن بشمال أفريقيا تحت لواء فرنسا .. هدف لا لإيقافها فقط ؛ بل لاضطهاد أصحابها ، واتخاذ كل وسيلة لإرهاقهم إن كانوا من الذين يريدون الخير لأمتهم .

فالجريدة إن لم تسبح بحمد الحكومة وتصور الخيال حقيقة وتعرض عما يرتكبه الظالمة من حيف وارهاق للمسلمين بصنوف العذاب فإنها تقتل وهى فى مهدها (٢) » .

وقد كان للصحافة العربية فى المغرب دورها الكبير فى إحياء اللغة وإعطائها المرونة والحيوية ، والتخلص من المحسنات البديعية . وعلى الرغم من الاضطهاد والمقاومة للصحافة المغربية فإن المغاربة لم يتوقفوا عن إصدار الصحف باللغة العربية ، بل إنهم فى سبيل إبلاغ آرائهم الوطنية أصدروا الصحف باللغة الفرنسية ، وبها ألفوا الكتب أيضاً ، وصدرت فى باريس عاصمة فرنسا جريدة « مغرب ١٩٣٣ » كما صدرت مجلة شباب الإسلام » فى الجزائر ١٩٤٩ أصدرها الأستاذ كيوان .

★ ★ ★

(١) ٢٧ سبتمبر ١٩٣٢ – جريدة النور

(٢) جمادى الاولى ١٣٤٤ – ١٩٢٥ – المنهاج (توفى الشيخ الاطفيش فى نهاية عام ١٩٦٥)

ب الصحافة المغربية فى الحركة الوطنية

« عاشت الصحافة الوطنية المغربية على المقاومة ، كانت الرقابة مسلطة عليها اغلب الوقت ، ومن عام ١٩٣٧ الى عام ١٩٥١ عاشت الصحافة فى المغرب وفى الجزائر تحت قيود قاسية ، وعلى الرغم من احكام المصادرة والسجن والاغلاق ، واصلت الصحف الصدور وقدمت الضحايا ، وحفظت شرف الكلمة ، كانت تخرج احيانا بيضاء الانهر ، وسقط كتابها تحت المحاكمات ، ولكنها استطاعت ان ترد على كل ادعاء ، وترد كل عدوان »

* * *

لاشك أن الصحافة المغربية قامت بدور ضخم فى معركة الحرية والمقاومة والتجمع للوحدة المغربية ، والوحدة العربية ، والأخوة الإسلامية .

يتمثل هذا فى :

١ — افتتاحيات الصحف اليومية الكبرى فى كل هذه الأقطار . .

٢ — مقالات فى صحف تونس عن الجزائر وليبيا والمغرب ، وفى صحف الجزائر عن تونس والمغرب وليبيا ، وفى صحف المغرب عن الجزائر وتونس وليبيا.

٣ — صحف بالفرنسية فى الوطن أو خارجه للكشف عن وجهة النظر الوطنية .

٤ — مقالات فى الصحف العربية فى المشرق من عشرات من كتاب المغرب بأقطاره الأربعة المقيمين أو المهاجرين ، وأغلب هذه المقالات مذيل بتوقيعات رمزية خوف البطش .

٥ — صحف تصدر فى المشرق تحمل لواء القضايا التحريرية ، فى مصر مثلاً « المنهاج » لإبراهيم أطفيش ، « والهدى الإسلامى » للخضر حسين .

* * *

وكانت هناك المناسبات الكبرى للأحداث ، لا تمردون أن تتلقاها الصحافة المغربية بالتذكير :

الظهير البربرى (مراكش – ١٦ مايو ١٩٣٠) ، (الاحتلال الفرنسى لتونس– ٨ مايو ١٩٤٥) ، (معركة سطيف فى الجزائر).

محاولة التجنيس (تونس) ، المؤتمر « الأفخارستى » التبشيرى .

وفى معركة سطيف التى قتل فيها ٣٥ ألف جزائرى نجد هذه النماذج :

١ – « فاجعة ماى (مايو) ١٩٥٤ فى الجزائر » .

« خرجوا يوم الاحتفال بالمدنة يطوفون بالشوارع ، ويحملون علم الجزائر الذى يمثل راية الأمير عبد القادر .

« هاجموهم وأسقطوا العلم ونشبت معارك ، وقاتل الأولون بالعصى والحجارة ، مائة قتيل فرنسى ، وعشرات آلاف من القتلى الجزائريين ، سجن مالا يقل عن ٢٠٠ ألف سجين . ،

« مؤامرة مدبرة سلح فيها الفرنسيون لقتل الشعب الجزائرى » .

٢ – يوم ٨ مايو ١٩٤٥ . فى الجزائر خرجت جموع الفتيان والفتيات متظاهرين فى المدن والقرى ينشدون أغانى الحرية ، لم تمض ساعات قلائل ، حتى تبدلت الحال من مظاهرات سلمية إلى معارك دامية دارت رحاها فى نواح كثيرة من القطر الجزائرى ، راح ضحيتها أكثر من ٣٥ ألف قتيل .

٣ – ذكرى ٨ ماى (٨ مايو) .

« يا يوم لك فى نفوسنا السمة التى لا تمحى ، والذكرى التى لا تنسى » .

إن إحدى وأربعين قرية دكت ، بالطائرات والوحدات البحرية ، لم يبق فيها ديار وحيوان وأن معدل سكان القرية الواحدة ألف نسمة ..

وفى « مأساة الجلاز » تعددت كتابات الذكرى (والجلاز مقبرة تقع بالجنوب الشرق من العاصمة تونس يعدها السكان حرماً ، وهى من أملاك الأوقاف لاتباع ولا تشرى لهذا اعتبر السكان تحويلها إلى أملاك الحكومة المغتصبة عملاً غير مشروع) .

وفى ٧ نوفمبر ١٩١١ تجمهر الفرنسيون بضواحى مقبرة الجلاز وبرغم تدخلات

شيخ المدينة لم يتفرقوا ، قامت معركة دامية بين الأهالى والفرنسيين ، وحكم بالإعدام على ١٢ شخصاً .

وفى ذكرى (١٦ ماى – مايو) (بمناسبة صدور الظهير البربرى فى مراكش تظهر الصحف مجللة بالسواد ، يحيط بها من كل ناحية ، ويكتب هكذا :

« ذكرى ظهور السياسة البربرية الغاشمة فى بلادنا ، أيدتها مساعى الكهنة الكاثوليكية . واستغلوا ممثلى عهد الحروب الصليبية .

وفى ١٢ ماى ١٩٥٤ صدرت جريدة الصباح فى تونس (بعنوان) كبير :

« اليوم ذكرى انتصاب الحماية الفرنسية على البلاد التونسية ١٨٨١ »

وكان للصحافة مواقف حاسمة فى عشرات من معارك المقاومة والتحرير ، على الرغم من كل القيود التى فرضت عليها ، حتى يمكن أن يقال : إن الصحافة هى الشطر الأكبر من الحركة الوطنية فى العالم العربى كله ، وفى المغرب وفى أكبر قضايا المغرب العربى كانت الصحافة ذات دور فعال ؛ وحققت النصر للقوى الشعبية والهزيمة للاحتلال ، ولا ينسى فى هذا دور الصحافة التونسية من معركة التجنيس ١٩٢٤ ، وعشرات المقالات التى كتبتها صحف « الوزير » « ومرشد الأمة » « والنديم » « والفجر » (جمعها الفلاح الجيلانى فى كتاب : الشعب التونسى والتجنيس) .

والمعروف أن كل صحيفة كانت تمثل حزباً أو هيئة ، وقلما كانت الصحف غير منتمية ، ولم يكن ذلك ميسوراً ، لأن الصحافة المجاهدة لا تكسب ، وليست أعمالاً تجارية تدر الربح ؛ ولذا لم يكن بد من وجود قوى وراءها .

وهذه الأحزاب كانت فى الأغلب مناهضة للاستعمار وموالية للسلطان أو الباى أو الداى . ثم ظهرت صحف معتدلة تحاول أن تقابل المحتل فى منتصف الطريق ، وتأخذ منه ما يعطيه ؛ كما أن الاستعمار نفسه أنشأ صحفاً تتحدث باسمه .

مثلاً فى عام ١٩٠٢ كان فى تونس صحيفتان عربيتان : « الرائد التونسى » و « الحاضرة » ، بينما كان هناك ١٥ صحيفة فرنسية وصحيفة إنجليزية وصحيفة إيطالية .

وفى الجزائر أصدر الفرنسيون (المرشد الجزائرى) عام ١٨٣٢ ، وتوالت فى الصدور صحف فرنسية غير رسمية ، تسبح بحمد فرنسا ، كما أصدرت فرنسا فى الجزائر بعد الحرب العالمية الثانية صحفاً عربية : كالحقائق ، وبلادى .

أما فى المغرب فقد أصدر الاحتلال الفرنسى صحيفة عمرت طويلاً ، وعاشت سنوات احتلاله تحت أسماء مختلفة ، وهى جريدة السعادة (أكملت ٤٤ سنة فى ٢٦ نوفمبر ١٩٤٦)

وقد عنيت هذه الصحيفة فى تاريخها الطويل بأن تنقل وجهة نظر فرنسا ، وأن تحى مشروعاتها وأفكارها ، وأن تدافع عن عملها فى مجال الربط بين فرنسا والمغرب .

وقد وجهت اهتمامها للثقافة الفرنسية وعملائها فى العالم العربى تنقل آثارهم من الصحف المصرية وغيرها .

تقول تحت عنوان « مستقبل الثقافة الفرنسية » :

« وها هم أصدقاؤها (أصدقاء فرنسا) الذين عرفوها حارسة الحضارة وحاملة مشعل الفكر ، وباذرة بذور العلم والمعرفة ، وأعجبوا بها ثائرة ومحررة للشعوب ، يرقبون بعثها متلهفين ، ولا يكتمون ابتهاجهم بكل خطوة تخطوها . ولا ننسى أن اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية انتشرت فى وقت ما انتشاراً تعذر الحد منه ، وقد تنبه الإنجليز منذ عشرين سنة إلى أهمية الدور الذى تمثله الثقافة واللغة فى التقريب بين الأمم ، فنشطوا للعمل ، وأنشئوا فى معظم بلدان الشرق الأوسط معاهد بريطانية ، واستخدموا فى اجتذاب طلاب المعرفة شتى طرق الترغيب والتشويق .. »

ومن بين عناوينها الكبرى

كيف أنقذت الحماية الفرنسية من المسبغة والمجاعات ، الشمال الأفريقى .

وهى تفخر بأن « أعظم كاتب فى الأقطار الإسلامية فى الوقت الحاضر (طه حسين) له أسلوب متساوق ، على غرار مارسيل بروست الفرنسى ، وأصبح يتمتع فى الشرق بمثل ما كان يتمتع به رينان فى الغرب .

وفى مقال « الثقافة الفرنسية وأثرها فى الأدب العربى الحديث (لعميل عربى متفرنس) يقول : إن فرنسا الأدبية حية فى كل مكان يستبق فيه روح إنسانى ، كما نشرت وأبرزت محاضرات لطه حسين ألقاها فى باريس ومصر يشيد فيها بفرنسا .

ومحمود عزمى تولى صحافة المغرب الاهتمام بزيارته (١٩٤٦) تقول : إنه حل بعاصمة المغرب (الرباط) ليشاهد حقيقة ما كان يقرؤه فى الكتب من أن المارشال (ليوطى) بذل جهوداً كبرى فى تنسيق عاصمة المغرب وجعلها مدينة عصرية جميلة ، ومقالات هامة عن المغرب حين يحتفل بذكرى مرور ثلاثة عشر عاماً على وفاة المارشال ليوطى (٢٤ يوليو ١٩٤٧) حبيب المغرب والمغاربة .

كما تعنى بجهود المطبعة الوطنية فى باريس فى طبع الكتب العربية ، ... الخ ولهذه الصحيفة شبيه فى الجزائر وليبيا وتونس ..

ولم يكن لهذا كله فى نفوس المغاربة إلا الأثر العكسى ، ورد الفعل فى التمسك بالقيم والتاريخ والأمجاد العربية الإسلامية .

وفى (الجزائر) حيث كان التضييق الاستعمارى على أشده . صدرت صحف عربية ساعدت على انتشار العربية مساعدة عظيمة ، وجعلت اللغة الفصحى تتوغل وتنتشر فى مختلف الأوساط ، وترقى اللغة الدارجة التى هى لغة عربية محرفة بعض التحريف ، وفى مقدمة هذا صحف جمعية العلماء التى حررها عبد الحميد ابن باديس :

المنتقد ، والشهاب ، والبصائر ، والإصلاح

وقد كتب فيها : البشير الإبراهيمى ، والطيب العقبى ، وأحمد توفيق المدنى ، والعربى التبسى ؛ وهم أعلام النهضة إذ ذاك ، وفى جنوب الجزائر أصدر الشيخ أبو اليقظان إبراهيم (١) صحف وادى ميزاب وميزاب ..

وقد حملت لواء الدعوة إلى الإصلاح والنهضة باللغة العربية .

وكان لهذه الصحف دورها فى رفع مستوى اللغة وتقريبها من لغة المشرق . ودفع عادية العامية والحروف اللاتينية والفرنسية وغيرها . يقول إحسان حقى : من يطالع جرائد تونس والجزائر والمغرب لا يكاد يرى فرقاً بينها وبين جرائد مصر وسوريا ، ويرجع ذلك إلى طليعة الشبان الذين درسوا فى البلاد العربية ، وقد حافظ الشمال الإفريقى على اللغة العربية ، سليمة غير مشوهة ، وهو البلد العربى الوحيد الذى يلفظ العربية لفظا صحيحا ويحافظ على مخارج حروفها .

* * *

ويقول زين العابدين السنوسى . إن جريدة الرائد التونسى التى أصدرها والده فى تونس هى أول جريدة ظهرت فى المغرب العربى كانت تسعى لتوجيه الأمة نحو النهضة الحديثة والتطور السياسى .

وقد عنيت صحافة المغرب بالدفاع عن قضايا :

---

(١) فى جنوب الجزائر برزت نهضة اصلاحية وثقافية : اقرأ فصل ابراهيم ببوض .

اللغة العربية ، التعليم العربى ، الإسلام ، الوحدة المغربية ، الحرية والاستقلال ...
وكانت المقالات السياسية والوطنية هى الأغلب الأعم ، حتى يقول روم لاندو : إن المقالات اليومية والنضال الوطنى استهلك الكتاب فى هذه الفترة قبل ١٩٥٥ ، ولما كان النقد الصريح لعدوهم يطوح بهم فى السجون فقد لجئوا إلى الهجاء والنقد المبطن ، أخفوا ما فيه من لذعات وراء ابتكارات أسلوبية ، وحدثنا الشيخ البشير الإبراهيمى عن (سجع الكهان) الذى كانت تنشره « البصائر » وهو فن الأدب الرمزى ، يقول فيه الكاتب مايريد دون أن يقع تحت طائلة عقوبات قوانين الصحافة .

ولم تخل الكتابة برغم هذا من صيحات جريئة ، وكتابات تهز وتثير الاستعمار الفرنسى ، حتى إن « السيد بن رجال » التونسى وهو صاحب قلم فرنسى كتب مقالاً فى المجلة الآسيوية عام ١٩٠٥ عن مستقبل الإسلام فى أفريقيا الشمالية فقال : « إن الإسلام سينبعث من تحت أفواه مدافع المسيحية » ..

واهتز الفرنسيون لذلك بعدما وجدوه منشوراً بلغتهم..

ومن أبرز الصحف العربية الفرنسية : المستقبل التونسى . وسبيل الرشاد . التى كان يحررها الثعالبى باللغة العربية ويكتب مقالاتها النارية ثم تترجم إلى الفرنسية ولا ننسى جريدة « الإسلامى الأسد » التى كان يحررها سليمان باشا بعد أن ترك طرابلس مهاجراً (أبريل ١٩٠٨) ، وكانت تصل سراً إلى طرابلس وبرقة وتونس والمغرب كله . تحمل صيحاته النارية .

وفى عشرات من صحف مصر كتب الحبيب بورقيبة . وعلال الفاسى ، والفضيل الورتلانى وعبد العزيز الثعالبى .

وأمامى كلمة لصديقنا الأستاذ محمد الحاج ناصر الجزائرى رئيس تحرير مجلة المعرفة الجزائرية اليوم فى (مقتطف نوفمبر ١٩٤٧) عن الثقافة العربية فى الجزائر ، يستصرخ العرب لمحاولة فرنسا تخليص الجزائريين من عروبتهم والانقطاع عن وطنهم ، والاندماج الروحى فى العائلة الفرنسية الكبرى ، ضماناً للاندماج السياسى ، وإبادة القومية الجزائرية من أسسها الأولى ، بمحاربة الثقافة العربية فى الجزائر .

* * *

والحق أن الكتاب فى المغرب العربى قاوموا بعنف ، واستشهدوا فى سبيل كلمة الحق وسجنوا وشردوا .

وكانوا يعلمون أن القانون الفرنسي المطبق فى بلادهم ينفرد من بين قوانين العالم بحق مؤاخذة الكاتب على (نيته) التى يفرضها الحاكم عليه وعلى ما يعتبره الحاكم أنه سينشأ من أثر من كتابته ولو لم ينشأ بالفعل . ومع ذلك لم يتوقفوا عن المقاومة ، ولم يمنعهم هذا من العمل بقوة .

من أعلام الصحافة المغربية

١ ـ عبد الكريم غلاب

« موقعنا الجغرافى يجعلنا أقرب نقطة فى أفريقيا إلى أوربا وأمريكا ، وقريبين إلى قلب أفريقيا . فباب المغرب مفتوح على تيارات حضارية مختلفة وهى تيارات قوية سالبة وموجبة ودافقة وقابلة ، ونحن بموقعنا الجغرافى نحرس المدخل الغربى لحوض البحر الأبيض المتوسط الجنوبى . وعلى ضفاف هذا الحوض انبعثت حضارات وانتشرت حضارات : حضارة مصر واليونان والفنيقيين والرومان والعرب . وحضارة الأمم اللاتينية بعد ذلك ، وازدهرت على ضفاف هذا الحوض الحضارة الحديثة .

أخذ العرب عن اليونان والرومان علومهم وحضاراتهم واختراعاتهم وما أخذوه عن الفرس إلى شواطئ الحوض الشمالية ، هذا الحوض الذى نحرس مدخله الغربى . وإذا كنا قد ناهضنا كل اتصال يكتسى صبغة استعمارية فإن نفوسنا كانت دائماً متفتحة لكل عمل حضارى . فتقبلنا ونقلنا وساهمنا فى نشر الحضارة بمعناها الأوسع . ودافعنا عنها ، وحمينا حضارتنا بعد ذلك من كل عادية ، ومن كل اتجاه نحو التحطم ..

وكان موقعنا الحضارى أيضا يؤثر فى انتقال الحضارة العربية بدينها ولغتها وأدبها وما اكتسبته من حضارات الأمم التى فتحتها . فقد كان المغرب منتهى الشوط لانسياح العرب نحو الغرب براً ، ولكن همة البربر والعرب جعلت من المغرب محطة استقبال وإرسال . وجعلت منه مركزاً لنقل الحضارة العربية نحو الأندلس ، وحماية هذه الحضارة من فكرة الاسترجاع الصليبية ، التى ظلت تراود الإسبانيين زهاء ثمانية قرون . حتى حققتها إيزابيلا الملكة التى دخلت ملكوت المسيحيين بما قامت به من حملة منكرة متلفة على حضارة العرب ودينهم وعلومهم وآدابهم وفنونهم ، بل على الإنسان العربى المسلم ، وعلى الفكر العربى المسلم . ودور المغرب فى تحمل حماية الفردوس المفقود أربعة قرون أو تزيد سجله التاريخ .

ثم قامت محطة الاستقبال هذه بإرسال شعاع الحضارة العربية الإسلامية نحو الصحراء

وما وراء الصحراء من بلاد السودان ، وتوغل المغرب فى قلب إفريقيا ناشراً العلم والمعرفة والحضارة والدين ، وكان له دور مهم ولم تعقه متاهات الصحراء والأدغال والغابات عن أن يؤدى رسالته الحضارية .

تقبلنا من حضارة الرومان كل ما لا يدخل فى باب الاستعمار ، وتقبلنا علوم اليونان عن ط يق العرب ، وتقبلنا حضارة العرب ودينهم ولغتهم وأدبهم . وأسهمنا فى كل وسائل الحضارة هذه بما توحيه عبقرية المغرب ، ثم رحلنا بحضارتنا هذه مجتازين مضيق الحوض إلى الأندلس وجنوب فرنسا ، وحمينا هذه الحضارة ما يقرب من ثمانية قرون ، مؤثرين ومتأثرين ، ودعمنا أسس هذه الحضارة فى المغرب العربى فى الجزائر وتونس، وحتّى ليبيا نفسها ، وانتقلنا بحضارتنا وديننا ولغتنا إلى الجنوب؛ إلى السنغال والسودان ، وإذا كانت هذه الهجرات الحضارية فقد اكتست فى بعض الأحيان صبغة فتح ، ولا أقول استعمار ، وتمت فى بعض الأحيان عن طريق حرب أو توسع حكم ، فإنما ذلك اتباعا لسنة لم يعرف العالم غيرها حتّى اليوم ؛ وما ندافع عن الملوك الذين كان الفتح فى نيتهم كوسيلة لتدعيم أسس حضارة معينة ، بقدر ما ندافع عن الشعب الذى نشر الحضارة مفيداً ومستفيداً ..

ومن ثم كان المغرب يحافظ على أنه أمة مسلمة لأن حضارة الإسلام بما فيها العقيدة والخلق والفكر الاجتماعى سيرت تاريخه ، وكونت وحدته منذ أزيد من ثلاثة عشر قرناً ، وفهم الإسلام فى المغرب كان فهماً سليماً لم تغلب عليه خرافات المضللين والجاهلين بأصول الإسلام ؛ ولذلك لا خوف على المغرب من أن تمسه تيارات إلحادية أو لا إسلامية .

وكان المغرب يحافظ على عروبته ، لأن العروبة هى التى طبعته بطابعها منذ دخل العرب هذه البلاد معلمين ومثقفين ومكافحين مع البربر فى سبيل العقيدة وتركيز الحضارة العربية .. »

هكذا يكتب عبد الكريم غلاب أكبر صحفيي المغرب ، ورئيس تحرير جريدة « العلم » : أقدم الصحف الوطنية فى (الرباط) ، ومنشئ عشرات من الدراسات والأبحاث فى مجلات : « رسالة المغرب ، والبنية ، وأفاق » وعديد من المؤلفات .

وهذا الطابع المغربى العربى الإســـلامى فى تفكير عبد الكريم غلاب رمز على

المدرسة الوسطى التي بدأت حياتها في مجال السلفية والدعوة الوطنية والحركة الاستقلالية وحولتها إلى عقيدة ومذهب وبرنامج .

يقول : توزعني العمل السياسي والصحفي والثقافي ، وما أنا بمستطيع الخلوص لأحدها . وفي كل منها جاذبية فكرية وعاطفية وعقلية . ولذلك لم أستطع أن أنصرف عنها جميعاً إلى العمل الدبلوماسي الذي اختارني يوماً ما حينما كنت وزيراً مفوضاً في وزارة الشئون الخارجية. فقدمت استقالتي منجذباً بجاذبية الفكر والقلب والعاطفة . ثم عرض على منصب سفير عدة مرات فرفضت مؤثراً ما أنا فيه .

وقد عرفت السجن كما عرفه معظم الذين انغمروا في حياة الكفاح ، وربما عرفته مرة أخرى . فما يزال بي شوق إلى عالم ما خلف البوابات السبع » .

هكذا كان يكتب عبد الكريم غلاب قبل الاستقلال ، وهو يواصل الآن رسالته ، فقد تخرج في كلية الآداب في القاهرة ١٩٤٥ وعمل في التدريس ثم في الصحافة محرراً في جريدة « العلم » اليومية ، فرئيساً لتحريرها ومديراً لها . كما حرر مجلة رسالة المغرب . ونشر عديداً من المقالات الأدبية والسياسية في الصحف المصرية (الأهرام الرسالة — الثقافة) وعدداً من القصص والأبحاث الأدبية والثقافية في معظم المجلات التي صدرت بالمغرب منذ ١٩٣٦ .

أبرز مؤلفاته « نبضات فكر » ١٩٦١ يضم مجموعة خواطر يومية تتسم بالعمق والبساطة والتفتح :

« كنت وما زال أعتبر الفكر للإنسانية بمثابة القلب للإنسان ، والقلب ينبض فتدب الحياة في عروق الإنسان ، وتنفعل الأعصاب ، وتتجسم الإرادة ، وينطلق التفكير هادياً مهتدياً، ويعيش الانسان فاعلاً منفعلاً ، تمده بالحياة نبضات قلب انزوى في تواضع عند ركن منعزل من جسم طافح بالحياة .. »

وعنده أن القلم ليس ريشة وإنما هو فكر : يغذى القلوب ، ويلهب العواطف ، وينمى الإحساس ، ويهذب النزعات وانه من وحي السماء « هذا هو القلم ، آليت أن أضعه في طوق موضع القلب ، فهو له جار حينما أحمله »

ولقد حمل عبد الكريم غلاب — كما حمل كتاب المغرب — مسئولية كبرى بعد الاستقلال ، هي مسئولية بناء الوطن وبناء الفكر ، ولذلك تعددت

دراساتهم التى ضمنها كاتبنا مؤلفاته فى الإصلاح الفردى ، هذا هو الدستور ، الاستقلالية .

ومن مؤلفاته التى أعدها للنشر : « سبعة أبواب » وهى ذكريات حياته خلف قضبان السجن ، فيها تحليل صادق للحياة خلف الأبواب السبعة ، وتحليل لنماذج بشرية متناقضة يضمها عالم السجن .

وله قصتان كبيرتان : مات قرير العين : ودفنا الماضى .

وللأستاذ غلاب فضل فى تكوين مادة هذا الكتاب فقد كان معيناً لصاحبه فى كل مادة احتاج فيها الى عون .

★ ★ ★

٢ ــ عبد المجيد بن جلون

« أصبح جديراً بنا بعد هذه المرحلة الخطيرة التى قطعناها فى طريق الاستقلال كما نفهمه نحن ــ وكما نفهمه نحن وحدنا ــ أن نجدد أنفسنا وتفكيرنا وأساليبنا على نحو يتلاءم مع فداحة الأمانة التى لا مناص من أن تلقى على كواهلنا حتى نستطيع أن نبدأ المرحلة الدقيقة المقصودة من كفاحنا المرير خلال ربع قرن مضى ، مرحلة إعادة بناء بلادنا بوحى من مصالحنا الحقيقية قبل كل مصلحة أخرى ، بعد أن قضت هذه البلاد فترة طويلة وهى تبنى بوحى من مصلحة أجنبية كانت تتناقض فى كثير من الأحيان مع مصالحنا الجوهرية وإنه ليجدر بنا ونحن أمام مفترق الطرق أن نتبين المعالم الشاقة التى اجتزناها .

وإذا كان هناك أحد فى هذه الأمة يظن أن المرحلة التى حلت أو سوف تحل حتماً مرحلة جنى الثمار والخروج من حياة الكفاح ضد الاستعمار إلى رغد الاستقلال فهو واهم . إن تحطيم عهد مضى على فداحته عمل شاق ومرير ، ولكن بناء عهد جديد عمل أشق وأكبر . وشتان بين الأدوات التى توضع فى أيدى المكافحين لتقويض صروح الظلم والاستعباد ، وبين الأدوات التى توضع فى أيدى المصلحين لبناء أمة جديدة تحولت إلى أنقاض ....

لا يكفى مطلقاً أن نحصل على استقلالنا لأجل أن نتصور أن كل شىء قد انتهى ، فقد تعلمنا كيف نسترد هذا الاستقلال ، وبقى شىء ضخم آن لنا أن نتعلمه ، وهو

كيف نمارس استقلالنا ، ولا يكفى أن نسترد حقوقنا ثم نلقى بها فى سلة المهملات ، إن هذا العدد الكبير من الشهداء الذين فتحوا صدورهم لرصاصات الاستعمار الغادرة لم يضحوا بحياتهم لأجل أن نستمر نحن نعيش نفس الحياة التى كنا نحياها فى عهد الحماية الذاهب ، لقد سقطوا لأجل أن نرتفع نحن ، وسالت دماؤهم فى سبيل أن نحيا حياة جديدة كريمة لا تمت بصلة إلى حياتنا الماضية هذه ، الحافلة بألوان الذل والهوان ، إن الاستقلال ليس غاية ، ولكنه وسيلة لتحقيق حياة كريمة عادلة متكافئة تسمو بسمونا السياسى والثقافى والاجتماعى .

إذن فتحقيق الاستقلال شىء وممارسة الاستقلال شىء آخر ، إن الاستقلال يرفع عنا ظلم الأجنبى ، أما ممارسة الاستقلال فترفع عنا ظلمنا لأنفسنا .. »

* * *

ليس عبد المجيد بن جلون كاتباً سياسياً وصحفياً رأس تحرير « العلم » زمناً فحسب ، ولكنه كاتب وقصاص وشاعر ، كتب طويلاً فى صحف القاهرة ومجلاتها ، وله فى مجلة الثقافة المصرية عام ١٩٤٥ عديد من الدراسات والقصص . فقد كان أحد الأقلام المنافحة عن الوطن من خارجه ، وعبد المجيد بن جلون وعبد الكريم غلاب . إنما تعلما فى المشرق . وهذا هو سر روحهما المغربية العربية الإسلامية الواضحة . وله مؤلفات : « هذه مراكش » . « مارس استقلالك » . « وادى الدماء » .

وأبرز مؤلفاته التى اشتهر بها قصة حياته « فى الطفولة » وكان قد نشرها منجمة فى مجلة رسالة المغرب ١٩٤٩ قبل طبعها فى سفر واحد : وهى صورة حياته فى انجلترا والمغرب ومصر .

وله شعر كثير منثور فى الصحف ، وديوان أنيق « براعم » وهو من شعراء المغرب المجيدين ، ولد فى الدار البيضاء ١٩١٩ ، وقضى طفولته فى انجلترا حيث كان والده ممثلاً لبلاده بها ، ثم عاد إلى المغرب ، ورحل إلى مصر ، وأحرز ليسانس الآداب من جامعة القاهرة سنة ١٩٤٣ ، ودبلوم الصحافة ١٩٤٥ وشارك فى تأسيس مكتب المغرب العربى بالقاهرة ١٩٤٧ ، فكان سكرتيره حتى عام ١٩٥٦ . وهى عنده أخصب فترات حياته من حيث الإنتاج ، وقد عاد إلى وطنه ١٩٥٦ بعد استقلال المغرب ، وتولى رياسة تحرير « العلم » لسان حال حزب الاستقلال ، ثم تركها إلى وزارة الخارجية ١٩٥٨ وزيراً مفوضاً لبلاده ، فسفيراً فى دولة الباكستان .

وهو حي باللغة العربية : يقول : علينا أن نستحضر المعانى التى نريد التعبير عنها باللغة الفرنسية ، ثم نصبها بنفس الأسلوب فى اللغة العربية صباً .

* * *

٣ – أبو اليقظان ابراهيم : صحافة جنوب الجزائر

يمثل أبو اليقظان إبراهيم النهضة الصحفية فى جنوب الجزائر (القرارة) ونحن نترجم له عن ترجمته لنفسه . ، وهذه الترجمة تتيح رسم صورة للعصر وأسلوب الكتابة وطابع الفكر جميعاً .

ولد فى يوم الاثنين ٢٩ من صفر سنة ١٣٠٦ موافقة ٥ من نوفمبر سنة ١٨٨٨ م ومات أبوه وهو ابن عام وثلاثة أشهر وكان مولده فى بلد القرارة من قرى ميزاب ، وهى واحة منعزلة جديدة أنشئت فى عام ١١٤٠ تبعد عن غارداية بـ ١٠٢ ك م شرقاً .

وبعد أن تعلم القراءة والكتابة على بعض معلمى الصبيان فى الحضرة وهى الكتاب فى عرفنا ، وبعد أن حفظ القرآن الكريم عرضه عن ظهر قلب عام ١٣٢٣ هـ وعمره إذ ذاك ١٧ ربيعاً .

إثر عرضه القرآن ودخوله دار التلاميذ ، وهى مرتبة لا تخول عندنا إلا لمن حفظ القرآن كله . وعرضه على إمام المسجد . إثر هذا أخذ فى تعلم الفنون من نحو وصرف وفقه وتوحيد وأخلاق عن نور القلب : الشيخ عمر بن يحيى فى القرارة إلى عام ١٣٢٥ هـ . وفى العام نفسه فى شهر شوال انتقل بإذن شيخه إلى « بنى يزقن » ، لاستزادة تعلمه من قطب الأئمة الشيخ الحاج محمد بن يوسف أطفيش ، وهو فى مدينة العلم والمعرفة (١) إلى حوالى ١٣٣٠ هـ ، وفى أثناء ذلك فى عام ١٣٢٨ هـ قصد بيت الله الحرام ومر بالقاهرة فى أواخر شعبان من العام نفسه وليث فى مكة المكرمة مجاوراً إلى ما بعد موسم الحج ، وكان فى حسابه أن يعرج على مصر ليلتحق بالأزهر الشريف ، ولكن ظروف الزمن وقلة ذات اليد عاقته عن ذلك ، فرجع إلى الشيخ أطفيش . ثم بارح يزقن نهائياً فى عام ١٣٣٠ هـ ، ورجع للقرارة .

---

(١) ولد الشيخ اطفيش عام ١٢٣٦ – وتوفى عام ١٣٣٢ هـ ببلدة يزقن ، بعد ان ملأ سمع الدنيا وبصرها بذكره ، وترك مئات من التلاميذ ومئات من المؤلفات : كتب ورسائل . وعند الاستاذ ابى اسحاق ابراهيم اطفيش الخبر اليقين ، وهو عمه وشيخه معا .

وبعد أن رجع للقرارة تاقت نفسه للانتقال إلى تونس لمداواة بصره أولاً ، ولاستزادة تعلمه هناك فى سائر الفنون ثانياً . فذهب إلى تونس فى سنة ١٩١٢ م ، وما كاد يستقر فيها حتى أقفلت فرنسا مدرسة « أتبسه » القرآنية العربية — وهى أول مدرسة عصرية أنشئت فى الجزائر بهمة الزعيم الجزائرى السيد عباس بن حمانه وجماعته فحار بعض آباء التلاميذ — وقد لمعت فى عقولهم مخايل النجابة — إلى أين يتوجهون بهم ؟ وصحت عزيمتهم على أن يتوجهوا بهم إلى تونس الخضراء . وبعد أن أرسلوا رائدهم الشيخ سعيد عمر النفوسى الكاتب المعروف جاءوا بطائفة من نجبائهم لإيوائهم ، ففتحوا لهم مأوى يأويهم ويجمع شملهم وهى دار ابن خلدون . ثم ضموهم جميعاً إلى المدرسة القرآنية الأهلية التى كان يديرها الأستاذ محمد صفر .

ثم انتقلوا بهم إلى مدرسة السلام التى أسسها الأستاذ محمد الشاذلى المرالى فى سنة ١٩١٤ م . وقد اقتضى نظر الأولياء أن يحملوا أبا اليقظان مسئولية الإشراف على سير البعثة ، فتحمل أمانتها وقد شهد أول حفلة لتدشين المدرسة فى نفس السنة ، وألقى فيها أول خطاب من خطبه مرفقاً بقصيدة . وبعد أن سار التعليم فيها منهجاً قوياً رجع بهم فى سنة ١٩١٥ م لأسباب قاهرة — والحرب العالمية الأولى على أشدها — إلى بلدهم القرارة .

وبرغبة من بعض المواطنين فتح بهم وبغيرهم فى نفس السنة ١٩١٥ م مدرسة قرآنية على المنهج الجديد ، سار بهم سيراً حسناً حسب قدرته ومبلغه من العلم إلى آخر سنة ١٩١٦ م ، وهناك دعت دواع — والحرب العالمية على أشدها — إذ ذاك ، وبرغبة ملحة من طائفة من التلاميذ الكبار ، اضطر لإقفال مدرسته بالقرارة ، ورجع إلى تونس فاصطحب معه تلك الطائفة من التلاميذ ، وبذلك نقل أمله وأمل القرارة معاً فى مقابل مطامع أوسع تضطرم فى نفسه ، وقد حز هذا العمل فى نفسه وفى نفوس الناس زمناً ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم .

بعد أن تم الاتفاق بينه وبين طائفة من التلاميذ القدماء هرعوا إلى تونس فى أواخر ١٩١٦ م ، وفى أول يناير ١٩١٧ م أصبحوا فى تونس فالتأمت بهم وبغيرهم ممن تلاحقوا بعدهم بعثة تقدمت على المدارس وجامع الزيتونة فى النهار ، وفى الليل يجتمعون إلى مأواهم الكائن بنهج المدرسة السليمانية ، فدامت البعثة فى سيرها على هذا المنوال إلى سنة ١٩٢٦ م .

وما كادت تستقر قدمه فيها فى ١٩١٧ م حتى اخذت حركة الدستور تدب بتونس فاشترك فيها بزعامة الأستاذ الزعيم عبد العزيز الثعالبى الجزائرى . وبمشاركة الشيخ صالح بن يحيى ، والشيخ أبى إسحاق إبراهيم أطفيش ، .. الخ ، وسار معهم فى هذا الرعيل إلى سنة ١٩٢٠ م،فكان من أمرها ما كان ، حتى أبعد الأستاذ أبو اسحاق (١) إبراهيم أطفيش إلى القاهرة فى ١٩٢٣ م .

ومن الجدير بالذكر أن معارضة حادة قامت فى وجهنا ترمى إلى هدم البعثة بتونس من أساسها ، وقد فتحنا ضدها حرباً شعواء . فكتبنا لحمايتها الفصول الطوال فى جرائد تونسية معتبرة ، وألفنا رسائل . ولكن لم تزدد بذلك إلا عناداً وضراوة ففكرنا لأجل القضاء عليها حماية للبعثة أن تتخذ الجزائر قاعدة عملنا . فانتقل أبو اليقظان من تونس إلى الجزائر فى غضون سنة ١٩٢٦ م لإنشاء صحافة عربية وطنية لهذا الغرض . فأنشأنا جريدة (وادى ميزاب) برز أول عدد منها فى أول أكتوبر ١٩٢٦ م بين حواجز شائكة ومصاعب كثيرة جمة . فالاستعمار على أشده ، والطباعة الحقة الوطنية مفقودة . والمدير يجهل اللسان الفرنسى الذى لا حركة ولا سكون فى الجزائر إلا به . فذلل جميع هذه المصاعب ، وكان طبع الجرائد بتونس وتحريرها وإدارتها فى الجزائر . وقد أدى لنا الأستاذ التميمى محمد صالح . وهو مقيم بتونس إذ ذاك . مساعدة مثمرة جزيلة . جزاه الله عنا خيراً . وذلك بإشرافه على طبع الجريدة طيلة عمرها من (عدد ١ — إلى ١١٩) إلى أن تعطلت وكان يستعين ببعض أبنائه الشباب . الذين يحسنون اللسان الفرنسى ،على أعماله . وبهذه التدابير سرنا بالجريدة إلى ١١٩عدداً .

ثم بعد جهود جبارة أسسنا (المطبعة العربية) فى سنة ١٩٣١ م فى الجزائر ، والأزمة العالمية على أشدها . واقتحمنا غمرات . واجتزنا عقبات . وكان التعطيل يجر لهذا تباعاً بموجب القانون المصلت كالسيف على رقاب الصحافة العربية فى الجزائر . يجعل اللغة العربية لغة أجنبية فى بلادنا . وهى فى حكم القانون كاللغة الألمانية والإيطالية ... الخ . فصادر كل نشرة منها بدون محاكمة . فكانت جرائدنا تتساقط — كأوراق الخريف . كما ترون فى جدول داخل هذا .

أما مشائخه فإنه مدين فى عقيدته وأخلاقه وسلوكه الدينى إلى نور القلب الشيخ الحاج عمر بن يحيى فى القرارة . وإلى قطب الأئمة الشيخ أطفيش فى يزقن . وفى تفكيره السياسى إلى الزعيم الجزائرى الأستاذ عبد العزيز الثعالبى . وفى تثقيف قلمه

---

(١) توفى ١٩٦٥ بالقاهرة .

بالكتابة إلى صحف القاهرة ، ولا سيما اللواء المصرى الذى كان يديره الأستاذ أحمد وفيق ، ومجلة الفتح التى كان يديرها الأستاذ محب الدين الخطيب .

ولا أنسى فضل الأساتذة الأجلاء فى جامع الزيتونة (أمثال الشيخ طاهر بن عاشور المفتى المالكى فى التفسير والبلاغة ، والشيخ محمد النخلى فى التفسير ، والشيخ محمد ابن يوسف المفتى الحنفى فى التفسير والبلاغة ، والشيخ عبد العزيز حفيظ المفتى المالكى فى الأصول والنحو ، والشيخ أبو الحسن النجار فى النحو والأصول ، والشيخ الصادق النيفر المفتى المالكى فى النحو والسيرة ، كما لا أنسى فضل الأساتذة المدوسين بالخلدونية فى حسن تنظيم وتوجيه الفنون الحديثة ، خصوصاً الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب فى التاريخ ، والأستاذ محمد الأصرم فى الجغرافية ، والأستاذ محمد العبيدى فى الرياضيات ، والأستاذ محمد مناشو فى الإنشاء ، والأستاذ محمد العربى الكبادى فى فقه اللغة .

مؤلفاته لما تخلى عن ميدان الصحافة نهائياً منذ سنة ١٩٣٨ م للأسباب التى قدمناها إلى التأليف كما قال هو عن نفسه :

لويت عنان عزمى إلى التأليف فى هذه الفترة فألفت كتباً ورسائل عدة منها ما أنجز طبعه ، ومنها ما يزال مخطوطاً ، وفيما يلى بيان ذلك :

١ — سلم الاستقامة : (فى ٣ أجزاء) للأقسام الابتدائية فى فقه العبادات بأسلوب النحو الواضح . وهو الآن تحت يد الأستاذ الحلبى للطبع — وفى (٤) أجزاء فى فقه المعاملات للأقسام الثانوية ، (١) للقسم الإعدادى .

٢ — سليمان باشا البارونى فى أطوار حياته : (فى جزأين) ، ضمنته مجموعة من مراسلاته خلال أطوار حياته ، وهو مطبوع فى المطبعة العربية بالجزائر .

٣ — ديوان أبى اليقظان : فى جزء أول — يحتوى على ما قاله من شعر منذ صباه إلى حوالى ١٩٥٠ وقد قدمه بمقدمة فى فن الأدب العربى على غرار كتاب العمدة لابن رشيق القيروانى ، وطبع كذلك فى المطبعة العربية فى سنة ١٩٥٠ ، ويضاف إلى هذا الجزء الأول المطبوع بالجزائر ، ما قاله من شعر بعد طبعه ، ويؤلف نحو ضعفه فيما أظن ، ولا يزال هذا كذلك مخطوطاً .

٤ — خلاصة تاريخ الأباضية .

٥ — أهدافى العليا بالعمل فى هذه الحياة : وهى فى موضوع فريد من نوعه بالنسبة

لهذا الزمان وأبنائه لكنها من صميم كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٦ — تاريخ صحف الجزائر العربية فى الشمال والجنوب : ضمنها كل ما مر فى جهادنا الصحافى بالجزائر ، وهى كذلك مخطوطة .

٧ — بيان حقيقة فى الدفاع عن التجنيد الإجبارى فى ميزاب : وهى باسم الزعيم الشهير السيد عمر بن عيسى بن إبراهيم ، وقد طبعت بالمطبعة العربية بالجزائر .

٨ — بيانات واضحة عن أباضية وادى ميزاب : مخطوطة .

٩ — ملحق لسير البدر الشماخى الذى توفى فى عام ٩٢٨ هـ ، توقف بوقوفه . بيانات عن رجال الأباضية ، وفى هذه الفترة تألقت أقطاب ونجوم فى سماء العلم من رجال العلم والتشريع والفنون ، فعزمت على سد هذا الفراغ الواسع من رجال ٩٥٠ هـ إلى رجال ١٣٥٠ هـ — وأنا الآن فى صدد إتمام هذا الملحق .

١٠ — إرشاد الحائرين : وهى رسالة فى الرد على معارضيها فى إنشاء بعثة بتونس وقد طبعت فيها .

حرر فى ١٩ رمضان ١٣٨٣

أبو اليقظان

جرائدنا الموءودة

اسم الجريدة	تاريخ الصدور	تاريخ التعطيل	مجموع الأعداد
وادى ميزاب	١ أكتوبر ١٩٢٦	١٨ جانفى ١٩٢٩	١١٩ (١)
ميزاب			١
المغرب	٢٩ ماى ١٩٣٠	٩ مارس ١٩٣١	٣٨ (٢)
النور	١٥ سبتمبر ١٩٣١	٣ ماى ١٩٣٣	٧٨
البستان	٢٧ افريل ١٩٣٣	١٣ جويلية ١٩٣٣	١٠ (٣)
النبراس	٢١ جويلية ١٩٣٣	٢٣ أوت ١٩٣٣	٦
الأمة	٨ سبتمبر ١٩٣٣	٦ أجوان ١٩٣٨	١٧٠
الفرقان	٥ جويلية ١٩٣٨	٣ أوت ١٩٣٨	٦ (٤)

٤ ـ الهادى العبيدى

من أبرز الصحفيين فى تونس ، يرأس الآن تحرير جريدة الصباح لسنوات طويلة يقول فى حديث له مع مجلة الندوة : إنه قرأ فى مطالع حياته جريدة الوزير للشيخ الطيب ابن عيسى و (النديم) لحسين الجزيرى ، علمه أستاذه محمد الجعايبى صاحب جريدة (الصواب) الكتابة الصحفية ، وتطورت مقالاته حتى كتب فى موضوع (تعليم المرأة) فثارت فى وجهه ضجة عارمة فى الصحف .

وقد مارس الصحافة فى جميع فنونها ، مصححاً ومحرراً وناقداً وسكرتيراً ورئيساً للتحرير ، وعاش الحركة الوطنية والثقافية فى تونس .

وهكذا بدأ الصحافة من القاع وتطور معها ثم أشرف على الإذاعة فترة .

وله هوايته المحببة فى الكتابة للمسرح ، وله ديوان شعر . وتأثر بالمنفلوطى وأدباء المهجر .

وكان الهادى العبيدى قد تعلم فى الزيتونة وفارقها ١٩٢٧ ، واشترك فى الحركة النقابية . وكانت له رحلات اشترك فيها فى حلقات التمثيل إلى مصر ولبنان وقد مثل فى روايات محمد تيمور . وعمل مع فرقة رمسيس وجورج أبيض .

★ ★ ★

٥ ـ نور الدين محمود

من أبرز الصحفيين التونسيين ، أصدر مجلتى « الثريا » و « الأسبوع » ، وولى منصب الكاتب العام للإذاعة التونسية .

وقد كانت مجلة الثريا (١٩٤٣) والأسبوع (١٩٥٤) من أبرز المجلات التى حملت لواء الفكر والأدب والتاريخ فى فترة امتدت سنوات الحرب وقد انتفعنا بها كثيراً فى دراستنا .

وحدد نور الدين محمود هدفها فى أن تحمل مشعل النهضة الأدبية فى الشمال الإفريقى ، وخاصة فى فترة الحرب التى غلت نشاط الأدباء ومنعتهم ، ميداناً صالحاً يبرزون فيه ما تجود به قرائحهم ، فضلاً عن أثرها فى تعريف المشرق بأدب المغرب .

وأعلن نور الدين حرصه على أن يجعل من مجلتى الأسبوع والثريا عاملاً هاماً فى ربط الصلات بين البلاد العربية « وأبناء عمومتنا العرب » .

وجعل نور الدين محمود عنوانه الدائم فى افتتاحياته (لكل مقام مقال) ، وعنده أن مهمة الصحافة الرئيسية تنحصر فى توجيه الشعب وإرشاده إلى مواقع الخطر لتجنبها ، وتنبيه الحكومة لكل خطأ حتى تصونه .

* * *

وقد تناول موضوع اللغة فقال : نحن كشعب عربى عريق له فى العربية الفصحى قدم راسخة ، وقد كان لتونس الفضل فى إخراج ابن منظور صاحب « لسان العرب » ، وابن خلدون ، وابن عرفة ، والثعالبي ، وقال : إن هذا هو الذى « يجعلنا نولى اهتماماً كبيراً فى إخراج كافة الأحرف العربية من مخارجها ؛ الأمر الذى قل أن يتوفر فى بقية الشعوب ؛ ولنا أكبر جامعة لتدريس العربية بالعالم .

وقد ركز نور الدين محمود دور مجلة الثريا فى تعريف الأدب التونسى إلى المشرق ، وقال إن هدفها أن تحمل مشعل النهضة الأدبية فى الشمال الإفريقى وقال : إنه عمل على ربط الصلات مع البلاد العربية وأن الدول العربية احتفلت بها فى مصر والعراق والشـــام .

رابعاً – أدب الكفاح المغربى

١ – الأدب المغربى أدب مقاومة

أبرز معالم الأدب المغربى المعاصر :

• المقاومة لكل محاولات القضاء على الشخصية المغربية والكيان المغربى والتراث المغربى .
• التأثر بمناهج الأدب الفرنسى وأساليبه
• ظهور النزعة القومية المحلية . واستيحاء التاريخ القديم .
• التأثر بالأدب العربى فى مصر وأدب المهجر ، وبصحافة المشرق وأعلامه .
• إحياء تاريخ أعلام المغرب . وفى مقدمتهم ابن خلدون والشابى وفرحات حشاد .
• الاتجاه إلى نشر التراث القديم والترجمة من الآداب الفرنسية .
• الدعوة لتحرير المرأة وظهور كاتبات مغربيات .
• ظهور أدب فنى يعنى بالمجتمع ويدرس خصائص الأمة المغربية .

* * *

وتمثلت فنون الأدب المغربى المعاصر فى ثلاثة قطاعات :

• القصيدة الشعرية .
• الكتابة الصحفية .
• المؤلفات المطبوعة .

* * *

وقد تطور الأسلوب الإنشائى التقليدى فى المغرب فى أوائل هذا القرن إلى الترسل ، وتخفف كثيراً من السجع . متأثراً بأسلوب ابن خلدون فى المقدمة ، وبدأ التأليف حول التراجم والإحياء التاريخى ، وأعانت على ذلك الصحافة التى ظهرت مبكرة فى تونس ، حيث صدرت « الرائد التونسى » ١٨٦٠ وكان للصحافة أثرها فى تطوير الأسلوب .

غير أن مضمون الكتابة لم يلبث أن تطور فى ظل النهضة التى قام بها خير الدين التونسى، فلما وقع الاحتلال ١٨٨٢ تحولت الكتابة إلى ميدان المقاومة والكفاح السياسى .

وقد رسم محمد بن الخوجة (تونس) صورة للأدب المغربى فى هذه المرحلة (حوالى ١٩٠٥) حيث يرى :

أن الإنشاء العصرى صار أميل للترسل منه إلى السجع ، وهذا الأسلوب المنتشر الآن بكثرة بين أغلب كتاب العربية وهو الأسلوب الذى انتهجه « ولى الدين بن خلدون » فى المقدمة وغيرها من مصنفاته الجليلة ، والفضل فى إحياء هذه الطريقة بين حملة الأقلام فى الأعصر الأخيرة، يرجع بأكمله لشيخ الجماعة أحمد فارس (الشدياق) صاحب جريدة الجوائب التى أسسها خلال ١٢٧٧ هـ ؛ فقد كانت هذه الجريدة مناراً لهداية الكاتبين بين العالمين .

ولدينا كتاب للعلامة المرحوم الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية فى تقريظ الأجزاء الأولى من (الرزنامة التونسية) قال فيها : إنها دائرة معارف تونسية ناطقة تمكن بلادنا فى الحضارة والعلم والأدب .

كتب التونسيون كثيراً فى فنون الأدب ، ولا سيما ما كان متعلقاً بالإنشاء والشعر ، فإن تآليفهم وإن كانت واسعة المدى فقد ذهبت بشدة الترك سدى . بحيث إنه لم يظهر مما دونوه فى ذلك إلى عالم الطبع سوى النزر اليسير :

النهضة الأدبية التى ظهرت فى تونس ، أثارت انتباه أبناء الجيل الحاضر . وبعثت فيهم روحاً جديدة دفعتهم نحو الأدب وفنونه جرياً على نواميس الخليقة ، وكانت النتيجة ظهور طبقة من الكتاب والشعراء بلغت درجة النبوغ أو كادت ، هذه النهضة ابتدأت حركتها فى أوائل القرن الرابع عشر ...

* * *

كان الأديب المغربى لا يعرف إلا موضوعات (المديح والهجو والرثاء والغزل والألغاز) التى ورثها عن العصور المتأخرة، فلا يكاد يتجاوز هذا غالباً إلا إذا كان ذلك غرضاً غير مقصود .

منذ عهد قريب وصل إلى المغرب الأقصى صدى تلك النهضة الفكرية التى انبعثت فى الشرق العربى وأحدثت انقلاباً فى الأفكار والأساليب ، فعاد أدباؤنا الذين لم تتأصل فيهم جذور تلك الوراثة المذكورة آنفاً ، ولم تتعود أفكارهم على الجمود على تلك التقاليد،

والاقتصار على تلك الأساليب ، إلى أن يشحذوا قرائحهم من جديد ، ويوجهوها إلى ما فيه نفع الأمة .

نشأت بعد ذلك طائفة من النشء الحى ، فالتهبت جوانح ذلك النشء واتقدت أفكارهم واهتزت عواطفهم ، فإذا فى المغرب الأقصى شعر جديد طلى ، فيه من جمال الأسلوب وسهولة الألفاظ وصفاء الديباجة الشىء الكثير .

والأدب المغربى (فى الثلاثينيات) يمثله رجال هذه الصفات الثلاث :

- أدباء كبار يكتبون أدب الماضى .
- طبقة المخضرمين الذين جمعوا بين الحسنيين ، وضربوا بالسهمين .
- الطبقة التى تربت وتثقفت فى عصر المطابقة لروح العصر » .

* * *

وصور السيد عبد الله كنون (١) (المغرب) تطور مفهوم الأدب فقال : إنه إنما حصل بتأثير النهضة الأدبية التى قامت فى الشرق العربى فى بداية هذا القرن ؛ إذ أنه قبل أن يتصل أبناء المغرب بالثقافة العربية ويطلعوا عن طريق المدرسة الفرنسية على المذاهب الحديثة ، كانت الطليعة الأولى من أدباء المغرب تتصل عن طريق الصحافة الحديثة والمطبوعات الصادرة فى البلاد العربية ، وخاصة منها مصر بالإنتاج العربى الحديث لأعلام النهضة فى العالم العربى ، وتتأثر به وتحاول النسج على منواله .

* * *

ويرى الأستاذ كنون أن الأدب العربى فى العالم العربى كله وحدة لا تتجزأ : « فى جميع بلاده بالمغرب والمشرق وفى الأندلس . هو أدب واحد تشارك فى إنتاجه بلاد متصل بعضها ببعض . ثم هى متشابهة فى التكوين والخلق والمزاج ، واللغة التى تعبر بها عن أفكارها وخواطرها وحاجاتها واحدة » .

* * *

أما فى الجزائر فيرسم لنا « أبو القاسم سعد الله » صورة عصر اليقظة : « منذ استيقظت الجزائر على النداءات الوطنية والإصلاحية أوائل القرن الحالى وهى تحاول التخلص من هذه الرواسب ، والقضاء على مخلفات الماضى ، ومحاولة إعادة البناء النفسى للمجتمع . كان الفضل الأول للمدرسة والصحيفة والمحاضرة والخطبة .

---

(١) من كتاب « الأدب العربى فى المغرب الأقصى » ١٩٢٩ .

لست أنسب الفضل فى خلق هذا العنصر الجديد من رسائل اليقظة الجزائرية إلى شخصية بذاتها، أو حزب باسمه ، أو هيئة كبيرة ،

لابد من الإشارة إلى المجهود الكبير الذى بذله رسول اليقظة العربية فى الجزائر المرحوم الشيخ عبد الحميد بن باديس ؛ فقد عمل هذا المصلح طاقته فى سبيل أن يحتفظ الجزائريون برباطهم المقدس الذى يجمعهم على كلمة واحدة : ديناً ولغة وماضياً ومصيراً .

ومن الجمعيات الوطنية الكثيرة التى ظهرت فى الجزائر جمعية العلماء بدأها ١٩٢٦ وأعلنها ١٩٣١ ، وكان لظهورها صدى هائل فى الجزائر آنذاك ، لأنها كانت تحمل شعاراً أزعج سلطة الاحتلال من ناحية ، وأثار مخاوف الرجعيين والجامدين من أبناء الجيل الماضى من ناحية أخرى ، هذا الشعار هو العروبة والإسلام أو الدفاع عن القومية العربية والدين الإسلامى فى سماحته الأولى ، وقد لاقت مضايقات ومعاناة شديدة ، ولكن سرعان ما توطدت فكرتها وكثر أتباعها ... »

* * *

هذه ملامح صورة اليقظة الأدبية كما صورها أدباء من أقطارها تونس والجزائر ومراكش . أما طرابلس الغرب فقد كانت فى شغل عظيم بالمقاومة وإن ظهرت فيها الصحافة مبكرة عام ١٨٦٦ إلا أنها سرعان ما احتجبت وصدرت على إثرها صحيفة إيطاليا الجديدة .

ويمكن القول بأن اليقظة الأدبية بدأت فى تونس ١٨٦٠ بصدور « الرائد التونسى » ثم فى المغرب والجزائر فى أوائل هذا القرن . .

وتتمثل الحركة الأدبية فى عدد من المؤلفات التى ظهرت فى أوائل هذا القرن :

- الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط (أحمد بن الأمين الشنقيطى) عام ١٩١١ .
- الأدب التونسى فى القرن الرابع عشر (زين العابدين السنوسى) عام ١٩٢٧ .
- شعراء الجزائر فى العصر الحاضر (محمد الهادى الزاهرى) ١٩٢٦ .
- الأدب العربى فى المغرب الأقصى (محمد القباج) ١٩٢٩ .
- عنوان الأريب عما نشأ فى المملكة التونسية من أديب (محمد النيفر) ١٩٣٢ .
- بلاغة العرب فى الجزائر (عثمان الكعاك) ١٩٢٥ .

ولا جرم كان ظهور هذه المؤلفات فى هذه المرحلة بالذات من تاريخ المغرب العربى ذا دلالات بعيدة المدى ، فهى محاولة للرد على ادعاءات الاستعمار من أن المغرب ليس له أدب واضح الملامح .

فزين العابدين السنوسى (١٩٢٣) ينحى باللائمة على أدباء المشرق الذين كتبوا عن أدب المشرق وحده وتجاهلوا أدب المغرب . لقد صدر حتى اليوم كثير من التآليف عن آداب الأقطار العربية تاريخياً وعصرياً ، أحمد ضيف وطه حسين . . . إن جميع هؤلاء لم يكتبوا عن الشمال الإفريقى شيئاً ، والظاهر أن هذا التغافل أثر من آثار التشتت السياسى الذى أوجدته الطوارئ الاستعمارية فى القرن الأخير ، وقد بلغ التشتت والتناكر بأبناء العربية أن أصبحت الصحافة المصرية لا تكاد تهتم بنا اهتمامها بمملكة الحبشة ولا تتطلع لأخبارنا تطلعها لحفلات السباق والزحلقة ، وليست الأغلاط قاصرة على الصحافة والنشرات الدورية ، بل تتناول حتى الكتب المدرسية والموسوعات العلمية ، « مدينة بنزرت » ذكرت فى الموسوعة الجغرافية المصرية (النخبة الأزهرية . باسم بزرطة ، وذلك نتيجة اعتمادهم على المؤلفات الأجنبية » .

* * *

ثم يتناول زين العابدين السنوسى فى يقظة وصراحة قضية الترابط بين المشرق والمغرب « إن تاريخ تونس ومركزها بالنسبة لبقية الشمال الإفريقى يجعلانها شاعرة أبداً بمسئولية ربط هذه النهضة بهاتيك الأصقاع الغنية المستفيقه ببقية الأرومة العربية حتى لا تنقطع الروابط التى ربطها أبناء يعرب بدمائهم ، ويذهب آخر أمل فى البناء على أنقاض ماضينا الزاهر ..

* * *

ويركز عثمان الكعاك (تونس) على أدب الجزائر فى كتابه « بلاغة العرب فى الجزائر » : مستهدفاً بذلك مقاومة فكرة مضللة : « مقصدى أن أبين للعالم الناهض العربى ، مقام الأدب الجزائرى فى مستوى عموم الآداب العربية . الذى حط من همة الأمة الجزائرية تصورها أنها لا تملك لنفسها تاريخاً ماجداً تفاخر به بين الأمم والشعوب ، وليس لها أدب يصور روحها فى مختلف العصور ، ويصف تاريخها الفكرى وتطور عقليتها ، هذا الاعتقاد الواهم يجعل الأمة تعيش من غير أمل وبدون شعور بكرامة ولا عزة ولا إحساس بذاتية مستقلة ، ... أى أمل لأمة غير إشعارها بكرامتها وناموسها وعظمة تاريخها ،

وكيف لا تنشط العقلية الجزائرية الخامدة ، إذا علمت أن وراءها تاريخاً يضاهي تاريخ أعاظم الأمم ، وأن لها أدباً من أجمل ما جادت به قريحة بني يعرب بن قحطان .. »

وقد أشار عثمان الكعاك إلى ذلك في (مجلة الندوة – ١٩٥٦) فقال : « إنه منذ ربع قرن ، وضعت رسالة في تاريخ الأدب الجزائري ، الهدف منها إيقاظ الهمم ، وتحريك السواكن إلى العناية بأدب الأمة الجزائرية ، وكان قد اعترى هذا الأدب الكساد ونسج عليه الإهمال نسيجاً من عنكبوت النسيان ، وقضت حوادث الدهر بضياع الكثير من معالمه ، وضياع القدر الجم من آثاره حتى ظن الكثيرون أن الجزائر خلو من الأدب عزلاء من سلاح العقل » .

* * *

ولا شك أن الجزائر التي وجه إليها الاستعمار الفرنسي ، ضربات قاسية للقضاء على اللغة العربية بها كانت في حاجة إلى دقات الأجراس ، وفي هذا يقول عثمان الكعاك :

« يظن الكثير من المشرقيين أن الجزائر قد استشهدت عروبتها حتى سماها القوم (بالأندلس الجديدة) وعندنا أنها كامنة لا مقبورة ، ويكفي لعظيم من العظماء أن يذكي جذوتها حتى تتأجج نارها ويسطع نورها .

ولعل سوء الدعاية الذي أحدثه بعض القوم من زعم وفاة الجزائر قد أثر على الأدبيات .

ولو اشتغل القوم بإحياء أدبها وإبراز تاريخها لكان ذلك أحسن ، ومن الغلط أيضاً أن يعتقد الإنسان أن الإنحاء باللائمة على أبناء الجزائر من شأنه أن يمرح عواطفهم .

والحقيقة جارحة كما قيل ، وإنا لنؤثر أن نقول الحق وإن كان مراً ثقيلاً ، الحق هو أن الجزائريين قد قتلوا لغتهم بأيديهم ، وما كان الاحتلال إلا جواً مساعداً على ذلك ، لأنهم لو أرادوا أن يحيوها ما كان أحد ليصدهم عن ذلك .

ولو نبغ كاتب واحد بالجزائر لضمن بذلك حياتها الأدبية ، وقد لاحظنا أن علماء العربية بها لهم صبغة المستشرقين أكثر مما لهم صبغة العرب الذين يحترمون لغتهم ، حتى إنهم إذا بحثوا في التاريخ أو الأدب يعمدون إلى الفرنساوية يؤلفون بها ، وليس ذلك إلا تقصيراً وقتلاً لآداب قومهم .

وقد عاونت السياسة على ذلك فأقامت للبربرية الصروح ، وألفت لها كتب النحو والتدريس ومعاجم اللغة ، حتى لقد ذهب الشطط ببعضهم إلى تأليف كتاب في تاريخ آداب اللغة البربرية فأصبحت الوحدة اللغوية على الأقل صعبة .

على كل أمة إسلامية أن تتخذ من آدابها قاعدة تشيد عليها آدابها فى المستقبل ، لابد للجزائر أن تقتحم عقبة جمودها ، وأن تعتبر ما مر بها – مما يقرب من قرن – عصراً تضيفه إلى عصر انحطاطها ليس غير ، وتبنى على أساس آدابها القديمة مسرحاً قوياً بديعاً لأدبها الجديد .. »

* * *

وفى مجال الدفاع عن (المغرب) عن طريق الأدب ظهر كتاب (النبوغ المغربى) لعبد الله كنون سنة ١٩٤٢ ؛ فقد استهدف المؤلف غرضين أحدهما كشف صفحة ماجدة من صفحات الأمة المغربية فى مجال العلم والشعر والفقه ، طالما أنكرها الاستعمار ، وادعى أنها لم تكن ، وثانيهما أنه جاء تكميلاً للدراسات التى صدرت فى المشرق عن الأدب العربى ولم تتناول المغرب بكلمة واحدة ، وفى مقدمتها (الأدب العربى لأحمد حسن الزيات) .

وقد كان للكتاب صدى بعيد فى مختلف دوائر الأدب ، وقال عنه شكيب أرسلان : من لم يقرأه فليس على طائل فى تاريخ المغرب العلمى والأدبى والسياسى ، واعتبره (بروكلمان) من ملحقات كتابه عن تاريخ الأدب العربى ، وعنى به المستشرقون المنصفون .. »

وإذا كانت الجزائر قد واجهت عدواناً فكرياً قضى بتأخر نهضتها فى مجال الإنشاء والكتابة والصحافة شوطاً ، فإن اليقظة قد هبت فعلاً منذ أول القرن فى تلك الصورة الفكرية التى صورها أبو القاسم سعد الله ، والتى قام بها شيوخ الجزائر فى أوائل القرن يدعون إلى المحافظة على التراث القديم « لا باعتباره نماذج خالدة ؛ بل باعتباره تراثاً قومياً ، وعلى رأس هذه الحركة : أبو القاسم الحفناوى وعبد القادر المجاوى والمولود ابن الموهوب ومحمد بن أبى شعب ومحمود لحول ، وذلك فى الندوات الثعالبية ، ونادى صالح باى ، ومدرسة الجزائر .

وفى المرحلة التالية : ظهرت مدرسة عبد الحميد بن باديس ، الذى كشف ، لتلاميذه طرائق فى الأدب وأسلوبه ، من اللفظة الجزئية حتى البناء الكامل « وكان للشيخ طريقة خاصة فى تناول الحياة تشهد له بالحذق والبراعة إذ كان يدعو تلاميذه إلى القديم والجديد معاً ؛ القديم فى محاسنه ورزانته ، والجديد فى طلاقته وتطوره » .

ثم كان للبشير الإبراهيمى دوره فى تطوير الأدب العربى المغربى الجزائرى « فقد كانت ثقافته الأدبية أوضح من زميله الشيخ ابن باديس » .

وقد اعتمد على الدرس المشافه الموجه ، وكان القلم واللسان أغلب على البشير الإبراهيمى » وقد أعطته هذه الميزة مجالا خاصاً للنقد والتوجيه ، فاتخذ من الصحافة ولا سيما جريدة البصائر ميداناً لقيادة الجيل الجديد فى الأدب ، سواء بما كان ينشره من نماذج تثير الإعجاب ، وتدعو إلى الاحتذاء ، أو فيما كانت تنشره الجريدة من شروط للأدباء والكتاب الذين يرغبون فى المساهمة فى التحرير .

وقد دعا البشير الإبراهيمى إلى أن يظل الأدب عربياً فى أصوله وقواعده لا شرقياً ولا غربياً . « يجب أن يظل أدبنا عربياً يستمد شخصيته وأهدافه من حاجاتنا الواقعية لا المفتعلة ولا المزيفة » وعنده أن وحدة الأمة العربية تتمثل فى وحدة هذا الأدب بصورة عملية ، وقضية القومية العربية « ليست ميدان سلاح أو حرب ، وإنما هى ميدان عقل وفكر . »

وجملة القول أن الأدب العربى فى المغرب كان حفياً بأن يدافع عن الشخصية العربية الإسلامية المغربية ، وأن يؤكد وحدة المغرب ، ويكذب ما قالته فرنسا من فصل الجزائر عن المغرب ، ويدافع عن التراب المغربى وأمجاد الأمة المغربية ولغتها العربية ودينها الإسلام.

* * *

ب ــ الأدب العربى المغربى فرنسى اللغة

كان من نتائج خطة الاستعمار الفرنسى فى القضاء على اللغة العربية فى الجزائر خلال فترة الاحتلال الطويل أن نشأ جيل من الكتاب لا يعرف اللغة العربية ولا يتاح له التعبير عن مشاعره إلا باللغة الفرنسية . ولم يمنع ذلك أن يكون هذا الأدب وطنياً وقومياً ومعبراً عن مشاعر المغرب العربى وفكره ، وموقفه من الحرية .

اهتم الأدب الجزائرى «الفرنسى اللغة» بتصوير ظلم الفرنسيين وإرهابهم للوطنين ، وإنكار امتداد الجزائر لفرنسا ، وأنها جزء منها ، وتصوير الفقر والبؤس والألم الذى عاش فيه الجزائريون فى ظل الاستعمار .

ظهر هذا الأدب بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وأبرز كتابه : محمد ديب ، ومولود معمرى ، ومولود فرعون ، وكاتب ياسين ، ومالك حداد ، وأسيا جبار .

وقد تأثر أغلب هؤلاء الكتاب بأحداث الاستعمار ، ومنهم كاتب ياسين الذى عاصر معركة سطيف المفزعة (آيار ١٩٤٥) وكان أحد شهودها .

وقد صور أغلب هؤلاء الكتاب مشاعرهم إزاء تعبيرهم عن أنفسهم بغير اللغة العربية . يقول مالك حداد : أنا أرطن ولا أتكلم ، إن فى لغتى لكنة ، إننى معقود اللسان ، أنا لا أغنى ، لا أغنى ، فلو كنت أستطيع الغناء لقلت شعراً عربياً » .

* * *

وقد جرت مناقشات كثيرة حول اضطرار الأدباء الجزائريين إلى الكتابة باللغة الفرنسية ، ودافع إبراهيم غافر عن الأدب العربى فرنسى اللغة فقال : إن المهم أن يؤدى الكاتب شهادته ، وأن يكتب باللغة التى سمحت له الظروف بأن يتعلمها ، وأن يعبر عن الواقع الحى فى بلاده ، ويلتقط الصور الناطقة فى أصول بيئته ومجتمعه ، وأن تبقى شهادة الكاتب وثيقة ثمينة يخلفها لمن بعده حتى يستمر الأديب فى تأدية واجبه المقدس ، وأنه ليس من العار أن يكتب الكاتب باللغة الفرنسية أو غيرها ، ما دام يحسنها ويسخرها طيعة أمينة .

ومن أبرز نماذج الأدب الجزائرى فرنسى اللغة قصة كاتب ياسين « نجمة » ، وتجرى حوادث هذه القصة بجبل الناضور ، وهو جبل حصين فى أقصى الجانب الشرقى من عمالة قسنطينة المتاخمة لتونس ، سكانه قبيلة عربية عريقة فى النسب تسمى (كبلوت) . وكان كبلوت من اللاجئين الأندلسيين العرب الذين اضطهدهم الأسبان فأخرجوهم من ديارهم ، وكانت قبيلة (كبلوت) قد نشرت الحضارة الأندلسية الإسلامية حولها ، وجعلت من جبل الناضور معقلاً للعلم والأدب ، إلى أن أتى الفرنسيون فاحتلوها عام ١٨٧٠ بعد مقاومة عنيفة استشهد فيها سبعة من مشايخ جبل الناضور . وأحد هؤلاء هو جد الكاتب الجزائرى .

وهنا تبدأ المأساة ، التى تصور كيف صار الكاتب صعلوكاً وكيف أصبح يجيد الفرنسية ، فغدا بعيداً عن العربية وعن أهله العرب يتيه فى شوارع باريس .

وقد صور كاتب ياسين قسنطينة فى موقعها الرهيب الحصين على شواهق وادى الرمل .

وصورت القصة المرأة ومستواها الثقافى ، والعمال الجزائريين وهم يرزحون تحت أثقال شحنات الاستعماريين فوق أرصفة الموانى ، وتحدث عن حياة الفلاحين البائسة ، والجزائريين المهاجرين إلى فرنسا لكسب القوت اليومى . والطلبة الجزائريين فى فرنسا ، وتأثير فرنسا فى تكوينهم العقلى .

وبالجملة فإن قصة (نجمة) لكاتب ياسين هي قصة الشباب الجزائري الذي يعيش في بلاده عيشة المشردين إزاء المستعمر وأذنابه ، فكل أبطال القصة مشردون ومطاردون في بلادهم

وقد تحدث « مولود معمري » عن تجربته الخاصة حيث كان يدرس التاريخ ويطالع سيرة قصير والإسكندر وأخبار لويس الرابع عشر ، وكيف لقن الأدب الفرنسي وتمتع بشعر راسين وقصائد بودلير ...

غير أن هذا الفكر كله لم يصل إلى أعماق نفسه ، فقد كان يحس أنه غريب عنه « تلك الأحداث التي كنت أعجب بعظمتها ، وذلك الجمال الشعري ، كل ذلك كان من استنباط وابتكار أشخاص غيري ، ومجتمع إنساني غير مجتمعي ، وبيئة بشرية لا يحيا فيها أحد من أبناء قومي » .

ومن هنا بدأ يفكر في إنشاء أدب عربي مغربي باللغة الفرنسية ، يقول : كنت أتألم لكوني أحيا في بيئة لا صوت لها يعبر عما يختلج في نفسها من أفكار وعواطف خاصة بها دون سواها .

غير أنه واجه مشكلة التعبير عن مشاعره باللغة الفرنسية ، يقول : تلقيت دروساً باللغة الفرنسية ، وأنا أتوق إلى إتقانها واكتساب ملكتها ، حتى أتمكن من التصرف فيها بدقة وأناقة ، وكان لابد من عقبات ومصاعب لعدم وجود انسجام بين هذه اللغة وطريقتي الخاصة في التفكير والتعبير ، وكان لابد لي إذن أن أقسو على إحداهما لأجعلها طيعة للأخرى . »

* * *

« ومعمري » هنا يعبر عن مشكلة هامة جرى حولها نقاش كبير ، وهي « الانفصال بين اللغة المعبرة والواقع » وأن اللغة الفرنسية لم تكن تعطي الكتاب الجزائريين العامل الذي يمكنهم من تسجيل الأحداث ، والتغلغل إلى أعماق مشاعرهم النفسية .

ويعرض لهذا المعنى جمال البغدادي القادري فيقول « يلاحظ كل من قرأ للكتاب الجزائريين ذوي التعبير الفرنسي أن هناك غرابة وسوء جوار بين الأسلوب وبين حوادث القصة أو عاطفة القصيدة لأن هذه العواطف وهذه الأخيلة خلقت لكي يعبر عنها باللغة العربية ، وإبرازها بمنطق فرنسي يجعل اللفظ متضارباً مع صميم القصة ، خاصة إذا كانت مرتبطة بالمجتمع العربي الجزائري .

أجل أن الأدب الجزائرى الصميم لا يؤدى إلا بالعربية ، وإذا أدى بغير العربية وقع الأديب فى ازدواجية شخصية وفقدت القصة أو القصيدة حياتها » .

ومن هنا جاء قول « سامى الدروبى » الكاتب السورى مترجم قصة محمد ديب « الدار الكبيرة » إلى اللغة العربية وهو : أننى لا أرد إلى الأثر شيئاً مما كان يمكن أن يكون له من صدى ، لو كتب بالعربية ، وإنما هو يفقد مزيته من ذلك الرواء ، فالأثر قد ضاع منه شيئاً مرتين : مرة حين يكتب بالفرنسية ، ومرة حين ترجم عن الفرنسية .

* * *

وجملة القول أن الأدب العربى الفرنسى اللغة الذى كتبه الأدباء الجزائريون ، أدب وطنى صادق ، تغلب عليه النزعة الإنسانية ، مصوراً كفاح الإنسان المستعمر ، وأن عجز عن الأداء الكامل للمشاعر العربية الإنسانية ، وذلك للانفصال بين اللغة المعبرة والواقع ، وانفصال الكتاب عن الثقافة العربية الأصلية .

من أعلام الأدب

١ـ محمد أبو شنب

علامة محقق باحث ، قصر مجال عمله على الدراسات الأدبية والتاريخية واللغوية . وتحقيق الكتب والمؤلفات والمخطوطات القديمة . انقطع للعلم فى جامعة الجزائر حتى أحرز الدكتوراة ، سار فى أبحاثه على طريقة علماء المشرقيات ، فهو عالم بحاثة أكثر منه أديباً ، لذلك لم يتسم أسلوبه بطابع البشاشة والإشراق ، وكانوا يسألونه فى ذلك فيقول : خذ العلم وماذا يعنيك ، أكان بأسلوب طلى أم كان بأسلوب غير طلى ، وحسبك أنك فهمت عنى ما أريد ، ولا تغرنكم زخارف الألفاظ وتزويقاتها ، وهل اللغة وأساليبها إلا أداة للفهم والتفهيم .

وأرجع مؤرخه « محمد السعيد الزاهرى(١) » السبب فى ضعف أسلوب الشيخ إلى أن معارفه فرنسية أكثر منها عربية ، فكان يلقى محاضراته كلها باللغة الفرنسية ، ويقول الذين قرءوه فى الفرنسية : إن أسلوبه فيها حسن متين ، وهو عالم باللغة العربية ، غزير العلم ، حافظ ثقة ، كان معجماً لغوياً يمشى على الأرض كما وصفه الشيخ عمر راسم الجزائرى ، وكان يحفظ اللغة المعروفة فى المعاجم ، ويحفظ كثيراً من اللغة التى لم تدون بعد ، معنياً بجمع هذه الكلمات الكثيرة والتراكيب التى تجرى على ألسنة الأدباء فى القديم والحديث ولم تدون فى المعاجم ، يبحث عنها بحثاً مستوعباً ويردها إلى أصول عربية رداً صحيحاً .

ويقول « الزاهرى » إن الحكومة الجزائرية هى التى أخذت بيد الشيخ وأعانته على إظهار موهبته ونبوغه ، ولولا الحكومة لخفى الشيخ تواضعاً وخمولاً ، ولكنه خدم العلم أكثر مما خدم نفسه ، وخدم الجامعة الفرنسية بالجزائر خدمات جلى ، وهو الذى جعل للكتب العربية فى مكتبة الجامعة قيمة واعتباراً .

* * *

وقد ألف الدكتور « الشيخ » أبو شنب(٢) عديداً من الكتب ، وحرر جملة من المباحث فى اللغة والأدب والتاريخ ، وكان متقناً للغات الفرنسية والإيطالية والفارسية والتركية والعبرية .

---

(١) المقتطف : نوفمبر ١٩٢٩ .

(٢) أو محمد بن شنب كما اشتهر فى مؤلفاته وتحقيقاته الأولى .

ومن مؤلفاته (رموز الاختصار العربية) أصدره عام ١٩٢٢ ، ونقدته مجلة المجمع العلمى العربى ، ضمنه نحو مائة كلمة من الكلمات المستعملة فى كتب مؤلفى العرب ، ما بين نحو وفقه وحديث وفلسفة ، وذكر أمام كل كلمة طريقة اختصارها أى الحروف التى تختزل منها لتدل عليها ، وقال فى مقدمة الرسالة : إنه وقف فى أثناء مطالعاته على كثير من هذه الاختصارات العربية فرأى من المفيد أن ينشرها ، وهو لا يعلم إن كان أحد سبقه إلى جمعها على هذه الصورة ، ومن منهجه أنه يترجم كل كلمة إلى اللغة الفرنسية مع زيادة شرح وتفصيل فى بعض الكلمات : ومن هذه النماذج الكلمات التالية مع رموزها :

رحمه الله (رح) رضى الله عنه (رضه) المصنف (المص) التسلسل (التس) أصلاً (أص) المشهور (المش) انتهى (هـ) .

* * *

ومن آرائه فى اللغة : تجنب اللفظ الدخيل ، والاجتهاد فى اجتنابه ولو بالاستعاضة عنه بغريب اللغة المهمل الذى بطل استعماله .

وله باللغة العربية : « تحفة الأدب فى ميزان أشعار العرب » — الجزائر (١٩٠٦) .

وله باللغة الفرنسية : مجموع أمثال العوام بأرض الجزائر والمغرب (٣ أجزاء طبع — ١٩٠٥ ، ١٩٠٧) .

كما نشر مؤلفات ومخطوطات قديمة أهمها :

- البستان فى علماء تلمسان (ابن مريم — الجزائر ١٩٠٨) .
- الممتع فى شرح المقنع لأبى سعيد السوسى — الجزائر (١٩٠٨)
- تحبير الموشّين فى التعبير بالسين والشين للفيروزابادى — الجزائر (١٩٠٩)
- فهرست كتب الجامع الأزهر — الجزائر (١٩٠٩)
- عنوان الدراية فى علماء بجاية — الجزائر (١٩١٠)
- تدميث التذكير فى التأنيث والتذكير — للجعبرى من علماء بغداد فى القرن الثامن — استراسبورغ (١٩١١)
- تكملة ابن الأبار — الجزائر (١٩٢١)
- الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية — الجزائر (١٩٢١)
- فهرس مطبوعات فاس — الجزائر (١٩٢٢)

• أبو دلامة — حياته وشعره بالفرنسية — الجزائر (١٩٢٢)
• ديوان علقمة الفحل مع تقريرات — الجزائر (١٩٢٥)
• ديوان عروة بن الورد — الجزائر (١٩٢٦)
• الجمل للزجاجي — الجزائر (١٩٢٧)

وكانت آخر محاضراته فى مؤتمر المستشرقين بأكسفورد عن « ابن خاتمة » أحد شعراء الأندلس فى القرن الثامن الهجرى .

★ ★ ★

وقد كتب محمد أبو شنب ترجمته للمجمع العلمى العربى فى دمشق فذكر أنه ولد فى ٢٦ من أكتوبر ١٨٦٩ بقرية (المدية) فى جنوب الجزائر، وقرأ شيئاً قليلاً جداً عن القرآن ، ثم قرأ اللغة والعلوم الفرنسية ، درس بدار المعلمين الفرنسية بأبى زريعة ، وأحرز إجازة تعليم اللغة والعلوم الفرنسية فى المدارس الوطنية . وبعد عشر سنين فى التعليم أجيز بإجازة مدرسة الآداب العليا ، فتولى الدراسة بمدرسة قسنطينة مايو ١٨٩٨ ، فمدرسة الجزائر (أبريل ١٩٠١) .

وفى سنة ١٩٢٢ أجيز بإجازة دكتور فى القسم الأدبى من كلية الآداب بالجزائر بعد أن قدم لها تأليفاً فى حياة « أبى دلامة : شاعر بنى العباس » وتأليفاً آخر فى الألفاظ التركية والفارسية الباقية فى لغة الوطن الجزائرى ، ثم انتقل (يناير ١٩٢٤) مدرساً بكلية الآداب بالجزائر .

وقد توفى سنة ١٣٤٧ هـ ورثاه الأساتذة الفرنسيون مقدرين فضله ، فقال العلامة ماسيه (أحد أعضاء مجمع الجزائر) كنا نرجع إليه ، ونستضىء بضيائه ، وكنا نناديه (شيخنا) ، فإنه كان يجمع إلى صفات العلم والعالم الحقيقى صفات الصلاح والطيبة ، وكذلك وصفه محمد السعيد الزاهرى بأنه مسلم جزائرى وجزائرى مسلم فى كل شىء ؛ فى عقله وأدبه وفى أخلاقه وعاداته ، وفى لباسه وهندامه ، وعلى رأسه عمامة جزائرية (طوربانطى) ، وعلى كتفيه برنوس جزائرى ، وهو من أكثر الناس تواضعاً وتزهداً ، وإذا حادثته فى مسألة من مسائل العلم حدثك فيها بما يعلم حديثاً متواضعاً .

وقد ظل اسمه على الرغم من إحرازه الدكتوراه « الشيخ أبو شنب » على عادة أهل الجزائر الذين إذا ذكروا عالماً أو أديباً بالتكريم ولو كان فرنسياً — قالوا الشيخ فيكتور

هيجو ، والشيخ لامرتين ، بل إن صحفياً جزائرياً زار مصر ، ودخل جريدة السياسة وقال أين الشيخ هيكل (١) .

وقد اشترك الشيخ أبو شنب فى جميع الامتحانات العالية فى شمال إفريقيا ، وكان من الضرورى أن يرأس لجنة من لجانها تتألف من كبار العلماء والأدباء الفرنسيين .

ويذكر الزاهرى أنه اشتهر بالثقة العلمية لا يمارس ولا يدارى . ولا يجامل ولا يحابى وقد أسقط فتاة فى الامتحان برغم دموعها . وقال وددت لو أنها نجحت ، ولكنى أسقطتها أمانة للعلم : ما قيمة العالم إذا لم يكن ثقة ولا أميناً ؟

ويروى محمد سعيد الزاهرى ذكرياته عندما التقى به فى لجنة الامتحان فى تونس ١٩٢٢ فى الكلية الزيتونية مع العلماء الفرنسيين. فوجده عالماً جزائرياً غير متجنس بالجنسية الفرنسية ، ورئيساً مشرفاً على لجنة علمية فرنسية يرأس جلساتها بملابسه الجزائرية ، وبزيه الجزائرى ، فلما حضرت صلاة العصر أوقف الجلسة للاستراحة وقام فصلى .

وكان إذ يلقاه من بعد يتحدث معه عن الكتب القديمة ؛ قال له مرة وهو فى طريقه إلى تلمسان : إذا عثرت على كتاب قديم فى تلمسان وهى دار علم وفيها بقايا من آثار السلف الصالح فأرجو أن تكتب إلى به » .

ولا يزال اسم الشيخ أبو شنب حياً بفضل ما قدم للتراث العربى من أبحاث وتحقيقات .

* * *

٢ — عبد الله كنون

لا شك كان إحياء الفكر العربى الإسلامى وبعثه عاملاً ضخماً من عوامل اليقظة ، وسلاحاً بعيد المدى فى مقاومة حركة التغريب ومؤامرة تمسيح المغرب وفرنسته وتجنيسه .

وفى الوقت الذى شغل فيه المفكرون والكتاب فى المغرب العربى بالكتابة السياسية والعمل الصحفى اليومى الذى يأكل الجهد ويتبدد مع الأيام والأحداث ، انصرف بعض الباحثين إلى مجال العمل الفكرى الخالص يبتعثون تاريخ المغرب وآثاره الفكرية وسير أعلامه ، ويكشفون عن الصفحات المشرقة من كفاحه ونضاله وأثره فى الحضارة ودوره فى النهضة .

---

(١) الزاهرى — المقتطف — نوفمبر ١٩٢٩ .

وفى هذا المجال ظهر كثيرون : منهم عبد الله كنون ، ومحمد الفاسى ، وعبد العزيز ابن عبد الله ، ومحمد بن تاويت الطنجي. وقد أنشأ « عبد الله كنون » عملين كبيرين فى هذا المجال ؛ عملاً أتمه ، وهو موسوعة « النبوغ المغربى فى الأدب العربى » ، والعمل الذى يواصله وهو « ذكريات مشاهير المغرب » .

وقد كان لظهور كتاب « النبوغ المغربى » فى ظل الاحتلال الفرنسى للمغرب دوى وصدى ، إذ وجد مقاومة ومصادرة ، وصدر القرار العسكرى بمنع رواج الكتاب ومعاقبة من تضبط عنده نسخه منه ، وكتبت صحيفة « السعادة » : لسان الحماية : صدر أمر يقضى بمنع الكتاب المعنون « بالنبوغ المغربى » فى الأدب العربى الصادر باللغة العربية فى « تطوان » من الدخول إلى المنقطة الفرنسية فى المغرب الأقصى وبيعه وعرضه توزيعه .

وثارت الصحف ضد هذا التدخل فى شئون الفكر . وكتبت جرائد الحرية والوحدة المغربية مقالات نارية ، ومع ذلك فإن الكتاب لم يتوقف ، وترجم إلى الإسبانية ، وقوبل بالتقدير ، ومنحت وزارة المعارف الإسبانية مؤلفه دكتوراه شرف للآداب من جامعة مدريد .

ولم يكن كتاب « النبوغ » تحدياً للاستعمار وحده ، ولكنه كان رداً على روح الإقليمية فى الأدب ؛ فقد أصدر أحمد حسن الزيات كتابه (تاريخ الأدب العربى) وتجاهل تماماً المغرب وأدبه وأدباءه ، فكان ذلك عملا مكملا للنقص الذى وقع فيه صاحب الرسالة فى ظل الإقليمية البغيضة التى كانت تقصر مجال الأدب العربى على مصر والشام والعراق (١) ، وتغضى عن الجناح الأيسر من العروبة .

وقد أشار إلى ذلك المؤلف قائلاً : « رأيت إهمال هذا الجزء من بلاد العروبة فى كتب الأدب وكتب التاريخ » .

واستهدف المؤلف من عمله « بيان اللبنة التى وضعها المغرب فى صرح الأدب العربى الذى تعاونت على بنائه أقطار العروبة كلها ، وذكر الأدباء المغاربة الذين لم يقصروا عن إخوانهم من المشارقة ومن مغاربة بقية أقطار المغرب العربى » فى العمل على ازدهار الأدبيات العربية على العموم .

---

(١) كذلك فعل انيس المقدسى وأحمد ضيف وطه حسين وغيرهم .

« فلما بحثت ونقبت وجدت كنوزاً عظيمة من أدب لا يقصر فى مادته عن أدب أى قطر ، وشخصيات علمية وأدبية لها فى مجال الإنتاج والتفكير مقام رفيع ، ولكن الإهمال قد عفى على ذلك كله ..

فشمرت عن ساعد جدى وأنا يافع ، فتتبعت جميع ما وصلت إليه يدى من آثار أدبية مغربية ، وأخبار عن أدباء المغرب وعلمائه ... مما وقعت عليه فى الكتب والأوراق والمحافظ ، أو تلقفته من أفواه المشايخ والأدباء ... »

وقد أصبح هذا الكتاب منذ صدوره نقطة بدء فى دراسات الأدب العربى فى « المغرب » إذ اختص « بأدب بلاد المغرب الأقصى وتاريخه » وقد ذكره بروكلمان فى ملحقات كتابه العظيم عن تاريخ الأدب ، وعنى به المستشرقون أمثال جيوفانى بيانكى . وقال عنه شكيب أرسلان : « من لم يقرأه فليس على طائل فى تاريخ المغرب العلمى والأدبى والسياسى » .

* * *

أما عمله الثانى الكبير فهو (ذكريات مشاهير رجال المغرب) وقد صدر منه الآن أكثر من أربعين دراسة ، وهى حلقات صغيرة مستقلة ، تناولت عديداً من الأعلام أمثال : — الشريف الإدريسى ، وابن بطوطة ، وعبد العزيز الفشتالى ، ومحمد السنوسى ، وميمون الخطابى ، وابن زاكور ، وعشرات غيرهم .

وقد كان هؤلاء الأعلام من الباحثين المؤثرين فى الفكر العربى الإسلامى المغربى ، ومن الشخصيات ذات الأثر المحسوس فى الصراع الحيوى ، والتى ظلت أسماؤها مدفونة فى الأضابير حتى أعاد الكشف عنها .

وقد أشار المترجم له إلى الترابط بين عملية النبوغ المغربى وذكريات مشاهير المغرب فقال : إنه بعد إصدار النبوغ بقيت فى النفس حاجات متعلقة بتراجم الأشخاص المذكورين فيه ، خصوصاً المشهورين منهم ، والذين يوحى تتبع تراجمهم بمعان من السمو النفسى والفخر الأدبى .. وسيصل هذا العمل إلى خمسمائة ترجمة .

* * *

ولم يقف عمل العلامة (كنون) عند هذا الحد ، بل إنه أسهم منذ مطالع الثلاثينات فى صنع النهضة الفكرية والأدبية ، فكتب فى أغلب صحف المشرق ، وفى « الرسالة » بالذات ، وله مجموعات من الآثار والأبحاث فى مجال النقد والترجمة والخواطر ضمنها مؤلفاته : خل وبقل ، والتعاشيب ، وواحة الفكر .

وهو إلى هذا شاعر له عشرات القصائد فى مختلف الفنون والمناسبات ، وعضو فى المجمع العلمى العربى فى دمشق ، ومجمع اللغة العربية فى القاهرة ، فضلا عن أعماله الثقافية فى المغرب ، حيث يدير دار العلوم ، ويشرف على عديد من المعاهد الثقافية .

* * *

ولد بفاس (٣٠ شعبان ١٣٢٦ هـ – ١٩٠٨ م) وعند فرض الحماية الفرنسية على المغرب (١٩١٢) خرج به والده مهاجراً ، وقد جعل قبلته المشرق ، ولكنه ما كاد يصل إلى طنجة حتى تعذر عليه السفر لاندلاع الحرب الأولى وانقطاع المواصلات . فاستقر بطنجة ، وفيها تثقف بالثقافة العربية الخالصة وألم باللغة الفرنسية ومختلف فنون الفكر كالمنطق والفقه والفلسفة .

واتجه إلى الكتابة ، واتصل بالصحافة منذ مطالع شبابه

وأحب الشعر منذ صباه فنظمه فى الرابعة عشرة ، وهو ينزع فى شعره نحو الحرية والإشادة بها ، وله فى فنون المديح والغزل والتشبيب والفخر والحماسة شعر كثير .

وتمثل بواكير شعره معانى العزة والإباء :

أحيد بنفسى أن تهان كرامتى ... وأربأ أن أسعى لما يوجب العذرا
وفى طلبى للمجد ذقت منيتى ... ولا زلت أستحلى لإدراكه المرا
ثباتى وحزمى واشتهارى بمبدئى ... ثلاثتها تكفى لأن أقهر الدهرا
يقول حسودى إننى متدنئ ... وكيف ونفسى قد تجاوزت الشعرى
لئن غره منى مداراة جاهل ... فإن السياسى من يدارى الورى طرا
ولى بين أضلاعى وبين جوانحى ... فؤاد يرى فى حادثات الدنا صخرا

وقد شارك عبد الله كنون فى العمل السياسى الكبير الذى قام به المغرب من أجل الحرية وكان له دور بارز ؛ فقد ترك طنجة ولجأ إلى تطوان احتجاجاً على ما قام به الفرنسيون من خطف الملك محمد الخامس ، وذلك حتى لا يشارك فى البيعة للذى أقاموه مكانه « ابن عرفة » .

واشترك فى تطوان فى الوزارة التى حملت لواء الكفاح والثورة ، فكان وزيراً للعدل ١٩٥٤ ، ولكنه لم يلبث بعد عودة الملك أن استقال وعاد إلى طنجة ، حيث ولى منصب حاكمها فترة من الزمن .

ومما يذكر له من إنكار الذات أنه على الرغم من عشرات الدراسات عن أعلام المغرب فإنه لم يكتب حتى الآن دراسة عن جده « محمد كنّون » العالم السلفى الذى يجمع أهل المغرب على أنه مجدد القرن الثالث عشر .

ويمتاز العلامة عبد الله كنّون (وكنون بتشديد النون اسم بربرى معناه القمر) بسمت العلماء وطابع المصلحين ، وأنت حين تلقاه تحس كأنما قد انفتل من الصلاة سماحة واشراقا . على حد تعبير « محمد الصباغ » . وقد جمع كما صوره (تقى الدين الهلالى) بين خصال الشيوخ من سعة العلم والأدب وكمال العقل والمروءة وبعد النظر وسداد الرأى والحلم والوقار . إلى خلال الشباب من النشاط والحزم وفكاهة الحديث وحسن المحاضرة وطرافة النكتة ، مع صحة العقيدة والكرم والشهامة والوطنية الموزونة بميزان الشرع المحمدى ، المكتسبة من القرآن وسيرة الرسول ، وهو أبيض صبيح الوجه ، نحيف الجسم ، لا يلتزم زياً بعينه ، فصيح اللسان ، له شعر يصل فيه إلى حد الإبداع ، وله نثر منسجم مرصع بجواهر النكت ولطائف الملح ... » .

ولكنّون عشرات البحوث الموزعة فى صحف المغرب ، وله مقالات سياسية فى جريدة الأنوار بإمضاء (أبو الوفاء) ، ومراجعاته فى كتابات الأندلس ، وتاريخه من أهم ما كتب ، وكان قد تولى إدارة المعهد الخليفى للباحثين الذى أسس فى تطوان ١٣٥٦هـ والذى أطلق عليه معهد مولاى الحسن من بعد ، وأحدث به نهضة كبرى ، وأنشأ مسابقات لتأليف الكتب والبحوث فى الموضوعات التاريخية الهامة ، وحقق به عملاً كبيراً للنهضة الفكرية .

كما صحح أخطاء المستشرقين . وله فى ذلك مقال مطول بمجلد ١٩٣٧ من مجلة « الهداية الإسلامية » التى كان يصدرها المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين فى القاهرة رداً على كتاب « الأقاويل القرآنية فى الكتب المسيحية » . وله بحث هام فى اخطاء « المنجد »

ولعبد الله كنون أحدث كتاب فى تاريخ الأدب العربى فى المغرب ، وأبحاث متعددة فى مؤتمر البحوث الإسلامية والمجمع اللغوى لم تجمع بعد .

* * *

٣ — محمد الفاسي

« .. إن الجناح الغربي من العروبة يحافظ على تراث قيم من مخلفات الحضارة العربية الصميم ، وهذه الظاهرة قد تنبه لها فضلاء المشارقة الذين زاروا بلادنا وشهدوا بها فى محاضراتهم ودروسهم وأحاديثهم .

والسبب فى ذلك أن الحضارة العربية لم تجد نفسها بالمغرب أمام حضارات قديمة يمكنها أن تؤثر فيها ، ثم إنه لم يطرأ عليها ما يغيرها من مثل ما وقع بالمشرق ، فلا هى اصطدمت بالمدنيات الفارسية والرومية والهندية ، ولا هى تعرضت لفتوح المغول والتتر ، ولا دخلت حتى تحت النفوذ التركى . والكل يعلم أن الخلافة العثمانية قد امتد نفوذها على كل البلاد العربية من الخليج الفارسى إلى جدة ،

ولم تستطع التسرب إلى المغرب حيث صدتها دولة الشرفاء السعديين ثم العلويين من بعدهم ، وهكذا بقيت كثير من الأوضاع العربية سليمة فى شتى المناحى الفكرية واللغوية والموسيقية والحضارية على وجه العموم .من هندسة معمارية وزخارف ومطبخ وملبس وغير ذلك من مظاهر الحياة .

ثم إن تراث حضارة العرب فى الأندلس بقى كذلك محافظاً عليه فى بلادنا مما كتب له الخلود . إذ امتزج مع الحياة واكتسب كذلك عمراً جديداً . أما ما بقى منه بإسبانيا فإنه لا يتسم بتلك السمة ، وهو كالأطلال البالية وسط المدن الحديثة ، أو كالغريب عن وسطه وأهله وأحبابه .

وتضفى مجموع هذه المميزات على الحضارة العربية بالمغرب الأقصى طابعاً خاصاً يساعد على إحياء ماضينا المجيد ، وأن فيما حافظت لنا عليه كذلك جامعة القرويين التى مر على تأسيسها فى هذه السنة ١٩٥٩ مائة وألف سنة سواء فى خزانتها أو فى صدور علمائها ، ما يعتبر أيضاً ذخيرة يستعان بها على تحقيق الغايات السامية .. »

* * *

هكذا يعرض محمد الفاسى « منهجه فى مفاهيم الأدب والفكر إزاء محصول ضخم من الإنتاج فى هذا المجال توفر عليه سنوات طويلة.

فهو المعنى بالجوانب الغامضة والناقصة والضعيفة فى تاريخ الأدب بالمغرب الأقصى ،

يكشف عنها ويحققها ويضيف إليها ؛ فني عديد من هذه الدراسات عن العصر الموحدى الأول والثانى والثالث ، ومن خلال ما نشره فى مجلة رسالة المغرب والبينة ودعوة الحق ، وكل مجلات المغرب بلا استثناء ، كشف عن حياة شخصيات لامعة ضاع تاريخها فى غمار الأحداث أمثال : ابن دحية الكلبي ، والشاعر ابن عبد ربه ، والفلكى الكبير أبو الحسن المراكشى ، وعبد الواحد المراكشي .

وقد صور هدفه من هذا العمل حيث يقول « إن أكبر ظاهرة تتجلى فى هذه الأبحاث لمن يتتبعها بتدقيق ، هى أن المغرب الأقصى ساهم بأكبر قسط فى بناء صرح المدنية العربية ،وأنه أنجب فى ميادين العلم والفكر رجالاً كان لهم التبريز فى ناحية اختصاصهم كابن الياسمين مثلاً ، وقد كان من أكابر علماء الجبر ، وكالشريف الإدريسى العالم الجغرافى الشهير ، وكعبد الواحد المراكشى المؤرخ العبقرى وغيرهم .. ولكن برغم ما بلغه هؤلاء العظماء من التفوق فإن أبناء وطنهم أضاعوهم ، وطووا ذكرهم ، وأتلفوا آثارهم ، بل منهم من لم يخلف لنا المؤرخون حتى أسماءهم ، ولولا أن بعض آثارهم قد غالبت الدهر ، وحوفظ عليها فى خزائن أوربا والمشرق لظلوا نسياً منسياً » .

وأحياناً تتاح له الفرصة للكشف عن علم من هؤلاء الأعلام ، ثم يجد بعد سنوات أن هناك من المعلومات مايدعو إلى اجراء تحقيق جديد فلايلبث أن يحقق سيرته من جديد ، من ذلك أنه كان قد فرض فروضاً لعبد الواحد المراكشى ، واستنتج استنتاجات ثم عاد بعد تسع سنوات ليضيف اليه معلومات جديدة بناء على ماوصل إلى علمه من مزيد من المعلومات .. وقد يجد أحيانا من الصعوبات مايحول دون استيفاء مايريد . فعبد الواحد المراكشى لايعرف إلا عن طريق ماكتب عن نفسه فى مؤلفه ، ولا يوجد عنه شيء فى كتاب ، ولم يذكره مؤرخ مغربى واحد « ولولا أن عناية خاصة حافظت لنا على نسخة فريدة من (معجبه) بإحدى خزائن أوربا لما كنا نعرف عنه أدنى شيء ، وكأنه أحس بأن معاصريه سيهملونه فأثبت فى غضون مؤلفه كل ما أمكنه عن حياته ودراسته وتنقلاته ، ومن ذلك نستمد مواد ترجمته .. »

ومجال آخر أولاه محمد الفاسى إهتماماً كبيراً ؛ ذلك هو مجال الأعلام الجغرافية ، فقد عنى بالأعلام الأندلسية (١) والأعلام المغربية (٢) وعلل اهتمامه بأن الأعلام الجغرافية الأندلسية قد أصابها كثير من الاضطراب والخطأ ، لكثرة ما يرد من أغلاط حولها فى

(١) مجلة البينة — يولية ١٩٦٢ .
(٢) مجلة البينة — مايو ١٩٦٢ .

كتابات المحدثين عن الحضارة العربية فى الأندلس ، لأنهم ينقلون « العلم » كما يرد اليوم فى اللغة الإسبانية والبرتغالية ، وأحياناً ينقلونه كما ينطق به فى اللغات الأوربية الأخرى ، فلا يستطيع المثقف العربى أن يربط الحاضر بماضى الجزيرة المجيد » .

ومن ذلك كازابلانكا (الدار البيضاء) ومزغان (الجديدة) وموغادر (الصويرة) ، من أجل ذلك عمد إلى رد الأسماء الحالية إلى أصولها التى كانت مستعملة أيام العرب ، وأورد عشرات الكلمات ، وهذا هو الميدان الذى سبقه إليه أحمد زكى باشا ومحمد مسعود وشكيب أرسلان .

وبالنسبة للأعلام المغربية فى مجال الجغرافيا تبين له أن معظم هذه الأسماء تنطق بمختلف اللهجات البربرية ، وقد أضيف إليها كثير جعلها مغربة لا يعرف لها معنى ، وربما لايعرف لها أصل . ومن ذلك كلمات : زعلاغ ، وتغات ، وأكدير ، وتطوان ، وتيزى ، وتلغمت ، وزيما ، وعين تاوجطات ، وافران ، واتعا ، وغيرها من مئات بل الآف الأعلام التى لها اسم عربى ، فإننا عند ما نقول (الجديدة) تتطور معنى وربما تاريخاً ، حيث إنها جُددت بعد ما استرجعت من يد البرتغاليين ، وكذلك حين نقول الرباط أو (رباط الفتح) نستطيع استحضار صفحة مجيدة . من تاريخ بلادنا .



وأولى اهتمامه للرحالة المغاربة وآثارهم ، وعنده أن الرحالة المغاربة قد تفوقوا فى فن الرحلة ، وخلفوا فيه مؤلفات بديعة طبع بعضها وأكثرها لا يزال مخطوطاً ، ومنها ما تعتبر ضائعة ولم تعرف إلا بالنقل عنها فى كتب التاريخ والأدب والتراجم .

ويرجع ذلك لعوامل مختلفة أهمها بعد الديار المغربية عن المشرق والحجاز . مهد الحضارة العربية ومهبط الوحى ..

وعنده أن من أسباب هذا التفوق ولوع المغاربة بصفة عامة بالسياحة ، وارتيادهم لأقاصى البلاد ...

ومن هنا أولى هذا الجانب اهتماماً ودراسة .

واهتم أيضاً بما يطلق عليه « الإفادات والإنشاءات » وهو فن قديم عرف فى الأدب العربى المغربى ، يضم خلاصات للقصاصات والكلمات الحكيمة ونُقَل الأديب ، فقد أولى اهتماماً بهذه البطاقات التى يطلق عليها فى المغرب (الكناشات) وهى عنده من أهم

الوثائق لدراسة الحياة الأدبية » وهي دفاتر يسجل فيها رجال العلم والأدب فى العصر الحديث غرائب النوادر والأخبار التى يقعون عليها أثناء مطالعتهم ».

وقد عرض لعديد من هذه الكناشات أبو إسحق إبراهيم بن موسى الشاطبى فى كتابه « الإفادات والإنشاءات » ، ومن ثم صار لهذه العبارة رواج فى الأوساط العلمية . وفى العصر الحديث أولت مجلة « الرسالة » المصرية اهتمامها بهذا الفن فيما نشره محمد اسعاف النشاشيبى ، وما نشره حسن حسنى عبد الوهاب فى مجلة الجامعة التونسية .

يقول الأستاذ الفاسى : وقد كنت منذ أول التحصيل أعنى بجمع هذه الفوائد والنوادر ، فحفزنى عمل هذين العالمين الجليلين إلى نشر تلك الإفادات والإنشاءات فى ملحق مجلة الثقافة المغربية ١٩٣٨ ، ومجلة المغرب ، ثم والاه (نوفمبر ١٩٦٢) فى مجلة البينة .

ولم يدع الفاسى جانباً من جوانب التاريخ المغربى فى مجال أعلامه وآثارهم دون أن يحققه ، وأولى اهتمامه لقصة الفتية المغرورين ، واكتشاف أمريكا ، وفى لقاء طويل معه تحدث معى عن هذه الفنون التى أولاها اهتمامه .. وهى التاريخ الأدبى والتاريخ العام والتاريخ الشعبى واللغة والأمثال ، وعنده أن أهم هذه البحوث هو « الرحلة فى الأدب العربى » ؛ فقد استطاع أن يجمع خمسمائة رحلة باللغة العربية بين مطبوع ومخطوط رحل فى سبيلها إلى خزائن ألمانيا وهولندا وبلجيكا وإسبانيا وفرنسا وتونس وانجلترا . يقول رأيت أدب المغرب فى أكثر الرحالة المغاربة .

ومن أعماله الكبيرة « معلمة الأعلام » التى جمع فيها تراجم لكل نابه فى المغرب والأندلس وهى فى تقديره يمكن أن تصدر فى أربعين مجلداً ، ولعله قد أتم حرف الألف منها .. كما جمع ٨ آلاف من الأمثال العامية ، وخمسة آلاف قصيدة من الشعر الملحون .

وقد شارك محمد الفاسى منذ صباه فى الحركة الوطنية السياسية ، وكان من أبرز أعضاء اتحاد طلبة شمال إفريقيا فى باريس ، هذا الاتحاد الذى حمل لواء الدعوة إلى الحرية ، وأصدر عديداً من المجلات والصحف والبحوث ، وفى سبيل ذلك لقى كثيراً من المتاعب والاضطهاد ، وألقى به فى السجن عام ١٩٤٤ . ونفى من فاس إلى الرباط ، وفى عام ١٩٥٢ سجن ونفى فى صحراء (آل نيف) . وفى ١٩٥٣ سجن مرة أخرى ، وعندما تحقق الاستقلال ولى وزارة التربية والتعليم فى أول حكومة وطنية ، ثم أصبح رئيساً للجامعة المغربية وعميداً لها ، ومضى فى هذا العمل الثقافى الكبير فشارك فى

النهضة الفكرية والمؤتمرات والمجامع اللغوية ، والصحف والمجلات ، ونشر عشرات الأبحاث فى مختلف صحف العالم العربى .

وقد ولد محمد الفاسى عام ١٨٩٥ فى مدينة فاس ، ودرس فى جامعة القرويين ثم فى فرنسا ، حيث أحرز عدداً من الدبلومات ، وأتيح له أن يزور عواصم أوربا المختلفة خلال عامين كاملين ، فلما عاد عمل فى التدريس فى مختلف المعاهد الثانوية والعالية ، وجمع بين العمل الثقافى والوطنى فى حزب الاستقلال ، فى تاريخ طويل كله كفاح وجهاد ، وأبرز معالم فكرة المزج بين الثقافتين الإسلامية والغربية ، وله إلمام واسع بعدد من اللغات ، من أهمها الفرنسية والإسبانية .

* * *

وقد أولى اهتماماً كبيراً بدراسات اللغة العربية ، وعنده أنه من الضرورى الاهتمام بتعريب كلمات الحضارة الحديثة التى ما زلنا نعبر عنها باللفظ الأجنبى أو بكلمات محرفة عن أصول عربية ، ويرى أنه لا بد لنا من توحيد المصطلحات فى العالم العربى حتى تندمج فى لغة التخاطب « إذ لا يكفى أن تكون لنا كلمة عربية للتعبير عن معنى من المعانى أو شيء من الأشياء ، ولكن لتتم وحدتنا يجب أن تكون لنا كلمة واحدة للتعبير عن الشيء الواحد .. » .

* * *

من دراسات محمد الفاسى عن أعلام المغرب

القاضى عياض : ابن حبوس ، الشريف الإدريسى
البنيدق ، ابن حسام اللخمى ، ابن عمران الوردميشى
ابن عبد الكريم التميمى ، ابن الياسمين ، أبو جعفر بن عمر
عبد الجليل العضوى ، أبو العباس الجرادى ، عبد الواحد المراكشى
ابن جنازة الخطابى ، ابن دحية الثعلبى -- الشاعر بن عبدون
أبو الحسن الشارى ، أبو الحسن المراكشى .

— مجلة الثقافة المغربية ١٩٤١ — ١٩٤٢

— رسالة المغرب م ١٩٤٣ و ١٩٤٧ و١٩٤٨ و ١٩٥٢ :

٤- محمد عزيز الحبابى

برز اسم الدكتور محمد عزيز الحبابى بوصفه أحد أصحاب المذاهب الفلسفية الواضحة فى المغرب العربى : ذلك هو مذهب (الشخصانية) الذى يقول بأن التكوين الفردى هو أساس التقدم ، وفى كتابه « من المغلق الى المنفتح » يكشف الدكتور الحبابى موقفه من الحضارة الغربية ، ويرسم الطريق إلى تكوين شخصية مغربية عربية إسلامية لها طابعها المميز عن طابع الغرب ، مع إيمانه بأن الحضارة ليست ملكاً للغرب ، وإنما هى تراث اشتركت فيه الأمم والثقافات فهى ليست وقفاً على أمة دون أمة ولا جنس دون آخر ، وعنده أن التقدم الاقتصادى أو العلمى ليس هو مقياس بلوغ الحضارة غايتها ، وإنما تكون القيم الإنسانية هذا الأساس فلا يصبح الإنسان مسخراً للآلة ، ولا يكون العلم والصناعة هى الغاية ، وإنما يكون وسيلة للتكوين والخلق والإبداع .

يقول فى كتابه « من المغلق إلى المنفتح » :

إن لكل أمة ثقافتها القومية ، هذه الثقافة تشمل علوم هذه الأمة وآدابها القومية وأساليبها الأخلاقية ، والثقافة القومية تهدف دائماً إلى السمو فى مستواها المحلى إلى مستوى الحضارة العالمية ، والحضارة تراث مشترك بين البشر ، أسهمت فى خلقه أمم كثيرة ذات ثقافات مختلفة ، فلم تكن إذن هذه الحضارة وقفاً على جنس من البشر ، ولا على قارة من القارات ، ولا نوعاً من الحياة المادية التى تخول لسكان بلد ما حياة مادية تظهر فيها السعادة .

وليس التقدم فى الإنتاج الاقتصادى أو الميدان العلمى هو المقياس الصحيح لبلوغ هذه الحضارة غايتها ؛ وإنما مقياس التقدم هو الإيمان بالقيم الإنسانية ، ومن هنا جاء خطأ تسخير الإنسان لخدمة الإنتاج والصناعة ، والصحيح هو تسخير العلم والصناعة والإنتاج لخدمة الإنسان الذى هو غاية لا وسيلة .

والحضارة الغربية قد أخفقت إخفاقاً تاماً لأنها لاتعتبر هذه المقاييس الإنسانية وإنما عتبرت العلم والصناعة غاية لذاتها . »

وعنده أنه من الضرورى إيجاد التوازن بين حاجات الإنسان المادية والروحية ، ولا يتم هذا التوازن إلا بحصول الفرد على ثقافته القومية ، والعمل الحق ، وإن كان من الضرورى أن يتحرر الإنسان من سيطرة العمل نفسه ؛ ذلك أن خضوع العمل للآلات والإنتاج يتنافى ومبادىء القيم الإنسانية ، ذلك أنه « لايكون العمل للبحث عن العيش فقط ، وإنما يكون وسيلة للتكوين والإبداع والخلق »

وقد رد على مزاعم الغربيين من أن الحضارة العالمية تقتصر على القارة الأوربية التى نشأ فيها العلم والفن (للإغريق) والقوانين والنظم (للرومان) ، وقال : إن زعيم هذه الحركة التعصبية هو « رينان » الذى زعم أن الشعوب السامية لاتعرف إلا بالصفات السلبية ، وليس لها ثقافة ولا فن ولا علوم ، وقد أوضح الدكتور الحبابى أن لكل أمة قسمها من الحضارة العالمية ، وأن المتخلفين يوجدون فى كل أمة بما فيها أوربا ، حيث لايزال بعض الأشخاص يؤمنون بالسحر والخرافات التى ينكرها الذوق السليم . وأن للأمة السامية آدابها وفنونها التى تغذت بخيال غنى .

★ ★ ★

وفى كتابه « إفلاس الحضارة » يؤكد هذه المعانى ويجليها على نحو آخر مؤكداً مذهبه الشخصانى فيقول « إن الحضارة قد حادت عن السبيل القويم ولم تستجب لطمحنا فى الكمال وتمام الصلح بين الأنا وذاته ، ومساعدتها على التفتح التام ، وعنده أن نظم الحكم والمذاهب الفلسفية والأخلاقية نتجت عن انعدام التوازن بين نزوعنا وآمالنا ورغباتنا من جهة ، وبين أعمالنا والنتائج التى حصلنا عليها ومشاريع المستقبل من جهة أخرى ، لذلك أصبحنا نعيش فى قلق عميق من خلال تناقض وضعنا » .

وهو يعلن دائماً رأيه الرامى إلى إنسانية الحضارة بحيث لاينمو جانبها المادى ، مع توقف جانبها الروحى والفكرى وتجمده فيقول : « إن دعاة المذهب الإنسانى فى كل العصور وبخاصة فى عصرنا يرغبون فى أن تتطور الإنسانية فى ثلاثة أبعاد مرة واحدة ، وهى الأبعاد المادية والثقافية والأخلاقية ، وأن الرغبة فى إقامة علاقة وطيدة بين معارفنا وواجباتنا لم تخرج إلى حيز التنفيذ ، وعنده أن الثقافة الجيدة هى التى تدفع كلاً منا إلى السهر على الأخلاق وتقدم الجميع »

ويدعو الدكتور الحبابى إلى مقاومة القيم البراقة الكاذبة ، والإقليمية الضيقة ، ويرى أن القوميات يجب أن تعمل فى خدمة المثل العليا متمثلاً بهذه الحكمة « من لايتفهم

على ماللغير وبالغير ، لايفهم ذاته ، ذلك أننا نتـــكون مع الآخرين وبالتكامــــل معهم » .

ومعنى هذا إيمانه بضرورة الارتباط بالثقافةوالحضارة الغربية ، فإنه يؤمن باستقلال الشخصية والمحافظة على الكيان الأساسى ، ويحتاط لذلك حين يقول « إذا كانت الحيطة واجبة لصيانة الجسم ، فإنها ليست أقل حتمية منها فى ميدان الثقافة والمعنويات » ولذلك يجب تحرير مفاهيمنا ، وإن أول مايفرض واجب تحرير المفاهيم فى مجال البحث والثقافة هو أن نشخص أدواءنا بلا مجاملة ولا نرجسية ولا محاباه على قاعدة « قل الحق ولو على نفسك » ولابد من النقد الذاتى حتى يقوم اســتقلالنا العقلى على أسس واضحة مركزة .

ويبدو الدكتور الحبابى من خلال كتاباته وافتتاحيات مجلة (آفاق) وهو يمزج بين الثقافة العربية الإسلامية والثقافة الغربية ، فهو ليس من المندفعين فى الدعوة إلى اقتباس كل الجديد ، يقول « ليس ضرورياً أن يكون حتما الصلاح فيما هو جديد ، ولا شك أن الجديد جديد بما فيه من عناصر الماضى ، لأن الماضى لحمة ودم كل تجديد ، فالرجعية ليست مرادفة للقدم ، كما أن الطارىء ليس لزاماً تطوراً وسيراً إلى الأمام ؛ فإن للماضى آفاته وأعماقه وللجديد آفاته ومحامده » .

وعنده أنه يجب الاحتفاظ بكل ماهو أهل للصيانة ، مع التضحية بكل مايجعل الخطا تتعثر ، وبكل مايعاكس التاريخ الحضارى الزاحف .

ومن رأيه أن الأدباء لن يكونوا إلا ملتزمين ، وأنه لم يبق هناك مجال فى حقل الفكر الخصيب للقول بنظرية الفن لأجل الفن ، وعنده أن الالتزام فى الثقافة هو أن يتبنى الكاتب أو الفنان أو المفكر قضايا الإنسان المصرية ، ويتحمل مسئولية الدفاع عن كرامة الإنسان وحريته .

ويؤمن الدكتور الحبابى بالانفتاح على الثقافات العالمية بقطع النظر عن الانتماء السياسى أو العقائدى ، وكنا نحب أن يورد دائماً تحفظاً على هذا الانفتاح يرمى الى المحافظة على شخصيتنا الأساسية وقيمنا الأصلية .

وعنده أن الماضى القومى والعام الإنسانى يعكس كلاهما ضياءه على الآخر ، وأن الذى لايأخذ لن يستطيع أن يعطى ؛ « فالثقافات يلحم بعضها البعض ويلقحه ، ولولا هذا التكامل السرمدى لذبلت المعرفة وتجمد الفكر البشرى »

ويؤمن الدكتور الحبابى باللغة العربية ، وإن كان لايكتب إلا بالفرنسية فى الأغلب وكتابه « من المغلق إلى المنفتح » كتبه بالفرنسية ، وكذلك كتابه « إفلاس الحضارة » الذى نقلت منه مجلة « دعوة الحق » فصلاً ترجمه محمد براده ، وبالرغم من هذا فإن إيمانه باللغة العربية بالغ القوة يقول : « وعندما ترغم أمة على ترك لغتها القومية إلى لغة أجنبية فإن هذا يعنى أن جداراً يقام بينها وبين ماضيها ليفصلها عن جذورها الفكرية والثقافية والروحية ، ويعنى أن تصدعاً هائلاً أخذ يزلزل كيانها وبناءها الاجتماعى كأمة موحدة ، ويعنى أنها تواجه عملية تحويل خطيرة تهدف إلى مسخ وتشويه ماتملكه من مقومات وتراث وقيم وتقاليد وأخلاق ..... »

وبعد فالدكتور الحبابى فيلسوف الشخصانية ، وعميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس بالرباط ، وإلى هذا هو شاعر له ديوان رقيق من الشعر المنثور أطلق عليه اسم « بؤس وضياء » نال به جائزة وزارة التهذيب الوطنى بالمغرب عام ١٩٥٩ .

ومن مؤلفاته الفلسفية « من الكائن إلى الشخص » و « أحرية أو تحرر » وكتابه « مفكرو الإسلام » هو أول كتبه أصدره عام ١٩٤٧ وهذه الكتب بالعربية ، وله مؤلفاته الأخرى بالفرنسية ، وفى مقدمها كتابه عن الشخصانية ، و « من المغلق إلى المنفتح » و « إفلاس الحضارة » .

وتعطى مؤلفات الدكتور الحبابى وكتاباته شخصية الباحث العربى الواضح الإيمان بفكرته ، الذى قرأ كل ماجاء فى مادته وموضوعه ، وألم إلماماً كاملاً بكل مايتصل به مما كتب الفلاسفة والباحثون ، ثم تبدو قدرته وشخصيته فى مقارنة هذه الآراء ومراجعتها ونقدها واستخلاص مذهبه واضحاً غير منقول ولا مترجم ، يصدر فيه عن إيمانه بأمته ووطنه ، ويبدو فيه مرتبطاً بالطابع القومى والعربى ، وفى نفس الوقت على مستوى الفكر الإنسانى .

ويبدو عمل الدكتور الحبابى واضحاً وإيجابياً فى مجال بناء فلسفة عربية إسلامية مغربية جديدة .

٥ ـ أبو القاسم كرو

« كان الاستعمار الفرنسي فى أثناء احتلاله البغيض الطويل لوطننا يهدف فى ميدان الثقافة والفكر إلى غايتين خطيرتين بين غاياته الخطيرة المتعددة هما :

نشر الجهل الكامل بكل ما يتعلق بتاريخنا وماضينا وكل ما يتصل بتراثنا الممتاز ورجالاتنا الخالدين بين المتعلمين فى مدارسه حتى يشب أبناؤنا وهم لا يعلمون عن تاريخ شعبهم وأمجاده وتراثه أى شيء ، بل يعتقدون أن شعبهم ليس له تاريخ ولا ماض ولا تراث أو رجال يعتز بهم ، بل هو شعب تافه ضائع عبر العصور ، تاريخه ظلام وماضيه عقيم .

تعليم أبنائنا كل صغيرة وكبيرة عن تاريخ فرنسا وأمجاد فرنسا ، وجغرافية فرنسا ، وأبطال وعظماء فرنسا حتى يشبوا وهم يعتقدون أن فرنسا هى وطن الحضارة ومنبع المعرفة ، ومصنع العباقرة الخالدين من علماء وأدباء وفلاسفة وفنانين ونبغاء فى شتى الميادين .

وغاية الاستعمار من هذين الهدفين واضحة كل الوضوح ، وهى أن يثير فى نفوس أجيالنا الاشمئزاز من الانتساب إلى أمتهم ، واحتقار ماضيها الفارغ وتاريخها السقيم ، وجعلهم ينظرون إلى فرنسا فى هالة من الإجلال والتقدير دونها جلال الآلهة وتقديس الأنبياء .

والأمة التى يستطيع الأجنبى أن يغير مقاييسها ويبدل ولاءها ويزيف شخصيتها ويمسخ عقلها إنما هى أمة تافهة حقاً ، ضائعة فعلاً ، مصيرها الفناء ونهايتها الزوال .

والاستعمار بعد ذلك يرمى إلى وأد الشعور بالكرامة والإحساس بالذات التاريخية التى تملأ النفس اعتزازاً والقلب إيماناً والفكر بصيرة ووعياً بكيان الأمة وحقها التاريخى — فضلاً عن الواقعى والطبيعى — فى أن تعيش أمة مستقلة بحياتها ونظامها وشئونها مثلما هى مستقلة بذاتها وتاريخها وأمجادها .

ولهذه الأسباب مجتمعة كانوا يعلمون أولادنا فى مدارسهم عظمة ديكارت ونابليون

وجول فيرى ، ويهملون تماماً عظمة ابن خلدون ، وأسد بن الفرات ، وخير الدين التونسي . بل إن ضميرهم قد بلغت به الغواية والإثم حدا سمح لهم بأن يعظموا « جول فيرى » الذى فرض على تونس الاحتلال والأغلال ، وما يتبعهما من عبودية ومهانة ؛ أن يعظموه بكل مظاهر التعظيم والإكبار ، فأقاموا له تمثالاً فى أعظم شارع بعاصمتنا ، وأطلقوا اسمه على نفس الشارع ، بل بلغت بهم الحماقة وجرأة التحدى أن سموا مدينة كاملة باسمه « فيرى فيل » بينما لانجد أى ذكر لرجل آخر عاصره وقاوم سياسة بلاده التى كانت تكيد لنا وتهيىء الظروف لاستعماره وابتلاع وطننا، ذلك هو «خير الدين» الذى كان يبذل كل جهد، ويعمل بكل وسيلة لإيقاف الخطر المتربص.

ويصل الاستعمار إلى نهاية الضلال والأنانية العمياء ، حين يمحو كل أثر لخير الدين فى هذا الوطن ، وخاصة فى المدرسة الصادقية ، ذلك المعهد الذى أسسه خير الدين ليكون نواة المعرفة الحديثة ، ومصنع الرجال الجسورين الذين سيغيرون وجه التاريخ ، ويتحملون الأعباء التى عجز خير الدين عن حملها ، ويحفظون لتونس كيانها وشخصيتها. »

★ ★ ★

تتمثل فى كلمات « أبى القاسم كرو » معالم فكره ، وصورة أهدافه ، فى عمله الكبير الذى قام به منذ عام ١٩٥١ ، عندما أصدر كتابه « ماى شهر الدماء والدموع فى المغرب العربى » .

وقد جعل من دراسات الأعلام مجاله الأولى ، وله فى هذا أربع دراسات هامة عن : خير الدين التونسي ، ابن خلدون والعرب ، الشابى (كتب عنه ثلاثة مؤلفات(١)) وطاهر الحداد ، ومن أعماله سلسلة (كتاب البعث) التى أصدرها وأولاها جهده سنوات متوالية استوعبت دراسات بأقلام أغلب كتاب تونس : عثمان الكعاك ، محجوب ابن ميلاد ، محمد الحليوى ، محمد مزالى ، محمد العروسى المطوى ، الطاهر الحميرى ، مصطفى رجب ، عبد الكريم بن ثابت .

كما نشر لكتاب الجزائر والمغرب من أمثال : أحمد رضا حوحو ، وعبد المجيد ابن جلون ، ومحمد الصباغ ، مبارك الميلى .

واستوعبت السلسلة دراسات للمرأة العربية : ناجية ثامر ، ونزيهه الديلمى، أما أبو القاسم نفسه فقد قدم بها عديداً من الدراسات المنوعة ، وشارك بها فى أحداث العالم العربى

---

(١) الشابى حياته وشعره (١٩٥٢) كفاح وحب (١٩٥٢) كفاح الشابى (١٩٥٤) .

وقضاياه وأمامى كتابه (صوت الجزائر) الذى آزر به ثورة الجزائر فى إبانها بعمل فكرى نافع . وفى كتابه « مايو أوماى شهر الدماء والدموع » صور رائعة عن كفاح المغرب العربى ، واحتلال الجزائر وتونس وقصة الظهير البربرى (المغرب) والمؤتمر الأفخارستى (تونس) وحادث سطيف (٨ ماى) فى الجزائر . وقد استعنا بهذه الأبحاث فى دراساتنا عن المغرب العربى ولا شك أن كرو كان « أول من اهتم بالشاعر التونسى المغربى النابغ « الشابى » ، وكتابه عنه أول ما كتب فى الأدب العربى المعاصر ، وهو الذى فتح الباب لعشرات الدراسات والبحوث .

كما أولى ابن خلدون اهتماماً كبيراً ، وناقش كل ما وجه إليه من اتهامات ، وما كتب عنه طه حسين وأحمد أمين وسلامة موسى ومحمد عبد الله عنان ..

يقول «فى اعتقادى أن لبعض المستشرقين يداً آثمة ، فى إفساد تاريخنا وتشويه حقائقه وأمجاده ، وهو ما يمكن تماماً اعتباره امتداداً للشعوبية الفارسية القديمة ، حيث أصبح لأوربا ، وللغرب بوجه خاص ، هدف معلوم ومقصود لتشويه تاريخنا ، وإعطاء حوادثه وحقائقه تفسيرات خاصة ، تهدف إلى التقليل من شأن العرب ، إلى إحداث الفتنة والبغضاء بين أفراد الشعب الواحد ، بدعوى اختلاف العرق أو السلالة أو اللغة والتاريخ » .

★ ★ ★

وأبو القاسم محمد كرو من أبرز كتاب المغرب العربى ، وقد أعد نفسه لكشف الصفحات المجيدة فى تاريخ تونس والمغرب

أعطى أسلوبه هذا الطابع المشرق تعدد مناحى ثقافته الزيتونية القاهرية العراقية ؛ فقد أتيح له أن يتلقى دروسه الأولى فى الزيتونة موئل الضياء فى الشمال الإفريقى ، ثم هاجر ١٩٤٨ إلى الشرق العربى عن طريق ليبيا ، حيث التحق بالجامعة المصرية ، ثم كان فى أول بعثة تونسية للعراق أرسلها مكتب المغرب العربى بالقاهرة ، فالتحق بالكلية العسكرية ، والتحق بالمعلمين العالية وتخرج فيها ١٩٥٢ .

فلما عاد إلى « قفصه » مسقط رأسه أسس جمعية شباب ابن منظور ، ومنذ ذلك الوقت بدأ نشاطه وعمله فى مجال التأليف والنشر ، فكتب للإذاعات العربية والصحف العربية وألقى عديداً من المحاضرات ، وأتيح له أن يزور الشام وأن يقيم بالعراق أربعة أعوام ، وليبيا عامين ، حيث اشتغل بالتدريس فى مدرسة طرابلس الغرب الثانوية ،

فتولى التدريس فى الزيتونة ، وقد أصدر أخيرا مجلة (الثقافة) فجاءت عملاً نافعاً أنيقاً .

له كتابات منثورة فى معظم صحف المشرق والمغرب ، وله اهتمامات كبيرة بالأدب العراقى ، وبالشعراء العراقيين على وجه الخصوص .

ولم يدع كرو مجالاً دون أن يثبت قدمه فيه ، وفى مجال القصة له « كفاح وحب » تأثر فيها بأسلوب المهجريين ، مع الاحتفاظ بطابعه ككاتب مغربى عربى .

* * *

٦ ـ على مصطفى المصراتى

« طرابلس الغرب : اسم حلو عذب . سمعته لأول مرة من أمى وأبى وهما يقصان على مسمعى تاريخ هذا البلد . وقصص البطولة فيه . وأدوار الجهاد الوطنى لأبنائه ، وكانا مشردين مهاجرين فرا من اضطهاد الاستعمار الظالم مع آلاف المهاجرين ، وقوافل القادمين على الإبل والأقدام ، قاطعين الصحراء اللافحة ، تاركين وطناً مغصوباً ، قادمين أرض مصر الحبيبة ، قبلة الأحرار .

ونشأت فى مصر متلهفاً على رؤية هذا البلد العربى ، ولم تتح لى زيارته إلى عام ١٩٤٨ ، حيث قدمت هيئة لتستفتى أهله عما يريدون فى المستقبل ، حينئذ أسرعت إلى طرابلس لأول مرة خطيباً وداعياً إلى الحرية ، وطفت ليبيا بلداً بلداً ، وقرية قرية ، أخطب من الأعماق ، ألهب وأحمس وأنادى بالاستقلال والحرية متبرعاً ، تاركاً دراستى وأهلى فى مصر . »

* * *

ومن هنا بدأ الكاتب الليبى رسالته : هذه الأمة التى جاهدت منذ ١٩١١ من اللحظة التى وصلت فيها أساطيل المستعمر الإيطالى إلى شواطىء برقة ، وظلت تكافح حتى تحررت ١٩٥٢ ، كان لا بد أن يكتب تاريخها هذا الطويل ، خلال أربعين عاماً بمعاركه وأبطاله وشهدائه ، بشعره وقصصه وأساطيره ، ولابد من كاتب يتجرد لهذا العمل ، ويحمل على كتفيه مسئولية الريادة فى كل هذه المجالات ، وقد اختار على مصطفى المصراتى هذا السبيل فبدأ يعمل فى كل مجال من مجالات الفكر ، يريد

أن يرسم ملامح الفكر العربى فى ليبيا من جوانبه المختلفة ، وهو حق بأن يقدم عصارات مختلفة تصور المعالم المنوعة للحصاد الفكرى ، والملامح السريعة للصحافة والأسطورة وقصة التاريخ وسيرة البطل والأمثال العامية والشعراء الذين لم يجمعوا دواوينهم ، والكتاب والأبطال والأعلام ، وقد استطاع أن يقدم فعلاً فى هذا المجال آثاراً نافعة .

ومن أبرز آثاره : « غومة فارس الصحراء »

وهو صفحة من تاريخ ليبيا من عام ١٧٩٥ إلى ١٨٥٦ من خلال حياة هذا الفارس الذى حمل لواء الثورة على الحكم العثمانى خمسة وعشرين عاماً .

ودعا إلى مقاومة مظالم الولاة العثمانية ، وتحرير المواطن العربى الليبى من استبداد الأتراك.

وقد كشف فى هذا الكتاب عن جانب من تاريخ ليبيا فى معركة الحرية ، وكيف قام فرسان ليبيا لصد كل غاز أجنبى ورد كل اعتداء، وكيف تصدى هؤلاء الفرسان المغاوير — على حد تعبير المصراتى — لقراصنة البحر ولصوص الشواطىء وردت بطولاتهم الإسبان والمالطين والنورمانديين والفرنسيين والطليان . ومن هؤلاء «غومة المحمودى » بالذات ليرسم من خلاله صورة من صور الكفاح البطولى فى ليبيا ، لأن الدارسين أهملوه ، والخصوم شوهوا حركته . وتكاد رمال النسيان أن تجرفه . وقال : إنه بينما أهملته الدراسات والبحوث التاريخية فقد تلقفه الأدب الشعبى ، وسارت معاركه مادة دسمة للأسمار والأقاصيص . وقال المصراتى : كنا نسمع من جداتنا وأمهاتنا ألواناً من الأقاصيص المثيرة والأسمار الحلوة حول (غومه) وفروسية أصحابه . غير أن الكاتب رأى — حينما أراد أن يكتب سيرته — أن يعتمد على التاريخ والحقيقة ، ولذلك لجأ إلى الوثائق المعتمدة والمصادر الوثيقة ، للكشف عن الحقيقة ، ولم يعتمد على مايدور فى الأفواه ، ولم يعتبر عمله الأدبى دراسة للأدب الشعبى ، وإنما اعتبرها دراسة تاريخية محققة ، وعنده أن الدراسات الشعبية قد تكون عوناً وسنداً للدارس فى رحاب التاريخ ، ولكنه لا يقبلها إلا بقدر ، ذلك لأن الفارس « غومه المحمودى » كان إلى ما قبل دراسته هذه مجهولاً لدى القارئ العربى .

وموجز حياة « غومه » كما أورده المصراتى فى كتابه الذى دعمه بالوثائق المخطوطة ، هو حامل لواء المقاومة العربية فى وجه استبداد الولاة الأتراك الذين حكموا ليبيا ، وقد لقيت حركته تجاوباً فى مضارب العرب ومناخ عشائرهم ؛ فقد حمل مطالبهم

فى تخفيف الضرائب الباهظة التى كانت تمتص ثروة البلاد وتلهب ظهر الشعب ، وفى تحرير المواطن العربى ، واصطدم (غومة) بالولاة الباشوات . وقد حرص أن يجعل معركته معهم وحدهم ، دون أن يعلن الخصومة على السلطان لهيبته وقدسيته - إذ ذاك - لدى الناس ، فكان حين يهاجم الولاة ويسميهم بالظلمة ، يعلن إخلاصه وولاءه للسلطان ، ولكنه لا يتوقف عن شن الغارة عليهم ويقود الهجوم إثر الهجوم فى مطلع القرن التاسع عشر .

ولقد واجهت سلطات الأتراك حركة (غومة) بمنتهى العنف والشدة ، واتهمته بالعصيان والتمرد والتشفى والطمع فى النهب والسلب ، وحشدت كل قواتها لتضييق الخناق عليه والضرب على أيدى مؤيديه ، واستعملت فى ذلك أعنف الوسائل ، من سجن ونفى وتشريد وإعدام ومصادرة للأملاك ، كما عملت على إغراء كثير منهم بالمطامع ، وبث الفرقة بين أنصاره .

وغومه - كما رسم صورته المؤلف - فارس جرىء ولد على ظهور الخيل ، وقد لقيت حركته تأييد القبائل ، فاستمر فى حركة منظمة ربع قرن كامل ، واستطاع هذا الرجل البدوى أن يثبت فى ميدان المقاومة كل هذا الوقت بعد أن اقتنع العلماء والمثقفون بصدق حركته ، فلم يقم أحد منهم بالدعوة ضده ، ويرى المؤلف أن ذلك يعطى حركة « غومة » كل التقدير فى هذه الفترة المبكرة من أوائل القرن التاسع عشر ، من أجل المطالبة بحق المواطن العربى إزاء سلطات الأتراك المسيطرة على الحكم .

ولم تكن حركة (غومة) هى الحركة الأولى من أجل حق المواطن العربى ، ولكنها كانت الحركة الكبرى التى استمرت أطول فترة ، والتى كانت أكثر تنظيماً ، والتى حققت نتائج هامة أبرزها خلف الوعى بين القبائل فى شطوط الصحراء ، وتحويل الإغارات من أجل السيطرة القبلية المحضة إلى شأن أكثر أهمية وهو المطالبة بالحقوق ، فضلاً عن أنها جمعت القبائل ووحدت صفهم على هدف وطنى واحد ، وآية ذلك أن جميع هذه القبائل قد أعانت (غومة) فى كفاحه الخطير وأمدته بالمال والرجال ، ويرى المؤلف أنه يكفى (غومة) أنه خلق هذه الروح فى جوف الصحراء .

ولقد حرص (المصراتى) على أن يستخلص صورة صادقة لشخصية (غومة) من خلال الأساطير والأقاصيص والأشعار المتناثرة عنه فى البادية إلى أطراف تونس والجزائر ، وكانت محاولته شاقة حقاً فى أن يضع خيطاً دقيقاً فاصلاً بين الأسطورة

والحقيقة على أساس بحث علمي قوامه الترجمة الذاتية لا القصة .

واستعرض المؤلف هدف (غومة) وتساءل : هل كان فى الوصول إلى لقب أو مشيخة أو برنس (شعار للرأس يهدى للأبطال) وقال : إنه كان قبل حركته شيخا لقبائله وأنه حاز برنساً أكثر من مرة وأعطى لقب (باش توبجى) وأنه لم يهدف من حركته إلى مجد شخصى ، وإنما كان يتطلع إلى ما أورده كثيرا فى رسائله « إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت » .

وأشار إلى أنه فى حركته كان حريصاً معتزاً بلغة بلاده ، فكان لا يكتب للسلطان إلا بها معتبراً إياها مقوماً من مقومات عروبته .

كما اشار إلى أن الأتراك أصموا آذانهم عن دعوته ولم يستمعوا إليه ، ولكنهم اضطروا بعد موته إلى الاستجابة لما دعا إليه فغيروا كثيراً من أنظمتهم وخففوا مظالمهم . وقال : « إن (غومة) أوجد روح الاعتزاز بالوطن ، وبذر بذرة القومية فولدت فى النفوس لهيب الثقة بالعروبة » كما أورد نماذج مختلفة من رسائله وأشعاره ونوادره وأمثاله .

وعلى الجملة فإن كتاب (غومة) هو واحد من الأعمال الأدبية التى قدمها الكاتب العربى الليبى (على مصطفى المصراتى) فى جملة من دراساته التى يقدم بها عصارات كثيرة من الثقافة والتاريخ لحياة ليبيا الأدبية ، وهو كاتب منوع الإنتاج يحاول قدر جهده أن يكشف عن جوانب التاريخ الأدبى فى مؤلفاته المتعددة : أعلام من طرابلس . لمحات أدبية من ليبيا ، صحافة ليبيا فى نصف قرن . دراسات فى الأدب الشعبى . مدرسة الجغبوب وأثرها الفكرى والاجتماعى . أبو قشة الصحفى الليبى . إبراهيم الأسطى عمر شاعر ليبيا . أسد بن الفرات فاتح صقلية . أحمد الشارف وديوانه ، الشراع الممزق (مجموعة قصص) .

* * *

وقد صور المصراتى هدفه من عمله الأدبى فى مقدمة كتابه (أعلام من طرابلس) (١) فقال : إن أكثر ما أهمنى فى تاريخ هذا البلد الجانب الثقافى والفكرى ، جانب تراجم الأعلام والعلماء والأدباء ؛ فقد كتب فى التاريخ السياسى والتاريخ القومى كثير وكثير . وقال : إن تراجم الأعلام باب لم يطرق ، وجانب لم يلمس ، مع أنه ناحية هامة ، فتراجم

---

(١) صدر عام ١٩٥٥ .

الأعلام مرآة تنعكس عليها صور من الحياة الفكرية ويلمس فيها مدى التطور الأدبي ، الذى هو مقياس الحضارة والرقى . وأشار إلى أن » ما أصيبت به البلاد من هزات عنيفة وكوارث مؤلمة ونكبات مروعة ، وما أصابها من استعمار بغيض أسود زهاء ثلاثين عاماً كاد يقضى على كل ماله صلة بالعربية والفكر الإسلامى .. من أجل هذا ذهبت أكثر الآثار القديمة والمؤلفات التى كتبها أعلام الفكر والأدب والفقه ، وامتدت يد السرقة والنهب والجهل إلى تلك الآثار فكاد أن يصبح هذا الجانب قاعاً يباباً أجرداً .

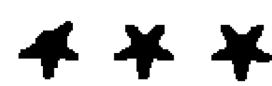
وقال : إن هذا هو ما دفعنى إلى مواصلة الجهد ، والبحث عن الشوارد والأوابد والمخطوطات والرقاع والأوراق المبعثرة المهملة ، وقد جعل ميدان عمله « من القرن الرابع الهجرى حتى العصر الحالى » ، ومجاله الجغرافى : طرابلس ، برقة ، فزان .

وقال : إنه حاول أن يجعل من هذه التراجم الأدبية لبنة فى التاريخ الثقافى والتطور الفكرى ..

وفى (أعلام من طرابلس) وهو باكورة عمله : كشف النقاب عن كثير من النماذج « التى كاد يكتنفها الغموض ويحيط بها الإبهام » أمثال : أحمد البهلول ، مصطفى الكاتب ، محمد الحروبى ، أحمد بن شتوان ، وسليمان البارونى ، إبراهيم باكير ، إسماعيل كمالى ، مصطفى بن ذكرى .

ويتحدث دائماً عن بطولات شهداء الجبل الأخضر ، ووادى الكهوف ، وميناء طبرق ودرنة ، وأجدابية ، ومصراته ، وهى بطولات ذهب فيها نصف الشعب .

وهو فى « إلقاء الأضواء على التراث المنطوى المنزوى وعرضه ونفضه وتقديمه » يرى أن هذا العمل ضرورى حتى لا يقول لنا كتاب الغرب والمستشرقون . خذوا تراثكم من بين أيدينا ، ونحن – شباب العرب – أولى بالبحث والتنقيب عن كنوز بلادنا وإنقاذ التراث الأدبى من الضياع ، فالأدب هو وقود الوطنية والمشاعر . ولا حرية لشعب لا يتمتع بمذاق أدبه .. »



٧ — الشناقطة

قدمت شنقيط « للحركة الفكرية المغربية جهداً واضحاً ، وتردد اسمها طويلاً ، ولمع أعلامها فى كل مجال ، وفى مصر بالذات كان للشناقطة دور هام ، وذكر واضح .

وشنقيط مدينة من مدن (أدرار) واقعة على جبل غربى الصحراء الكبرى وشرق السنغال بين السودان والمغرب .

وأمامى منهم عدد كبير وأبرزهم : محمد محمود بن أحمد بن محمد التركزى الشنقيطى المتوفى ١٩٠٤ ، وصديق الشيخ محمد عبده ، ونزيل مصر ، وأستاذ السيد محمد توفيق البكرى .

وقد عرف بالعلم الواسع والفضل فى مجال اللغة والشريعة والأنساب ، اتصل بعلماء الأزهر ، سليم البشرى ، أبى الفضل الجيزاوى ومحمد بخيت ، وجرت بينه وبينهم مساجلات .

وكان قد اتصل بالقرويين ، وعرف الثقافة الفرنسية وحرر فى جريدة « السعادة » .

ومن تصانيفه « الحماسة السنية الكاملة المزية ، فى الرحله العلمية الشنقيطية » « وتصحيح كتاب الأغانى » ، « وحاشية على شرح لامية العرب » .

وصفه عبد الرحمن البرقوقى (١) بأنه كان نادرة فى الحفظ والاستظهار ، وآية فى اللغة والنثر والحديث وعلم الأنساب ، وأنه كان لا يخشى فى الحق لومة لائم ، وقال : إنه قرأ عليه بإيعاز من الشيخ محمد عبده المعلقات السبع ، وكتاب الكامل للمبرد ، ووقف على الكثير من نوادره وغرائب أطواره .

وقد اتصل فى القاهرة حين قدومه إليها بالسيد توفيق البكرى نقيب الأشراف ، الذى استأجر له ولأهله داراً وثبت له مرتباً شهرياً لقاء دروسه ومجالسه العلمية التى كان يعقدها معه .

ثم قصد إلى مكة فالمدينة ، ووقع بينه وبين علمائها خلافات فى وجهات النظر ، فاتجه إلى القسطنطينية والتقى بالسلطان عبدالحميد الذى كلفه بمراجعة الكتب العربية الموجودة فى إسبانيا ، وأرسله فى قطار خاص ، وأعطاه مؤذناً وطباخاً وبعث معه أحد أدباء تونس.

وعرف بحسن البادرة والفكاهة وطرافة النكتة . ومن معاركه الأدبية فى مصر أنه خالف الأدباء جميعاً فى قولهم : إن اللفظ (عمر) ممنوع من الصرف ، كما انتقد أراجيز

(١) مجلة مصر الحديثة المصورة ٩-١-١٩٣٠ .

العرب التى أصدرها توفيق البكرى ، ورسالة التوحيد للشيخ محمد عبده .

وقد أعلن الشيخ عبده هذا الانتقاد فى دروسه بالرواق العباسى مع الثناء على المنتقد .

★ ★ ★

ومن أعلام الفكر والأدب من أبناء شنقيط : محمد بن أمين الشنقيطى القاطن ببلدة (الزبير) من أعمال البصرة وقد نعاه الدكتور تقى الدين الهلالى (المغربى الأصل) من مدينة لكنو بالهند فى مجلة الفتح (١٩٣٠)

وكان قد رحل إلى الشرق وهو شاب : ووصل مكة حيث التقى فيها بالمصلح المغربى أبرز دعاة السلفية : الشيخ شعيب الدكالى ، وقد لازمه سنتين ، وهو الذى انتدبه إلى الزبير فأقام بها ، وكان سراجاً منيراً فى الخليج الفارسى وبلاد العراق ونجد . وفى زمن الحرب الطرابلسية (١٩١١) شد الرحال إلى طرابلس للجهاد ، وسافر إلى بلاد نجد يستوطنها حتى لا يكون تحت تأثير الأوربيين . ثم توجه إلى الكويت ، ونفى منها لاتهامه بعداوة الإنجليز ، فتوجه ، إلى الزبير ثانية ، وأسس مدرسة النجاة هناك ، وهاجمه العلماء واتهموه بأنه يسمم أفكار شبان العراق ، وكانت حجتهم هى تدريسه لكتاب « العقيدة الواسطية » لشيخ الإسلام ابن تيميه وقد وصف محمد تقى الهلالى مجالسه فقال : إنها كانت تحريضاً على جهاد الاستعمار .

وكان يقول لتلاميذه ورواد ندوته : لا يروعنكم لفظ الجهاد ؛ فإن هؤلاء الأوربيين الفاتحين المتعصبين المبيدين للأحرار . ما زالوا يخوفون عبيدهم من ذكر كلمة الجهاد ، ويعدون ذكره من أعظم الذنوب ، وهو آية الهمجية والتعصب الدينى الممقوت .

وأشار تقى الدين إلى أن العلماء فى وهران بالجزائر يمنعون من تفسير أى آية أو حديث يدل على الجهاد ، ويحال بينهم وبين تدريس شىء من أبواب الجهاد فى كتب الفقه .

★ ★ ★

ومن كتاب شنقيط : أحمد بن الأمين الذى أصدر فى مصر سنة ١٩١١ كتابه (الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط) (مطبعة الحلبى) وقال فى مقدمته : « مضيت أجمع ما تسنى لى من الشعراء الأموات سواء كان عالماً أو غيره ، ولا يتوهم متوهم أنى أحطت بجميع أشعارهم ، بل يوجد منهم من لم أورد العُشر من شعره ، بل ولا عشر عشر شعره ، ولم أورد من أخبارهم إلا ما علمت ، أما من ذكرت اسمه من غير أن أترجمه ، ولا ذكرت

اسم أبيه ، بل ربما ذكرت لقبه دون ذكر اسمه ، فإنما ذلك لعدم معرفتي به ، ولم أتعرض للشعراء الأحياء مع كثرتهم ، لقلة من رويت له منهم » .

وقد ضم كتابه ٥٤٢ صفحة ، ٨٦ دراسة ، وتكلم عن شنقيط وتخطيطها .

★ ★ ★

وقد أورد عمر رضا كحالة في موسوعته « معجم المؤلفين » ثلاثة عشر علماً من أعلامهم بين محدث وأديب وشاعر وراوية وفقيه ، منهم ابن العلوى الأديب (توفى ١٨٥١) وأبو محمد العقبة الأصولى (توفى ١٨٢) وغالى الشنقيطى الأديب (المتوفى ١٨٢٧) ، والحبكى (توفى ١٩٣٥) ، ابن سنة الفلانى (المتوفى ١٧٧٢) وأبو عبد الله (المتوفى ١٩٠٢) ومحمد حبيب الله (المحدث) (المتوفى ١٩٤٤) .

خامسا : شعر الوطنية والكفاح

كان الشعر العربي فى المغرب سلاحاً بتاراً فى مجال المقاومة للاستعمار والدعوة إلى الحرية والوحدة والتجمع ، وكان خدمته لهذه الأهداف لا تقل عن خدمة الصحافة ، فهو فى مجالى (١) الإلقاء والاجتماع . (٢) النشر بالصحف ، بعيد المدى قوى الأثر ، يهز المشاعر ويفتح القلوب ويثير النفوس ، وبرز فى ليبيا وتونس والمغرب والجزائر عشرات من الشعراء النوابغ الذين نظموا فى عشرات من الموضوعات .

وقد ظهرت مجموعات من دراسات لشعراء فى المغرب العربى واكبوا اليقظة والنهضة ، وقاوموا الغاصب وفتحوا الطريق أمام الحركات الوطنية والثقافية والاجتماعية .

١– شعراء الجزائر فى العصر الحاضر بقلم (محمد الهادى الزاهرى) ١٩٢٩ : وقد ضم دراسات لعديد من الشعراء : محمد العيد حم على ، محمد اللقانى بن السائح ، محمد السعيد الزاهرى، الجنيد أحمد المكى، أبو اليقظان إبراهيم ، الطيب العقبى ، مفدى زكريا سليمان ، أحمد كاتب بن الغزالى ، رمضان حمود بن سليمان ، عبد الهادى السنوسى الزاهرى .

٢ –شعراء المغرب الأقصى محمد المقرى، محمد المختار السوسى ، محمد المكى الناصرى ، (المغرب) ؛ ضمت : عبد الأحد الكتانى ، الحسى الدودى ، محمد علال الفاسى ، عبد الله كنّون ، أحمد البلغيثى ، محمد غريط .

٣ – شعراء تونس : تناولها بالدراسة زين العابدين السنوسى والفاضل ابن عاشور .

٤ – درس على مصطفى المصراتى عديداً من شعراء طرابلس وبرقة فى مؤلفاته المختلفة منهم :

أحمد الشارف ، وسليمان البارونى ، وإبراهيم الأسطى عمر ، وأصدر الصادق عفيفى دراسة (الشعر والشعراء فى ليبيا) ضمت أكثر من ٤٢ شاعراً من برقة وطرابلس فى العصر الحديث فى مقدمتهم :

إبراهيم أسطى عمر ، وأحمد رفيق المهدوى ، ومحمد الطيب الأشهب ، وأحمد الشارف ، وسليمان البارونى ، وغيرهم .

وقدم الدكتور طه الحاجرى دراسة عن الحياة الأدبية فى ليبيا عن (الشعر) تحدث فيها عن المهدوى ، والشارف ، وإبراهيم أسطى عمر وغيرهم .

وصدرت دراسات خاصة لشاعر الجزائر : محمد العبد آل خليفة بقلم (أبو القاسم سعد الله) ودراسات ثلاث مستقلة لشعراء ليبيا : أحمد رفيق (لمحمد الصادق عفيفى) وأحمد الشارف وإبراهيم أسطى عمر (لعلى مصطفى المصراتى) .

★ ★ ★

وحفلت الصحف المغربية بمئات من القصائد لشعراء كثر لم تصدر لهم دواوين

١ ــ فى المغرب :

عبد الله كنّون ، علال الفاسى ، محمد إبراهيم (شاعر الحمراء) ، عبد الكريم بن ثابت ، عبد المجيد بن جلون ، مختار السوسى ، أبو بكر اللمتونى ، عبد القادر المقدم .

٢ ــ وفى الجزائر :

أحمد سحنون ، جلول البدوى ، عبد الكريم العقون ، الربيع أبو شامة ، محمد المهدى العلوى ، الهادى السنوسى .

٣ ــ وفى تونس :

الشاذلى خزنة دار (أمير الشعراء) ، الهادى العبيدى ، محمد الحليوى ، أبو القاسم الشابى ، محمد العروسى المطوى ، محمد الخضر حسين ، كرباكه ، منور صمادح .

والشعر المغربى فى مجموعه شعر كفاح وشعر عاطفة . وهو فى حاجة إلى دراسات واسعة يقوم بها المتخصصون ، وفى نطاق بحثنا نجد فى الشعر المغربى المعاصر أصالة وحياة ، وتطلعا إلى القيم والأمجاد .

وقد تأثر التطور الذى واجهه الشعر فى المغرب بظهور مدرستى الديوان وأبولو فى مصر ومدرسة المهجر فى العالم الجديد .

وأبلغ اهتمامات الشعر المغربى هى :

فلسطين ، الجزائر ، الاستقلال ، وحدة المغرب ، الوحدة العربية ، كما تناول

استقلال أندونيسيا (علال الفاسى) . وللنشيد مكانه المرموق فى شعر الجزائر : نشيد الجزائر لعبد الحميد بن باديس ، ونشيد الكشاف العربى (المغرب) لعبد الله كنّون ، ويندر أن نجد شاعراً فى المغرب لم يتناول فلسطين ، أو فى المغرب وتونس وليبيا لم يتناول الجزائر .

وبذلك تحرر الشعر من قيوده القديمة فى الأداء ، وقيوده فى المضمون ؛ فأصبح على حد تعبير (محمد العروسى المطوى) (١) يعيش مشكلات عصره ويحيا حياة إنسان ، أما فى القديم فقد كان الشاعر أبعد ما يكون عن زمانه وأهله ، كان الشعر بلاطياً قصورياً ، وانكماشاً على النفس ، أما شاعر اليوم فقد أصبح يستمد إلهامه ووحيه من محيط الإنسانية الواسع وآفاقها الممتدة » .

وفى شعره يبدو هذا الاتجاه واضحاً :

قد سئمنا رنة الكأس فى أنات عـــــود
واتخمنا باحتراق الصب عن لفح الصـــــدود
وانغمسنا فى صروف الوهم فى دنيـا السمود
هل يرى التغريد فى الصهباء أو مبسم غيــــد
إنما التغريد للآمال ، للسعى الحميــــــــد
للمنى يبعثها الناشئ كالصبح الوليـــــــد
من جلال البعث والأحيـاء للمجد التليـــــد
من كفاح الحر للطغيان للظلم العنيـــــــد

★ ★ ★

والتقى المشرق بالمغرب فى مجال الشعر . فعلى الحلى (العراق) ينظم ديواناً كاملا فى الجزائر وفى فرحات حشاد يقول :

زمرى ويك يا بطاح الأضـاحى نغم اللحن من أغانى الجراح
وازفرى اللاهبـات يازمـزما ت الدم والنار فى السفوح السفاح
رنمى للفخار ، للعزة الشماء ، للزهـــو للعلى ، للطمـــاح

★ ★ ★

---

(١) مجلة الفكر ـ اكتوبر ١٩٥٦ .

كما جرى بين كرباكه (تونس) والرصافى (العراق) محاورة فقد خرج الرصافى هائماً على وجهه فى القيافى والصحارى ضائقاً بوطنه ، واهتز كرباكه للخبر فنظم شعراً :

فيما فرارك والعــراق كما ترى   زين البــلاد وأهله زين الــورى
إن العظيم إذا عنى لهمامـــــة   فى نفسه لبس الجلادة مشعرا
لن تعمل الصدمات فى مجهــوده   سعيا لغايته ولن يتقهقـــــرا
أين الزمان به تزعزع نفـــرة   من شاعر عرش الهرقل وقيصرا
وتجوب عرض الأرض حكمة قائل   وتخوضها رغم المخاطر أبحــرا
وتهز صيحتـــــه المهيبة أمــة   وتقود قولتــه الجريئــة عسكرا
الأمر معقــود بسبــق لسانـــه   والدهر محكوم بمــا قد دبــرا
إنى أقاسمك الحياة مريــــرة   وتضيق بى هذى المدائن والقــرى
همّ يساورنى النهار ومطلـــب   إن جن لى ليلى تماثل فى الكرى
لا هُمّ (١) دارك بالعناية أمـــة   بات الزمان لسعيها متنكـــرا

★ ★ ★

وقد توفى كرباكة بعد ذلك بخمسة عشر يوماً وفى نفس الشهر توفى معروف الرصافى

ويقول محمد الحليوى (تونس) : إن الرصافى هو الذى هدهدت طفولتنا أشعاره ، وغذت قصائده شبابنا المتطلع إلى النفحات الشعرية .

★ ★ ★

وفى شعر الوطنية يقول (علال الفاسى) :

المغــرب الأقصى لنـــــا   وطن مجلل بالثنــــــا
فيــه نعمنـــــا أزمنـــا   يا حبذا ذاك الــــوطن
عشنــا بطيب هوائــــه   وبأرضـــــــه وسمائــه

وفى شعر العروبة يقول أيضاً :

شعب العروبـــة واحـــد   رغم انقســـام مفتعــل
لو شققـــوا قلبى وقلبك كان متحـــــد الظــــلل
ســـيان من بالمغــــرب الأقصى ومن فيكم نـــزل

---

(١) نداء لاسم الجلالة وأصلها : اللهم .

سنعيــــدها عربيــــــة غـــــراء فارعــة القُلل
إنّا فـــداء للعــــروبة لا نبـــالى من ختـــل

ويقــول :

اخبروا االقوم واعلموهم بأنـــا   قــد حيينا وأننــا سنكون

ولمحمد داود (المغرب) شعر فى الوطنية :

قل لمن يجهل أنا أمـــــــة   تأنف الضيم وتردى الظالمـين
لا ترم تبصر فينــا خامـــــلا   أو ترانا للردى مستسلمـين
أمة المغرب هبى للعـــــــلا   فلقد ولى زمان الخاملين
يابنى المغرب هيا اقتحمـــــوا   سبـــل العيش بعــزم لايلين

ويقول : (الهادى المدنى) تونس :

عهــدى بقومى كالصوارم تنتضى   عهــدى بهم كصوارم الأطواد
عهدى وليس يفل شىء عزمهم   أو يظفروا بمرامهم ومـــراد

★ ★ ★

كما تأثر شعراء المغرب بأحداث الأجزاء المغربية الأخرى .

يقول عبد الله كنّون (المغرب) فى حادث سطيف (بالجزائر) :

أرى هادى الطريق يجور عمدا   فكيف بلوغ من يهديه قصــدا
أرى حامى الحمى قد عاث فيه   فمن ذا يقتضيه بعـــد عهـدا
وأحسبه يرانا من وحـــــوش   يباكرها مناوشــــة وطـردا
وكم أهدى إلينا من مخــــاز   تهد دعائم الأخــلاق هــدا
بنى قومى أفيقــوا من سبــات   فإن الحادثات تجــد جــدا
وهذا خصمكم يــرمى لأمــــر   فلا يأخذكم فردا ففـــــردا
عليكم باتحاد فى كفـــــــاح   يمن لكم بقوتـــــه تحــدى

ويقول أحمد سحنون (الجزائر) فى المغرب العربى :

للمغـــــرب العـــربى صولة ضار   ووثوب مقدام على الأخطار
بالحب ســـوف يعيد سالف مجده   وبالاتحاد يفـــوز بالأوطـــار
كذب الذين نعــوه بل هو لم يزل   غاب الأسود وموطن الثـــوار
قد هب كالتيار حطم ســـده   من ذا يعارض غضبة التيـــار

ويتجه أحمد سحنون (الجزائر) إلى فلسطين :

أموطىء أقدام النبيين والرسـل ... وموطن نسل الوحى بورك من نسل
فداك الغدى لا تقبلى قسمة العـدى ... وللموت سيرى لا تبيتى على ذل
ولا تحفلى بالناس إن جار حكمهم ... عليك فإن الله يحكم بالعـدل
وخلفك جيش من بنى العرب رابض ... ليبعد عن أرض الهدى عابدى العجل

وفى مجال الأناشيد ينظم (عبد الله كنون (١)) نشيد الكشاف المغربى :

أنـا كشـاف شريف ... أنا عنـوان الشهـامة
دمث الخلـق نظيـف ... جاهـد فى الاستقامـة
مغـربى ليس تخفى سمـتى ... أنفـانى فى اقتحام الخطـر

أنا كشـاف شريف

عربى الـدم والنفس التى ... نزعت بى لتحـدى العصر
بين جنبى فـؤاد خافـق ... ملؤه حب وعطف وحنـان
وطنى فاقبله أنى سـائق ... لك فى طياتـه عهد الأمان

أنا كشـاف شريف

كل يوم لست أبغى فيـه عزاً ... وفخاراً يا بـلادى مستجـد
فأنا لست لذلك الحب رمـزا ... لا ، ولا أبغى لمجدى من مـرد

أنا كشـاف شريف

مبـدئى أخـدمه مجتهـدا ... فى ثبات فى اعتقاد بالنجـاح
يـد أنى لن أرى معتمـدا ... غير نفسى ، غير عزمى للكفاح

أنا كشـاف شريف

يا بلادى فاسلمى من كل عـاد ... كائد فى السر أو فى العلـن
فى حمى رب رفيـق العبـاد ... أنت يا روحى العلا يا وطنى

أنا كشـاف شريف

★ ★ ★

أما الجزائر فقد كانت بعيدة المدى فى شعر الشعراء ، فى الجزائر ، وفى المغرب كله .

---

(١) نظم هذا النشيد كشاف جمعية الشروق عام ١٩٢٨ وهو أول كشـاف بالمغـرب (عبد الله كنون) .

يقول أحمد سحنون :

لا تطل لومي ولا تطلب نشيــدى ... أنا في شغل بتحطيم قيــودى
أأغنى ويدى مغلـــولة ... وبرجلىّ قيـود من حــديد
أأغنى ولساني موثــــق ... وبطوق خانق طوق جيـــدى

ومن تونس ينشد صالح بن صالح الخرفي :

مجـــد البلاد نشيده (أوراس) ... والنـــار في نهج العلا نــبراس
وإذا تنكر للمطــــالب غاصب ... وبنا به يوم التفاوض راس؟
حكّم غرار السيف فيه فإنمــا ... الراس المزيف بالفرند يســاس
مهلا فرنسا لن تحطمنا القــوى ... نحن الأسود وجنـدك الأحـلاس
وإذا اشرأبت للعلا أعناق شعب ... لن تذل أيتّهـــا الأمــراس

ويقول منور صمادح (تونس) :-

قسماً بأطفـــال تجز رقابهــم ... وأمومة أودت بها الأكـــدار
قسماً بكل بريئة قد لطخــت ... وعواطف الشرفاء حين تثـار
وبكل شيخ عذبوه وقتلـــوا ... وبكل بيت باللظى ينهـــار
وبكل دمع قد جرى مستصرخا ... ودم يسيل كأنه أنهـــــار
قسماً بمليـون من الجـــرحى ... ونصف قد قضى وبقية قد ثاروا
لأمتن من الجـوار حبـاله ... حتى يفـوز بمبتغـــاه الجـار

من أعلام شعر الوطنية والكفاح

١ - مفدى زكريا

من شعراء بنى ميزاب ومن أبرز الشعراء فى الحركة الوطنية الجزائرية أمثال أحمد سحنون ومحمد العيد آل الخليفة، ولد ١٣٢٦ هـ بقرية بنى يسجن فى واحة ميزاب بجنوب الجزائر، تعلم فى تونس؛ درس القرآن والفرنسية ودخل الخلدونية ثم جامع الزيتونة ومن شعره :

نهضت على ذات الإله مناضلاً	وليس لغير الله سعيى وإقبالى
وقمت وسيف الحق فى الكف ساطع	لتهذيب أرواح وتقطيع أوصال
وأيقنت أن المجد سبل خطيرة	فقدمت دون المجد روحى وآمالى
فما المجد إلا جنة دون وصلها	تناثر أعناق وتمزيق آجال

يقول فى ترجمته لنفسه فى كتاب شعراء الجزائر للزاهرى : إن أساتذته فى البعثة العلمية إلى تونس هم أبو اليقظان إبرهيم، وإبرهيم أطفيش، وقد حضر هنالك مسامرات الأستاذ العربى الكبادى، بمدرسة الترجمة للغة العربية العليا، وقال : إنه درس جزءاً من كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة .

وتحدث عن مفاهيمه للشعر فقال : أما الشعر فأنا فيه أستاذ نفسى غير أنى أعرض بضاعتى على أساتذتى رؤساء البعثة الميزابية . ولقد قرأت الزحافات والعلل والدوائر على شاعر الخضراء « الشادلى خازندار » ولى اطلاع شخصى على العروض والموازين، وقد شغفت حباً بالآداب طفلاً، وبتاريخ الأبطال من عظماء الأوطان وقال إنه يحفظ عن الثعالبى قوله « كفانا إن نحتفظ فى ماضينا بالدين والأخلاق وما عداهما فإلى الدمار أو البوار » ويتمثل به ويتخذه نبراساً له . وقد اشترك مفدى زكريا فى تأسيس حزب الشعب مع مصالى الحاج وكان من أبرز دعاته خطيباً وشاعراً، وله ديوان « اللهب المقدس » وهو صاحب النشيد الرسمى لجمهورية الجزائر ومطلعه « قسماً بالنازلات الماحقات . والدماء الزاكيات الدافقات » .

---

(١) تناولنا فى كتابنا الشعر العربى المعاصر دراسة رفيق المهدوى (ليبيا) ومحمد العيد آل خليفة (الجزائر) .

٢ — عبد العزيز كرباكة

من أبرز الأسماء اللامعة فى عالم الشعر الذى هو أبرز فنونه وأن عمل فى ميدانى الكتابة والقصة . عرف بالكتابة النثرية والشعر والتأليف المسرحي والصحافة .

له روايات : ولادة وابن زيدون ، وعائشة الغادرة ، وآمرة المهدية ، وله أحاديث فى الصحف تحت عنوان « حديث الثلاثاء » ، وقام بتحرير جريدة الزمان ١٩٣٢ والمضحك وله أغان وموشحات .

أصله من الأندلس من شمال مرسية. ولد بحاضرة تونس ١٩٠١، وتعلم فى الزيتونه عرفت كتاباته النثرية بقوة الأداء واللذع والسخرية ، وكان أدباء تونس يجتمعون به فى سوق السرائرية حيث يعرضون عليه إنتاجهم ، ويصدر أحكامه التى يقبلونها دون مراجعة على حد تعبير عثمان الكعاك .

وله مجادلات أدبية مع محمد الحبيب ، وزين العابدين السنوسى ، وطاهر الحداد ، وأحمد توفيق المدنى . (توفى ١٩٤٤)

وقد نشر كرباكه شعره فى جريدة الوزير ، ومن شعره قوله

فى صحوة شرفاء ناد فجـــــرها غنت شواديها بلحن منغـــــم
وتفتقت أزهارها عن حجـــة وتدفعت أنهارها عن زمـــزم
ومشت بها الحـــور الكعاب رشيقة تسعى وتسعى بالرحيـــق العندم
فإذا على مرماى نـــور ساطع ورنين قيثـــار وحلو ترنم

٣ ـ أبو القاسم الشابى ١٩٠٩ ـ ١٩٣٤

حظى الشاعر التونسى بقدر كبير من الإعجاب والتقدير فى مختلف أنحاء العالم العربى ، وكتبت عنه عشرات الأبحاث والمؤلفات ، حتى يمكن القول بأن كثيراً من الأدباء المرموقين أولوه اهتمامهم وتناولوه بالبحث .

ويهمنا أن نذكر أهم ماسجله الأدب المغربى من دراسات عنه :

١ ـ فى ١٩٥٠ أصدر أبو القاسم كرو (تونس) أول كتاب عن الشابى وعرف به ثم أصدر بعد ذلك ديوانه ودراسة أخرى عنه بعنوان « كفاح الشابى » (١٩٥٤ بيروت)

٢ ـ فى أكتوبر ١٩٥٣ صدر عدد خاص من مجلة « الندوة » كتب فيه زين العابدين السنوسى والشاذلى القليبى ، وعبد الله شريط ، ومحمد الصالح المهيدى ، ومصطفى أغه ، ومحمد المرزوقى .

٣ ـ ثم تتابعت الدراسات فكتب عنه زين العابدين السنوسى ١٩٥٦ .
وكتب خليفة محمد القليبى (طرابلس الغرب ١٩٥٧) كتابه « الشابى وجبران »
وكتب محمد الحليوى كتابه « مع الشابى » (تونس ١٩٥٥) .

٤ ـ ودارت أبحاث ومساجلات حول بعض جزيئات حياة الشابى بين الدكتور عمر فروخ ، ومحمد الحليوى ، وكان الخلاف حول حياته الاجتماعية ودراسته ونوع مرضه .

ومن الشرق كتب عنه عمر فروخ كتابين : (شاعران معاصران طوقان والشابى) ، (بيروت ١٩٥٤) وكتابا آخر ١٩٦٠ ، وشعب وشاعر لنعمات فؤاد (القاهرة ١٩٥٨) ، وكتب أبو القاسم محمد بدرى عنه كتاباً بعنوان : الشاعران المتشابهان : الشابى والتيجانى ، كما صدرت عنه أخيراً دراسة من سورية بقلم مصطفى الحبيب بحرى بعنوان : الشابى النبى المجهول ، ولكاتب هذه السطور دراسة عنه .

سادسا ــ أدب المرأة المغربية

برز أدب المرأة المغربية من وراء الغلالات والحجب حيناً متوارياً يجنح إلى التوقيعات الرمزية ولا يكشف عن نفسه إلا قليلاً .

ولم تبد آثاره واضحة فى دوريات وصحف المغرب إلا فى نهاية الثلاثينات ، وكانت دعوته قائمة على تحرير المرأة وتعليمها ، وإتاحة الفرصة لها لتأخذ مكانها فى المجتمع ، وقد شجعها على ذلك أن فتحت لها الصحف أبوابها ، وعنى الباحثون فى المغرب على ضوء ما حدث فى المشرق بمدارسة قضية تحرير المرأة ، وعقد الاجتماعات والندوات لبحثها وتناولها بالاستفتاء .

وكان أبرز الكاتبات وأكثرهن عدداً فى تونس والمغرب وأقلهن فى الجزائر وليبيا ؛ فنى الجزائر لم تعرف غير ليلى أمين دياب وتكتب بالعربية ، وآسية جبار وتكتب بالفرنسية . وفى ليبيا زعيمة سليمان البارونى .

وقد وسع الفكر المغربى آفاق البحث فى قضية تحرير المرأة ؛ فكتب عديد من الكتاب بين مؤيدين ومعارضين ، وجرى البحث أولاً حول حق المرأة فى الإسلام ، وما أتاح لها من فرص التعليم والسفور والحرية ثم لم تلبث أن ظهرت دراسة لتحرير المرأة فى هيئة كتاب مطبوع باسم « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » (١) لطاهر الحداد

ظهر عام ١٩٣٠ وأثار ثائرة رجال الدين والباحثين فى الزيتونة . ومهما يكن مستوى الكاتب وكتابه ، باعتباره أول كتاب فى هذا المجال فإنه كان علامة على الطريق

---

(١) طاهر الحداد (١٨٩٩ ــ ١٩٣٥) كاتب تونسى اصدر اول مؤلفـــاته عام ١٩٢٧ عن العمال التونسيين ، وفى كتابه « امراتنا فى الشريعة والمجتمع » دافع عن حقوق المراة وطالب بمنع تعدد الزوجات وجعل الطلاق بيد المحكمة لا بيد الرجل ، وهاجم تفشى الزواج بالاجنبيات والتعليم فى مدارس اجنبية ، وتحدث عن وضع المـراة فى عصره وقال : ان الحقوق التى اعطاها الاسلام للمراة لم تعد تتمتع بها وتمارســـها بنفس الدرجة والمستوى اللذين وضع الاسلام المراة فيهما وقال : ان الاسلام كان يجتهـــد للمساواة التامة بين المراة والرجل .

الجديد ، وقد كتب فى نقده فصول وصدر كتاب فى الرد عليه باسم « الحداد على امرأة الحداد » .

ثم توسع نطاق البحث فتناولت المجلة الزيتونة ومجلد (١٩٣٦) مشكلة المرأة التونسية من حيث التربية والتعليم وقدمت آراء المفكرين فيها ، وأقامت جماعة الصادقية منبراً عاماً لذلك فى دارها ، عرضت فيه الآراء المختلفة ، وأعلنت عن اهتمام الفكر العربى التونسى بالمرأة التونسية ومكانها فى المجتمع ، وألقى « محمد المختار بن محمود » مسامرة بسط فيها نظرية الإسلام فى معاملة المرأة وترقية مستواها ، وتقرير مالها وما عليها من الحقوق التى منحها لها الإسلام منذ أربعة عشر قرناً مما تفوق به المرأة الغربية حتى فى هذا الزمان . وقدم برنامجاً عملياً فى كيفية النهوض بها مع مايتناسب وما جاء به الإسلام . وقد اشترك فى المسامرة : الشاذلى النيفر ومحمود بيرم المصرى ومحمد المهدى ابن الناصر وأحمد ميلاد الطيب ، ومحمود المسعدى .

ولم تلبث أن برزت آثار النهضة النسوية فى تونس أيضاً ، فنى عام ١٩٣٩ أذيعت أسماء نسوية فى تونس حققت نجاحاً وتفوقاً ، فمنهن :

زينب الكعاك: أول فتاة تونسية قابلت هدى شعراوى فى القاهرة ، ونالت البريفيه الفرنسية العليا ، وأذاعت محاضرات فى الإذاعة ، ونادى الفتيات وزارت البقاع المقدسة .

وعائشة عمر : أول فتاة تونسية أحرزت شهادة الليسانس فى العلوم الرياضية من السربون .

وفتحية عميرة : أحرزت البكالوريا اللاتينية واليونانية ، وإجازة الآداب فى فقه اللغة . وزبيدة عميرة : نالت شهادة التعليم الفرنسى .

★ ★ ★

هذا فى مجال التفوق العلمى ، أما مجال الكتابة والآداب والصحافة فقد برزت أسماء متقدمة فى الأقطار الأربعة على هذا النحو :

١ – ليبيا :

زعيمة سليمان البارونى : أصدرت مجموعة قصص ومذكرات والدها المجاهد.

٢ – تونس :

بشيره الزهار : كتبت فى مجلة الزيتونة (١٩٣٦) عن ذكرى رشيد رضا .

مفيدة الشـاهد : كتبت فى مجلة الزيتونة عام ١٩٣٦ .
عائشـة بنت عمر : كتبت فى مجلة الثريا ١٩٤٦عن المرأة التونسية فى مفترق الطرق
فتـاة بنى سـليم : كتبت فى جريدة الصباح التونسية ١٩٥٤ عن الفتاة التونسية .
فتحية المختار مزالى : كتبت فى مجلة الفكر ١٩٥٥ عن شخصية المرأة التونسية .
مديحة مشرفية كرو : كتبت فى مجلة الندوة ١٩٥٦ عن نحو توجيه جديد للفكر الإسلامى .
فاطمة سليم : كتبت فى مجلة الشباب ١٩٦١ عن المرأة التونسية .

٣ – الجزائر :

آسية جبار : كتبت قصة «العطش» بالفرنسية .
ليلى أمين دياب : مقال عن تعليم المرأة فى مجلة البصائر .

٤ – المغرب :

باحثة الحاضرة : بدأت تكتب منذ عام ١٩٣٥ فى صحف المغرب .
فتاة تطوان : كتبت فى الأنيس ١٩٥٢ مقالاً عن تحرير المرأة العربية .
آمنة اللوة الألفى : كتبت فى مجلة الأنيس١٩٥٢ عن المرأة المسلمة فى عهد النبوة وقد نالت قصتها «الملكة خناثة» جائزة المغرب للآداب سنة ١٩٥٤ .
أمينة محمد السراج : كتبت فى مجلة العلوم والفنون ١٩٥٢ رسالة موجهة إلى مختار السوسى عن ماهو أنصع لون فى الحضارة المغربية
شفيقة السعدى : كتبت فى مجلة الحديقة ١٩٥٤ عن الاتحاد
إحسان الوراكلى : كتبت فى مجلة النصر (١٩٥٨) عن صوت الفتاة المغربية .

★ ★ ★

ويبدو أن المرأة المغربية قد استهلت دورها فى مجال الكتابة باللغة الفرنسية ، فكتبت من وقعت بإمضاء «جبيبه» لسان الشعب المسلمة رسالة باللغة الفرنسية بعنوان (من وراء الحجاب) نقلتها مجلة الرابطة الشرقية بالقاهرة عن إحدى صحف تونس ووصفتها بأنها شكاية من نظام التعليم النسائى التونسى فى مدارس البنات . جاء فيها أن تعليم اللغة بهذه المدارس سقيم إلى حد يبيح للسيدة أن تقول : إنه مفقود ، وإذا نحن

لخصنا المعلومات التى تحصل عليها التلميذة الصغيرة التى غادرت المكتب وجدناها لم تحصل إلا على لغة مهشمة باللسان الفرنساوى وبعض قطع آيات قرآنية . ثم قالت : إنها تستثنى البنات المتعلمات بالمكاتب الفرنسية البحتة ؛ فهؤلاء يجهلن حتى الألف والباء من لغة أمهاتهن .

وتساءلت الكاتبة هل فكر أحد بالإيالة الفرنسية فى تأسيس مدارس لتعليم بناتنا اللغة العربية تعليماً كافياً لتثقيف أفكارهم حسب الطريقة العصرية.

كاتبات من المغرب

باحثة الحاضرة	(المغرب)	فتحية المختار مزالى	(تونس)
فتاة تطوان	(المغرب)	فتاة بنى سليم	(المغرب)
آمنة اللوة	(المغرب)	ناجية ثامر	(تونس)
أمينة محمد السراج	(المغرب)	عائشة بنت عمر	(تونس)
شفيقة السعيدى	(المغرب)	مدبحة مشرقة كرو	(تونس)
إحسان الوراكلى	(المغرب)		

باحثة الحاضرة

انتشر اسم « باحثة الحاضرة » فى الصحف المغربية . وعرفت بمقالاتها منذ وقت بعيد ؛ فقد نشرت لها مجلة رسالة المغرب عديداً من المقالات بدأتها عام ١٩٣٥، وقد تناولت هذه الأبحاث موقف المرأة من مختلف قضايا الفكر والحياة ، وفى سنوات ممتدة إلى ١٩٥٢ قرأنا لها عن الزواج المبكر وتعليم الفتاة والموسيقى (١) .... الخ .

وباحثة الحاضرة هى السيدة « ملكة الفاسى » من هذه الأسرة العريقة التى عرفت بالفضل فى ميدان العلم والفكر . يقول عبد الكريم غلاب رئيس تحرير جريدة العلم المغربية فى ترجمة قصيرة لها (٢) : إنها واكبت التاريخ العلمى لهذه البلاد منذ عدة قرون فكان منها العلماء والقضاة والأدباء والسياسيون . وهى فى حدود الخامسة والأربعين من عمرها تعلمت على يد والدها وزوجها الأستاذ محمد الفاسى عميد جامعة الرباط ، وكانت مدارس الفتيات منعدمة فى المغرب تقريباً إلا مدارس القرآن التقليدية وقد دفعها إلى الأمام إيمان والدها بتربية المرأة إلى جانب الرجل .

---

(١) من مقالاتها الزواج المبكر (يونيه ١٩٥٢) الفتاة المغربية بين مراحل التعليم (ابريل ١٩٥٢) الموسيقى والمرأة المغربية (ديسمبر ١٩٤٧) .

(٢) خطابه ١٩٦٤/٩/١٥ .

وقد ساهمت فى الحركة الوطنية وكانت عضواً بارزاً فى الهيئات النسائية لحزب الاستقلال ومازال عضواً فى المجلس الوطنى للحزب .

وشاركت فى تحرير المجلات العربية ، وكان لكتاباتها أثر ملحوظ فى تنوير الحركة النسائية وأسلوبها يمتاز بالسلاسة والجدة والطرافة وهى قليلة الإنتاج .

تقول فى مقال لها عن الفتاة المغربية بين مراحل التعليم : فى عام ١٩٣٥ نشرت فى مجلة المغرب كلمة حول تعليم البنات ، وناديت بوجوب انتشالها من الهوة السحيقة التى تتردى فيها ، والأخذ بيدها حتى تنال حقها من العلم والرقى . . وهكذا أخذت الفتاة المغربية تشق طريق العلم ، وتفتح ميدان العرفان ، وتأسست المدارس الخاصة بالبنات فى كافة المدن المغربية ؛ ووصل أول فوج للشهادة الابتدائية العربية عام ١٩٤٥ .

واليوم .. أرى التواء فى سير تقدم النهضة والتطور المنشود أن تسير الفتاة بقدم نحو العلا ؛ وتجعل وجهتها ثقافية عالية ؛ فقد فات الزمن الذى تقف فيه الفتاة عند الشهادة الابتدائية ، وإذا قارنا أنفسنا بالجزائريات والتونسيات نجد أنهن سبقتنا بأشواط بعيدة ؛ فقد حصل عدد كبير منهن على الشهادات العالية ، والملاحظ أن بعض الطالبات ممن يدرسن فى المدارس الفرنسية تكون معرفتهن باللغة العربية ناقصة نقصاً بيناً ، وهذا عار بالنسبة للمرأة المغربية ، إذ كيف تكون ثقافتها بلغة أجنبية ؛ ولا يجمل بها كامرأة عربية أن تكون ناقصة من هذه الناحية ، فوسطنا وسط عربى ؛ وأمتنا أمة عربية واتصالاتنا بدول الشرق والإسلام بواسطة اللغة العربية . وهذا ضرورى ما دامت لغة الإسلام هى لغة القرآن .

وقد أخبرتنى صديقة تحسن اللغة الفرنسية قراءة وكتابة ؛ ولكنها لم تتعلم العربية . أنه قد زار عائلتها أحد المشارقة فلما كان على مائدة الطعام ؛ ألقى قصيدة عصماء هزت مشاعر الحاضرين ولم تتمكن هى من فهمها ، وأحست بألم حاد فى كيانها وانهلت دموعها وقالت : تمنيت والله لو أننى لم أكن أفهم ولا كلمة واحدة من الفرنسية ، وتعلمت لغة أجدادى ؛ ولا أعنى بهذا الاقتصار على اللغة العربية ؛ فتعلم اللغات الأجنبية واجب ، والكل يعلم مزايا الثقافات الأجنبية ؛ خاصة بالنسبة للمرأة التى هى المدرسة الأولى ولأن واجبها كأم يجعلها مسئولة عن تلقين أبنائها لغة فصيحة منتقاة والطفل مرآة أمه . فما حفظه وتعلمه منها يلازمه طوال حياته .

فتحية المختار مزالى

من كاتبات تونس ، لها فصول بمجلة الفكر وعدد من مجلات تونس . ومن نماذج كتاباتها مقالها عن شخصية المرأة التونسية . (١) :

« هل عندنا مثقفات بتونس ، لا أدرى ، ولكنى ألاحظ أن المرأة المحافظة المحترمة للتقاليد والتى تتعلم من دون أن تتأثر بعلمها وتؤثر فى مجتمعها تعتبر عندنا صالحة لأنها لم تخيب ظن مجتمعها فيها . ويلاحظ أن أغلب الفتيات التونسيات يتلقين تعليماً يسمى فنياً ، تلبية – على مايقال – لرغبة أوليائهن ، وهؤلاء الأولياء راغبون أيضاً فى أن يكون التعليم عربياً . وأكثر فتياتنا متعلمات تعليماً أجنبياً ، من الصعب وجود نساء تونسيات مثقفات ثقافة قومية ، المرأة التونسية بحكم الظروف عديمة الشخصية .

يجب ألا تطير فى الفضاء دفعة واحدة بدون أجنحة ، مقلدة للرجل ، لأن منزلتها فى المجتمع غير منزلته فيه ، وظروف عيشها غير ظروفه ، ولأن تحرير الفرد لايحصل بالطفرة ، بل بالتغلب على الظروف الشخصية الخاصة وقهرها .

وبعض الحركات النسائية خابت لأنها قطعت كل العلاقات مع الحركات القومية الأخرى وغاية المرأة ليست فى أن تبنى عالماً جميلاً تعيش فيه وحدها ؛ بل غايتها اندماجها فى العالم الموجود ومحاولة التأثير فيه .

فتاة بنى سليم

وهى إحدى كاتبات تونس . نشرت لها الصحف والمجلات التونسية فصولاً متعددة منها مقالها : الفتاة التونسية تسير إلى غير غاية . (١)

« ما هو الهدف الذى ترمى إليه ثقافة البنت عندنا ؟ وماهى الشهرة التى تريد أن تجنيها فتاة كافحت من أجل تعليمها سنين طويلة ، المرأة المثقفة يجب أن تؤدى رسالتين : رسالة داخلية ، وهى تتمثل فى تربية الأطفال والإشراف على المنزل ، ورسالة خارجية وهى خدمة المجتمع بما يعود عليه بالنفع والكسب .

والرأى عندى أنه فى وسع كل امرأة حازمة أن تؤدى رسالتيها الداخلية والخارجية ، إذا هى أحاطتهما بشىء من الترتيب والدقة والنظام .

---

(١) مجلة الفكر م ١٩٥٥ .

افسحوا الطريق للمرأة لتتمكن من خدمة مجتمعنا فى حدود الدين والكرامة والشرف ، حتى يتسنى لها أن تشارك فى بناء صرح استقلالنا والذود عن قوميتنا .

وأنت أيتها المرأة ، فلتكن ثقتك بنفسك عظيمة ، وليكن سلاحك العفة والإخلاص فى العمل » .

فتاة تطوان

من كاتبات المغرب . نشرت فصولاً فى مجلة الأنيس . تقول تحت عنوان تحرير المرأة المغربية » : (٢)

إن إصلاح الشعب وإقامة البنيان الجديد متوقف قبل كل شىء على دعامتين أساسيتين : هما دعامة الرجل ودعامة المرأة ، فكما لايمكن أن يقوم سقف فى الدنيا على حائط واحد أو دعامة واحدة . كذلك لايمكن أن تقوم نهضة أمة على الرجال فحسب . أو على النساء فقط .

آمنة اللوة

من كاتبات المغرب . نشرت فى المجلات والصحف مقالات . ولها قصة نالت بها جائزة المغرب ١٩٥٤ تقول فى مقالها « نساء مدحن الرسول » (١) بعد ان استعرضت كثيراً من شعر المرأة القديم فى أمداح الرسول وقالت « : أوحى إلى هذا مانسمعه طيلة هذا الشهر (رمضان) من أمداح نبوية . وترانيم دينية . لم تزل تتردد على أسماعنا صباح مساء . ليل نهار . فى المحافل والمجالس والمذايع وفى الصحف والمجلات ، كلها تشدو بأناشيد شجية وتراتيل عذبة تعبر أصدق تعبير عن حب وفن . ما زالت هذه الأمة المحمدية — بنسائها ورجالها — تبديه وتتفنن فيه بشتى الوسائل فى مختلف المناسبات نحو الذات المحمدية ذات الأخلاق الندية ، إن مدحه سبيل الإقرار وعنوان الإخلاص . كيف لا ؟ والله قد مجده فى الأزل وأثنى عليه فى التنزيل ثناء خالداً مرتلاً لدى الأولين والآخرين » .

---

(١) جريدة الصباح — ١٩٥٤ .
(٢) مجلة الانيس — نوفمبر ١٩٥٢ .

ناجية ثامر

كاتبة عربية تونسية الأصل دمشقية المولد ، تملأ صحف المغرب العربي بكتاباتها القصصية والاجتماعية والمسرحية . مزجت الثقافة الفرنسية بالعربية . ولكنها عربية الفكر والأداء . تلقت تعليمها بين بعلبك (لبنان) ودمشق(سورية) وهي من المعجبات بأدب الرافعي وجبران ونعيمة وشعر المتنبي .

أمامي كتابها « المرأة والحياة » (٢) من سلسلة كتاب « البعث » الذي يصدره « أبو القاسم كرو » وهي مجموعة خواطر لها تعطي صورة فكرها الأنثوي العربي :

- إننا إذ ننقد نفوسنا ونضعها تحت المجهر لنرى عيوبها فإننا بذلك نرنو إلى الكمال . ليس من القبح أن نسعى إلى الكمال وإن لم نصل إليه ، بل القبيح ألا نسعى وألا نحاول شيئا ، وأن نكتفي بالقول بأن الكمال لن يصل أحد إليه . ونستمرئ العيش في خضم عيوبنا .

كلمة « بودر » تصور للمرأة مسحوق التجميل وللرجل الأسلحة

والحديقة تصور للمرأة الأزهار وللرجل الأعشاب والخضار .

والدراهم تعطي صورة فساتين للأولى . وللثاني الأعمال والأسفار.

- يقول علماء النفس والاجتماع : قلما تتشابه امرأتان في الأخلاق والمزاج ، وهذا القول ليس بعيداً عن الحقيقة ؛ فلكل إقليم نساؤه ، ولكل قطر فتياته ، ولا تختلف امرأة القطر الواحد عن القطر الآخر إلا بقدر ماتتسع المسافات بينهما ، وتتباعد المواصلات بين رقعتيهما .

- المرأة التونسية تشبه السورية إلى حد كبير . بتمسكها بعاداتها القديمة وتحفظها وسعيها للتحصيل والتعلم .

- إن البحث عن شريك الحياة ليس من السهولة بالقدر الذي نتصوره ، بل هو مشكلة يصطدم بها الجنسان على السواء ، وكثيراً ماتبنى الحياة الزوجية على مستقبل مجهول النور ، لا على واقع ملموس اليد ، ذلك لأن الزواج يحدث تحت تأثير العاطفة لا العقل . وإذا ذكرت عيوب فلان أو فلانة ترك أمر إزالتها إلى مابعد الزواج .

---

(١) مجلة الانيس ـ نوفمبر ١٩٥٢ .

(٢) صدر في يولية ١٩٥٦ .

• إن الذى يربط بين الزوجين هو حنان دافئ ، وتآلف روحين ، وتماثل فى وجهات النظر .

• المرأة الجميلة مركبة من جسم وروح ، وقد يكون الجسم الجميل محتوياً على أنحس الأرواح وأبشعها .

• الفنان يكتفى بالنظرة المتألقة والابتسامة المشرقة . لأنهما تظلان على حال واحدة لاتتبدل ، ولا يذهب بعيداً فى البحث عما يكمن وراء النظرة ووراء البسمة . ويكتفى بالمظهر الخلاب البراق ، ولا يدع عقله يتدخل فيما تمليه عاطفته .

• لا بأس أن ينظر كل رجل نظرة الفنان إلى امرأة لا يعيش معها تحت سقف واحد ، أما إذا كان الزواج ، فمن الواجب أن يبتعد عن الخيالات والأوهام ..

– قد يدل جمال الوجه على جمال الروح . ولكن ليس من اللازم أن يكون الشخص الجميل الروح ذا نظريات وآراء توافق آراء الآخرين ...

وللكاتبة عدة مؤلفات مخطوطة تتكون من مجموعات قصصية ومسرحيات وبحوث اجتماعية وأدبية . وهى متزوجة لها بنت واحدة ، وقد نشرت فى أبريل ١٩٥٩ بمجلة الفكر بحثاً مطولاً عن فن المسرحية .

★ ★ ★

أمينة محمد السراج

من كاتبات المغرب . نشرت كتابات متعددة من أهمها مقالها الذى وجهته إلى الأستاذ المختار السوسى تحت عنوان :

ماهو أنصع لون فى الحضارة المغربية ؟

قالت : طالما عللنا هذا الركود المتجلى فى نهضتنا العلمية والأدبية . ويظهر أنه لم يبق اليوم مجال لتعليله دون أن نقول : إنه الخمول والركود ، وكل من يتتبع حركة الإنتاج الأدبى عندنا يدرك هذا النقص ، لم يكن قصدى إلا تذكير الأدباء بالرجوع إلى ميدان الإنتاج المفتقر إلى أمثالهم . ولقد كنت أترقب أن تظفر ببعض تلك الذخائر المدفونة فى الصدور والآراء السديدة الراكدة (بمناسبة ما أثاره الأستاذ عبد القادر

الصحراوى) عن موضوع : ماهو أنصع لون فى الحضارة المغربية . وقالت : لقد بقينا ننتظر دون أن نظفر بما يشفى ظمأنا فى هذا الموضوع ، وأن يجيبوا على هذا السؤال الذى هو دين عليهم ، فيكونوا بذلك قد أدوا واجبهم العلمى كاملاً غير منقوص، واستجابوا لنداء الصحافة الحرة ترجمان الأمة » .

عائشة بنت عمر

من كاتبات تونس ، من أبرز كتاباتها مقال نشرته مجلة الثريا سنة ١٩٤٦ عن المرأة التونسية فى مفترق الطرق تناولت فية قضية المرأة تناولاً علمياً :

تقول : إنى طالبة للعلوم ولهذا سيكون عرضى للموضوع علمياً .. إن الفتاة التونسية لم تجد الفرصة الملائمة لها لإظهار شخصيتها وإبراز ذاتيتها ، ومع ذلك فإن هذه الشخصية لا تطلب إلا أن تفرض نفسها واستعداداتها الكامنة ، فهى رغبة ملحة إلى البروز فى عالم هو عالمها ومحيط لا يستطيع الرجل أن يزاحمها فيه .

إنى أرى أن الغاية هى : المرأة للزواج والأمومة ليس إلا ؛ أما طريقة الوصول إلى هذه الغاية فهى التى يجب أن تكون موضع النظر من جديد ، فالتطور النسائى ليس معناه السعى وراء الشهادات وتكوين المستقبل .

ولست ألفتكم إلى شىء جديد إذا قلت لكم : إن المرأة والرجل فى نظر العلم بشران مختلفان ، أما فى نظرى فهما متقابلان بالنسبة لمحيط واحد . خذوا مثلاً اليد اليمنى واليد اليسرى فهما كالمرأة والرجل متمم بعضهما بعضاً .

وبعد أن تحدثت عن ضرورة حصول المرأة على قدر من العلم يوجهها فى حياتها قالت : إن العلم وحده لا يكفى الأم بل يتحتم عليها الشعور بالواجب ، شعورها بالدور الذى تقوم به وشعورها بشخصيتها حتى تستطيع أن تنهض بمسئولياتها .

مديحة مشرفية كرو

من كاتبات تونس ، قرأنا لها فى مجلة الندوة ١٩٥٦ ترجمة لدراسة مطولة للمعهد العلمى للدراسات الإسلامية بالهند قالت : إنها آثرت ترجمتها لما احتوتها من آراء جديرة بالتمعن والنظر . وقالت : إن موضوع الفكرة هو إيجاد طريقة جديدة مرتكزة على أسس علمية لدراسة وتنسيق (الحديث النبوى) عن طريق أساتذة أكفاء يمثلون العالم الإسلامى

ويقررون سنة النبي الصحيحة كمساعد ضروري لدراسة محكمات القرآن بأسلوب العالم الحديث .

شفيقة السعدى

كاتبة مغربية احتفلت مجلة الحديقة بنشر أول كلمة لها فى ديسمبر ١٩٥٤ فقالت : هذه كلمة توصلنا بها من الآنسة المحترمة وهى بادرة حسنة لدخول الفتاة المغربية الميدان العام ومشاركة الرجل فى الدعوة إلى الإصلاح ورفع مستوى الأمة ، تقول الكاتبة بعنوان (الاتحاد) :

إن الاتحاد هو الطريق الوحيد الذى سيوصل المغرب إلى عظمته ومجده ، وكل من رسخ الإيمان فى قلبه وامتزج جسمه وروحه بالإحساس والرفق على الضعفاء ، لابد له أن يتصف بأوصاف تدل على كرم أخلاقه ، وحسن آدابه وكتمان سر أخيه . ومن هذه الأوصاف يكون متمسكاً بشعار الوحدة مع أفراد أمته .

وإذا بحثنا فى تاريخ كل أمة من الأمم السابقة والحاضرة ، وجدنا الاتحاد هو سنة الله فى الجمعيات البشرية فيكون وجودها وعظمتها بمقدار حظها من الاتحاد .

إحسان الوراكلى

كاتبة من كاتبات المغرب ، نشرت لها مجلة النصر (١) مقالاً تحت عنوان (صوت الفتاة المغربية) وهى رسالة موجهة إلى صديقتها (ر . ف) تقول فيها :

« تذكرتك وأنت فتاة متوقدة الذهن ، سريعة الإدراك ، ذكية المشاعر مجدة فى دروسك تلتهمين الكتب التهاماً ، تنافسين أخاك فى جل أعماله ، أين عبارتك التى كنت ترددينها ، الحياة هى العمل ، الفتاة المغربية تريد حياة أفضل ، حياة مليئة بالعلم والمعرفة ، لاتسودها عادات الماضى . حياة لا تتلبد فى سمائها سحب التقاليد العمياء ، إن وديعة المنزل لا تعرف من فنون الحياة إلا الطهى وتربية الأطفال على النهج القديم ، إنها تريد أن تتعرف على كل شيء فى الحياة .

أين منك اليوم كل هذا . لقد خبا ضوؤك وخمد صوتك ، لقد كنت بالأمس القريب مشوقة إلى الحرية ومحرومة منها . لذلك كنت تنشدينها فى كل مكان . أما اليوم فقد تحررت وحصلت على أملك العظيم الذى كنت تطلبينه دائماً ، وأبداً ، اذ خلعت عنك

الجلباب وأزحت عن وجهك النقاب ، وارتديت الملابس الشبيهة بالصيغة التى تبرز المفاتن والمحاسن .

عزيزتى : أهذا كل ما تطلبين ، من أجل هذا كنت تتحرقين شوقاً ، أتظنين أن هذه هى الحرية من التقاليد ، ما أغباك ، ما كنت أتصور قط أن فتاة فى مثل سنك ، وفى مثل ثقافتك تجهل معنى الحرية ، إن حرية الفتاة ليست فى أن تخرق الحجاب ، وتتهادى فى خطواتك كالطاووس ، بل معناه الحقيقى هى أن تتخلصى من الجهل ، وتتسلحى بسلاح العلم ، وتقتحمى جميع ميادين الحياة التى يقتحمها أخوك الشاب مع المحافظة على شرفك وعرضك ومراعاة مبادئ الإسلام ، عندئذ يمكن للوطن أن ينتظر منك خيراً ، ثم يأمل فيك يوماً عماد بيت ، وأما مثالية لأولادها ، .

★ ★ ★

ومن مراجعة هذه النصوص يمكن القول بأن الأدب النسوى المغربى يتسم بطابع خاص قوامه :

- بروز الروح الإسلامية .
- الإيمان بالشخصية المغربية .
- الحفاظ على اللغة العربية .
- عدم الاندفاع .
- تأكيد شخصية المرأة المغربية فى ميدانى البيت والعمل معاً .

ثم هو يلتقى بعد ذلك بالأدب العربى فى المشرق فى الأداء والمضمون ولا يتخلف عنه .

(١) مارس ١٩٥٨ .

سابعا ـ التاريخ المغربى

١ ـ مراجعة التاريخ المغربى

كان مجال (التاريخ) من أهم المجالات التى حاول الاستعمار الفرنسى والنفوذ الفكرى الأجنبى أن يختط فيها طريقاً إلى التزييف من أجل القضاء على مقومات الشخصية المغربية ووحدة الأمة العربية والقضاء على وحدة اللغة والتشكيك فى روابط :

(١) البربر والعرب ، .

(٢) المغاربة والعرب .

(٣) المشرق والمغرب .

(٤) روابط العالم الإسلامى .

ومجال التاريخ فسيح ومتعدد الجوانب ، وهو ميدان بكر ، لم يكن فى أيدى الناس منه إلا الكتب القديمة التقليدية ، ولذلك حرص النفوذ الأجنبي الفكرى على تقديم عشرات من الكتب مملوءة بالشكوك ، والسموم ، مستهدفاً من ذلك فرض نظريته وآرائه فى التجزئة وإثارة المشاعر ، والغض من عظمة الكفاح والبطولات ، وتغليب روح الإقليمية الضيقة ، للقضاء على معانى الوحدة الكبرى والروابط الشاملة بين أجزاء العالم الإسلامى والأمة العربية .

ومن أبرز النظريات التى حاول الغربيون تأكيدها :

• أن كل نهضة فى المغرب العربى إنما كان مصدرها الرومان الذين كانوا يحكمون المغرب قبل العرب .

• أن العرب كانوا مستعمرين ، وكانوا فى غاية العنف فى استعمارهم .

• أن العرب غزاة ، وأن البربر هم أصحاب الوطن الذين احتملوا الغزو . وقد كتب سوستيل وماسينون ولامانس ولوى برتران . صفحات فى تأييد هذه المغالطات .

وقد سجل محمد على دبوز (المؤرخ الجزائرى) فى كتابه (تاريخ المغرب الكبير) « أن الاستعمار اللاتينى قد حرم المغرب من معرفة تاريخ أجداده فى مدارسه ، وحاربه وضيق عليه فى المدارس الحرة ، واتخذ كل وسيلة ليكون المغرب على جهل بتاريخ أجداده العظماء ، وبتاريخ دولته الإسلامية الزاهرة التى أيقظت أوربا وأنقذتها من الهمجية والضلالة » ويرى (دبوز) أن التاريخ هو إحدى القواعد الثلاث (اللغة العربية ، الإسلام ، التاريخ) للشخصية العربية الإسلامية . وإن الاستعمار قد فجر على هذه القواعد العظيمة الراسخة أجيالاً من الديناميت ليهدمها فى المغرب فيقضى على الشخصية الإسلامية ، وقد عنى « محمد على دبوز » أن يحقق هذه القضايا الثلاث :

١ — قضية عروبة البربر .

٢ — هجرة بنى هلال وأثرها فى اللغة العربية .

٣ — المغرب بين العروبة والإسلام . ومن الخطل عنده القول بأن الفتح العربى للمغرب كان غزواً ، وإنما هو نشر للإسلام .

وقد تبعه فى هذا المعنى عدد من أعلام الفكر فى المغرب العربى منذ وقت بعيد ، وقدموا عدداً من البحوث ، ويهمنا أن نقول : إن أبرز ماكتب قبل الاستقلال هو ما قدمه حسن حسنى عبد الوهاب ، وعثمان الكعاك ، ومبارك الميلى (١) .

ويصور حسن حسنى عبد الوهاب فى مقدمة كتابه هدفه القائم على الاهتمام الإقليمى بتاريخ تونس باعتبارها شعباً وأمة « لكل شعب حياة تشخصها الحوادث يقضيها فى فى أدوار ، كما يمر الحى بأدوار العمر ، وهى حياته الذاتية التى تميزه عن غيره من الشعوب حسب السنن العمرانية ، والنواميس الكونية التى أودعها البارى جل ثناؤه لنظام هذا العالم » ولكل أمة تاريخ تختلف أهميته باعتبار حظ تلك الأمة ومشاركتها فى حوادث المجتمع العام . والمشاركة تكون على نسبة استعداد الأمة ومواهبها وموقعها الجغرافى ؛ فحوادث العالم القديم أجمع كان يدور محورها على ضفاف البحر المتوسط ، منبع الأديان وأصل التاريخ .

وإذا سرح الإنسان ببصره فى الخريطة يرى بين الأقاليم المحيطة بالبحر المتوسط بلاداً صغيرة تقسم ذلك البحر إلى نصفين ، وتشق حافاته ما بين الشرق والغرب على السوية .

---

(١) خلاصة تاريخ تونس ـ حسن حسنى عبد الوهاب ـ ١٩١٦. موجز التاريخ العام للجزائر ـ عثمان الكعاك ـ ١٩٢٥ . الجزائر فى القديم والحديث ـ مبارك الميلى ـ ١٩٢٨ .

(٢) صحيفة الشهادة الفرنسية : نوفمبر ١٩٥٧ (نقلا عن مجلة الفكر ١٩٥٧ م)

« وتلك البلاد الصغيرة هى إفريقية قديماً أو القطر التونسى اليوم : فهذه المنزلة الطبيعية جعلت تونس – من أول الدنيا – مسلك الذاهبين ، ومورد الوافدين ، ونصبتها مطمحاً لآمال الفاتحين .

وقد عنى حسن حسنى عبد الوهاب فى بحوثه التاريخية التى قدمها بما يأتى :

• مقاومة الآراء التى تقول بتمزق الشعب التونسى ، وذلك بكتابه (امتزاج العناصر التى يتألف منها الشعب التونسى) أصدره عام ١٩١٧ وأبان بالمستندات التاريخية المنوعة صورة دخول العناصر المختلفة إلى تونس فى جميع أدوار التاريخ .

• العناية بأمجاد الأمة المغربية والأندلس . وذلك بالكشف عن صفحات هامة فى حضارة القيروان ، واستيلاء المسلمين على صقلية وتقدم الموسيقى بالأندلس وتونس والكشف عن تاريخ المرأة التونسية ومن ظهر من الشهيرات والنابغات من الفتح الإسلامى إلى الزمان الحاضر .

وعندما قدم (عثمان الكعاك) كتابه (موجز التاريخ العام للجزائر ١٣٤٤هـ–١٩٢٥م) منذ العصر الحجرى إلى الاحتلال الفرنسى كان حريصاً على أن يكشف عن ضرورة اهتمام الأمة بتاريخها ، وأنها إذا نسيت هذا التاريخ فقد جهلت شخصيتها .

وقد كان حريصاً على أن تستيقظ كلمات « الجزائر والحضارة الجزائرية والأدب الجزائرى ، وأن ترن إرادة الأمة الجزائرية فى أذن الجزائرى : الصغير ، الكهل ، الكبير ، الرجل ، المرأة ، على السواء .. كما ترن تلك الموضوعات فى أذن كل أوربى يحب أمته . ويجب أن تفعل فيه مفعولها فى الغربى . ذلك المفعول الذى كون حضارة الغرب وإرادة الغرب .

يقول عثمان الكعاك : أى شىء يبقى لأمة من الأمم إذا جهلت تاريخها .. « فهى قد نسيت شخصيتها وما مثلها إلا مثل الرجل الذى أهمل ذاتيته ، وغاب عنه الشعور بشخصيته ، كذلك إذا نسيت الأمة الجزائرية تاريخها ، انتزعت منها تلك الروح التى تملك إرادات الجموع ، وتهيمن عليها ، وتسخرها للاندفاع إلى العمل المشترك .

وهاجم الكعاك نزعات التغريب ، ونعى على الذين تفاءلوا بها واعتقدوا أن سعادة الجزائر فى فرنستها من الألف إلى الياء (الفرنسة فى الجنس والثقافة واللغة والأدب) .

ويكشف الكعاك عن أهمية التاريخ فى بناء القومية .

وقد دفعت كتابات الغربيين المحرفة « عثمان الكعاك » إلى كشف الحقائق فى تاريخ الجزائر : « وقد رأيت أن الأمة الجزائرية قدأهملت تاريخها ، ونسيت مقامها فى الحضارة الإسلامية ، وجهلت مركزها فى التمدن العام ، وأصبحت هذه الأسباب مضرب الأمثال فى الانحطاط . فحدانى ذلك إلى أن أجمع من أشتات الكتب ما تفرق من أخبارها ، وأجعله سفراً يمثل تاريخها لأبنائها أولاً وللعالم الإسلامى ثانياً .. »

وكان كتاب « الجزائر فى القديم والحديث » لمبارك الميلى (١٣٤٧ هـ ١٩٢٨ م) من أبرز المؤلفات التى حققت الهدف الأساسى لكتابة التاريخ المغربى فى هذه الفترة . وهو الكشف عن حقائق التاريخ ، وإبراز عظمة الأمة ، والرد على أخطاء كتاب الغرب . ودحض الاتهامات المضللة .

وقد كشف مبارك الميلى عن الحاجة الماسة إلى كتابة تاريخ الجزائر فقال : « إن المتعلمين اليوم من أبناء الجزائر قطعوا الصلة بينهم وبين ماضيهم ، فجهلوا آفاقه ، ترى المتعلم بالمدارس يعرف من تاريخ بعض الأمم الأجنبية ما يجدر به أن يعلم مثله من تاريخ شعبه ، يحسن منه تقدمه عليه . فكيف بالاقتصار عليه والالتقاء به ؟

إن النسبة بين التاريخين الشعبى والأجنبى مثل النسبة بين الضرورى والكمالى . وقد بلغت الحال ببعض هؤلاء المتعلمين أنه صار ينظر إلى جنسه نظر المؤرخ إلى ما قبل التاريخ ، حتى قرأ واستعان بذكائه فى تمييز الخطأ من الصواب ، واهتدى إلى حقيقة بنى جنسه ، وذهب ذلك بقنوطه ويأسه ، وهاجم كتب المناقب والخوارق وقال : إنها كتب سيئة الأثر فى النفوس تطبع فى المرء عقيدة الاتكال على ما وراء الطبيعة وعدم السعى فى الدنيا .

ودعا أن يشتغل الباحثون بكتابة تاريخ البشر وحياة الأمم لإنارة العقول » .

وقد فند الأسباب التى دعته إلى كتابة تاريخ الجزائر فعزاها إلى رغبته فى دفع التعصب الجنسى والوطنى . حيث ينظر المؤرخ الأجنبى إلى جنسه بعين الإعجاب ، وإلى وطنه بعين الرضا . فيجهد فكره فى تأويل المساوئ . واختلاق المحاسن . وحب التفوق ، واستعباد الغير ، والجهل بالمصادر الصحيحة .

ويقصد مبارك الميلى بهذا اتهام فرنسا ومؤرخيها . غير أنه لم يكن فى المستطاع إذ ذاك وهو يطبع كتابه فى الجزائر خلال هذه المرحلة الدقيقة أن يفصح فى التعبير وهذه عبارته : « أعان هؤلاء على خطتهم كذبهم لماضيها وسهل عليهم العبث بتاريخ الأمم الضعيفة أو المغلوبة على أمرها اندكاك صرح مجدها الغابر .. »

وكتب أحمد توفيق المدنى كتابه « قرطاجنة فى أربعة عصور ، أو تاريخ شمال إفريقيا قبل الإسلام » وذلك على إثر هجوم (لوى برتران) العالم الفرنسى ، والراهب هنرى لامانس على حقائق التاريخ المغربى ؛ فقد ذكر لوى برتران « أن الرومان كانوا فى الجزائر كل شيء ، وأنهم أصل الحياة فيها وأساسها ، وأنهم طبعوا وطن المغرب العربى بطابعهم الخاص ، فلن يزول هذا الطابع ، وأنهم صبغوه بصبغة لن تحول إلى الأبد ، وأن العرب سرقوا ذلك واختلسوه اختلاساً » .

يقول « أحمد توفيق المدنى » كشفت خطل هذه النظرية وبسطت القول فى قرطاجنة الكنعانية وأثرها العظيم فى حياة هذه الأمة ، وعند احتلال الرومان المستعمرين ، حتى إذا ذهبت الأعاصير بدولتهم مضوا كأن لم يغنوا بالأمس ، وما تركوا فوق أديم أرضنا إلا الخراب ليس إلا .. »

***

ب — إعادة كتابة التاريخ المغربى

كان الاستعمار اللاتينى حائلاً دون كتابة تاريخ المغرب العربى على النحو الحر المحقق ، وقد جرت محاولات لمراجعة التاريخ المغربى فى إبان الاحتلال ، وهى محاولات جريئة ولأصحابها فضل كبير ، ولكنها لم تحقق للمؤرخين والباحثين حرية القول ، أو إعطاء البحث العلمى مداه ..

غير أن تحرر تونس والمغرب فى عام ١٩٥٤ ، وتحرر ليبيا ١٩٥٢ أتاح الفرصة لأعمال متعددة واسعة النطاق اشترك فيها عشرات من أعلام الكتاب ، وقد بدأ هذا التطلع فى دعوات الكتاب والباحثين : وارتفع فى تونس صوت (محمد الفاضل بن عاشور) الذى يرى أن التاريخ التونسى بأمجاده وحوافزه وعبره ومباهجه ليس له مرجع واف متصل مدروس النظريات ، محكم الأوصاف ، قوى الأسناد ، وعنده أن هناك ثغرة مجهولة فى التراث التونسى تتحرك نحوها روح الآباء ، وتذكر ابن خلدون . وتساءل : أين القلم الجديد الذى يتقمص روح ابن خلدون تقمصاً جديداً يعيد به عرض ما أبرزه من الكنوز على صورة تأنس بها الأذواق الشابة ، وتدركها العقول المعاصرة . ، وأشار إلى أن هناك حصيلة ضخمة تضمها الخزائن العامة من المراسلات والعهود ، وما بين خزائن المحاكم من السجلات والدفاتر ، وخزائن الأوقاف من الوقفيات والمحاسبات ، وما تضمه أيضاً خزائن الكتب ..

وأن هذه الحصيلة فى حاجة إلى من يراجعها ويستخرج منها تاريخ تونس ..

وقال : إن روح العزم فى بناء المستقبل التونسى تقتضى إحياء الماضى المجيد ، ولن يستطاع إظهار الماضى فى عرض تاريخى جوهرى شامل إلا بعد استجماع تلك العدد الصغيرة ..

★ ★ ★

ومن المغرب نادى (محمد على الكتانى) مطالباً بكتابه التاريخ المغربى « هل آن الأوان لأن نعلن أن تاريخنا يكاد يكون مجهولاً ؟ ، وأن كتابته على النهج العصرى حلم لم يتحقق إلى الآن ؟ » .

فقد كان الكتاب قديماً يتملصون من هذا العمل بحجة الاستعمار الذى كان يكبل العقول ، ويلجم الأفكار ، ويحجز الكلام ، ويضع على الأيدى والألسنة قيوداً .. كانوا يتملصون بحجة أن المصادر معدومة أو كالمعدومة ، وأن خزائن الكتب قد ضرب عليها بسياج من حديد ، وأن الوصول إلى سفر من هذه الأسفار يعد ضرباً من المستحيل ..

أما اليوم فما هى حجتهم » ؟

★ ★ ★

وقد أشار إلى هذا الدكتور حسين مؤنس . أنه حين أراد دراسة تاريخ المغرب العربى ، لم يجد أمامه إلا كتب الفرنسيين وقال : كان تاريخ المغرب هو فقط ما كتبه الفرنسيون ، وما كتبه الفرنسيون ضلال ، نعم هناك فيض من الكتب والأطالس الجغرافية والبحوث والدراسات تتلخص فى عبارة واحدة هى : « أن هذا المغرب لم يخلقه الله ، وإنما خلقته فرنسا ، وأن أرضه قبل دخول الفرنسيين لم تكن إلا بلقعاً جرداء ، وأن أهله لم يكونوا قبل الغزو الفرنسى إلا ضباباً شاردة .

هذا ما كتبه الفرنسيون عن المغرب خلال قرن ونصف .. »

وتوالت البحوث حول مهمة المؤرخ فكتب عبد القادر الصحراوى دراسة مطولة عن منهج كتابة التاريخ (١) .

وهكذا توالت الدعوات من كل مكان لإعادة كتابة تاريخ المغرب العربى قديمه

---

(١) جريدة الانوار (تطوان) ١٩٥٤ .

وحديثه . ومن هنا برزت هذه الحصيلة الضخمة من البحوث التى أنشأها عدد من أعلام البحث والمؤرخين :

١ – فى ليبيا : بحوث على مصطفى المصراتى ، طاهر الزاوى . محمد فؤاد شكرى(١) ومصطفى عبد الله بعبو . ... محمد الطيب ، ادريس الأشهب ، ومحمود الشنطى ، وأحمد النائب الأنصارى.

٢ – فى المغرب : علال الفاسى ، وعبد الله كنّون ، ومحمد داود ، ومحمد الفاسى . ومحمد عبد السلام بن عبود ، والمختار السوسى ، وعبد العزيز بن عبد الله ، ومحمد التطوانى . ومحمد المنونى ، ومحمد بن تاويت الطنجى .

★ ★ ★

٣ – فى الجزائر : مبارك الميلى ، وتوفيق المدنى ، وعثمان الكعاك . ومحمد على دبوز . . .

٤ – فى تونس : الفاضل بن عاشور ، وأبو القاسم كرو ، وحسن حسنى عبد الوهاب ، وعثمان الكعاك .

وبرزت نظريات جديدة وفتوح وكشوف هامة ، استأثرت الاهتمام بتاريخ الأندلس فى المغرب وتاريخ ابن خلدون فى تونس .

★ ★ ★

جـ – دراسات عن ليبيا

لم تتمكن هذه الدراسة من استيفاء جوانب الفكر والأدب والصحافة فى ليبيا (طرابلس وبرقة) لظروف خاصة تتعلق بهذا القطر الذى عاش حياة كفاح مريرة منذ ١٩١١ حتى ١٩٥٢ ؛ ولم يتمكن الكتاب والأدباء والمؤرخون خلال هذه الفترة من إبراز إنتاجهم ، وظلت آثار الشعراء والكتاب مدفونة خلال هذه الفترة الطويلة ، إلا ما تسرب منها إلى الصحف العربية فى القاهرة أو تونس أو مراكش .

وقد صدرت فى ليبيا خلال هذه الفترة عشرات الصحف ، ولكن لم يكن فى فى استطاعتها نقد المحتل أو مهاجمته إلا فى حدود ضيقة جداً ؛ وأن كل ما كتب فى خلال

---

(١) مؤرخ مصرى كان حتى وفاته استاذا للتاريخ الحديث بجامعة القاهرة .

هذه الفترة كان تحت رقابة شديدة ، وقد استعمل الكتاب الرمز والإيماء وتسجيل مابين السطور .

ومما يذكر أن الصحف لم تستطع حين أذيع نبأ أسر عمر المختار أن تضيف شيئاً إلى البلاغ الرسمى ، وإن استطاع عمر المميشى فى جريدته « بريد برقة » أن يصل إلى المدى فى رثائه بين السطور فقال :

ودخل عمر المختار قاعة المحكمة ، وهو شخص ربع القامة ، ملتف بردائه البرقاوى ، تعلو وجهه تجاعيد الشيخوخة ، وتنم عيناه عن ماضيه الذى لا يحتاج إلى تعريف . »

وقد سرت هذه الجملة — على حد تعبير صالح بوصير — كأنها رثاء حزين لحياة بطل محبب إلى القلوب .

وفى ليبيا عدد من الشعراء المبرزين أمثال : أحمد رفيق المهدوى ، وإبراهيم الأسطى عمر ، وأحمد الشارف .

ومجاهدون مناضلون : رمضان السويحلى ، صالح الأطبوشى ، وعبد الحميد العبار ، محمد بوفروة ، وإبراهيم الفلاح ، وحسن الجوينى ، وفضل المهشمش ، عبد القادر الفركاشى .

ومن كاتبات ليبيا : حميدة العنبرى — وجميلة الزمرلى (طرابلس) ، وزعيمة البارونى : ابنة المجاهد سليمان البارونى : وصفت بأنها أول امرأة ليبية تجرأت فكتبت ووقعت باسمها الكامل ، تؤمن بأن يكون الأدب هادفاً ، وأن يركز على آثاره الروح الوطنية والقومية بين أفراد الشعب ، وتدعو للمحافظة على التقاليد القديمة والسير فى خطا الأجداد .

* * *

طاهر الزاوى

ومن أبرز من خدم دراسات الفكر والأدب والصحافة والتاريخ فى ليبيا : والشيخ الطاهر الزاوى .

وقد ألف الطاهر الزاوى عديداً من الآثار فى مقدمتها : أعلام ليبيا ، وجهاد الأبطال .

وكشف فى كتابه أعلام ليبيا عن حياة الأعلام الذين جاهدوا فى مقاومة الاستعمار الإيطالى ، « ومنهم من مات كمداً من ظلم الإيطاليين وجورهم ، ومن التحقير والإهانة

التى كانت تلحقه ، ولا يستطيع لها دفعاً ، ومنهم رجال عاهدوا الله على الدفاع عن الوطن وقتال الأعداء فصدقوا ماعاهدوا الله عليه ، فقتل منهم عشرات ومئات بنيران المدافع وحبال المشانق ، وفازوا بالشهادة ، ومن لم يكتب له الشهادة هاجر بعد أن رمى فى ميدان المعركة بكل ما يملك من مال ورجال ، ومات غريباً عن وطنه ، وكان يتمنى لو أتيحت له الفرصة ليعود فيحظى بالشهادة كما حظى بها إخوانه من قبل » .

ويرى الزاوى أنه مازال هناك من هذا النوع جنود مجهولون يجب البحث عنهم فى بطون الصحراء وأوديتها ، وفى بلاد المهجر وفاء بحقهم . » وأشار فى كتابه (جهاد الأبطال) أنه سلخ فى جمعه هذا الكتاب عشرين عاماً ، ما سمع بحادثة إلا قيدها ، ولا وقع نظره على مسألة إلا نقلها ، وما اجتمع فى مصر بعد هجرته إليها بذى شأن من الطرابلسيين ، أو ممن لهم صلة بالحرب أو إدارتها إلا روى عنه ، وناقشه فيما يتعارض مع رواية غيره ، ولا سمع بحاكم منطقة أو رئيس إدارة إلا أخذ عنه ما وسعه أخذه .

وقد روى عن أحمد السويلحى ، وعبد الرحمن عزام ، وعون سوف ، ومختار كعبار ، ومحمد العيساوى بوخنجر ، وعبد السلام المريض .

يقول « وكانت مشاهداتى من أكبر العوامل التى شجعتنى على الكتابة . فقد شهدت أول الاحتلال (١٩١١) إلى قرب صلح أوشى ، وشهدت ما وقع من الحوادث بعد صلح نيادم ١٩١٩ ، إلى أوائل ١٩٢٤ ، وما لم أشهده كان يقع على مسمع منى .

وقد دون فى كتابه « جهاد الأبطال » قصة المقاومة منذ المعركة الأولى (١١ أكتوبر عام ١٩١١ إلى ديسمبر ١٩١١) وبدأ الاعتداء الطليانى على مصراتة يناير ١٩٢٢ إلى ١٩٣١ بوفاة عمر المختار .

والطاهر الزاوى (طرابلس) من مواليد الحرشال (إحدى قرى مدينة المزاوية) سنة ١٨٩٠ وقد قدم مصر والتحق بالأزهر لإتمام دراسته حتى ١٩١٢ . وقد عاد إلى طرابلس ١٩١٩ ، وبقى معاصراً للحركة الوطنية إلى آخرها ١٩٢٤ ، وفى هذه السنة هاجر إلى مصر ، والتحق بالأزهر مرة ثانية ، ونال العالمية ١٩٣٨ ، وتجنس بالجنسية المصرية فى أبريل ١٩٤٠ .

★ ★ ★

د ـ دراسات عن الأندلس

أولى كتاب المغرب العربى اهتماماً كبيراً بدراسات الأندلس وخاصة كتاب « المغرب » وهى دراسات لاتقع تحت الحصر.

ويقول المؤرخ المغربى محمد بن تاويت الطنجى : إنه من الطبيعى أن يهتم أهل المغرب بالأندلس مثل اهتمامهم بالدراسات المغربية ، ولكل باحث لونه العلمى ؛ ف (عبد الله كنّون) متجه إلى الدراسات الأدبية المتصلة بالنصوص المغربية و (محمد الفاسى) يؤكد اهتمامه بالرحلات والتاريخ أكثر مما عدا ذلك و (محمد المنونى) معنى بالمصادر الأدبية للتراث المغربى ، و (إبراهيم الكتانى) متصل بالمذهب الحزمى الذى نشأ بالمغرب على يد ابن حزم ثم انتشر فى المغرب ، و (المختار السوسى) يوجه عنايته إلى الدراســات الأدبيــة المتصلة ببادية سوس ، ومحمد داود له نفس الاتجــاه ، وقد ألف كتاباً ضخماً فى تاريخ تطوان ، والعابد الفاسى هو المرجع الأول فى المغرب فيما يتعلق بالمكتبة المغربية وما يلامسها من المكتبة الأندلسية ، و (ابن سوده) له نفس الطابع والاختصاص ، وله (دليل مؤرخى المغرب) ، و (محمد بن تاويت) من المؤرخين المتخصصين فى دراسات الأندلس .

وقد عنيت مجلة (تطوان) العربية ومجلة (هسبريس) الفرنسية والإسبانية بدراسات الأندلس ، ويصدر المستشرقون الإسبان مجلة (الأندلس) كما نشروا عديداً من ذخائر التراث العربى الأندلسى .

وقد اشترك (هويس ميراند) المستشرق الإسبانى مع محمد بن تاويت وإبراهيم الكتانى (رئيس قسم المخطوطات بمكتبة الرباط) فى نشر كتاب (البيان المغرب) لابن عذراى) ، كما أصدر معهد مولاى الحسن كثيراً من المؤلفات .

وقد نشرت مجلة (الأنوار) مقالات لمحمد بن سودة عن (نقوش الحمراء)

هـ ـ دراسات عن ابن خلدون

أحرز ابن خلدون فى الفكر الغربى المعاصر آثاراً ضخمة لا تمحى ، فقد كان موضع عناية وتقدير وتكريم لاحد لها ، كان أبرز مظاهر ذلك فى تونس ، ولكن ذلك لم يمنع من أن تتناوله الدراسات المتعددة فى المغرب والجزائر .

وإذا كان ابن خلدون قد حظى فى المشرق بدراسات متعددة بوصفه مؤسس علم الاجتماع فإنه قد وجد من أهل وطنه فى المغرب مزيداً من العناية لهذا الدافع نفسه ، مضافاً إليه أنه جزء من التراث العربى الإسلامى ومحل الفخار والتقدير .

وقد عنيت جامعة محمد الخامس بالرباط بإقامة مهرجان لابن خلدون (مايو ١٩٦٢) بمشاركة اتحاد كتاب المغرب العربى ، وجمعية قدماء مولاى إدريس بفاس .

وقدم محمد بن تاويت الطنجى أطروحة الدكتوراة فى موضوع التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً .

وكتب عنه عشرات من كتاب المغرب (ليبيا وتونس والجزائر ومراكش) وفى مقدمتهم حسن الزمرلى (تونس) وعلال الفاسى (المغرب) والفضيل الورتلانى (الجزائر) .

وعرض أبو القاسم كرو لموقفه من العرب فى كتابه (العرب وابن خلدون) بمناسبة مرور ٥٥٠ سنة على وفاته . ورد على الذين هاجموه لرأيه فى العرب وقال : إن ذلك نتج عن سوء فهم الباحثين والكتاب لمعنى كلمة عرب عند ابن خلدون ، وكلمة ابن خلدون المعروفة التى كانت مثار الجدل هى قوله « إن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب » وقصد ابن خلدون بكلمة العرب هنا « البدو الذين يعيشون تحت الخيام » لأن عبارته المتصلة تشير إلى هذا وتقصده ، حيث يقول : « فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب ، وذلك مناقض للسكون الذى به العمران ومناف له ، فالحجر مثلاً إنما حاجتهم إليه لنصبه أثافىّ للقدر ، فينقلونها من المبانى ويخربونها عليه . والخشب أيضاً إنما حاجتهم إليه ليعمروا به خيامهم ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم فيخربون السقف عليه ؛ » فالإشارة إلى القدر والخيام لا يعنى سكان القاهرة ودمشق وتونس بل يقصد أعراب البادية وحدهم ...

المؤرخون

١ — حسن حسنى عبد الوهاب

« اشتغلت بالتاريخ منذ النشأة المبكرة ؛ فعندما كنت فى مقتبل العمر ، كنت أكمل عناية بما وضع فى التاريخ التونسى من المؤلفات ، عرفت حقيقة : هى أن كل المؤلفات سائر على منهج سرد الحوادث دون إسناد لها ، ولا استنتاج منها ، فليس فى هذه الكتب محاولة لاستخراج العبر من الأحداث ، أو التفات إلى الجانب الاجتماعى من الحياة التى تؤرخ ، واسترعى انتباهى أن هذه الطريقة ليست طريقة المتقدمين من مؤرخى العرب ، ولا هى طريقة المتأخرين من مؤرخى أوربا ، بل هى طريقة المتأخرين من العرب المؤرخين ، فلو رجعنا إلى الطبرى مثلاً لوجدناه أميناً فى نقل الأحداث وإسنادها إلى رواتها ، على طريقة المحدثين ، حتى إنه ينقل الرأى ومقابله ، ويترك للقارئ الترجيح ، فلما حل عهد التقهقر الإسلامى أصبح المؤرخون نَقَلَة ، وأصبح التاريخ سجل أحداث مجردة عن سنداتها ، وعن نتائجها ، منقولة نقلا مجحفاً فى أكثر الأحيان .

وأنا أعتقد أن لتقوية هذه الملاحظات فى نفسى عاملاً رئيسياً آخر كان له تأثير كبير ، هو مطالعتى الكثيرة للمؤرخين الغربيين ، ومع ذلك فإن الأثر الأعظم يرجع إلى ابن خلدون لأن ما سجله فى المقدمة من آراء فى تدوين التاريخ وتمحيصه كان له وقع كبير فى نفسى ، خصوصاً وقد عنيت فى تلك الفترة من حياتى بدراسة المقدمة ، حتى إنى لأعرفها سطراً سطراً ، وخليق أن أنبه إلى أننى تأثرت بآرائه فى كتابة التاريخ لا بالطريقة التى أرخ بها .

فأصبحت ألتمس فى التاريخ جوانب جديدة غير التى كان يعنى بها المؤرخون ، مثل الجانب الاجتماعى ؛ ذلك أن التاريخ لم يكن ينظر إلا إلى السياسة ، وقد شجعنى هذا الاتصال النظرى بالمستشرقين على الاتصال الفعلى . فكان حضور أحد مؤتمراتهم طالع نشاطى فى الحقل التاريخى (١) ثم شاركت فى أغلب مؤتمراتهم ، فلم يزدنى ذلك إلا ثقة بأن المستشرقين يعنون أيما عناية بكل ما يهم العرب المسلمين » .

---

(١) حضر مؤتمر المستشرقين بالجزائر سنة ١٩٠٥ وقدم بحثا عن تاريخ المسلمين فى صقلية.

ويرى كتاب المغرب وباحثو تونس أن حسن حسنى عبد الوهاب هو « أول من تخلص من المؤرخين التونسيين (١) من قيود الأساليب القديمة فى فهم التاريخ وفهم الغاية من التاريخ ، وأول من أدخل فى تعلم التاريخ والكتابة فى التاريخ بالنسبة للبلاد التونسية واللغة العربية مناهج التمحيص ، ونقد الرواية والرواة . وتدعيم الاتصال بالتنصيص عن المصادر » .

وقد كان المترجم له يدرس التاريخ فى المدرسة الخلدونية والمدرسة العليا ، وقد قدم عديداً من البحوث والمؤلفات منها :

- تقدم الموسيقى العربية بالمشرق والأندلس وتونس ١٩١٨ (بالفرنسية) .
- امتزاج العناصر التى يتألف منها الشعب التونسى ١٩١٧ (بالفرنسية) .
- قواعد علم الاقتصاد — ١٣٣٨ هـ
- المنتخبات التونسية — ١٣٣٧ هـ
- خلاصة تاريخ تونس — ١٣٣٦هـ
- شهيرات النساء — ١٣٥٣ هـ
- بساط العقيق فى حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق .
- الاستيلاء الإسلامى على صقلية .
- جزيرة قوصرة العربية .

كما نشر عديداً من المؤلفات القديمة منها :

١ — الجمانة فى إزالة الرطانة .

٢ — رسائل الانتقاد لأبى شرف القيروانى .

٣ — ملقى السبيل لأبى العلاء .

٤ — أعمال الأعلام للوزير لسان الدين ابن الخطيب الأندلسى .

٥ — آداب المعلمين لمحمد بن الإمام سحنون .

٦ — التبصر بالتجارة للجاحظ .. الخ الخ .

---

(١) مجلة الندوة — مايو ١٩٥٦ .

وقد أشار إلى المناسبة التى دفعته إلى تأليف كتابه :

« شهيرات التونسيات » وضمنه حياة النوابغ بالقطر التونسى من الفتح التونسى إلى الزمان الحاضر . فقال : جرى حديث بينى وبين عبد الرحمن الكعاك فى شأن التأليف المسمى : « الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور » بقلم زينب خانم فواز ، وعلى ذكر هذا المصنف أظهر أسفاً من خلو تاريخ هذا القطر من أخبار نابغات تونسيات.

كما تأثر حسن حسنى عبد الوهاب فى مطالع شبابه بآراء المستشرقين فى نظرية البحر الأبيض وإقليمية التاريخ ، والاهتمام بتونس بالذات باعتبارها شعباً وأمة منفصلة عن المغرب العربى وعن الأمة العربية ، وهذا رأيه فى مقدمة كتابه « مختصر تاريخ تونس » .

« لكل شعب » حياة تشخصها الحوادث يقضيها فى أدوار ، كما يمر الحى بأدوار العمر . وهى حياته الذاتية التى تميزه عن غيره من الشعوب حسب السنن العمرانية ، والنواميس الكونية ، التى أودعها البارى جل ثناؤه نظام هذا العالم . وتلك البلاد هى إفريقية

قديماً أو القطر التونسى اليوم ، فهذه المنزلة الطبيعية جعلت تونس من أول الدنيا مسلك الذاهبين ، ومورد الوافدين ، ونصبتها مطمحاً لآمال الفاتحين » .

ولحسن حسنى عبد الوهاب عشرات من البحوث والمقالات المنثورة فى صحف مصر والشام وتونس فى خلال مرحلة طويلة تتجاوز خمسين عاماً ، وأهمها ماتتحدث عن الروابط بين المشرق العربى والمغرب العربى عامة ، وبين مصر وتونس خاصة :

« إعجابى بالشرق مبعثه أن ينهض مستنداً على خير عماد من النهضة الغربية ، مصر تمتاز بروح عربية أكثر تغلغلاً من الروح التى فينا ، فالتأثير الذى تسلط على تونس من الشرق ومن الأندلس كلاهما كان واضحاً فى تاريخنا ، حتى إن الخطوط التى كانت تكتب فى ديوان المستنصر الحفصى مثلاً كانت مزيجاً من خطوط البلدين ؛ خط أندلسى وخط شرقى ، وليس معنى هذا أبداً أن التفات تونس إلى الغرب قد ضاهى التفاتها إلى الشرق أو قاربه ، فما زلنا نستطيع أن نقول : إن تأثير الغرب فى تونس إنما جاءها عن طريق الشرق ، إن فكرة المدرسة عبرت من الغرب إلى الشرق بطريق بغداد فالشام فمصر فتونس ، ومنها إلى مراكش فالأندلس (غرناطة) ، ونظرة العرب ومصر إلى الحضارة العربية هى نظرة لحضارة موحدة لا فرق فيها بين

ما يكون تونسياً أو مصرياً ، لذلك نشر الشرقيون التراث الأندلسى أكثر من التراث الإفريقى ، .... »

★ ★ ★

٢ ـ مبارك الميلى

الشيخ مبارك الميلى (١٨٩٨ ـ ١٩٤٥) مؤرخ الجزائر ، ثمرة من ثمار جمعية العلماء ذات الفضل الكبير على اللغة العربية والإسلام والتاريخ ، وكتابة « تاريخ الجزائر فى القديم والحديث » من أبرز الدراسات التاريخية فى المغرب ، فقد كان إجابة علمية واعية عن كل ما عرض له خصوم تاريخ العرب والإسلام والمغرب من نظريات مضللة يراد بها فصل المغرب عن المشرق ، وفصل أجزاء المغرب ، وربط المغرب بالغرب والرومان ، وإنكار روابط العروبة والإسلام .

وقد صور مبارك الميلى هدفه من كتابه فقال : « إن المتعلمين اليوم من أبناء الجزائر قطعوا الصلة بينهم وبين ماضيهم ، فجهلوا آفاقة ، نرى المتعلم بالمدارس يعرف من تاريخ بعض الأمم الأجنبيـــة ما يجـــدر به أن يعلم مثله عن تاريخ شعبه ، ولا يحسن منه تقديمه عليه ، فكيف بالاقتصار عليه والاكتفاء به ، إن النسبة بين التاريخين الشعبى والأجنبى مثل النسبة بين الضرورى والكمالى ، وقد بلغت الحال ببعض هؤلاء المتعلمين أن صار ينظر إلى جنسه نظر المؤرخ إلى ما قبل التاريخ » .

وعنده أنه متى قرأ واستعان بذكائه فى تمييز الخطأ من الصواب اهتدى إلى حقيقة بنى جنسه ، وذهب ذلك بقنوطه ويأسه « وهاجم كتب المناقب والخوارق وقال : إنها كتب سيئة الأثر فى النفوس تطبع فى المرء عقلية الاتكال على ما وراء الطبيعة ، وعدم السعى فى الدنيا ، ودعا إلى أن يشتغل الباحثون بكتابة تاريخ البشر وحياة الأمم لإنارة العقول ..

وقد بلغ مبارك الميلى فى عملهغاية ما يستطيع الباحث فى مثل بيئته ، راجع كل ما كتب عن الجزائر فى الكتب القديمة ، وألم إلماماً بكل ما كتب الأجانب عن بلاده . ولما كان يجهل اللسان الفرنسى ، فقد اتخذ أصدقاء من قراء تلك اللغة ، وبث فيهم الروح العربية ، وقوى فيهم الطموح ، واستعان بهم فى تعريب ما احتاج إليه من المواد الأجنبية ، وكان من الساعين فى التعريب والتوحيد بين حملة الثقافتين العربية والفرنسية فى اتجاه واحد لعمل واحد .

وكان قد التقى بالمؤرخ (أحمد توفيق المدنى) وجرى حديثهما عما كتب « لوى برتران » الفرنسى من هجوم على الإسلام والجزائر ، وما أورده الكاتب الفرنسى من أن الرومان كانوا فى الجزائر كل شىء ، وأنهم أصل الحياة فيها ، وأنهم طبعوا وطن المغرب العربى بطابعهم الخاص ، وأن هذا الطابع لن يحول إلى الأبد ، وأن العرب سرقوا المغرب واختلسوه اختلاساً .. إلى غير ذلك من نظريات تهدف إلى تخليص المغرب لفرنسا وعزله عن الأمة العربية الإسلامية .

ومن هنا جاء اتفاق المؤرخين (الميلى والمدنى) على تحرير هذه الحقائق ، فكتب المدنى كتابه الضخم الذى لم نجده فى دار الكتب بالقاهرة : « قرطاجنة فى أربعة عصور ، أو تاريخ شمال إفريقيا قبل الإسلام » وبدأ الميلى فى كتابه تاريخ الجزائر إجابة على تساؤله : هل فكر أحد فى تاريخ هذه الأمة واستجلاء غوامضه ؟

وتعهد المدنى للميلى بأن يجمع له أهم المصادر الفرنسية ، حتى إذا تم للميلى إعداد أهم الأبواب فى كتابه قدم العاصمة ، والتقى بصديقه المدنى ومعه أصول الكتاب ، حيث عملا معا عشرين يوماً فى مقابلة نص بنص ..

ولقد كان الميلى يراجع كل كتاب من أجل البحث عن شىء للجزائر ، مستشهداً بالحكمة القائلة (آكل أحياناً قنطاراً من الحطب فى سبيل الحصول على مثقال من العسل) .

وسلك فى كتابه مسلك التحليل العصرى ، لم يقف عند كشف الحقائق ، بل ذهب إلى البحث عن البواعث والنتائج ، وتبدو شخصية الميلى واضحة فى كتابه وأسلوبه ، وعنده أن التاريخ يكون بعيد الأثر فى بناء الأمم إذا قام على أربع دعامات : (١) نقل الإثبات (٢) الابتعـاد عن تدليس المغرضين (٣) الخلو من خرافات المتقدمين (٤) الخلو من عمايات المتعصبين من المتأخرين .

ويرى المدنى أن مبارك الميلى مؤرخ ثبت أمين « لقد رأيت فيه خلالاً جعلته فى نظرى أنموذج المؤرخ الصادق ، صبره على البحث ، خلوص التحقيق والتدقيق ، مهارة منقطعة النظير فى المقابلة بين النصوص ، نظرة صائبة فى استجلاء الغوامض ، وحكم صادق على أسباب الحوادث ونتائجها ، مهارة فى الترتيب والتبويب ، وحسن سبك يجعل التاريخ كله كالسلسلة المفرغة .. »

★ ★ ★

وقد صور مبارك الميلى تجربته فى العمل التاريخى فى مقدمة كتابه « أنا من المتعلمين بالمساجد ، اشتغلت أيام الدراسة بما به يشتغلون ، وتقصيت دور التعليم بعيداً عن هذا العلم (نقصد التاريخ) — شأن رفاقى — لا عناية لى بكتبه ، ولا بحث لى عن دواوينه .

وأول ما قرأت من كتب هذا العلم ، كتب التراجم : تراجم الفقهاء والنحاة بعد عصر التلمذة ، ورأيتنى فى حاجة إلى زيادة الاطلاع فى بعض العلوم .

وحبب إلى إذ ذاك من الكتب ، كتب الأقدمين ، أهل القرون الأولى من الإسلام ، وكتب المتأخرين أهل العصر الحاضر ، ونفرت نفسى نفاراً لم أملك زمامها معه من مؤلفات القرون الوسطى ، وطالعت بعض رسائل ألفت حديثاً فى التاريخ فتعرفت بها إلى هذا العلم ، ورغبت فى الاستزادة منه ، فأخذت أبحث عن موارده ، ولكن لم أحصل إلا على القليل منها ولم تحدثنى نفسى بالكتابة فى هذا العلم الذى يعجز عن تأديته على الطراز الحاضر ، من هو أوسع منى علماً وأغزر مادة وأقوى إدراكا .

ودعانى بعض الأصدقاء إلى وضع كتاب فى تاريخ الجزائر ، فحرك عزمتى ، ووجه اهتمامى للبحث فى تاريخ الوطن . فرأيت أن أبتدئ العمل وأضع حجر الأساس معترفاً بأنى لست من فرسان هذا الميدان فالذهن كليل ، والمادة العربية قليلة جداً ، والفرنسية أجهلها ، وقد فات وقت تلقيها .

لم يحملنى على الخوض فى هذا الموضوع الهام ، غير الشعور بواجب خدمة الوطن وقراء العربية .

أكثر المؤرخين من المتقدمين يكتبون كل مايسمعون ، وينقلون كل ما يجدون من غير تصحيح للرواية ولا تمحيص بالفكر والدراية ، ويعنون بالحكايات الغريبة والروايات المدهشة ، كأنهم يرون التاريخ مجموعة عجائب تحد الأفكار ، لا ديوان حقائق تهدى المتأخر سبل الاعتبار .

ونرى المؤرخين اليوم من كتاب الأفرنج يستنقصون المؤرخين الإسلاميين بالتساهل فى النقل ، وينفرون القارئ من كتبهم لكون أصحابها حشوها بما يخالف الواقع ، وأغرقوا فى المبالغة عند وضعهم لبعض المواقع .

وعندى أن أحسن طريقة يسلكها المؤرخ هو أن يضع بين يدى القارئ الحادثة التاريخية ، ثم يرشده إلى كيفية الاستنتاج منها ، وبذلك يكون المؤرخ نزيهاً فى نقله والقارئ فى مأمن من عثرة ذلك المؤرخ .

والمؤرخون اليوم توسعوا فى مباحثهم ، ونوعوها إلى أنواع خلت منها أسفار القدماء ، واستعانوا على أبحاثهم بالبيانات الأثرية ، والكتابات الحجرية ، ولكن أكثرهم يحجب عن القارئ المادة التاريخية ويقدم له أبحاثه واستنتاجاته ، حتى يحمله على رأيه ، وهو تغرير بالقارئ وتضليل بالفكر .

والأسباب الداعية إلى ذلك هى :

- التعصب الجنسى والوطنى : ينظر المؤرخ إلى جنسه بعين الإعجاب وإلى وطنه بعين الرضا ، فيجهد فكره فى تأويل المساوئ واختلاق المحاسن .
- حب التفوق واستعباد الغير .
- الجهل بالمصادر الصحيحة .

وقد أعان هؤلاء على خطتهم المنحرفة عظمة أممهم فى الحال ، فاشتقوا من تلك العظمة كذبهم لماضيها ، وسهل عليهم العبث بتاريخ الأمم الضعيفة أو المغلوبة على أمرها اندكاك صرح مجدها الغابر .

وقد أتاح الميلى بعمله هذا تحقيق هدف بعيد فى معركة المقاومة العربية الإسلامية للقوى الغربية ، ولذلك فقد احتفلت به دوائر جمعية العلماء ، وكتب إليه أستاذه عبد الحميد بن باديس :

« إذا كان من أحيا نفساً واحدة فكأنما أحيا الناس جميعاً ، فكيف من أحيا أمة كاملة ؛ أحيا ماضيها وحاضرها ، وحياتها عند أبنائها حياة مستقبلها ، فليس والله كفاء عملك أن تشكرك الأفراد ولكن كفاءة أن تشكرك الأجيال »

وقد كان مبارك الميلى من مؤسسى جمعية العلماء ، ولد ١٨٩٨ فى قرية الحلية (من أجواز قسنطينة) ، انخرط مع تلاميذ العلامة ابن باديس وتلقى دروسه فى الجامع الأخضر ، وقصد إلى تونس ، حيث زاول بها دروس جامع الزيتونة ثلاث سنوات حتى عام ١٩٢٤ .

فلما عاد إلى الجزائر أحدث تغييراً كبيراً فى التعليم ، فقد أسس بقسنطينة قسمين للتعليم على النمط العصرى ، واشترك فى تأسيس جمعية العلماء (مارس ١٩٣١) ، وهى بحق أعظم حدث فى تاريخ الجزائر الحديث ؛ فقد « أحدثت (١) دوياً عظيماً فى أوساط

---

(١) احمد توفيق المدنى ـ البصائر (١٩٤٨/٤/٨) .

الجزائر ، وزلزلت معاقل المنومين للآمة ، وتضعضعتها صروح المستغلين باسم الدين ، وأسس للبنين والبنات مدرستين ، وهو صاحب فكرة إنشاء مطبعة كبرى تطبع المخطوطات ، وتنشر الصحف والمجلات ، وقد استطاع أن يقنع العلامة ابن باديس بهذا العمل ثم تولاه ، وعمل معه فى صحف : المنتقد ، والشهاب ، والبصائر ، وكان يكتب بإمضاء « البيضاوى » .

وكان يقصد من ميله إلى قسنطينة كل أسبوع الإشراف على إصـدار البصائر فى المطبعة الجزائرية الإسلامية التى هى من بنات أفكاره ، وكان يصدرها بانتظام إلى أن قررت جمعية العلماء إيقافها عام ١٩٣٩ ، بمناسبة اندلاع الحرب العالمية الثانية .

ولم يصدر الميلى غير جزءين من تاريخ الجزائر ، تناول الجزء الأول (تاريخ الجزائر قبل الإسلام) والثانى (تاريخ الجزائر إلى أوائل الاحتلال الفرنسى) ولم يكمل عمله ، فقد شغل عنه ببعض الدراسات الأخرى حتى توفى عام ١٩٤٥ .

وقد اعترف له كل من اتصل به بتفوقه فى الموهوب والمكسوب وإصابة الرأى ، وحدة الذهن ، والقدرة على تمحيص النصوص ، وسمو الإدراك فى المعقول ، واستكناه المعانى الأساسية .

وقال زميله فى الدراسة بالزيتونة (عبد الحفيظ الجنان) إنه كان خلال دراسته يمر بنظره على أوراق دروسه ثم يطويها فى المحفظة ولا يحملها وقت الدرس ، وبعد الفراغ من الدروس يوجه إلى أساتذته أسئلة غريبة فينكرونها ويدهشون لها ..

وقيل لو أنه أتيح له الذهاب إلى الشرق لوسع دائرة اطلاعه ، أو لو كان فى وسط غير وسطه لكان من أفذاذ عباقرة الإسلام ، ويكفيه أن ابن باديس قال عنه « أما تاريخ الجزائر فوالله ما كنت أظن أن فى الجزائر من يفرى هذا الفرى » .

وقد عرف بالتواضع ، فرغم علمه واعتداده كان يكره الإعلان عن شخصه ، ولما توفى العلامة ابن باديس ، كلف بأن يجلس مكانه فى مكتب البصائر ، فاستهول الموقف ، وسالت عبراته تواضعاً وإشفاقاً .

وكان كتابه مصدر اعتزاز كامل ، كقوة للمقاومة ورد الفعل ، بعيدة المدى إزاء أخطاء المستشرقين ودعاة التغريب ، يقول أحمد سحنون :

وجلوت تاريخ الجزائر بعد ما　　عفى معالمـه غبـار سنين
أحكمت من لغة البيـان أصولها　　وجمـال أسلوب أغرّ مبين

ومن عباراته الدقيقة فى تاريخه قوله :

« تم للعرب استيطان الجزائر بالرهبة من سيوفهم أولا ، وبالرغبة فيها أخيرا ، فأقطع لهم ملوك البربر الإقطاعات ، وأجزلوا لأمرائهم الصلات . وأضيفت إفريقيا الشمالية إلى جزيرة العرب جنسيا ، بعدما تبعتها دينيا وسياسياً .

والقضايا التاريخية ناطقة بانشراح صدور الإفريقيين عموما للحضارات الشرقية ، وسرعة تأثرهم بها ، ومحاربة المدنيات الغربية ، وتقززهم منها ، وقد يعثر الباحث فى بطون التاريخ على جزئيات لاتؤيد هذا الحكم ، ولكنها نادرة ، ولا تقوى على مضادته أو نقضه .

من حاول إصلاح أمة إسلامية بغير دينها فقد عرض وحدتها للانحلال ، وجسمها للتلاشى ، وصار هادماً لعرشها بنية تشييد ، ومن أعرض عن اللغة العربية فقد أعرض عن ذكر ربه .

* * *

٣ ــ عثمان الكعاك

من أبرز الأقلام المناضلة ، التى اتخذت من الكلمة سلاحاً للمقاومة ، وجه نظره نحو رد عدوان الدعوة التغريبية على الفكر العربى الإسلامى ، والتاريخ المغربى ، وهو أول من كتب موجز التاريخ العام للجزائر ١٣٤٤هـ ١٩٢٥م وكتابه « البربر » يعالج قضية شائكة استغلها الاستعمار واتخذها سلاحاً للتفرقة بين عنصرى الأمة ، الممتزجين منذ آلاف السنين ، هذا إلى عشرات من أبحاثه ومقالاته فى تحرير قضايا التاريخ والفكر ، وله أبحاث فى مراكز الثقافة فى المغرب.

ولقد كان اهتمامه الكبير قبل الثلاثينات بتحرير تاريخ الجزائر والكشف عنه ، دليلاً على وحدة المغرب الفكرية والسياسية ، فقد كان عثمان الكعاك فى تونس يعالج جوانب من تاريخ الجزائر كما فعل حسن حسنى عبد الوهاب ، ولكنه كان صادق الإيمان بأن التاريخ روح الأمة ، وأن الجزائر ــ التى إذ ذاك تسعى نحو المائة من الأعوام فى ظل الاحتلال ــ فى أشد الحاجة إلى أن يرن بها اسمها وتاريخها.

يقول فى مقدمة كتابه « موجز التاريخ العام للجزائر » .

أى شىء يبقى لأمة من الأمم إذاجهلت تاريخها ؟ فهى إن فعلت فقدنسيت شخصيتها ،

وما مثلها إلا مثل الرجل الذى أهمل ذاتيته وغاب عنه الشعور بشخصيته ، كذلك إذا نسيت الأمة الجزائرية تاريخها انتزعت منها تلك الروح التى تملك إرادات الجموع وتهيمن عليها وتسخرها للدفاع إلى العمل المشترك .

وكذلك إذا نسيت الأمة الجزائرية تاريخها انتزعت منها تلك الروح التى تملك إرادات الجموع .

وهاجم الذين يتفاءلون خيراً بالتغرب ، ويعتقدون أن سعادة الجزائر فى فرنستها من الألف إلى الياء « الفرنسة فى الجنس والثقافة واللغة والآداب »

وقال إن سبيل اليقظة فى الجزائر هو أن تسمع الجزائر نفسها ، وإن الشعور بالقومية سبيله التاريخ .

« يجب أن ترن كلمات الجزائر والحضارة الجزائرية والأدب الجزائرى وإرادة الأمة الجزائرية فى أذن الجزائرى الصغير والكهل والكبير ، الرجل والمرأة على السواء ، كما ترن تلك الموضوعات فى أذن كل أوربوى يحب أمته ، ويجب أن تفعل فيه مفعولها فى الغربى ، ذلك المفعول الذى كون حضارة الغرب وإرادة الغرب ..

« إن الشعور بالقومية لا يتأتى بغير التاريخ ، لأنه ، وهو ذكر الماضى الجميل ، يبعث الروح ، ويحيى الأمل ، ويكون الحماس ، ويستبين حد العزيمة ، ويرسم المثال المقتدى به ، ويسن الشريعة القومية التى تسير الأمة على مقتضاها .

★ ★ ★

وقد أحصى بعض دارسى أعمال عثمان الكعاك أنه أخذ على نفسه إنجاز عملين كبيرين :

الأول : الموسوعة العربية الكبرى (أو القاموس) ، وقد شرع فيه منذ عام ١٩٣٦.

الثانى : تاريخ الشمال الإفريقى الذى جمع عناصره وبوبه ونظمه .

هذا بالإضافة إلى عمله الذى قام به منذ سنوات طويلة فى تعريب المكتبة العمومية .

ويؤمن عثمان الكعاك بتاريخ المغرب العربى ككل قبل الإسلام وبعده ، ويؤمن بتاريخ تونس القومى المتصل بحضارة البحر الأبيض المتوسط وهذه عبارته :

« نحن بين جاذبية الحضارة التونسية المتولدة من خلاصة حضارات البحر الأبيض : البونيقية والمغربية واليونانية واللاتينية والبربرية ، وبين جاذبية الحضارة الإسلامية

التى ورثت خلافة المعنويات والماديات الشرقية من صينية وهندية وفارسية ويونانية وزادت عليها ، وبين جاذبية الحضارة الغربية التى سحرتنا بمظاهرها المادية التى تخلب لأول نظرة سطحية دون تمحيص ، ويظهر أن الجيل الأول ، أى جيلنا نحن ، متمسك غاية التمسك بالحضارتين الأخيرتين ، ويظهر أن الجيل الصاعد يريد أن يطرح عنه التقيد بلون من الألوان .. »

★ ★ ★

وقد تحدث عثمان الكعاك عن تطور حياته الفكرية فقال : كنت إلى سن الثانية عشرة أحتقر اللغة العربية وآدابها ، وأهزأ بالحضارة العربية والتاريخ الإسلامى ، وأرى أنه من العبث تعلم العربية ، بل من الواجب تعلم اللغة الفرنسية ، واللغة الفرنسية ليس إلا ، وكنت أحمد الله على أننى لا أعرف شيئاً من لسان العرب ، حتى ولو مجرد الحروف ، وفى شهر ماى ١٩١٥ لما دخلت تركيا الحرب ، كنت ماراً بـ (المواحية) وعلى رأس شاشية (مجيدى) حسب العادة ، فأدركتنى كوكبة من الجنود الفرنسيين وصفعنى أحدهم ، وبعثرنى على الأرض وداس الشاشية ، فمن ذلك التاريخ أقبلت على تعلم العربية وآدابها بحزم ما عليه من مزيد .. »

ثم أقبل على مكتبة أخيه عبد الرحمن الكعاك فقرأ كثيراً ، قرأ عيسى بن هشام ، ثم أسس مع أحمد بن ميلاد جمعية بالصادقية لتعلم المفردات الاصطلاحية فى الرياضيات والحسابيات . وعاش عامين يقرأ بتلهف ما يوجد فى مكتبة المقدسى ، حتى قرأ مؤلفات زيدان كلها ، وكتاب وفيات الأعيان . فلما رفع الحجر عن الصحف التونسية عام ١٩١٩ أقبل عليها بلهف ثم حرر فيها المقالات الأدبية والاجتماعية ، ثم حرر المقالات السياسية عام ١٩٢٢ .

ودرس الأدب الفارسى فى لغته الأصلية ودرس الأدب التركى ، ثم تحول من دراسات التاريخ إلى دراسات الأدب .

ويصور كيف انحلت عقدته النفسية فيقول : « سمح لى أن أعرف شيئاً من الأدب المقارن الذى تعشقته ، فعلمت منه مآخذ كل أمة عن أختها ، فعرفت ما أخذه العرب من الفرس واليونان . وما أخذه الإفرنج عن العرب ، ثم ما أخذه العرب عن الإفرنج الآن ، وهنا زال من نفسى الإعجاب بالآداب الأجنبية ، وطهرت عقلى من مركب

النقص الذى يجعلنى أفضل أدباً بعينه لأنى أجهل غيره من الآداب ، وحملنى هذا على أن أقدر كل أدب حق تقديره »

★ ★ ★

وقد كتب من ذكرياته (١) انه حين كان طالباً بالمدرسة الصادقية ١٩١٨ كان اهتمامه هو وجماعة من زملائه بالناحية الأدبية ، يطالعون المنفلوطى أو قطعة من شعر عبد الرازق كرباكه الشاعر الوطنى ، فى عام ١٩٢٠ كانوا يرسلون مقالاتهم إلى جريدة الوزير ، ويجتمعون بسوق السرائرية يقرءون فصولها ، فإذا نشرت مقالة أحدهم إلى جوار قصيدة كرباكه كان ذلك نصراً كبيراً .

وتحدث كيف اجتمع من بعد شمل طائفة الصفوة من كتاب تونس : زين العابدين السنوسى ، والطاهر الحداد ، وتوفيق المدنى ، وكرباكه ، وعثمان الكعاك . كانوا يتناقشون ويعتز كل واحد برأيه ، وإذا بالخصومة تتسع ، وإذا بها تستغرق شطرا صالحاً من كتاب العربية فإذا جاء الغد عادوا إلى الالتقاء ، ويكون شاعرهم كرباكة قد قضى ليلته يطالع أمهات الكتب « فيصب على رءوسنا جميعا نصوصا كثيرة العدد وافرة المقدار ، وحينما ينتهى من هذا يرفع برنسه على شطر كتفه ويجر ذيله على بقايا لفائف الدخان . »

وتحدث عن ذكرياته مع « كرباكة » فيما بين ١٩٢٦ — ١٩٣٦ حيث كانا يجتمعان فى مطبعة العرب التى أنشأها العلامة زين العابدين السنوسى وطبع فيها عشرات من بحوث التاريخ واللغة والإسلام ، وقدمها بأسلوبه الجميل ، حيث كان ثلاثة أرباع الشباب التونسى المثقف يفد إلى هناك .

وبعد فعثمان الكعاك من المدرسة الوسطى التى تؤمن بالبناء على الأساس .

« إن الأمم تعيش مع بعضها وتحمل فوق ظهورها أعباء ماضيها ، فلابد لها أحبت أم كرهت — أن تتقيد بماضيها من جهة ، وأن تساير أبناء عصرها بما جد من الآداب والعلوم والفنون . المسألة ترجع إلى اختيار نسب وجعل إطار وسلم ومقاييس ، للاحتفاظ بما يجب الاحتفاظ به من الحضارات القديمة ، واقتباس ما يجب اقتباسه من الحضارات المعاصرة ، فلا سبيل أن نعرف هارون الرشيد وإبرهيم بن الأغلب فقط دون أن نعرف لويس الرابع عشر ، ولا أن نعرف لويس الرابع عشر فقط دون أن

---

(١) مجلة الثريا م ١٩٤٣ .

نعرف هنرى الثامن ، وفردريك الأكبر ، وبطرس الأعظم ، وابراهام لنكولن . ولا سبيل أن نعرف الغزالى دون ديكارت ، ولا ديكارت دون الغزالى ، ولا كليهما دون فيخت وهيوم . فنحن الآباء الروحيين من أصحاب الجيل الأول مسئولون عن تبين الحقائق لأبناء الجيل الثانى ، وإقناعهم بها وترسيخها فى أذهانهم ، وتوجيههم نحو إيجاد الصيغة الموفقة لحضارتنا وثقافتنا فى مستقبل الأيام .. »

ويقول : نحن فى حاجة إلى دراسة أدبنا جاهلية وإسلاماً .

وقد نعى على الأمة العربية أنها لاتعرف غير آداب الأمم المحتلة لها : الريفيون فى المغرب يعرفون الإسبانية ، والمغاربة والجزائريون والتونسيون يعرفون الفرنسية ، والليبيون : الإيطالية .

وقد عمل عثمان الكعاك فى دراسات الأدب والتاريخ والمكتبات والآثار ، وتولى دروس التعريب ، وتولى إدارة القسم العربى فى الإذاعة (١٩٣٨ — ١٩٤٣) ، وتولى المكتبة الأهلية ، فبذل الجهد فى إعدادها وتنظيمها وتعريبها ، فهى تضم ٧٠ ألف كتاب عربى ، ومجموعة كبرى من الصحف وستة آلاف مخطوط ، وهى أقدم المكتبات فى العالم .

* * *

٤ — أحمد توفيق المدنى

« إننا — قوم الشمال الإفريقى ، أبناء الأطلس الأبرار — لأحق بإحياء هذه الصفحة الصقلية ، وبنفض ما تراكم فوقها خلال عصور الانحطاط من غبار ، ذلك لأنها صفحة خاصة بأجدادنا فى هذا الشمال ، فهم الذين فتحوا هنالك ومدنوا وتغلبوا ، وهم الذين انخذلوا بعد ذلك تحت تأثير عوامل شتى ، وتحت ضربات أعداء الداخل والخارج ، فضاع منهم ما فتحوه حساً ومعنى بعد طول جلاد .

فعلينا ونحن أبناؤهم أن ندرس تراثهم وتاريخهم فى حالتيه لنحيي ذكرهم ، وننصف حقهم ، ولنقيم لهم بأقلامنا وفى قلوبنا تمثالاً خالداً .

هذه الصفحة الغامضة الثرية ، صفحة التاريخ الإسلامى بصقلية لم تكتب بعد ، ولم يقيض الغد لها من يفردها بدراسة قيمة . »

هكذا وجه أحمد توفيق المدنى قلمه منذ أوائل الشباب منذ بدأ يكتب ١٣٤١ هـ ،

١٩٢٣ م ، كان هدفه واضحاً ، هذه الأمة لكى تنهض لابد أن تعرف تاريخها وأمجادها .

وكتابه عن المسلمين فى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا ١٣٦٥ هـ – ١٩٤٥ م ليس إلا ثمرة من ثمار هذا العمل الذى بدأه قبل ربع قرن عندما اهتز لمغالطات المستشرقين وكتاب الغرب ، وتحريفهم صفحات التاريخ المغربى الإسلامى ، وهذه أبرز مؤلفاته فى هذا المجال :

– قرطاجنة فى أربعة عصور : أو تاريخ شمال إفريقيا قبل الإسلام .
– تاريخ الجزائر .
– جغرافية القطر الجزائرى ١٩٤٨ (تونس) .
– هذه هى الجزائر ١٩٥٧ (القاهرة)
– المسلمون فى جزيرة صقلية ١٣٦٥ هـ – ١٩٤٥ م (تونس) .
– محمد عثمان باشا : داى الجزائر .
– رواية (حينعل) البطل الإفريقى الأعظم ١٩٥١ م .

فهو معنى بتصحيح حقائق التاريخ ، والكشف عنها وتجديد التاريخ وتنقيته ونفض الغبار من حوله ، وإبرازه نقياً خصباً : « إنها لذكريات أجداد كرام بررة ، تركوا لنا رأساً فى التاريخ عالياً ، وذكراً فى الخافقين مجيداً ، إنهم قهروا فى سبيل الله ، وسبيل المدنية أشاوس الأرض وطغام البحر ، وتغلبوا بقوة إيمانهم ومتانة سواعدهم وشدة شكيمتهم على كل معترض لهم .. كان رائدهم نكران الذات وتضحية النفس فى سبيل المثل الأعلى .. »

كما أصدر (المدنى) تقويمه (المنصور) خمس سنوات كاملة ، متخذاً منه عملاً تاريخياً يكشف دائماً عن مجالى الأمجاد وتاريخ الأمة العربية الإسلامية المغربية ، وإن كنا مع الأسف لم نجده فى دار الكتب المصرية .

ولقد وصفه الباحثون بأنه جعل هدفه : « الفحص عما فى أيدى الجزائر مما خلفه الماضى أو أوجده الحاضر ، واستحثاث همم الشباب الجزائرى ليعمل الأبناء البررة على إزالة عوامل النقص التى تركها الماضى ، وأوجدها الحاضر ليثبوا إلى معارج الكمال فى الحياة ، وليعلموا ما الوطن وما الإسلام الذى هو وحدة متينة . هدفه اكتشاف كل

ما كان للوطن من عز وسؤدد ، ومما امتاز به قيامه بذلك المجهود العظيم المادى والأدبى فى إنجاز تلك الخريطة التى هى أول خريطة لبلاد الجزائر ، تناولت جغرافية البلاد الطبيعية والاقتصادية والسياسية ، وقد تقرر دراستها بالمدارس العربية فى الجزائر (١) » .

★ ★ ★

يمثل (توفيق المدنى) وحدة المغرب العربى ، فهو تونسى جزائرى ، نشأ فى تونس ثم نفاه الفرنسيون عنها ١٩٢٧ إلى الجزائر ، فارتبط بها ارتباطه بالوطن المغربى الكبير ، كما جمع بين صداقة شخصيتين من أبرز شخصيات المغرب العربى والشمال الإفريقى ؛ كان من تلاميذ عبد العزيز الثعالبى ، ومن زملاء عبد الحميد بن باديس ، عمل مع الثعالبى فى تونس فى مطالع النهضة بعد الحرب العالمية الأولى ، واشترك مع ابن باديس فى تأسيس جمعية العلماء ، وكان له دوره الواضح فى بناء هذا الصرح الشامخ .

وهو أحد خريجى الزيتونة التى خرجت الأعلام والقادة فى الشمال الإفريقى ، كما خرجهم جامع « القرويين » ، واستطاع أن يجمع بين الثقافة العربية والثقافة الغربية . عمل فى مجال النهضة الوطنية ، فألقى القبض عليه ، وأودع السجن شاباً دون العشرين ، فأتقن فى السجن اللغة الفرنسية ، وتعاطى لغات أوربية كثيرة ؛ وطالع كتب الفلسفة والاجتماع والسياسة ، وخالط الصحف والمجلات الراقية فكوّن لنفسه بنبوغه وعصاميته علماً واسعاً ، وفكرة اجتماعية ناضجة ، وثقافة سياسية قليلة النظير ، فلما خرج من السجن ارتمى بكليته فى الحياة السياسية والفكرية يخطب ويحاضر ، ويحرر ويترجم ، وبرزت قيمه الإنشائية فى المقالات التى كان ينشرها بالصحف ، وإمضائه المستعار (المنصور) ، وهى مقالات تسودها القوة المنطقية مع الحماس الخطابى ، ويزينها التعبير المتين الصافى السهل الممتع ، المتحرى دقة الاستعمال اللغوى ، وكشفت مقالاته فى منهجها ومادتها عن أسـلوبه العلمى ، وثقافته الفكرية ، فرفع ذلك قدره بين أهل العلم والفكر ممن لا ينتمى إلى وسطهم السياسى . وجذبته ناحية نبوغه العلمى إلى النشر الثقافى ، فأصدر ١٣٤١ هـ — ١٩٢٣ م تقويماً سنوياً سماه (تقويم المنصور) ، وإلى إصداره خمس سنين ، حتى أصدر الجزء الخامس بالجزائر بعد نفيه إليها » .

★ ★ ★

وفى الجزائر كان عمل أحمد توفيق المدنى أكثر مشقة ، حيث فرنسا تسيطر على الفكر

---

(١) (الشهاب م ٧ — ١٩٣١) .

والثقافة والتعليم ، غير أنه لم يلبث أن شق طريقه مع حركة النهضة الإسلامية العربية التى قادها عبد الحميد بن باديس ، وشارك فيها كأبرز أعضاء جماعة العلماء ، مع البشير الإبراهيمى ، والطيب العقبى ، ومبارك الميلى .

وكان له عمله فى توجيه مبارك الميلى إلى كتابة تاريخ الجزائر ، ثم كتب هو فى جوانب مختلفة : كتابه عن قرطاجنة يكشف تاريخ شمال إفريقيا قبل الإسلام ، وكتابه عن جغرافية القطر الجزائرى يعطى رداً على اتهامات الأعداد ، « وتاريخ الجزائر » يكشف حقائق هامة ، « والمسلمون فى جزيرة صقلية » يكشف عن بطولة المغرب فى مجال الفتح ، « وحياة محمد عثمان باشا داى الجزائر » إنما هو خلاصة وافية عن تاريخ الحكم التركى فى بلاد الجزائر منذ فتح خير الدين بربروس إلى الاحتلال الفرنسى ، ويفصل الحوادث الكبرى فى التاريخ العالمى ، وخاصة الأوربى والفرنسى .

وله بعد ذلك عديد من البحوث فى البصائر ، وصحف المغرب العربى كله ، ثم إذا هو بعد الحرب العالمية الثانية يواصل العمل الضخم الذى خلفه ابن باديس ، فتمضى جمعية العلماء فى فتح المدارس ، وإنشاء المعاهد ، والمدنى فى مقدمة العاملين ، ثم إذا هو بعد ثورة الجزائر فى صفوف العاملين فى القاهرة ، يكتب ويخطب ويؤلف كتابه : « هذه هى الجزائر ١٩٥٦ يكشف فيه عن اغتصابات الاستعمار وأعماله فيقول » : لم أكتبه للدعاية ، وإنما كتبته تسجيلاً للواقع ، وتعريفاً بهذا القطر ، وبهذا الشعب ..

.. *هذه الأمة التى أدهشت العالم بجهادها ، وبهرت الدنيا بثباتها أمام أعظم قوة* استعمارية جردت فى قطر من الأقطار ، فى أى عصر من العصور ، وأشرأبت إليها أنظار سائر الشعوب ، تشهد على يدها مصرع الظالمين وتمزيق آخر صفحة من صفحات الاستعمار .

البلاد التى يسجل التاريخ فوق جبالها ونجودها . وبين شعبها وكثبانها صفحة من أروع صفحات البطولة والمجد .

تلقت هذه الأمة عن أجدادها ، فوق أديم هذا الوطن ، علماً وسيفاً وضميراً ، وتوارثت ذلك كابراً عن كابر ، منذ أقدم العصور . فما سقط ذلك العلم ، علم الحرية ، من يد شهيد حتى تلقته أيدى الذين يقتفون فى ميدان الشرف خطاه ، وما استقر ذلك السيف سيف الكفاح والنضال فى غمدة يوماً ، فهو دولة بين الأجداد والآباء والأحفاد ، لا يزال مشهراً منذ آلاف السنين ، يمجد الماضى ، وينشئ الحاضر ، ويهيئ المستقبل ،

وما خبت نار تلك الضمير المتقدة ، ولا خفت نوره الوضاء ، فهو ضمير الإيمان والعقيدة والشعور ، هو روح قدسية جماعية ألفت بين قلوب عشرة ملايين من البشر ، فصيرتهم جسماً واحداً عملاقاً ، يقف موقف الجبار العنيد ، يحمى الحمى ، ويصون المقدسات ، ويقاوم الغاصبين ، ولا يضعف ولا يلين .. »

★ ★ ★

٥ ـ محمد على دبوز

« لقد حارب الاستعمار اللاتيني الحقود تاريخ المغرب الكبير بكل وسائله ، فحرم تدريسه فى مدارسنا العربية الحرة ، وقيد أقلام مؤلفينا فى المغرب فلم يستطيعوا كتابته كما يجب ، ليبينوا ماضينا الأغر المجيد ، وعظمة أجدادنا وبطولاتهم ومجدهم الأثيل ، وحتى يستطيع أبناء المغرب بالتاريخ أن يعيشوا مع أجدادهم ، فيتأثروا بهم ويقتفوا خطاهم فى طريق العظمة والمجد .

لقد ثار المغرب الكبير على الاستعمار فى كل عهوده ، وزلزل أقدام المستعمرين بثوراته العارمة ، وأدى للإسلام ببطولته فى ثوراته الحربية والسياسية والثقافية فخراً وعزاً ، وجعل المستعمرين يحسبون للمسلمين حسابهم ، ويقدرون المغرب ، ويعرفون صولته .

إن شخصيتنا الإسلامية تقوم على ثلاث قواعد ، هى أساسها وجذعها الذى تتفرع عنه : اللغة العربية ، وديننا الإسلام ، وتاريخنا ، وقد فجر الاستعمار على هذه القواعد العظيمة الراسخة جبالاً من الديناميت ليهدمها فى المغرب فيقضى على هذه الشخصية الإسلامية .

إن الاستعمار اللاتيني قد زال من مغربنا الكبير والحمد لله ، ولكنه ترك فى كثير من خريجى مدارسه وجامعاته من أبنائنا عقداً نفسية خطيرة هى أضر لنا من الاستعمار ، وأوحى إلى كثير منهم بأن الإسلام ليس دين المدنية والعظمة ، وأن اللغة العربية لا تساير المدنية .

وكان أولئك المستعمرون اللاتينيون ، إذا قرروا شيئاً من تاريخ المغرب فى مدارسهم الاستعمارية الابتدائية ، حيث التلاميذ الصغار الذين يسهل الإيحاء إليهم والتأثير فيهم ، لا ينتقون من فصول تاريخ المغرب إلا ما يعج بأكاذيب الملوك (القدامى) ، ودعايتهم المغرضة ، فيبنون على ذلك ما يشاءون من أكاذيبهم ، وتراهم يستغلون كل الاستغلال

الصراع الذى وقع بين المغرب وبين الملوك المستبدين من الأمويين والعباسيين ، فيبثون ما يشاءون من عصبية فى النفوس وأحقاد فى القلوب ، ليبعدوا المغرب عن المشرق ، ويقطعوا قطرنا المغربى عن ديار العروبة ، فلا يعد نفسه أصيلاً فى أرومة قحطان.

وترى أولئك المستعمرين يستغلون هذا الصراع فيجعلون الناشئ يعتقد أن المغرب فى كنف الدولة الإسلامية كانت أيامه مصبوغة بالدماء ، وأن أجدادنا كانوا أشقياء فى دولهم ، لا يتمتعون بما يتمتع به المغرب فى جحيم الاستعمار اللاتينى ، ليهيئوا نفوسهم للرضوخ للقيود ، واستحلاء المرارة ، فلايثورون عليها ، والرضا بواقعهم الأليم ، فلا يسخطون عليه ، وتراهم يستخدمون تاريخ المغرب المجيد الذى يحرفونه ، فى الإزراء بأجدادنا ، وتشويه سمعة دولتنا الإسلامية ، ليخلقوا فى نفوس أبنائنا عقائد سيئة فى أجدادهم وعقداً نفسية تصرفهم عن الاعتناء بتاريخهم ، فلا يرون ما كان يرفل فيه المغرب فى عهود دوله الإسلامية الزاهرة من رقى وتقدم .

وكان الاستعمار اللاتينى فى المغرب الكبير قد اتخذ كل وسيلة للقضاء على اللغة العربية التى هى مفتاح الدين والتاريخ ؛ ليبلغ مايتلهف عليه من تجريد المغرب من دينه وعروبته

فحارب التاريخ الإسلامى ، فحرم تدريسه فى المدارس العربية الحرة ، وكان التاريخ الإسلامى وتاريخ المغرب على الخصوص أول مادة يسأل عن وجودها فى حملاته التفتيشية على هذه المدارس التى يراها خطراً عليه .

إن الاستعمار اللاتينى قد حرم المغرب من معرفة تاريخ أجداده فى مدارسه ، وحاربه وضيق عليه فى المدارس الحرة ، واتخذ كل وسيلة ليكون المغرب دائماً على جهل بتاريخ أجداده العظماء ، وبتاريخ دولته الإسلامية الزاهرة التى أيقظت أوربا وأنقذتها من الهمجية والضلالة .. »

★ ★ ★

لا شك كان استقلال الجزائر إيذاناً ببدء مرحلة فكرية جديدة فى المغرب العربى تتصل باللغة العربية والتاريخ ، ومختلف شئون الثقافة والأدب والنشر ، وكانت كتابة تاريخ المغرب العربى الكبير وتحريره من أخطاء الغربيين والمستشرقين فى مقدمة الأعمال الضخمة التى بدأت فعلاً بعد معركة الحرية ، للقضاء على ما حاوله الاستعمار خلال أكثر من مائة وثلاثين عاماً بتحريف هذا التاريخ ، واستغلال نصوصه وأحداثه للقضاء على على الوحدة المغربية ، وخلق قوميات ضيقة ، وإثارة ثغرات تمزق الصف وتحاول أن

تجعل من كل الأقطار الأربعة (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب) إقليماً قائماً بنفسه ، له طابع ثقافته ، فى حين أن الحقيقة التاريخية تستطيع أن تثبت وحدة المنطقة وتلاقيها تلاقياً كاملاً أمام ملامح واحدة لا تختلف كثيراً ، وكذلك للرد على محاولات الاستعمار فى تمزيق الروابط بين المشرق العربى والمغرب العربى ، للحيلولة دون التقاء الأجزاء العربية كلها من المحيط إلى الخليج فى وحدة كبرى .

لذلك كانت موسوعة (تاريخ المغرب الكبير) التى يوالى إصدارها العلامة محمد على دبوز أستاذ التاريخ بمعهد الحياة بالجزائر عملاً مقدوراً فى مجال الفكر المغربى المعاصر ، وهو عمل كبير الدلالة على أن العمل الفكرى المدروس قد أخذ طريقه فعلاً فى هذه المرحلة الجديدة ، على أساس البحث العلمى والمراجعات الكاملة لكل ما كتب ، مستعرضاً تاريخ هذه الأجيال ، مراجعاً كل ما كتب فى هذا الصدد .

وقد صور المؤلف كيف كان هذا العمل صعباً كل الصعوبة ، وكان طريق هذه العهود مطموساً ، والسبل غير معبدة ، وأغلب من كتبوا فى تاريخ المغرب من المحدثين قد اغتروا بالمصادر المزيفة ، فرددوا أغلاط المؤرخين القدماء ، فكان عليه أن يكتب فصولاً جديدة معتمداً فى ذلك المصادر الصحيحة ، وإن كان يسلك طريقاً غير معبدة .

وقد بدأ العمل فى كتابة هذه الفصول منذ عام ١٩٥٠ ، بعد أن أتم مراجعاته الأولى ، وقد حالت الثورة الجزائرية دون ذلك ، مما أتاح له فرصة فى المراجعة ، وتوسيع دائرة البحث ، والقيام بجولات واسعة لمطالعة عديد من المخطوطات الموجودة فى الخزائن القديمة ، وهى خزائن فى جنوب الجزائر لم تمتد إليها يد ، كما زار مكاتب تونس والقاهرة .

وكانت أخطر مرحلة فى حياة موسوعته هى مرحلة الثورة ، حيث تعرضت بلدته (القرارة) للتفتيش عشرات المرات ، وكان قد وضع مسودة كتابه فى صندوق خشبى لامسامير فيه لكيلا تكشفه الآلات التى تدل على الحديد ، وردمه فى الحديقة زمناً ، وكان كلما هوجمت البلدة يضرع إلى الله أن يحفظه ، ومن أغلى ما كان يخشى عليه الخرائط التى أمضى ثلاث سنوات فى العمل بها من أجل التنقيب عن حدود الدول المغربية فى القرنين الثانى والثالث الهجرى وقبل الإسلام .

والمؤلف عالم باحث درس فى الجزائر وتونس والقاهرة ، وشغف بدراسة التاريخ منذ شبابه . وكان أول من قدم القاهرة عام ١٩٤٤ ، من المغرب سائراً على قدميه قاطعاً

حدود تونس وليبيا حتى وصل إلى مصر إبان الحرب العالمية ونزول الحلفاء فى صقلية ، ولم يكن من اليسر أن يسمح له بالسفر فى هذه الفترة .

ويحمل تاريخ المغرب العربى الكبير دعوة حارة إلى الوحدة : « إن المغرب كان وطناً واحداً يسكنه شعب واحد ، ولم يعرف هذه التجزئه التى صار إليها الآن .. » .

ويمكن القول بأن محمد على دبوز هو وكتابه « تاريخ المغرب الكبير » قد جاء بعد عملين كبيرين قدمهما مبارك الميلى ، وتوفيق المدنى فى هذا المجال ، فهما قد سبقاه فى الثلاثينات ، أما مبارك الميلى فلم يكمل تاريخه بعد أن أصدر جزءين كبيرين ، وكتب توفيق المدنى كتابه الموجز « تاريخ الجزائر » الذى أعيد طبعه فى العام الماضى دون أن يضاف إليه شىء .

وفى هذا نذكر كتاب التاريخ العام للجزائر لعثمان الكعاك ، ومؤلفات أخرى قليلة اهتمت بتاريخ تونس وتاريخ ليبيا وتاريخ المغرب ، لأبى القاسم كرو وطاهر الزاوى ، ومحمد داود .

وتختلف هذه المؤلفات عن كتاب تاريخ المغرب الكبير فى أمرين :

الأول : هو أن أغلب هذه المؤلفات موجزة ، وكتبت فى ظل الاحتلال والحماية ، فلم يكن من اليسير أن تتوسع فى كثير من المجالات مع التحفظ فى العبارة وإن كانت ميزتها أنها كتبت لإيقاظ العقلية المغربية ، والرد على ادعاءات كتاب الغرب فى وقت المعركة .

الثانى : أن محمد على دبوز (الجزائرى) لم يكتب تاريخ الجزائر ، وإنما كتب تاريخ المغرب العربى الكبير بأقطاره الأربعة على نحو مستفيض ، وأنه أصدر ألف صفحة ليصل إلى ختام حكم الدولة الرستمية فى نهاية القرن الثالث الهجرى . .

ويضاف إلى هذه الميزة ميزة أخرى هى اتساع مجال البحث بالمراجعة الكاملة ، وحرية الكلمة فى مواجهة ادعاءات الغربيين بشأن تاريخ المغرب العربى .

* * *

٦ ـ عبد العزيز بنعبد الله

إن عبد العزيز بنعبد الله من ذلك الرعيل النابه الذى تلفت إلى تاريخ المغرب العربى وعنى بدراسته وتعمقه والتوسع فيه . أبرز مؤلفاته : (مظاهر الحضارة المغربية) وهو دراسة واسعة للحضارة المغربية من خلال الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية ونظام الحكم

وطبيعة البلاد . تتبع نمو الحركة الاقتصادية منذ ألف عام ، والمراكز التي كانت منبعاً لهذه الحركة ، والعلاقات التجارية بين المغرب والبلاد الأجنبية ، واستغلال النفوذ الأجنبي لهذه الحركة . وأبدى اهتماماً بالفن المعماري ومضى في تقويم هذه الحضارة ومدى تأثيرها على الحضارات الأخرى وتأثرها بها ، ومكان الحضارة المغربية بالنسبة للحضارتين الإسلامية والعربية .

وقد قرأنا للسيد عبد العزيز عشرات الدراسات في مختلف مجلات المغرب الكبرى كشف فيها عن جوانب غامضة فعلاً حاول تجليتها ، وكلها تدل على جهد عميق مبذول .

ومن أبرز هذه الأبحاث بحثه عن التبادل الفكرى بين المغرب والمشرق . حيث قدم عشرات من أسماء الأعلام الذين سافروا من المغرب إلى المشرق وبالعكس ، متعرضاً لآثارهم وأعمالهم (ديسمبر ١٩٦٠ مجلة دعوة الحق) .

وقد أولى عبد العزيز بنعبد الله اهتمامه للجذور السلالية واللغوية والفكرية لوحدة المغرب ، وكتب عنها عديداً من الدراسات في مجلة « دعوة الحق » وهو يعد ليبيا — كما نعدها — داخلة في الوحدة المغربية .

ولد عبد العزيز بنعبد الله (١) عام ١٩٢٣ وحصل على ليسانس الآداب وبكالوريوس الحقوق ، واشتغل في الصحافة فكان من محررى جريدة العلم ، وتقلب بعد الاستقلال في عدة وظائف ويشغل الآن منصب الأمين العام للمكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي بالرباط ، وله ثقافة واسعة في التاريخ الإسلامي وتاريخ حضارة المغرب ، ويشغل إلى جانب ذلك منصب أستاذ الحضارة المغربية بكلية الآداب بجامعة المغرب ، وله عدة مؤلفات منها غير ما ذكرنا : الفن المغربي وكتاب عن ابن الخطيب بالاشتراك . وله كتب بالفرنسية عن حضارة المغرب وتاريخه ، وله دراسات عن التصوف الإسلامي .

* * *

٧ـ محمد داود

من مؤرخي (المغرب) له كتاب في ثماني مجلدات عن تاريخ تطوان ، استهدف من دراسته اهتمام المفكرين والباحثين والمؤرخين بالدراسات الموسوعية وإبراز ذاتية المغرب وشخصيته واستقلاله .

---

(١) خطاب عبد الكريم غلاب في ٦٤/١١/١٥ .

مذهبه فى كتابه التاريخ – كما أورد فى كتابه –: أن يثبت المؤرخ المعلومات ويصور الحوادث كما هى أو كما يراها دون تزوير أو تضليل ، ثم لكل قارئ أن يستفيد ويستنبط على حسب ذوقه ومذهبه واستعداده .

وعنده أن كتاب (تاريخ تطوان) ليس كتاب دعاية ، وأنه لم يؤلف لبيان المحاسن أو المساوئ ، ولم يكتب بالأسلوب الإنشائى الذى تنمق عباراته .

ويقول : إنه على الرغم من كونى أنجزته فى عدة مجلدات تحتوى على آلاف الصفحات فما زلت أشعر بنقص فيه كبير .

وقد عرّف « عبد الكريم غلاب » مدير تحرير جريدة العلم المغربية المؤرخ « محمد داود » فى خطاب خاص (١) إلى بأنه من الرعيل الأول فى الميدان الوطنى والثقافى ، يبلغ الآن نحو الستين من عمره ، واشتغل بالتعليم فى أول الأمر ، ثم كان مندوباً للتعليم (بمثابة وزير) فى المنطقة الشمالية حينما كانت مفصولة تحت الحكم الأسبانى عن المغرب ، وأسس حوالى سنة ١٩٣٣ مجلة السلام ، وكانت من أرقى المجلات الشهرية التى صدرت بالمغرب ، ولم تعمر غير نحو سنة ، وتوقفت بعد أن منعها الفرنسيون من الدخول إلى المنطقة المشمولة باستعمارهم ، وحوالى عام ١٩٣٥ أسس مجلة أسبوعية باسم « الأخبار » لم تعمر طويلاً لنفس السبب ، وقد انصرف منذ زمن طويل إلى دراسة تاريخ تطوان وكتابته ولم يكتب غيره ، وإن كان له مختصر باسم مختصر تاريخ تطوان .

---

(١) فى ١٥/١١/١٩٦٤ .

مراجعة عامة

أولا ــ ثورة الجزائر والفكر المغربى

لا شك أن ثورة الجزائر التحريرية (١٩٥٤ ــ ١٩٦٢) من أبرز أحداث العالم الإسلامى والأمة العربية فى تاريخها الطويل والمعاصر، فهى لاتقل من حيث الوزن عن أخطر التحولات الكبرى والمواقف الحاسمة فى تاريخ الإسلام، فهى توضع بجوار مقاومة التتار والصليبيين وفتوح القسطنطينية وغيرها .

ولا أعتقد أن عملاً من أعمال المقاومة العربية الإسلامية فى سبيل الحرية والتخلص من الاستعمار يرقى إلى درجة هذه الثورة .

فقد استطاعت مصر والسودان وسورية ولبنان والعراق أن تحصل على استقلالها وتتحرر، كما استطاعت ذلك ليبيا وتونس والمغرب، وقامت فى كل هذه الأقطار معارك وثورات ومقاومات دامية وقدمت شهداء وضحايا .

ولكن معركة الجزائر تقف وحدها مهيبة رهيبة، لتعطى صورة أخرى أشد قسوة وضراوة وإصراراً . وترسم للأمة العربية والعالم الإسلامى صفحة من أروع صفحات التضحية والمقاومة والفداء والاستبسال .

وحتى يظهر الباحث الذى يتناول فلسفة التاريخ فى ثورة الجزائر سيظل جانب كبير من هذه المعركة بعيداً عن الأضواء الكاشفة .

ولا شك أن السبب فى هذه الثورة يرجع إلى صورة الاحتلال الجزائرى عام ١٨٣٠م ومرماه، وهدفه، وتوسعه إلى المغرب وتونس . ومفاهيم فرنسا فى اعتبار الجزائر قطعة من فرنسا أو فرنسا الجنوبية ، واعتبار أهلها مسلمين فرنسيين . وما يتصل بهذا من محاولات للإدماج، وقضاء على مقومات الشخصية العربية الإسلامية، وإلغاء اللغة العربية والإسلام والقومية الجزائرية، وجعل الناشىء الجزائرى عبداً للفكر الغربى، يدرس أمجاد فرنسا وبطولات رجالها ولا يعرف شيئاً عن تاريخه وأمته وأبطاله .

وكيف استطاعت هذه الخطة بعد مائة عام من احتلال الجزائر أن تقضى فعلاً على اللسان العربى، وأن ينشأ جيل جديد لا يعرف العربية وأن تحتفل فرنسا ١٩٣٠ بعيد تحول

الجزائر إلى قطعة من الدولة الفرنسية ثم ظهور اليقظة العربية الإسلامية العارمة فى حركة جمعية العلماء الجزائريين ، وتصدى عبد الحميد بن باديس للعمل الضخم فى بناء المدرسة العربية فى أنحاء الجزائر ، وكيف لقى فى هذا العمل مشقة وعنتاً ، وكيف استطاعت هذه المدارس مع الصحافة العربية الجزائرية أن تعيد للغة العربية كيانها من جديد ، وأن تنشىء جيلاً جديداً يؤمن بضرورة تحرير الجزائر .

ثم تتطور الحركة الوطنية الممثلة فى صورة الأحزاب السياسية من دعوة إلى الاندماج لدعوة إلى وطن مرتبط مع فرنسا إلى دعوة إلى الاستقلال الذاتى ..

ثم كانت حركة التحرير الجزائرية التى اندمجت فيها كل القوى الوطنية العاملة والتى أعلنت حرب التحرير عام ١٩٥٤ لتقوم أعنف ثورة فى تاريخ الأمة العربية ، ومن قلب الثورة نشأ أدب جزائرى له طابع خاص يبنى قضية الجزائر ، أسهم فى إعداد هذه المرحلة ، ثم أسهم فى دعمها ودفعها ، وكان أغلب هذا الأدب مكتوباً باللغة الفرنسية .

إن نظرة شاملة إلى الفكر العربى فى الجزائر ترى آثار عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمى ومالك بن نبى وتوفيق المدنى ، وأبى القاسم سعد الله ، ومحمد على دبوز ، وأبى اليقظان ، وترى شعر سحنون ومحمد العيد الخليفة ، ومفدى زكريا .

ثم نرى الأدب العربى المغربى الجزائرى الفرنسى ممثلاً فى محمد ديب ، ومولود فرعون ، وكاتب ياسين ، ومولود معمرى ، وإدريس الشرايبى .

وقد مرت الجزائر بمراحل ثلاث :

المرحلة الأولى : هى المقاومة التحررية العسكرية التى بدأها الأمير عبد القادر ١٨٣٠ واستمرت دون توقف أكثر من أربعين سنة . ثم دخلت الجزائر فى مرحلة الركود .

المرحلة الثانية : مرحلة الكفاح السياسى ، بدأت بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى بظهور نجم شمال إفريقيا ، وحزب الشعب الجزائرى ، وحزب البيان ، وظهر فى هذه المرحلة مصالى الحاج ، وعباس فرحات . وخلال الثلاثينات ظهرت « جمعية العلماء » بقيادة ابن باديس ، والبشير الإبراهيمى ، واحمد توفيق المدنى ، والطيب العقبى ، والعربى التبسى .

وقد أخذت طريق التثقيب والإيقاظ الفكرى الإسلامى فى مجال اللغة والإسلام .

المرحلة الثالثة : هى مرحلة الثورة والحرب والمقاومة المسلحة التى بدأت فى نهاية

عام ١٩٥٤ والتي ظنت فرنسا أنها إحدى محاولات العصيان السهلة القمع ، غير أن الثورة ما لبثت أن اتسعت وشملت مناطق كبيرة ، من أهمها « وهران » ، واستطاعت أن تستمر وتعمق وتقوى وتقدم مليوناً من الشهداء ومليوناً من المطاردين .

وقد كان إعلان الثورة الجزائرية عاملاً هاماً في تطوير المفاهيم الاستعمارية لدى فرنسا ، على نحو متصل وسريع ؛ فقد أسرعت فرنسا بالتفاهم مع تونس والمغرب ، وعقدت معهما معاهدتي الجلاء ، وذلك لتحول دون ارتباط أجنحة الثورة في المغرب كله ، وظنت أنها بذلك تقضي على الثورة وتقص أطرافها ، غير أن المغرب وتونس ظلتا موصلاً هاماً لأعمال الثورة ، وكان للجمهورية العربية المتحدة دورها الهام في المؤازرة ، مما دفع عجلة العمل الثوري ، ووسع نطاق المعركة فاضطرت فرنسا إلى التراجع .

والواقع أن مرحلة الكفاح السياسي كانت مرحلة طبيعية (١٩٢٠ — ١٩٥٤) في خلال ثلاثين عاماً لتأريث الثورة ، وإعداد المغرب نفسياً لمواجهة أضخم عمل استعماري وقع في العالم العربي ، وهو القضاء على القومية العربية الإسلامية الجزائرية وتصفية العربية والإسلام تصفية كاملة .

ذلك بأن فرنسا لم تكن تهدف إلى السيطرة الاقتصادية أو السياسية أو العسكرية فحسب ، بل كانت تهدف إلى تحويل الإنسان الجزائري نفسه إلى إنسان فرنسي ، بالقضاء على لغته ودينه وتاريخه : ولقد أحس الذين ذهبوا إلى الجزائر بعد انتصار ثورة الجزائر كيف كانت فرنسا تسيطر فكرياً على هذا الجزء من الوطن العربي الإسلامي « إلى درجة تجد القرى فيها حافلة بالكنائس ذات الأجراس ، ولا تلمح في بلاد المسلمين مئذنة جامع واحد ، إلى درجة أن الجزائريين الذين يعرفون اللغة العربية قراءة وكتابة لابد أن يكونوا قد تعلموها في كتاتيب تحفيظ القرآن القليلة ، أو خارج الجزائر ، إلى درجة أني كنت أرى الشعارات تكتب على الجدران باللغة العربية وبالحروف اللاتينية ، فيكتبون الشعار المشهور « الله يرحم الشهداء هكذا » « (Allah Yarham El Shohada) هذه الدكتاتورية الفرنسية الأوربية التي تفيد امتداداً فرنسياً للحرب الإسبانية في الأندلس ضد العرب ، وتحظى بالعدوان عبر البحر المتوسط كي تشترك فرنسا وإسبانيا في حرب صليبية ضد عرب الشمال الإفريقي ، كان الرد عليها أن تقوم ثورة شعبية عربية إسلامية في بلاد المغرب العربي كلها كي تدفع بهذه الدكتاتورية الأوربية الصليبية مرة أخرى عبر البحر إلى حيث جاءت » . (١) .

---

(١) الدكتور سهيل ادريس — جريدة الجمهورية (٢ أغسطس ١٩٦٢) .

وكانت مرحلة حضانة للأفكار الثورية قد بدأت منذ ارتفع صوت عبد الحميد ابن باديس : « حوربت فيكم العروبة حتى ظن أن قد مات منكم عرقها ، ونسخ فيكم نطقها ».

« حورب فيكم الإسلام حتى ظن أن قد طمست آمامكم معالمه ، وانتزعت منكم عقائده ومكارمه » .

« حورب فيكم العلم حتى ظن أن قد رضيتم بالجهالة وأخلدتم للنذالة .

ثم ماذا كان بعد قرن :

« جئتم بعد قرن تصدح بلابلكم بأشعار العربية تثير الشعور والمشاعر » .

« جئتم بعد قرن ترفعون علم التوحيد وتنشرون من الإصلاح لواء التجديد، وتدعون إلى الإسلام كما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

جئتم بعد قرن ترفعون للعلم بناء شامخاً ، وتشيدون له صرحاً سامقاً » وبعد أن ذكرت دائرة المعارف الإسلامية تحت مادة جزائر « بلاد من أملاك فرنسا فى شمال إفريقيا » انفتح الطريق إلى الحديث عن الشخصية الجزائرية والوطن الجزائرى ، ومن ذلك كتابات عمروشى (٢) .

« لا بد من الاعتراف بوطن للجزائريين ، ووطن كما يرغبون ، ذلك جوهر المشكلة الجزائرية . وإن أنس لاأنسى أنه بعدما اغتصبت فرنسا وطنهم ، وبعدما أقصتهم عنه مسلوبين من كل حقوق الفرد التى تفتخر فرنسا وتمن بها على العالم .

إن أنس لا أنسى أن الجزائريين وعدوا بأن يحفظوا أجمل وأمجد وأعز وطن فى الوجود . وكل الناس يعلمون أن الجزائريين ماهم إلا أولئك المارقون على القانون ، الذين لم تعترف لهم فرنسا بحالة أنهم مجاهدون، وأنهم بذلوا دماءهم – من كان يدرى أن فلاحى أوران وعمالة وهران سيكتشفون فى جوهر مأساتهم وجوهر بؤسهم ، الطريق الوحيد المؤدى إلى النور ، الطريق الذى أداهم فعلاً منذ أول نوفمبر ١٩٥٤ إلى أن يعلنوا لأنفسهم أمام العالم أنهم أحرار وأنهم سادة ..

★ ★ ★

ولقد صنعت الثورة الجزائرية فى خلال سنواتها السبع أدباً عربياً ضخم المحصول

---

(١) صحيفة الشهادة الفرنسية : نوفمبر ١٩٥٧ (نقلا عن مجلة الفكر ١٩٥٧ م)

لم يخل منه قطر من أقطار الأمة العربية ، فقد اشترك أغلب كتاب وشعراء الأمة العربية في استيحاء الثورة الجزائرية فى القصة والمقال والقصيدة ، وكان لأدباء الجزائر أنفسهم نثر وشعر ، ظل (حداء) للمقاومة ، ودافعاً للكفاح ، ويرز دور هذا الأدب ومكانه فى مختلف صحف تونس والمغرب ومجلاتهما .

وقد ارتبطت الثورة المسلحة بالثورة الفكرية التى قادتها حركة العلماء بإحياء اللغة والتراث والعودة بمفاهيم الإسلام إلى المنابع الأولى ، وبناء المدارس العربية الأهلية ،

يقول جمال البغدادى القادرى فى دراسة للفكر الجزائرى المعاصر (١) « إن أول بداية صحيحة قد حصلت سنة ١٩٣١ حينما نهض رجل عملاق فى الجزائر لينذر الشعور بالوجود الجزائرى ، وليرفع راية الجهاد الأكبر على العدو الأكبر ، نعم استطاع عبد الحميد بن باديس أن يثير الحماس ويهز الناس ، ويجعلهم يتفهمون رسالتهم وواجبهم ، وذلك فى كلمات ثلاث تلخص فلسفة أول مصلح جزائرى وأبى نهضتها الحديثة ، هذا الثالوث : هو « العروبة والإسلام والجزائر » والعروبة كامنة فى اللغة العربية ، والإسلام هو مضمون دستورها الخلقى والفلسفى ، والجزائر هى الأرض المحتلة التى يجب أن تطهر من رجس المستعمر الظالم » .

وقال البغدادى القادرى إنه يلتحق المرحلة الإعدادية مفكر آخر يمثل هذا الاتجاه الفلسفى الدينى ، وهو الكاتب المبدع « مالك بن نبى » هذا المفكر الخلاق صاحب مفاهيم إسلامية عميقة تعتمد على معطيات العلم الحديث ، وربط الإسلام بالركب الحضارى العام ، ويعتبر مالك بن نبى حجة التفكير الصادق للإسلام فى الجزائر ، وفيلسوفها الرسمى ، بإنتاجه الغزير أن يفرض على المجتمع العربى مكانة الفكر الجزائرى العميق .

ويرى البغدادى أن الخطوط العريقة للفكر الجزائرى هى أنه « فكر عقدى يؤمن بالله وحده ، ولا يكاد يفصل بين مفهوم العروبة ومفهوم الدين » .

---

(٢) مجلة دعوة الحق – يونيو – يوليو (١٩٦١) .

ثانياً — مرحلة جديدة للفكر المغربى

يمكن القول فى كلمة أن الفكر المغربى خلال مرحلة الاحتلال كان بالغ الاهتمام بالعمل الوطنى ، والنضال السياسى ، ومقاومة دعوات التغريب ، والرد على الاتهامات ، والتكيف للتطور والحركة والحياة ، بحيث يستطيع المقاومة ، وهو فى أغلبه يحمل طابع التحدى ورد الفعل . والحفاظ على القيم الأساسية للثقافة العربية الإسلامية ، والشخصية المغربية ، فى نطاق اللغة والإسلام ، ووحدة التراث المغربى . وقد مُنِىَ الفكر المغربى بثقافة وحيدة مقفلة مغرضة ، هى الثقافة الفرنسية التى أجبر عليها ، وحيل بينه وبين غيرها من الثقافات ، كما فرضت عليه اللغة الفرنسية بآدابها وتاريخها .

ومن أجل هذا ، وحتى عام ١٩٥٢ بالنسبة لليبيا ، و١٩٥٤ بالنسبة لتونس والمغرب . و ١٩٦٢ بالنسبة للجزائر ، كان الفكر المغربى كله يعمل فى مجال المقاومة .

ولكنه لم يلبث أن تطلع إلى الغد بمجرد حصوله على الاستقلال ، وتناول الكتاب والمفكرون صورة الغد فى كل قطر من هذه الأقطار ، محاولين رسم خطوط العمل الفكرى خلالها .

فعبد الكبير الفاسى يتحدث عن المغرب بين أمسه (١) وغده ، ويرى المشكلة فى المغرب هى التوفيق بين النظام الاستعمارى وبين مقتضيات العهد الجديد ، وخلق الأشياء أيسر من التوفيق ، ويشير إلى تشعب الأنظمة فى جميع الميادين الثقافية والاجتماعية والاقتصادية ، يقول : « لما انتهت الحماية ، وأزيلت الحواجز وجدت التيارات الفكرية التى تجتاح العالم سبيلها للبلاد ، لذلك التقى قديم بحديث . وأوشك أن يكون بينهما اصطدام . والمطلوب هو العمل بحكمة للمحافظة على الرصيد الحضارى الإسلامى ، والتراث الروحى والعمرانى ، والأخذ بما هو صالح من التيارات الغربية التى تجتاح جميع مايعترضها فى طريقها اجتياح الزوابع » .

ويقول علال الفاسى « إننا نحن العرب المسلمين المغاربة ، يجب أن نشعر أننا غير الأوروبيين ، وغير الأمريكيين ، وغير النصارى واليهود ، نعرف ماضينا ،

(١) مجلة العربى .

وعوامل تقدمنا وانحطاطنا ، إننا نعيش فى هذا الوطن العملاق الذى تمتد من أقاصى إفريقيا إلى أقاصى الصين ، وإن مكاننا الذى نحن منه وإليه يفرض علينا اتجاهات وروابط لا يمكن أن تمحوها أفكار الشرق أو الغرب ، ولا أن تفصم عراها روابط الفكر المنتحل ، والاستغراب المصطنع » .

وقال « إن ما خلفه لنا الاستعمار من بقايا هى أخطر على مستقبلنا من الاستعمار نفسه ، لقد أصبحنا لا نعرف أنفسنا ولا مكاننا وأين نسير . أصبحنا نفكر بأفكاره التى أملاها علينا فى المدرسة والمعهد والجامعة والسينما وفى كل مكان .

ويعرض « محمد شفيق (١) » للصراع الداخلى الثقافى بين الثقافة العربية والثقافة الفرنسية .. ويرى أن ذوى الثقافة الفرنسية ينفرون من الثقافة العربية وأصحابها عن مركب يعتريهم ، أما الذين لهم ثقافة أجنبية وليس لهم من الثقافة العربية نصيب فيرون أن لا شيء يستحق الذكر من العلوم العربية ، قديمها فى نظرهم كله دين وفقه ، وربما كان إيماناً بالأساطير والخرافات ، وحديثها كله تقليد للأوربيين والأمريكيين ، وقد يكون تقليداً مشوهاً .

والذين ليس لهم ثقافة أجنبية قد لا يعتبرون أن هناك ثقافة غير ثقافتهم وأن كل ما يدعى الآخرون أنه علم ما هو إلا جهل » .

وعنده « أنه يحق للمتفرنسين أن يعجبوا بالكتاب والشعراء الفرنسيين وأن يقدروهم لأنهم أتوا فى الأدب ببدائع لا سبيل إلى إنكارها ، ولكن هل عرف المتفرنسون من روائع الأدب العربى شيئاً ؟ هل قرءوا فى نثر العرب شيئاً فضلاً عن شعرهم ؟ إنهم يغضون عنه لأنهم يجهلونه . أو هم إلى جهله أقرب منهم إلى العلم به : وهم يجهلونه لأن دراسته صعبة حقاً تكلفهم جهوداً ليس لهم بها طاقة » .

ويرى أن هذا هو الذى دعا المتفرنسين وأصحاب الثقافة الفرنسية إلى القصور فى تعريب شئون الدولة إلا مع شيء من التخوف والقلق ، وهذا من مظاهر حرصهم على مناصبهم ووظائفهم ، وعلى الأقل امتيازاتهم المعنوية .

* * *

وفى هذا المجال أذكر كتابين حاول مؤلفاهما معالجة هذا المستقبل :

---

(١) مجلة التربية الوطنية مارس ١٩٦٠ .

الأول : (إلى أين يتجه المغرب ؟) بالفرنسية لأحمد الشرايبي (الدار البيضاء) بالمغرب .

الثاني : (من المغلق إلى المنفتح) بالفرنسية للدكتور محمد عزيز الحبابي .

أما كتاب « إلى أين يتجه المغرب » فيعالج ما أسماه المؤلف « جوانب التناقض في المغرب ، والعوامل التي تؤثر في كيانه ، ومنها التقاليد ، وما طرأ على الدين من تشويه وتمويه .

أما كتاب من « المغلق إلى المنفتح » فيعالج الثقافات القومية وصلتها بالحضارة العالمية ، ويرد على مزاعم بعض الغربيين الحاقدين على الإسلام وحضارته .

خلاصة البحث

فى محاولة لإعطاء صورة عن الفكر والثقافة المعاصرة فى المغرب العربى نجد صورة واضحة قوية ممتدة من صور المقاومة التى لم تستسلم فى خلال قرابة قرن من الزمان على نحو متصل قوامه حركات فكرية ممتدة فى الأقطار الأربعة ، دعامتها جامعتا القرويين والزيتونة ، وعناصرها « الكلمة » فى عنصريها النثر والنظم وفى مجال التعليم والصحافة فى الدفاع عن الإسلام واللغة العربية والحرية والتراث المغربى وتأكيد الشخصية العربية .

وقد عبر « روم لاندو » عن نتيجة هذه المعركة حين أكد أنه على الرغم من الجهود التى بذلت لفرنسة المغاربة فإن هؤلاء أخذوا يتجهون أكثر وأكثر إلى ثقافتهم الخاصة وتاريخهم الماضى . وأن محاولات التغريب والفرنسة والتجنيس والتمسيح والإذابة والإدماج كلها قد ردت المغاربة إلى استمساك أشدقوة وعنفاً بالعربية والإسلام ، ووجد بعد الجهد الطويل أنه من المستحيل أن يتفرنس المغاربة .

وفى خلال هذه المعركة الطويلة الممتدة كان المغاربة يقولون كلمتهم المعروفة « نريد أن نتعلم إنسانيتنا لا إنسانية الآخرين ، إننا لا نعتبر أنفسنا أحراراً إلا إذا حررنا فكرنا من اللغة الأجنبية ودلالاتها . وفى الجزائر كانت الصيحة هى أن اللغة العربية قطعة من وجود الأمة . ومرآة لعصورهم الطافحة بالمجد والعلم والبطولة والسيادة ، ولطالما دعـا كتاب المغرب إلى ما أسـماه « محمد البشروش » تخليص روح الأمة ومقوماتها من خطر المسخ والتشويه الذى كان يتهددنا » .

ولذلك فقد كانت دعوة المصلحين بعد الاستقلال هى أنه إذا كان المستعمر قد خرج من البلاد فلابد أن يخرج من القلوب « إن نوعاً من الحلول والاتحاد قد وقع بنا فأصبحنا نتنكر لوجودنا لنظهر وكأننا أولئك الذين استعبدونا بالأمس » ، ومعنى هذا ضرورة استمرار معركة المقاومة لتحرير الفكر العربى الإسلامى المغربى من بقايا العبودية للفكر الغربى الذى فرض سلطانه فى خلال هذه الفترة الطويلة حين فرض على المغرب ثقافة واحدة مقفلة هى الثقافة الفرنسية، دون أن يتيح أى فرصة لتلقى ثقافات أخرى .

وإذا كانت أهداف الغزو الفكرى اللاتينى للمغرب هى إعادة المغرب إلى الحظيرة اللاتينية كما كان قبل الإسلام ، أو النظر إلى شواطئ مراكش والجزائر وتونس وليبيا على أنها امتداد لأوربا سياسياً واقتصادياً وحربياً ووجدانياً — على حد تعبير جون جنتر — فإن ذلك قد انتهى بالحرية السياسية ، ولكنه لابد أن ينتهى بالبناء على الأساس العربى الإسلامى الذى يمثل الشخصية الحقيقية للمغرب الذى هو جزء من العالمين العربى والإسلامى ، وهنا يبدو معنى دعوة عبد الكبير الفاسى إلى المحافظة على الصالح من القديم فى قوله : « مهما يكن للجيل الحاضر فى المغرب من حق ، فالحق الذى لا ينازع فى مشروعيته أحد ، هو فى مسايرة التطور مع السعى للمحافظة على الصالح من تراثنا فى سائر الميادين ، من غير محاولة للقضاء عليه بأجمعه ، لأن القضاء على كل تراث خسران مبين » .



ولقد أثار الغزو الفكرى فى وجه الفكر والثقافة المغربية العربية المعاصرة كثيراً من الشبهات ، محاولاً بها :

- تمزيق وحدة المغرب وبعث القوميات الضيقة وذلك بالادعاء أن هناك فروقاً حقيقية بين الجزائر وتونس ومراكش مثلاً .
- تمزيق وحـدة الفكر فى الأمـة العربية كلها القائم على الإسلام واللغة العربية والتاريخ .
- القضاء على اللغة العربية بإلغائها من أنظمة التعليم أو الثقافة الإسلامية بالقضاء على الفكر العربى وتحويل الدراسات كلها إلى العلوم الغربية ، وتاريخ فرنسا وأمجادها ، على أساس أن التربية الأجنبية ترمى إلى إحلال قيم أجنبية مقام القيم الوطنية .
- تزييف التاريخ المغربى والتفرقة بين عنصرى (١) الأمة المغربية وخلق دعوات قديمة بائدة ومحاولة ربط المغاربة بأوربا جنسياً ومحاولة إلغاء المرحلة الوسطى بين الحكم اللاتينى القديم والحكم التونسى الجديد فى مدى ثلاثة عشر قرناً وهذه المرحلة هى تاريخ المغرب الإسلامى .

---

(١) يقول كرجدوه دمبى فى كتابه عمل فرنسا بالمغرب « من الخطر أن تترك كتلة ملتحمة من المغاربة تتكون ولغتها واحدة وأنظمتها واحدة ولابد أن تستعمل لفائدتنا العبارة القديمة وهى (فرق تسد) » .

• إلغاء فضل العرب والإسلام على حضارة أوربا وإنكار هذا الفضل .

• محاولة إحلال اللغة الفرنسية مقام اللغة العربية وفى إحلال اللغة إحلال العقل والثقافة ، موقناً بأن الذين يتكلمون لغته يفكرون بلغته ويستعملون منطقه وأسلوبه (٢)

• خلق طبقة من المثقفين المؤمنين بالغرب وصداقته والمعظمين لفكره ، وتأهليهم للسيطرة عن طريق الأحزاب والحكم والتمثيل النيابى ، وذلك بعد انقراض الطبقة الأولى من المجاهدين التى قاومتهم ؛ وذلك لخلق :

١ — انحراف وطنى بالمساومة والالتقاء فى منتصف الطريق وقبول سياسة المراحل

٢ — انحراف فكرى ايتولى الوطنيات الضعيفة . والاتجاه إلى فرنسا وإنكار المقومات والقيم والتراث العربى الإسلامى .

• إثارة الشبهات العقائدية لزعزعة العقيدة الإسلامية التى هى رباط المقاومة للمستعمر والقوة التى انتصرت بها ثورة الجزائر .

وقد واجه الفكر المغربى العربى الإسلامى هذه التحديات وانتصر عليها ، واستطاع أن يثبت للمستعمر اللاتينى أنه من المستحيل تحويل هذه الأمة إلى أمة أخرى أو مسخها ، وكان هذا هو قمة الانتصار فى المعركة الفكرية بعد الانتصار فى المعركة الحربية التى سبقت ذلك فى كل أجزاء المغرب .

ويمكن القول : إن العمل الفكرى فى المغرب يتمثل فى عملين كبيرين :

الأول — الحركات الإصلاحية والسلفية التى عمرت المغرب العربى منذ الاحتلال الفرنسى للجزائر ١٨٣٠ بالدعوة السنوسية ، وامتدت إلى « جمعية العلماء » التى كانت نواة الثورة الجزائرية . والتى يمكن القول بأن كل من يتكلم العربية فى الجزائر مدين لها .

الثانى — الحركات السياسية والفكرية عن طريق الأحزاب والهيئات والجماعات وجامعتى الزيتونة والقرويين وقادة الفكر الأعلام ، فى مجال الصحافة والتاريخ والأدب أمثال : عبد العزيز الثعالبي وعلال الفاسي ، ومحمد الفاسى ، وعبد الحميد باديس ، وعبد الله كنون ، ومالك بن نبى ، والخضر حسين والفاضل

---

(٢) يقول موكس مولار : ان الفكر واللغة شيء واحد وهما كوجهى قطعة النقد ، فما نسميه الفكر ليس الا وجها من وجهى النقد والآخر هو الصوت المسموع .

ابن عاشور ، وزين العابدين السنوسى ، والبشير الإبراهيمى وعبد المجيد ابن جلون ، وأبو اليقظان ، والشابى ، وأبو شنب ، وكرو ، والمصراتى ، والشناقطة ، والزاوى وتوفيق المدنى ، وحسن حسنى عبد الوهاب ، والحبابى ، ومبارك الميلى ، وعثمان الكعاك ، ودبوز

* * *

ولقد كافح الفكر والثقافة المعاصرة فى المغرب العربى فى ثلاثة ميادين كبرى ، هى :

١ — الإسلام

٢ — اللغة العربية

٣ — التاريخ

١ — فى مجال الإسلام كانت الدعوات الفكرية تحمل طابع تجديد الإسلام وتنقيته من الزيوف ، وفتح باب الاجتهاد والعودة به إلى منابعه الأولى .

وقد حملت دعوة الإسلام متحررة نقية من غير جمود ولا تحجر ، فجددت فكره وتراثه ، وكشفت عن بطولاته وأمجاده . ودافعت عن كل ما وجه إليه من اتهام . وكان الإسلام هو القوة الكبرى من قوى المقاومة ، والسلاح الأكبر فى وجه الاستعمار والنفوذ الأجنبى .

وقد كشف الإسلام عن قدرته فى تقبل الحضارات والمدنيات ، وأثبت صلاحيته لكل زمان ومكان؛ فالمسلم ينشد الحكمة والحقيقة أينما يجدهما ، ويجمع بين الروح والمادة ، ويزاوج بين الحضارة والدين . ويلتمس أسباب القوة والحياة والنهضة ، ويفتى على مقتضيات الظروف ، ولا يمانع من أن يقبل الجديد على شريطة أن يحوله إلى كيانه ، ويلبسه طابعه ، ولا يستسلم له فيتحول به .

ولقد كانت الحركات الإسلامية فى المغرب كلها علامات يقظة ومنارات قوة وحرية على نحو متفتح متطور ، قوامها الحرية والحفاظ على التراث المغربى والوحدة ، وتجديد القيم الأساسية لشخصية الأمة دون أن تفنى فى غيرها . وفى نطاق هذه الحركات كانت الدعوة إلى نشر اللغة العربية ، وتوسيع نطاق التعليم العربى ، وبناء المدارس والمعاهد والمصانع ، وقد عرف أن السنوسية هى التى

أسست أول مصنع للأسلحة فى العالم الإسلامى ، وربت هذه الدعوات أجيالاً من الشباب المثقف المؤمن المنفـــصم عن شهوات الحياة ، الراغب فى الاستشهاد من أجل الحرية .

٢ — وفى مجال « اللغة العربية » دافع الفكر والثقافة المغربية أحر دفاع وأصدقه ، وقاومت ما وسعتها المقاومة كل تيارات التغريب ، والعامية ، والكتابة بالحروف اللاتينية ، ودفع اللغة الفرنسية إلى الأمام ، وفتحت مجالات مختلفة لتوسيع نطاق اللغة العربية . وأكدت اللغة العربية قدرتها على البقاء وحقها فى أن تكون لغة الحضارة والمدنية العصرية ، فلم تجمد عن قبول الألفاظ الجديدة بالنحت أو الاشتقاق أو التغريب .

وظلت الثقافة المغربية حقيقة بحماية اللغة العربية وتنميتها والدفاع عنها طوال هذه الحقبة .

٣ — وفى مجال « التاريخ » قاومت الثقافة المغربية والفكر المغربى كل مؤامرات الغرب ، ورد على كل ما وجه من اتهامات إلى التاريخ المغربى ، وعنى مؤرخو المغرب بمقاومة الآراء التى تقوم على تمزيق الأمة المغربية أو التى حاولت رد نهضتها إلى الرومان . وواجهوا أهمية كبرى لإحياء أمجاد الأمة المغربية والأندلس بالكشف عن الصفحات الناصعة من البطولة والنضال .

وكان إيمانهم صـــادقاً بأهمية التاريخ فى بناء الأمة خلال أيام الاحتلال ، ولطالما رددوا حقيقة تقول : إن الشـــعور بالحرية لا يتأتى بغير التاريخ ، فهو الذى يبعث الأمل ، ويرسم المثال المقتدى . وعندما ركز الاســـتعمار على محو تاريخ الجزائر بالذات قام المؤرخون فى كل مكان يكتبون تاريخ الجزائر ويكشفون عن صفـــحاته الناصعة .

ولقد كان التاريخ ســـلاحاً بتاراً قام بدور كبير فى معركة المقاومة ورد التحدى التى وجهها الفكر الغربى إلى المغرب ، بغية القضاء على مقـــوم هام من مقومات كيانه وحياته .

أما الأدب العربى : شعره ونثره فقد دافع عن الشخصية المغربية (الإسلامية العربية) وأكد وحدة المغرب ، ودافع عن التراث المغربى وأمجاد الأمة المغربية .

* * *

وكانت الصحافة العربية المغربية مرآة لهذه الحركة كلها ، وقواماً لكل هذه المعركة الضخمة ، فكان لها دورها الفعال فى إحياء اللغة العربية وتعميمها ، وإعطائها المرونة والحيوية ، والتخاص من المحسنات البديعية ، وبالرغم من مختلف صنوف الاضطهاد والمقاومة التى وجهت إلى الصحافة العربية الحرة فى المغرب ، فإن المغاربة لم يتوقفوا عن إصدار الصحف باللغة العربية ، بل إنهم فى سبيل إبلاغ آرائهم الوطنية أصدروا الصحف باللغة الفرنسية .



ولا شك أنه يمكن تصوير الفكر والثقافة فى المغرب فى هذه المرحلة التى بسطناها فى كلمة ، هى عمل مقاومة شامل ؛ فقد عاشت وقتاً على العمل الوطنى والنضال من أجل الحرية والمقدسات والمقومات الثلاث : التراب والإسلام واللغة العربية ، وقد كان إحياء الثقافة العربية والكشف عن بطولات الأعلام وصفحات التاريخ والكفاح عملاً هاماً فى سبيل الدفاع عن الشخصية المغربية العربية الإسلامية الحية التى لم تمت .

ولا شك أن أغلب البحوث والدراسات فى مجال الصحافة والأدب والتاريخ كانت تهدف إلى صد تيار التغريب والفرنسة عن السيطرة على العقل المغربى . وجملة القول أن هذا العمل قد نجح إلى حد كبير ، وأن الفكر والثقافة فى المغرب العربى خلال مرحلة الاحتلال قد حقق نجاحاً كبيراً فى الحفاظ على مقوماته ، ورسم الطريق إلى النهضة بعد الاستقلال : وهو بناء الفكر الجديد على « أساس » واضح :

١ — الإسلام .

٢ — اللغة العربية .

٣ — الشخصية المغربية التى هى جزء من الأمة العربية والعالم الإسلامى .

ومن خلال آلوف الجزازات والنصوص والكتب والقراءات تبدو الصورة واضحة : وهى فتح الأبواب لكل الثقافات للانتفاع بها والتزود منها ، بما يزيد شخصيتنا قوة وحياة ، ويدفعها إلى الأمام ، مع المحافظة على ملامحها وقيمها الأساسية . وهو منهج « المدرسة الوسطى » فى المشرق .

أعلام كتاب المغرب العربي ومؤلفاتهم

أبو العباس أحمد بن خالد الناصري (المغرب) : الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ... ... المغرب ١٩٥٨

أبو القاسم سعد الله (الجزائر) : محمد العيد آل خليفة . .. .. مصر ١٩٦١

أبو القاسم الشابي : أغاني الحياة (ديوان شعر) تونس ١٩٥٨
امرأة جزائرية ... ... بيروت
الخيال الشعرى عند العرب بيروت ١٩٦٣

أبو القاسم كرو (تونس) : شهر الدماء والدموع ... ...
ط. ... بغداد ١٩٥١ تونس ١٩٥٦
الشابي (حياته وشعره) ... ...
... ... مصر ١٩٥٢ بيروت ١٩٥٤
كفاح الشابي بيروت ١٩٥٤ تونس ١٩٥٧
حصاد القلم ... ... مصر ١٩٥٤
نداء للعمل ... ... تونس ١٩٥٥
العرب وابن خلدون... ... تونس ١٩٥٦
شوقي وابن زيدون ... ... تونس ١٩٥٦
صوت الجزائر ... ... تونس ١٩٥٦
التعليم التونسي ... ... تونس ١٩٥٦
الطاهر المداد ... ... تونس ١٩٥٨
الشهيد أحمد حوحو ... ... تونس ١٩٥٨
شخصيات أدبية (بالاشتراك) ...
... ... تونس ١٩٥٨
خير الدين التونسي ... ... تونس ١٩٥٨

أحمد بن الأمين الشنقيطى	(شنقيط)	: الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط القاهرة ١٩١١
أحمد بلا فريج	(المغرب)	: الأدب الأندلسى ... تطوان ١٣٦٠ ﻫ
أحمد توفيق المدنى	(الجزائر)	: كتاب الجزائر ... ... الجزائر ١٣٥٠ﻫ
		قرطاجنة فى أربعة عصور ، أو تاريخ شمال أفريقيا قبل الإسلام تونس ١٩٢٦
		المسلمون فى جزيرة صقلية .. تونس ١٩٤٥
		جغرافية القطر الجزائرى .. تونس ١٩٤٨
		رواية حنبعل الإفريقى الأعظم ... ١٩٥١
		هذه هى الجزائر ... ... القاهرة ١٩٥٦
		تقديم المنصور ... ... تونس ١٣٤٨ﻫ
إدريس الشرايبى	(المغرب)	التيوس (قصة) بالفرنسية . (باريس)
أحمد الشرايبى	(المغرب)	: إلى أين يتجه المغرب... بالفرنسية
البشير حزيف	(تونس)	: برق الليل (قصص) ... تونس
آسيا جبار	(الجزائر)	: العطش (قصة) ... بالفرنسية
أمنيه اللوة الألنى	(المغرب)	: الملكة خنانة ... ... المغرب ١٩٥٤
حسن حسنى عبد الوهاب	(تونس)	: بساط العقيق فى حضارة القيروان .. .. تونس ١٣٣٠ﻫ
		المنتجات التونسية ... تونس ١٣٣٧ﻫ
		قواعد علم الاقتصاد ... تونس ١٣٣٨ﻫ
		شهيرات النساء ... ... تونس ١٣٥٣ﻫ
		خلاصة تاريخ تونس ... تونس ١٩١٦م
		امتزاج العناصر التى تألف منها الشعب التونسى ... بالفرنسية ١٩١٧
		تقدم الموسيقى العربية بالمشرق والأندلس وتونس بالفرنسية ١٩١٧
		الاستيلاء الإسلامى على صقلية...
		جزيرة قوصرة العربية ... ...

الإمام المازرى ... ...
المنتخب المدرسى فى الأدب التونسى
... ... تونس

د . الحبيب تامـــر (تونس) : هذه تونس ... ... القاهرة ١٩٤٨

خير الدين التونسى (تونس) : اقوم المسالك فى معرفة أحوال
الممالك ... ... تونس ١٨٦٧

زين العابدين السنوسى («) : الأدب التونسى فى القرن الرابع
عشر ... ... « ١٩٢٧

سليمان مصطفى زبيس (المغرب) : آثار المغرب العربى ... ... « ١٩٥٨

الصادق مازيع (تونس) : بين عصرين ... ... « ١٩٦١

الطاهر الحداد («) : العمال الفرنسيون وظهور الحركة
الثقافية فى تونس ... « ١٩٣٧
مرآة فى الشريعة والمجتمع « ١٩٣٠

طاهر الحميرى («) : زعماء الأدب العربى المعاصر
(بالاشتراك) بالانجليزية ١٩٣٠
مفهوم العصبية عند ابن خلدون
(بالألمانية) هامبورج ١٩٣٧
القضية التونسية ... (بالانجليزية) ١٩٤٧
مرآة المجتمع ١٩٥٦
مكافحة الثقافة ... ... « ١٩٥٧

الطاهر الراوى (ليبيا) : جهاد الأبطال ... ... القاهرة ١٩٥٠
اعلام ليبيا ... ... « ١٩٦١
تاريخ الفتح العربى فى ليبيا « ١٩٦٣

عبد الله شريط (تونس) : شخصيات أدبية (بالاشتراك)
... ... تونس ١٩٥٨

عبد الله كنون (المغرب) : مدخل إلى تاريخ المغرب ...
... ... قطوان ١٣٣٩هـ

		واحة الفكر ... ... »	١٩٤٨
		خل ونقل ... ... »	١٩٤٨
		ذكريات رجال المغرب ... ... (٣٠ حلقة) ... ... بيروت	١٩٦١
		احاديث عن الأدب المغربي الحديث ... ... مصر	١٩٦٣
الحبيب شيبوب	(تونس) :	صلة الرحم الفكرية بين أقطار المغرب العربي (بالاشتراك) . بيروت	
عبد الرحمن بن محمد الجيلالي	(الجزائر) :	تاريخ الجزائر العام ... الجزائر	١٩٥٤
عبد العزيز الثعالبي	(تونس) :	روح القرآن الحرة ... تونس	
		تونس الشهيدة بالفرنسية (باريس)	١٩٢٠
		حياة سيدنا محمد ... ... تونس	
		تاريخ تونس والأسر المعروفة فيها ... ... (مخطوط)	
عبد العزيز بنعبد الله	(المغرب) :	الطب والأطباء بالمغرب	
		جغرافية المغرب	
		معطيات الحضارة المغربية (٢ جزءان) ... الرباط	١٩٦٣
		مظاهر الحضارة المغربية. الدار البيضاء	١٩٥٧
		الفلسفة والأخلاق عند ابن الخطيب (بالاشتراك)	
		الفن المغربي في مختلف العصور (بالعربية والفرنسية)	
		التيارات الكبرى لحضارة المغرب (بالفرنسية)	
عبد الكريم غلاب	(المغرب) :	صحفي في آمريكا ... الدار البيضاء	١٩٦٣
		هذا هو الدستور ... ... الرباط	١٩٦٣
		الاستقلالية ... الدار البيضاء	١٩٦٠

نبضات فكـــر ... الدار البيضـاء ١٩٦١
فى الإصلاح القروى ... الرباط ١٩٦٣

عبد المجيد بن جلون (المغرب) : هــذه مراكش ... ...
فى الطفــولة ... ... بيروت ١٩٥١
مارس استقلالك ... طنجــة ١٩٥٤
وادى الدماء (قصة) ... تونس ١٩٥٧
براعم (ديوان شعر) ... الرباط ١٩٦٣

عبد المجيد المطوى (تونس) : تونس وفرنسا فى القرن١٩.. تونس ١٩٥٧

عثمان الكعــاك (تونس) : بلاغة العرب فى الجزائر ... تونس ١٩٢٥
موجز التاريخ العام بالجزائر . تونس ١٩٢٥
البربر ... ... تونس ١٩٥٦

علال الفاسى (المغرب) : الحركات الاستقلالية فى المغرب العربى
... ... القاهرة ١٩٤٨
حماية أسبانيا فى مراكش . القاهرة ١٩٤٨
النقد الذاتى. مصر١٩٥٢الدار البيضاء ١٩٦٣
السياسة البربرية فى مراكش.. مصر ١٩٥٢
محاضرات عن المغرب العربى منــذ
الحــرب الأولى .. ... مصر ١٩٥٥
نداء القاهرة ... ... الرباط ١٩٥٩
مقاصــد الشريعــة ومكارمهــا
... ... الدار البيضــاء ١٩٦٣

على البلهوان (تونس) : ثورة الفكر ومشكلة المعرفــة عنــد
الغــزالى ... ... تونس
تونس الثائرة ... ...

على مصطفى المصراتى (ليبيـا) : أعلام من طرابلس ... طرابلس ١٩٥٥
جحا فى ليبيا ... ... طرابلس ١٩٥٨
صــحافة ليبيا فى نصــف قــرن
... ... بيروت ١٩٦٠

أبو قشــة ... ... بيروت ١٩٦١
مرسال (قصص) ... بيروت ١٩٦٢
المجتمع الليبي من خلال أمثـاله
الشعبيـــة ... ... لبنـــان ١٩٦٣
غومة فارس الصحراء ... بيروت ١٩٦٣
لمحات أدبية من ليبيا ... ...

الفلاح الجيلالي (تونس) : الشعب التونسي والتجنيس . تونس ١٩٣١

كاتب ياسين (الجزائر) : نجوى (ديوان شعر) بالفرنسيــة
الجثة المطوقة (قصة) بالفرنسية
... ... باريس ١٩٥٥

مالك حداد (الجزائر) : نجمة (قصة) .. ... بالفرنسيـــة

مبارك الميلي (الجزائر) : الجزائر فى القديم والحديث (جزءان)
... ... الجـــزائر ١٩٢٨

د . محجوب بن ميلاد (تونس) : تونس بين المشرق والمغرب ... ...
الفكر الإسلامى اليوم ... ...
تحريك السواكن ... ... تونس ١٩٥٦

محسن بن حميدة (تونس) : الباجي المسعودى ... ... تونس ١٩٦٢

محمد أبو شنب (الجزائر) : مجموعة أمثال العوام بأرض الجزائر
والمغرب (ثلاثة أجزاء) .. الجزائر ١٩٠٥
تحفة الأدب فى ميزان أشعار العرب
... ... الجزائر ١٩٠٦

محمد بن أحمد اشماعو (المغرب) : قدر العدس (قصص) الرباط ١٩٦٤

محمد البشير الإبراهيمى (الجزائر) : عيون البصائر ... ... القاهــرة ١٩٦٣

محمد بيرم الخامس (تونس) : صفوة الاعتبار ... ... القاهرة ١٣٠٢هـ

محمد بن تاويت الطنجي (المغرب) : الأدب المغربى (بالاشتراك) بيروت ١٩٦٠
تحقيق كتاب التعريف بابن خلدون
ورحلته شرقا وغرباً (القاهرة)

محمد الحجوى (المغرب) : الفكر السامى فى تاريخ الفقه الإسلامى
... ... المغرب
الفتح العربى لإفريقيا الشمالية ...

محمد الحليوى (تونس) : اتجاهات الأدب التونسى المعاصر تونس
مع الشابى .. .. تونس ١٩٥٥

محمد الخضر حسين (تونس) : الحرية فى الإسلام ... ... تونس ١٩٠٩
رسائل الإصلاح (٣أجزاء)... القاهرة ١٩٣٩
نقض كتاب الشعر الجاهلى... القاهرة ١٣٤٥

محمد الحبيب بن الخوجة (تونس) : الرحلة القلبارية بالمملكة التونسية.. تونس ١٩١٢
تاريخ معالم التوحيد فى القديم وفى
الجديد .. .. تونس ١٩٣٩
الورغى ... ... تونس ١٩٦١

محمد داود (المغرب) : تاريخ تطوان (٧مجلدات)... الرباط ١٩٥٩

محمد ديب (الجزائر) : النساجة .. ... (بالفرنسية) باريس
الحريق ... ... (بالفرنسية) باريس
البيت الكبير .. .. باريس

محمد الصالح المهدى (تونس) : تاريخ الصحافة العربية فى الجزائـر
(بالاشتراك) ... ... بيروت

محمد الصباغ (المغرب) : العبير الملتهب ١٩٥٣
اللهاث الجريح ١٩٥٥
شجرة النار (بالإسبانية) ١٩٥٥
شلال الأســود ١٩٥٥
أنا والقمر ١٩٥٦
فــوارة الظمأ ١٩٦٤
عقود (ندى) ... الدار البيضاء ١٩٦٤

محمد الطاهر بن عاشور (تونس) : الحركة الفكرية والأدبية فى تونس
... ... القاهرة ١٩٥٦

محمد الطيب بن أدريس الأشهب (ليبيا) : برقه العربية أمس واليوم ١٩٤٧
المهــدى السنوسى ١٩٤٢

محمد عباس القباج (المغرب) : الأدب العربى فى المغرب الأقصى
... ... الرباط ١٩٢٩

محمد عبد السلام بن عبود (المغرب) : تاريخ المغرب ... ... تطوان ١٩٥١

محمد العروسى المطوى (تونس) : ومن الضحايا ... ... تونس ١٩٥٤
الحروب الصليبيــة ... ... تونس ١٩٥٦
فرحة الشعب (ديوان شعر) ... ١٩٦٣
امرؤ القيس ... ...

د. محمد عزيز الحبابى (المغرب) : من الكائن إلى الشخص ... القاهرة ١٩٦٢
: مفكرو الإسلام ... ... المغرب ١٩٤٦
: بؤس وضياء (ديوان شعر) .. بيروت ١٩٦٢
: من المغلق إلى المنفتح .. بالفرنسية ١٩٦٢
: إفلاس الحضارة ١٩٦٣

محمد على دبوز (الجزائر) : تاريخ المغرب الكبير (٣ أجزاء)
... ... القاهرة ١٩٦٣

محمد الفاسى (المغرب) : التعريف بالمغرب ... ... القاهرة ١٩٦١
: الأدب والنصوص (بالاشتراك) .. مصر ١٩٦٢

محمد مزالى (تونس) : الديموقراطية ... ... تونس ١٩٥٦

محمد المكى الناصرى (المغرب) : الأحباس الإسلامية فى المملكة المغربية
... ... تطوان ١٩٣٥

محمد النخلى (تونس) : حياة اللغة العربية ١٣٣٧هـ

محمد النيفر (تونس) : عنوان الأريب عما نشأ فى المملكة
التونسية من عالم وأديب ... تونس ١٩٣٢

محمد الهادى الزاهرى (الجزائر) : شعراء الجزائر فى العصر الحاضر ... ١٩٣٦

محمد مبارك الميلى (الجزائر) : جميلة بوحيرد ... . تونس ١٩٥٨

: صحراوُنا ... ... تونس ١٩٥٨

محمود المسعدى (تونس) : السد « قصة » ... ... تونس ١٩٥٦

مصطفى الحبيب (تونس) : أوراس (ديوان) ... ... تونس ١٩٥٨

مصطفى رجب (تونس) : شاعران (سعيد أبو بكر والشابى)
... ... تونس ١٩٥٧

د. مصطفى عبد الله بعبو (ليبيا) : دراسات فى التاريخ العربى .. القاهرة ١٩٤٧
: المجمل فى تاريخ لوبيا ... اسكندرية ١٩٤٧

مفدى زكريا (الجزائر) : اللهب المقدس « شعر » ... بيروت ١٩٦١

مولود فرعون (الجزائر) : ابن الفقير ... ... دمشق ١٩٦٢
: الأرض والدماء ... بالفرنسية باريس ١٩٥٣

مولود معمرى (الجزائر) : التل المنسى .. ... بالفرنسية باريس
: نوم الرجل العادل .. « «

مالك بن نبى (الجزائر) : تأملات فى المجتمع العربى ... القاهرة ١٩٦٠
: الصراع الفكرى فى البلاد المستعمرة «
: مشكلة الثقافة ... ... « ١٩٥٩
: وجهة العالم الإسلامى ... ... « ١٩٥٨
: فكرة الإفريقية الأسيوية . ... « ١٩٥٥
: شروط النهضة ... ... « ١٩٥٦
: الظاهرة القرآنية ... ... «
: فى مهب المعركة ... ... القاهرة ١٩٦١

ناجية تامر (تونس) : المرأة والحياة ... ... تونس
: عدالة السماء (قصة) ... .. «

(١) مراجع عامة

أبو القاسم سعد الله	: محمد العيد آل خليفة (دار المعارف)	١٩٦١
عبد الله كنون	: واحة الفكر (تطوان)	١٩٤٨
» »	: ذكريات مشاهير رجال المغرب بيروت (١-٣٠)	
» »	: النبوغ المغربي في الأدب العربي (٣ أجزاء)	١٩٦٠
الدكتور حسن أحمد محمود	: الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا (الجزء الأول) مصر	١٩٦٣
روم لاندو	: أزمة المغرب الأقصى . ترجمة إسماعيل على (ج١و٢) مصر ...	١٩٦١
روم لاندو	: تاريخ المغرب في القرن العشرين ، ترجمة نقولا زيادة بيروت ...	١٩٦٣
محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي	: الأدب المغربي (بيروت)	١٩٦٠
الدكتور صلاح العقاد	: المغرب العربي (مصر)	١٩٦٢
إحسان حقي	: تونس العربية بيروت	
محمد الفاسي وعمر الدسوقي ومحمد الصادق عفيفي	: الأدب والنصوص (القاهرة) ...	١٩٦٢
محمد الصادق عفيفي	: الشعر والشعراء في ليبيا القاهرة	١٩٥٧
علال الفاسي	: خصائص الشريعة ومكارمها (مكتبة الوحدة العربية الدار البيضاء)	١٩٦٣
علال الفاسي	النقد الذاتي (دار الفكر المغربي) المغرب	١٩٦٣
أبو القاسم كرو	: خير الدين التونسي (سلسلة كتاب البعث) تونس	١٩٥٨

عبد الله كنون	: التعاشيـــب المطبعة المهدية (تطوان)
إبراهيم الكيلانى	: أدباء من الجزائر ... ...
عبد المجيد بن جلون	: مارس استقــلالك (طنجة) ...
أحمد توفيق المدنى	: هذه هى الجــزائر — القاهرة ... ١٩٥٦
عبد الكريم غلاب	: الاستقـــــلالية ، الدار البيضاء ... ١٩٦٠
عبد الكريم غلاب	: نبضات فكــــر ، الدار البيضاء ... ١٩٦١
على مصطفى المصراتى	: صحافة ليبيا فى نصف قرن دار الكشاف بيروت ١٩٦٠
على مصطفى المصراتى	: أبى قشه وجريدته . كفاح صحفى بيروت ١٩٦١
محمد الفاضل بن عاشور	: الحركة الأدبية والفكرية فى تونس ، القاهرة ١٩٥٥
عــلال الفاسى	: الحركة الاستقلالية فى المغرب العربى ، القاهرة ١٩٤٨
علال الفاسى	: السياسة البربرية فى مراكش ... ...
علال الفاسى	: محاضرات عن المغرب العربى منذ الحرب
محمد السنوسى الغزالى	: البلد الحديث فى تاريخ برقة القديم والحديث ١٩٣٩
محمد البشير عبد الله الفاسى	: قبيلة بنى زوال ، الرباط ١٩٦٢
عبد العزيز بن عبد الله	: مظاهر الحضارة العربية ، الدار البيضاء ... ١٩٥٧
محمد العربى الخطابى	: المغرب فى طريق الاستقلال ، الدار البيضاء ١٩٥٩
أحمد النائب الأنصارى	: المنهل العذب فى تاريخ طرابلس ، طرابلس ١٩٦١
المهدى السنوسى	: محمد الطيب بن إدريس الأشيب ١٩٥٢
الدكتور الحبيب تامر	: هذه تـــونس ، القاهرة ١٩٤٨
عبد المجيد بن جلون	: هـــــذه مـــراكش . ...
عثمان الكعاك	: موجز التاريخ العام للجزائر — تونس ١٣٤٤هـ ١٩٢٥
محمد على دبوز	: تاريخ المغرب الكبير ج١ و ٢ و ٣ القاهرة ١٩٦٣

أحمد الشرايبي	:	إلى أين يتجه المغرب (بالفرنسية) (المغرب)
عبد الرحيم غنيمة	:	تاريخ الجامعات الإسلامية (مطبوعات معهد الأمير الحسن (تطوان) ١٩٥٢م
على البهلوان	:	ثورة الفكر –تونس... ... ...
محمد بيرم الخامس	:	صفوة الاعتبار – القاهرة ١٣٠٢هـ
محمد فؤاد شكرى	:	السنوسية دين ودولة – القاهرة ١٩٤٨
محمد فؤاد شكرى	:	ليبيا الحديثة – القاهرة ١٩٥٧
حسن سليمان محمود	:	ليبيابين الماضى والحاضر– القاهرة ١٩٦١
محجوب بن ميلاد	:	الفكر الإسلامى اليوم – تونس... ... ...
عبد العزيز بن عبد الله	:	مظاهر الحضارة المغربية (الدار البيضاء) ... ١٩٥٧
ليڤى بروفنسال	:	الإسلام فى المغرب والأندلس ... ...
على مصطفى المصراتى	:	لمحات أدبية عن ليبيا ... ...

(٢) مراجع من مؤلفات المغرب

حسن حسنى عبد الوهاب : بساط العتيق – تونس ١٣٣٠هـ

عثمان الكعـــاك : البربر – تونس ١٩٥٦م

عبد الرحمن بن محمد الجيلالى : تاريخ الجزائر العام – الجزائر ١٩٥٤

أحمد توفيق المـدنى : قرطاجنة فى أربعة عصور–تونس ١٩٢٦

حسن حسنى عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس – تونس ... ١٣٣٦هـ ١٩١٦

مصطفى عبد الله بعيـو . المجمل فى تاريخ ليبيا – اسكندرية ١٩٤٧

أحمد توفيق المـدنى : تقويم المنصور ١٣٤٨

محمد العروسى المطوى : الحروب الصليبية – تونس ١٩٥٤

محمد داود : تاريخ تطوان (٧ مجلدات)–الرباط ... ... ١٩٦٣،

محمد بن عبد السلام بن عبود : ::ريخ المغرب – تطوان ... ... ١٩٥١،

أحمد توفيق المدنى : تاريخ الجزائر ... ...

مبـــارك الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث ١٣٤٧ هـ ١٩٢٨م

أحمد توفيـق المـدنى : محمد عثمان باشا ... ...

مصطفى عبد الله بعيـو : دراسات فى التاريخ اللوبى ١٩٥٣

محمد الطيب بن إدريس الأشهب : المهدى السنوسى ١٩٥٢

محمد الطيب بن إدريس الأشهب : برقة العربية أمس واليوم ١٩٤٧

طاهر أحمـد الزاوى : أعلام ليبيا ١٩٦١

طاهر أحمد الزاوى : جهاد الأبطال فى طرابلس الغرب ١٩٥٠

محمد الإمام بن ماء العينين : الجأش الربيط فى النضال عن مغربية شنجيط ١٩٥٧

حسن حسنى عبد الوهاب : شهيرات التونسيات ... ...

(٣) مراجع من صحف المغرب

محمد بن تاويت	: المائدة الأندلسية بالمغرب (دعوة الحق)	مايو	١٩٥٨
محمـــــد داود	: تاريخ تطوان المطول (دعوة الحق)	يوليوز	١٩٥٩
عبد القادر العمراوى	: يوسف بن تاشفين	يوليوز	١٩٥٩
محمـــــد الفاسى	: تأثير الشعر العربى فى الأندلس فى الآداب العربية (دعوة الحق)	يوليوز	١٩٥٩
عبد اللطيف مليه	: نظرية ابن رشد (دعوة الحق)	ابريل	١٩٦٢
حسن السايح	: ابن بطوطـــــة »	مارس يونيه	١٩٦٢
الدكتور محمود على مكى	: الأسلام بالأندلس	ابريل	١٩٦٢
عبد العزيز بن عبد الله	: مراكز الثقافة فى المغرب (رسالة المغرب)	ابريل مايو	١٩٤٨
عبد العزيز بن عبد الله	: من تراث المغرب الفلسفى »	يونيه	١٩٤٨
محمـــــد الفاسى	: أبو الحسن المراكشى »	مايو	١٩٥٢
محمـــــد الفاسى	: » واكتشاف أمريكا »	ابريل	١٩٥٢
محمـــــد الفاسى	: ذكرى دخول المولى إدريس إلى المغرب »	سبتمبر	١٩٥٢
عبد العزيز بن عبد الله	: معاهدات المغرب وأوربا فى العصور الوسطى »	اكتوبر	١٩٥٢
أحمـــــد زياد	: مذكرات الملوك العلويين »	نوفمبر	١٩٥٢
عبد العزيز بن عبد الله	: الحركة الفكرية فى العهد العلوى »	ديسمبر	١٩٥١
محمـــــد الفاسى	: عبد الواحد المراكشى »	غشت	١٩٤٧
عبد العزيز بن عبد الله	: من تراث المغرب الفلسفى »	مارس	١٩٤٨
حسن السايح	: الإدريسى (البينة)	يوليو	١٩٦٢

حسن السايح	: الشخصية المغربية وأثرها فى إسلام المغرب وعروبته وثقافته	(البينة)	نوفمبر	١٩٦٢
محمد بن البشر	: شعر ابن الخطيب وموشحاته	(البينة)	نوفمبر	١٩٦٢
أحمد مختار العبادى	: حياة ابن الخطيب المغربية	»	مايو	١٩٦٢
عبد العزيز بن عبد الله	: الفن المغربى قبل التاريخ	»	مايو	١٩٦٢
محمــــد الفاسى	: الرحلات القارية المغربية	»	اكتوبر	١٩٦٢
إدريس الكتانى	: لغتنا المحليـــة	(دعوة الحق)	مارس	١٩٥٩
حسن السايح	: أصول الثقافة المغربية	»	نوفمبر	١٩٦٠
جعفر الطيار الكتانى	: الثقافة فى المغرب	»	مارس	١٩٦٢
قاسم الزهـــــرى	: العرب أول من دونوا تاريخ إفريقيا	البينة	يونيه	١٩٦٢
محمد إبراهيم الكتانى	: اثر ابن حزم فى الفكر المسيحى	»	يونيه	١٩٦٢
محمد عبد المالك الكتانى	: تاريخ الحضارة المغربية	دعوة الحق	يناير	١٩٦٤
محمد الحمـــداوى	: الحضارة المغربية	»	مارس	١٩٦٣
عبد الله الجزائرى	: اللغة العربية فى المغرب	»	يناير	١٩٥٩
سيدى محمد العمرى	: الموسيقى الأندلسية بالمغرب	(الثريا)	مايو	١٩٣٩
محمد المنصورى العشرى	: البحرية الإفريقية العربية	(البصائر)	مايو	
الطاهر بن عاشور	: مصير الأندلسيين	نشر الجمعية الخلدونية		١٩٣٠
	يوسف بن تاشفين والمعتمد بن عياد	(السلام)		١٩٣٢
احمد المهدى النيفر	: الأمام سحنون	(الثريا)		١٩٤٦
عبد الوهاب بن منصور	: بكر بن حماد التاهرتى	(البصائر)		
» »	: ابن مرزوق الخطيب	»		
» »	: ابن خميس التلمسانى	»		
» »	: محمد المقرى التلمسانى	»		
عبد العزيز بن عبد الله	: وحدة المغرب العربى	حملة تطوان	م	١٩٥٦

(٤) صحف من المغرب العربى

الشهـــــاب	:	١٩٣١ ـ ١٩٣٦
مجلة الأنــــوار	:	١٩٥٣ (المغرب)
مجلة التربية الوطنية	:	(المغرب)
مجلة البـــــدر	:	(تونس) ١٩٢١ ـ ١٣٤٠ ﻫ
مجلة الأنيس تطوان (المغرب)	:	ينايـــر ١٩٥٢
مجلة المغـــرب	:	١٩٥٧
مجلة تطوان المغرب	:	١٩٥٦ و ١٩٥٧
المجلة الزيتونية	:	١٩٣٦
الوحدة المغربيـــة	:	١٩٣٧ المغرب (تطوان)
صحـــراء المغرب	:	١٩٥٧ الرباط والمغرب
الشهـــــاب	:	١٩٣١ قسطنطينة (الجزائر)
الثريـــــا	:	١٩٤٦ ـ ١٩٤٥ نور الدين محمود
البصائـــــر	:	١٩٤٩ ـ ١٩٥٤ (البشير الإبراهيمى) الجزائر .
النـــــدوة	:	تونس ١٩٥٣
الحيـــاة التونسية	:	١٩٥٣ (تونس)
الفكـــــر	:	١٩٥٥ ـ ١٩٥٦ (تونس)
الفجـــــر	:	(تونس) ١٩٢٠
مجلة الســـلام	:	(المغرب) ١٩٣٢ محمد داود
نشر الجمعية الخلدونية	:	١٩٣٠ (تونس)
وادى ميزاب	:	(١٩٢٦) الجزائر
الأمة	:	(١٩٣٣) «

كشاف الأعلام

موضوعات البحث

صفحة

★ ★ ★

صفحة

صفحة

صفحة

(٧) التاريخ المغربى

* * *

القسم الرابع :

الجمهورية العربية المتحدة
الثقافة والارشاد القومى

المكتبة العربية

- ٣٨ -

التأليف [٢٣]

الأدب (٢٤)

القاهرة

١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م